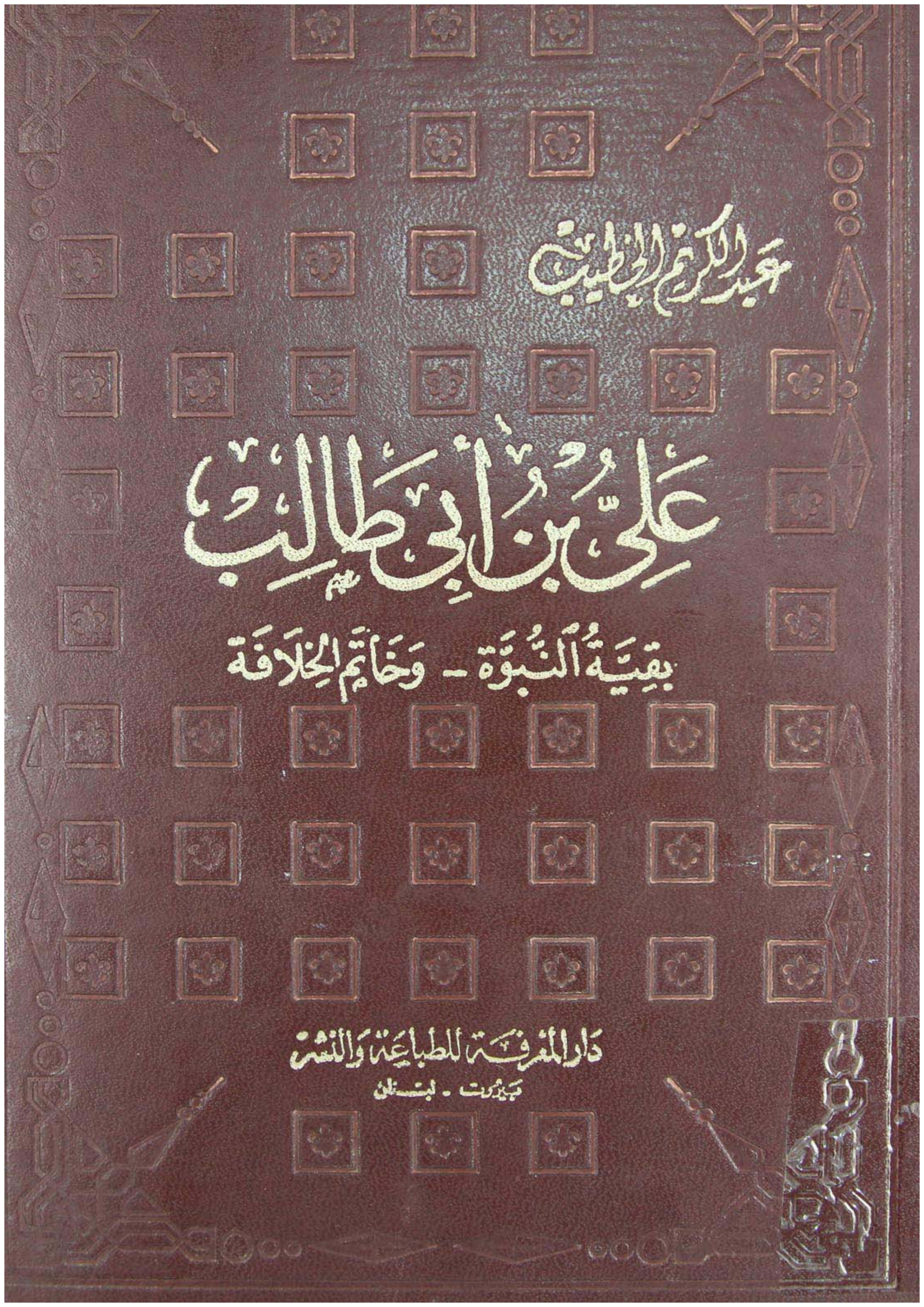


عبد الكريم الخطيب
علي بن أبي طالب
بقية النبوة - وخاتم الخلافة
دار المعرفة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



عبد الكريم الخطيب

علي بن أبي طالب

عليه السلام

بقية النبوة – وخاتم الخلافة

"يا علي .. لا يحبك إلا مؤمن
ولا يبغضك إلا منافق"

«حديث شريف»

الطبعة الثانية

١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

دار المعرفة
للطباعة والنشر
بيروت – لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين السراج المنير
والرحمة المهداة للعالمين : وعلى آله وصحبه وسلم



إلى المغفور له

على عبــــد الرازق (باشا)

بـكاء . . ودعاء

كم مرةٍ هممتُ أن أقدم إليك كتاباً من كتبى ، التى صنعتُها على عينك ، وقطفتها من جَنَى ثمرك ، فـكان يحبسنى الحياء ، ويردّنى الخجل ؛ أن أسعى إليك ، وأن ألقاك ، ببعض ماصنعت يداك ، فلا يكون أحد عندئذ أولى منى بقول المتنبى ، فى كافور :

جَوْعانُ يأكل من زادى ويمسكنى

كيما يقالَ عظيمُ القـــدر مقصودُ

وفى بعض الأحيان . . كنت أذكرك ، فى سماحتك . ونبلك ، وحيائك من استحياء أصحاب العثرات والزلات ، فأشجُع على أن أحلّىَ باسمك صدر كتاب ، فإذا بى أتمثلك ، وقد كربَك الـكرْبُ ، وعلاك البَهَرُ ، لهذا الذى تراه ثناء وتحسبه إطراء ، وما هو فى ـ الواقع ـ ثناء ولا إطراء . ولـكنك تأبى أبداً على نفسك إلا هذا التواضع ، الذى طُبعتَ عليه ، وعشت فيه !

وهكذا ، يفرّق الموت بيننا ، دون أن أخطو هذه الخطوة إليك !

ثم ها أنت ذا فى عالمك العلوىّ ، النورى .. عالم المغفرة والرضوان . .

فهل تغفر لى أن أقدم إليك كتاب « على بن أبى طالب » ؟ وهل ترضى منى اليومَ مالم أكن أراك ترضى به منى بالأمس ؟

أحسب ذلك !

واغفرْ لى إذن أن أرفع إليك فى عليائك هذا الكتاب ، الذى فرغتُ منه غَدَاةَ ذهبتُ لعيادتك فى مرض موتك ، وكنتُ أريد أن أُفْضِىَ إليك بمضمون مافيه ، لولا أن سكرة الموت كانت قد اشتملت عليك واحوتك !

ومن تدبير الله — سبحانه — فى هذا الكتاب ؛ أنه كان عزَاء لى فيك ، من قبل أن تجىء ساعة العزاء !

فمنذ أخذت فى كتابة سيرة الإمام ، وأنا فى شئون مختلفة من الأسى والحزن ، لمصاب الإسلام والمسلمين ، فى تلك الفتنة العمياء ، التى ذهبت بالعقول ، وأوردت كثيراً من الناس موارد الضلال والهلاك !

ثم الإمام علىّ — كرم الله وجهه — وما لقى من أصحابه ، وأعدائه ، من ضروب الكيد ، والخذلان ، حتى يُغلَب على أمره ، وتسقط راية الحق من يده !

لقد بكَيته ، وبكيتهُ ، وحزنتُ له ، وحزنت !

فلما كان المصاب فيك ، اتصل البكاء بالبكاء ، والحزن بالحزن . . وكان من رحمة الله بى أن مصابى فيك لم يُجدّ لى بكاء ، ولم يُحدث لى حزناً !!

ويا سبحان الله !

حتى الاسم الذى بكيته وحزنت له بالأمس فى صحبة الإمام علىّ ، هو الاسم الذى أبكيه ، وأحزن له اليوم ، يوم الفجيعة فيك !

وهكذا ، كنت أبداً ، حيًّا ، وميتاً .. لا يَخلُص منك إلى أصحابك ، وأحبابك مايسوء أو يحزن ، حتى فى مقام السوء والحزن !

وبعـــد :

فإنك ياعلىّ لأشبه الناس بعلى بن أبى طالب .

شجاعةٌ فى الحق ، وجرأة على مصادمة الأحداث ، وثبات فى ميدان المعركة تحت راية الحق . . ولو فر الأنصار ؛ وخلا منهم الميدان[1] !

وصف ضرار الصدائى علياً فقال :

« كان فينا كأحدنا ، غير أننا لا نكاد نبتدئه ، لعظمته وهيبته » .

ولا يجد المخالطون لك ، والمتصلون بك ، وصفاً أصدق من هذا الوصف ، الكاشف عن حقيقة الحال ، فيما كان بينهم وبينك ، من مُداناة منك ، وتوقير خاشع منهم !

رحمك الله — أبا محمد — وأوسع لك فى منازل الصديقين والأبرار ، ونفع الناس بما خلّفت وراءك من علم مُصفى ، وأدب عالٍ ، وخلق كريم ، إنه سميع مجيب .

عبد الكريم الخطيب

---

(١) تذكر هنا معركة كتابه : « الإسلام وأصول الحكم » وأمره معروف مشهور .

الرّسُول وَصَحَابَتُهُ

● عن أبي موسى الأشعري، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

« النجوم أَمَنَةٌ للسَّماء . . فإذا ذهبت النجوم ، أتى السماء ما توعد . .

وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي . . فإذا ذهبتُ أَتَى أصحابي ما يوعدون . .

وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » .

« رواه أحمد ومسلم »

* * *

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« إذا فُتحت عليكم خزائنَ فارس والروم . . أيّ أقوام أنتم ؟ .

قال عبد الرحمن بن عوف : نكون كما أَمَرَنَا الله عز وجل ! .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تَنافسون ، ثم تَحاسدون ، ثم تَدابرون، ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين ، فتحملوا بعضهم على رقابِ بعض»!

« رواه مسلم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الكتابة فى سيرة الخلفاء الراشدين ، مورد عذب . تزاحم عليه الواردون من رواة الأخبار ، وكتّاب السير ، وأصحاب القصص والملاحم .. على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم ، فى كل عصر من عصور الإسلام ، وفى كل أفق من آفاقه !

ذلك أن الأربعة الراشدين : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى - رضى الله عنهم - كانوا من الإسلام أشبه بالأركان التى تقوم عليها البنيّة ، ويُشد عليها بنيانها ! بما كان لهم من سابقة فى هذا الدين ، وجهاد فى سبيله ، ومؤازرة لرسول الله ، ورسوخ فى تمثل أحكام الشريعة ومقرراتها ، بحيث يرى الرائى فيهم ؛ التطبيقَ العملى الواضح للإسلام - شريعة وعقيدة - كما يختبر المختبر منهم ؛ مغارسَ النبوة ، وبواكير ثمارها ، فيما أخذهم النبىّ الكريم به ، وفيما نشّأهم عليه ، من الهَدْى السماوى ، والأدب النبوى ، فكانوا الوجه الذى تتمثل على قَسَماته معالم هذا الوصف الكريم الذى وصف الله - سبحانه وتعالى - به هذه الأمة ، فى قوله سبحانه : « كُنتم خَيْرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس » !

* * *

فإذا توارد العلماء والفقهاء على دراسة القرآن الكريم ، والسنّة المطهرة ، للتعرُّف على أحكام الشريعة ، واستجلاء أسرارها ، وكان هذا الفيض الزاخر ، من كتب الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والأصول ، والكلام ، بل واللغة ، والنحو ، والبلاغة ، وغيرها من المعارف التى قصد إليها أول ماقُصد لخدمة الدين ، والوقوف على ما يمكن الوقوف عليه من أسراره - نقول : إذا

كان ذلك كذلك فإن من تمام هذه الدراسة ، ومن الوفاء لحقها أن تكون صورة الخلفاء الراشدين بخاصة ، وصور صحابة الرسول بعامة آخذة مكانها إلى جانب هذه المباحث ، مَعْنيا بهـا تلك العناية التى تبذل فى علوم الشريعة ، وما يتصل بها . .

وقد كان !

فمنذ لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وتبعه خلفاؤه وأصحابه إلى رضوان الله ، وأفواه المسلمين رطبة ندية ، بسيرة الرسول العطرة ، وبسيرة أصحابه وخلفائه ، يعيش المسلمون أوقات تلك الفترة التى لا تكاد تبلغ نصف قرن ـ لحظة لحظة ، وساعة ساعة ، يَنْسَمُون منها أرواح الهُدَى ، ويتزودون منها بالزاد العتيد من التقوى ! .

وعن هذا الإحساس ، وذلك الشعور كان هذا الفيض المتصل ، الذى لايغيض ، من فنون البحث والدراسة ، لسيرة الرسول الكريم وخلفائه ، وصحابته ، ولكل من كان له فى الإسلام قدم صدق ، أو كان له من الإسلام بعض مافى الإسلام من نور وهدى .

* * *

إن تاريخ العظماء ليس مجرد حياة وموت ، وأحداث وقعت فيما بين الحياة والموت ، فضبطتها صحف التاريخ ، وختم عليها الزمن بخاتمه ، وإنما تاريخ حياتهم ميراث كريم ، تتوارثه الإنسانية كلها ، وتقتدى بما فيه من عظات وعبر ، وتقطف من مجانيه ما تطول يدها ، وتبلغ همتها ، من قدوة صالحة ومثل كريم ! .

ومن أجل هذا كانت حياة الذاهبين من العظماء ، فى معرض النظر والدرس . وفى مجال المخض والتمحيص ، لكل إنسان ، ولكل جماعة ، ولكل أمة ! لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من عظات وعبر !.

والخلفاء الراشدون الأربعة فى مكان الصدارة من قمة العظمة الإنسانية ، فى مختلف صور العظمة ، وفى أرفع منـازلها ، وأسمى مراتبها . . إذ كانت عظمتهم موصولة بأسباب العظمة النبوية ، سالـكة مسالكها ، فى مدارج السمو الروحىّ ، والاطمئنان القلبى ، الذى تسكن به نزعات الهوى ، وتطيش معه رميات الشيطان ووساوسه .

ثم إن حياة الخلفاء الراشدين الأربعة ؛ وجوه مشرقة بارزة للشريعة الإسلامية . . إذ كانوا فى أقوالهم وأفعالهم ، وفى سياستهم للدولة الإسلامية ، وضبط شئون المجتمع الإسلامى ، وتدبير أموره — كانوا تَرْجُماناً صادقاً لرسالة الإسلام فى الحياة ، وتفسيراً عملياً لمنهجه ، فى إقامة مجتمع الإنسانية ، على أحسن وأتم صورة يمكن أن تقع فى الحياة البشرية .

فتاريخ عهد الراشدين ، هو — كما قلنا — التطبيق العملى للرسالة الإسلامية. ودراسة هذا التاريخ ، هو من فقه هذا الدين ، والتعرف على حقائقه .

وإنه لن يكمل لفقيه فقهه ، أو مفسّر تفسيره ، أو محدِّث ماحدّث به ، إلا إذا التقى بصحابة رسول الله — وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة الراشدون — ووقف على أقوالهم وأفعالهم ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وإلا فقد فاته علم كثير ، وغاب عنه الدليل الذى يقيمه على سواء السبيل ، ويرفع لعينيه منارات الهدى ، كلما غامت عليه وجوه الرأى ، وأفلتَ من بين يديه زمام الطريق — إلى الحق والخير .

ومن هنا كان هذا الذى تحدثت إليك به ، من توارد الواردين على دراسة تاريخ هؤلاء الأعلام ، وعرض سيرهم فى مختلف المعارض ، جنباً إلى جنب مع الدراسات الواردة على الشريعة الإسلامية ، وما يدور فى فلـكها ، من علوم ، وفنون !

بل وأكثر من هذا .

فإنه فى العصور التى توقف فيها العقل الإسلامى ، عن النظر الدارس فى الشريعة ـ بعد أن سُدّ باب الاجتهاد — لم يتوقف هذا العقل عن معاودة النظر فى سيرة الخلفاء الراشدين ، وإخوانهم من صحابة رسول الله . . إذ كانوا هم المعالم الواضحة فى متاهات الحياة التى أظلت المجتمع الإسلامى ، وكانت سيرتهم هى الشعاع الهادى ، الذى يلوح بين غياهب الجهل والعمى ، فى ذلك الليل الأسود الطويل !

فإذا نحن أخذنا بحظنا من النظر فى سيرة الخلفاء الراشدين — دارسين وكاتبين — فإنه لن يعدل بنا عن هذا الطريق ، أو يصرفنا عن تلك الغاية ، أن كان غيرنا قد سَبَقنا ، وأنه ماترك الأول للآخر شيئاً ، كما يقولون !

وكلا . . فإن الخير كثير ، وما يمكن أن يقال أكثر مما قيل ، فهذا المورد العذب ـ وإن تزاحم عليه الواردون ـ يفيض عن عين ثرّة لاتغيض !

ولكننا مع هذا ، لانقول كما قال أبو العلاء :

وإنى وإن كنت الأخير زمانه

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

فالسابقون السابقون . . أولئك هم أولو الفضل والإحسان . . على آثارهم نقتدى ، وبهداهم نهتدى ، ومن وراء نظرهم ننظر !

ومع هذا ، فإننا نطمع فى أن نأتى بجديد ، إن لم يكن فى صميمه ، ففى بعض شياته وملامحه . . إذ كنا ننظر إلى أحداث هذه الفترة من أفق بعيد ، بحكم الزمن الذى يفصل بينها وبين تلك الأحداث ، كما أننا نراها بمعارف العصر الذى نعيش فيه ، ونقيسها بمقاييسه ، التى لاشك فى أنها تختلف كثيراً أو قليلا عن معارف ومقاييس العصر الذى ولدت أو دونت فيه .

ولكن ما لهذا كان هذا الحديث ، وتلك المقدمة . . فذلك أمر مفروغ منه ، فما قال أحد من المسلمين — بخاصة — إن الكتابة فى سيرة الصحابة والراشدين مما يُعتَذَر له ، أو يتخوف منه . . بل إن العكس هو الصحيح ، وهو أن مراجعة سِيَر هؤلاء الصحابة — بحثاً وتمحيصاً ، أو قراءة واستماعاً — أمر مندوب إليه ، يرجى الثواب منه ، ويبتغى الرضوان به !

ولكن الذى نحاذره ، ونريد أن نبسط له العذر ، هو الحديث فى تلك الأحداث التى وقعت بين يدى خلافة « على » كرم الله وجهه ، وفى أثنائها !

فغير منكور أن الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة معقدة أشد التعقيد ، عسيرة أشق العسر ، لِمَا يكتنفها من ضباب ، وما يلفها من ظلام ، يعمِّى على السالك سبل الرؤية فيها ، ويحجب عنه منافذ النظر إلى حيث يرى مواقع قدميه !

فالمصادر التى روت أحداث هذه الفترة ، تكاد تكون جميعها نسقاً واحداً ، حتى لكأنها تستملى أخبارها من وثائق محققة ، لاتقبل رداً !!

والذين سجلوا هذه الأحداث يكادون يتفقون جميعاً فى تصويرها على وجه واحد ، وإن كان لبعضهم شىء فيها ، فهو فى أسلوب عرضها ، إطناباً أو إيجازاً ، وجمعاً بين المرويات أو اقتصاراً على بعض منها .

وهذا أمر يدعو إلى العجب ، فما رأينا أحداً من أصحاب المؤلفات التى تعتبر مرجعاً لهذه الفترة — توقف عند خبر ، أوشك فيه ، أو حمله على غير ظاهره ، ومن فعلَ ذلك ، ففى قِلّة ونُدرة ، وفى حذر وإشفاق .

فهل هى وثائق محررة ، تلك التى رجع إليها أولئك المؤلفون وأخذوا عنها ؟ الواقع يشهد أنها ليست كذلك ، بل هى — كما سنرى — مقولات تُروى من أفواه الجماهير ، وتلتقط من كل مصدر ، أياً كان ، دون نظر إليه ، ودون

اعتبار لتعديله أو تجريحه ، حتى أن أكثر هذه الأخبار يسند إلى غير شخصية معروفة ، ويضاف إلى جماهير غفيرة لا يعرف لها وجه ، فيصدّر الخبر بقولهم : ذكروا ، وزعموا ، وقالوا ، ورَوَوْا . . دون أن تنكشف شخصية أحد من الذاكرين ، أو الزاعمين ، أو القائلين، أو الراوين .. فما تأويل هذا ؟

والذى يمكن أن نقول به ، لتعليل هذه الظاهرة ، هو أن هذه المرويات تتناول قضية من أعقد القضايا التى واجهت المجتمع الإسلامى الأول ، وتمس جماعة من صفوة المسلمين ، وفيهم جِلّة الصحابة ، وأصحاب السابقة فى الإسلام ، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، مبشراً إياهم برضوان الله ، وبجنات النعيم .

ومن هنا كان هذا التهيّب ، وهذا التوقف فى التعليق على تلك المرويات ، وأخذها بالتجريح أو التعديل . . فكان أخذها على عِلّاتها ، وإجراؤها على ماحدّث الناسُ به — أقربَ السلامة ، وأدنى إلى العافية ، لمن يريد لنفسه السلامة ويطلب لها العافية ، من أن يفاضل بين صحابيين ، فيَدين هذا ، ويبرىء ذاك ! إن راوى الخبر ينقل ماسمع أو قرأ ، وفى يقينه أنه ليس عليه فى ذلك تبعة ، إن كان فيما ينقله ويرويه ، إدانة لبرىء أو تبرئة لمذنب .. إذ ناقل الكفر ليس بكافر !

ذلك أن هذه المرويات ، إن أراد أحدٌ أن يجعل لها وجهاً مقبولا فى حق صحابى ، كان هذا الوجه نفسه حكما قاسياً على صحابى آخر . .

خذ لذلك مثلا ما كان بين علىّ ، وبين عائشة وطلحة والزبير ، فى تلك الأمور التى انتهت بموقعة « الجمل » والتى ذهبت بآلافٍ من خيار المسلمين !

فأىّ مسلم تطاوعه نفسه ، أو يرضى له دينه ، أن يُدين صحابياً ، فى موقف وقفه من تلك الأحداث التى جرت ؟

إنها لـكبيرة على نفس المسلم أن يحمل تبعة هذه الأحكام التى يصدرها فى هذا الموقف ، وأنه إذا جمجم صدره بشىء من هذا ، لم يجد اللسان الذى ينطق به ، أو القلم الذى يخطّه .

ولو أن هذه المرويّات كانت على قدر مقبول من الصحة والسلامة ، لكان ممكناً أن يقيم المرء لنفسه رأياً فيما حدث ، وأن يمسك به ، فلا يذيعه ، إن تأثم أو تحرج ، أو يحدّث الناس به إن لم يستشعر إثماً ولا حرجا !

فكيف وهى مرويات اختلط فيها الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، والواقع بالخيال ؟ .

وإذن فالذى صنعه رواتها وجامعو أشتاتها ، من الاكتفاء بجمعها ونقلها على ما وجدوا الناس يحدّثون به منها — هذا الصنيع هو أعدل موقف وأسلمه حيالها . فهم فى جمعهم لهذه الأخبار — على ما بينها من التناقض والتدافع — قد حفظوها من الضياع ، ثم هم بهذا الجمع قد ضبطوا صورتها من أن تتبدّل وتزداد مع الزمن تشويهاً واضطرابا ، بما يدخل عليها من إضافات ومرويات ، يولّدها الخلاف المذهبى ، والسياسى ، ويلونها الخيال القصصى والخرافىّ . وحسبهم أنهم احتملوا تبعة جمعها وحفظها وإذاعتها فى الناس على ما بها ! ولا عليهم إذاهم تركوا لمن بَعدهم أن يحمل عنهم تبعة التعديل والتجريح لتلك الأخبار . . وشىء من هذا أو قريب منه ، كان ذلك الموقف الذى وقفه رواة الحديث ومدونوه ، فإنهم تلقوا عشرات الألوف من أحاديث الرسول ، أخذوها أول الأمر كما هى ، وقبلوها على ما بها . . ثم أخذوها بعد ذلك بالنظر والبحث ، فى سلسلة رواتها ، وفى تعديلهم أو تجريحهم ، ثم انتهى بهم الأمر إلى ترك الكثير مما لم يصح ، وأخذ القليل مما قد صحّ لديهم ، أو غلبت صحته .

ومع هذا فإن أعداداً غير قليلة من هذه الأحاديث المدونة ، لم يسلّم لهم بها ، ولم تقع موقع الاطمئنان فى مجال التشريع واستنباط الأحكام ، ولـكنهم آثروا تدوينها ، إذ ربما ينكشف منها على الأيام ما لم ينكشف بعد .

ذلك ، ومع أصحاب الحديث ميزان قائم ، ودليل هادٍ ، يقيمون عليه ما كانوا يتلقوّن من أحاديث ، وهو كتاب الله الذى لا يُقبل معه حديث يصادم نصًّا من نصوصه ، أو يخرج على حكم من أحكامه ! .

* * *

هذا أول ما يعترض الطريق ، أمام من يريد أن ينظر فى أحداث هـذه الفتنة ، التى ابتُلى بها المسلمون فى تلك الفترة ، وهو فراغ يد الباحث من وثائق محررة ، تضبط أحداثها ، كما وقعت ، أو قريباً مما وقعت .

وأمر كهذا، من شأنه أن يُحرج ضمير من يَنصب نفسه للحكومة فى هذه الأحداث ، ويجرح عدالته ، إن هو أعطى حكماً قاطعاً فيها ! .

ثم هناك من وراء هذه العقبة عقبة أخرى ، أشرنا إليها من قبل ، وهى أن هذه الأحداث تتناول أشخاصًا لهم من نفوسنا كل إعزاز وإكبار ، ولهم من قلوبنا المكان المكين من الحبّ والولاء ، لما كان لهم فى هذا الدين من مواقف خالدة ، آثروا فيها دين الله على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فعزّ بهم دين الله ، وعلت كلمة الحق ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ! .

وإن هؤلاء الذين نجلّهم ونحبّهم ، ونتمثل المثل الأعلى فيهم ، والقدوة الصالحة منهم ، قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً حادًّا ، حتى لقد بلغ الحال بهم إلى لقاء بعضهم بعضاً ، تحت رايات الحرب ، يضرب الأخ أخاه ، ويقتل الصديق صديقه ، وكان من حصاد هذا الصراع ذهاب أرواح كريمة ، بأيدٍ كريمة ، كان جهادها كله لله ، وفى سبيل الله ! .

وينظر الناظر إلى هؤلاء الأحبة المختلفين المتقاتلين ، فيرى كلا منهم قد ركب طريقاً غير طريق صاحبه ! .

فمع من يكون الحق ؟ وفى أى جبهة يكون المسلم لو شهد هذه الأحداث ، إذا هو أراد أن ينصر الحق ، ويكون مع المحقين ؟ .

لا شك أن الحق وجه واحد ، فهو مع هذا الجانب أو ذاك ، وغير ممكن بحال أن يكون مع كلا الفريقين فى وقت معاً ! .

قليل جداً من صحابة رسول الله اختلط عليهم الأمر فى هذه الفتنة ، فأغمدوا سيوفهم ، وأغلقوا عليهم أبواب دورهم ، فلم يشهدوا مشاهدها ، ولم يكونوا مع هذه الفئة أو تلك ، وكان عذرهم عند أنفسهم ، ولمن جاء يدعوهم إلى هذا الفريق أو ذاك — أنهم فى ظلمة فتنة ، لا يعرفون أين وجه الحق ، فيتجهون إليه ! .

يقول عبد الله بن عمر فى هذا : « جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه ! » . ويقول المغيرة بن شعبة : «أريد أن أضع سيفى ، وأنام فى بيتى ، حتى تنجلى هذه الظلمة ، ويطلع قمرها ، فنسرى مبصرين ، نقفو آثار المهتدين ، ونتقى سبيل الحائرين ! » . ويقول سعد بن أبى وقاص : «أى بنىّ ! أفى الفتنة تدعونى أن أكون رأساً ؟ لا والله ، حتى أُعطَى سيفاً إن ضربت به مسلماً نَبَا عنه ، وإن ضربت كافراً قتله » ! . . هذا موقف قلة قليلة من الصحابة ، وذلك رأيهم .

أما البقية الباقية من أصحاب رسول الله — عدا هذا النفر القليل — فقد انحاز كلّ منهم إلى أى الطائفتين رآها أحقّ بنصره وأولى بمساندته ، وحتى هؤلاء النفر الذين اعتزلوا هذه الأحداث فى أول أمرها ؛ لم يستطيعوا أن يلتزموا هذا الموقف التزاماً كاملا إلى آخر المدى ، فشارك فيها بعضهم بلسانه ، وشارك بعضهم الآخر بلسانه وبيده معاً ، حين التحمت الأحداث ، وتتابعت الفتن !

ونحن ، وإن كان الله قد عافانا من الابتلاء بهذه المحنة ، فلم نكن ممن قدر له أن يشهدها ، أو يشترك فيها — فإننا ممتحنون بالنظر فى مخلّفاتها ، وفى مراجعة

أحداثها ، ووزن مواقف الرجال فى كل حدث منها ، إذ كان ذلك أمراً لا بد منه ، ولا محيص عنه ، إن أردنا أن نصل حاضرنا بماضينا ، ونتلقى عن سلفنا مواقع العبرة والعظة ، فيما كان لهم من قول أو فعل ! فما كان لمسلم أن يتجنب مطالعة هذه الأحداث ، وتقليب وجوه النظر فيها ، وارتياد مواطن الخير منها . وما كان لمسلم ، وهو يطالع هذه الأحداث ، ويقلّب وجوهها أن يعزل شعوره عن الرضا أو السخط ، والحمد أو الذم ، فيما يُرْضى أو يسخط ، ويُحمَد أو يذم من مواقف الرجال ، فى هذه المحن القاسية ، وتلك الفتن الشنعاء .

فنحن إذن مبتلون ببعض ما ابتلى به أسلافنا ، الذى شهدوا هذه المحنة وخاضوا غمارها ، أو شاركوا فى أحداثها من قريب أو بعيد .. لا يقطعنا الزمن وإن بعُد ، ولا تصرفنا الأحداث ، وإن ذهبت ،عن أن نأخذ بنصيبنا من هذه المحنة ، وأن نحمل بعض ما حمل أسلافنا من خيرها وشرها ، وأن نذوق بعض ما ذاقوا من حلوها ومرها !.

* * *

على أنه مما يخفف من قسوة هذا الامتحان الذى نمتحنه، بالخوض فى أحداث هذه الفترة ، وبالتقليب فى رماد هذه الفتنة ـ أن الأشخاص الذين شهدوا هذه المحنة وابتلُوا بها ، قد أخلَوْا أيديهم من هذه الدنيا ، وانقطعت الصلة بينهم وبين أهلها ، لا ينفعهم رِضى من رضى ، ولا يسوءهم سخط من سَخِط ! .

والأحداث التى جرت على الإسلام والمسلمين فى تلك الفترة قد مضت إلى غايتها ، لا يمكن استرجاعها ، أو تحويل مجراها عن الطريق الذى أخذته .

فإذا رحمنا مظلوماً أو نقمنا على ظالم ، فما لهذا كبير غَنَاء ، ولا جزيل عائدة لمن نرحمه ، أو ننقم عليه ! .

أمر واحد هو الذى نُعطاه ـ كأحياء ـ من مراجعة هذه الأحداث ، ومعاودة النظر إليها .. هو استخلاص العبرة والعظة ، واستجلاء بعض مافى

النفس البشرية من خبايا . حين تتعرض لما تمتحن به من خير ، وشر ، وحين يتصادم فيها الحق والباطل ، والرشد والغى ، والهـدى والضلال ، والعقل والهوى ! !

فنى هذه المجال تبرز العبر ، وتستعلن العظات ، حيث تتحلى مواطن القوة والضعف فى الإنسان ، وحيث ينتهى حصاد هذا الصراع كله إلى نهاية واحدة لا تتخلف أبداً ، هى أن مايقوم على الحق والعدل باق لا يزول ، وأن ما يُبنى على الباطل فإلى ضياع وبوار ، وإن امتدّ واستطال ! .

* * *

وأمر آخر نراه داعية من دواعى التخفيف ، ودفع بعض الحرج ، الذى نجده ونحن مقبلون على مواجهة هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ، وهو أن الذين شاركوا فى هذه الأحداث من صحابة الرسول ووجوه المسلمين — هم أبناء هذه الحياة .. فيهم مافى الطبائع البشرية من نزعات الخير والشر ، وفيهم مافى الناس من إحسان وإساءة ، وما كان لهم أن ينسلخوا عن هذه الطبيعة ، وإن بلغوا ما بلغوا من الـكمال والصفاء ، فذلك الـكمال وهذا الصفاء مقدران بالطبيعة البشرية ، محكومان بحكمها ، ومقيدان بقيودها !!

وفى القرآن الـكريم مواقف تـكشف عن الـكثير من خبايا النفس البشرية وما يضطرب فيها من نزعات ، وما يطلع عليها من وساوس ؛ حين تواجه فتنة نازلة ، أو محنة قاسية ، وحين يهتز ميزانها ، وهى فى هذا العلوّ الشاهق ، الذى تـكاد تدانى به الملأ الأعلى ، وترفّ بأجنحتها فى سماواته .

فأخوة يوسف ، وهم فى حجر النبوة . . يأتمرون بأخ لهم ، ويدبرون له ما دبروا من كيد عظيم !!

ويوسف النبيّ أو المرشح للنبوة ـ تكاد تغلبه طبيعة الإنسان فى الجانب الضعيف منها ، أمام الإغراء الملحّ ، الذى يعرض له ، فى مفاتن امرأة فاتنة ، مدلهة به ، والهة فى حبه : « لولا أن رأى برهان ربه » ! .

وداود ـ عليه السلام ـ وفى يده ملك عريض . وبين يديه مئات من الجوارى الحسان ، يمدّ بصره ، إلى مالا يملك ، فتكون منه زلة ، ويكون من الله مغفرة ورضوان : « فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسنَ مآب »

ثم هذا آدم ـ أبو البشر ـ يقيمه الله فى جنته ، ينعم بما شاء من خيراتها التى لا تنفد ، ويدعو الملائكة إلى السجود بين يديه ، إحسانا إليه، وتكريما له ـ تنزع نفسه إلى شجرة ، ويطعم منها . . وهى لم تكن أطيب مافى الجنة ، ومع هذا فقد همت به نفسه إلى أن يخرج عن أمر ربه ، ويجىء إلى تلك الشجرة ، ويمد يده إلى ثمرها ، ويطعم منه !

إننا فى أرض البشر . . والصحابة رضوان الله عليهم ـ عاشوا على هذه الأرض ، فلم يكن بعيداً عنهم إن تغبّرّ أقدامهم بترابها ، ولم يكن هذا بالذى ينزل بهم عن منازلهم العالية ، أو ينال من أقدارهم العظيمة .

وإنّ أحداً لم يأخذ على الله عهداً أن يقيمه أبداً على الطريق الذى يتجه به إلى الجنة . ويفتح له أبوابها . وذلك أمر قدره الله وقضاه ! وكل ميسر لما خلق له .

ومع هذا فلسنا موكّلين بحساب الناس ، حساباً أخروياً ، فنقول هذا من أهل الجنة ، وهذا من أهل النار — فذلك حساب أمره إلى الله وحده ، يعذّب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ! .

وقد صار هؤلاء القاتلون والمقتولون — فى هذه الفتنة — صاروا إلى

ما وراء هذه الحياة الدنيا ، ولم يبق لنا إلا ما خلّفوا من آثار وأعمال : هى التى تخضع لنظرنا فيها ، وحكمنا عليها ، وقبولنا لما نقبل ، وردنا لما نردّ منها !.

* * *

إننا لنظلم أنفسنا ظلماً عظيما ، إذا نحن جلسنا مجلس القضاء للفصل بين المتنازعين فى هذه الأحداث، التى دارت بالمسلمين دورة عاصفة، أتت على كثير من الأنفس الكريمة العزيزة ، علينا ، وعلى الإسلام .

فالأحداث — كما قلنا — كانت بحيث أذهلت كثيراً ممن كانوا بمرأى ومسمع منها ، فلم يعرفوا أين يكون موقفهم منها . فكيف بنا نحن ، وقد فصل الزمن بحجاز كثيف بيننا وبين هذه الأحداث ؟ ثم كيف بنا وقد جاءتنا أنباء هذه الأحداث مختلطة مضطربة ، لا يُرجع فيها إلى مدونات محققة ، محررة من الكذب والتلفيق ؟ .

والذين شاركوا فى هذه الأحداث — كما قلنا أيضاً — أبعدُ من أن نتطاول إلى مقامهم الذى رفعهم الإسلام إليه ، فنزيل أحدهم عن هذا المقام ، أو نزحزحه عنه ! !

وإنها لجرأة على الحق ، وتطاول على أقدار الرجال ، أن يتقحّم متقحّم هذا البحر العظيم ، فيخوضه بقدميه ، أو يسبر غوره بيديه !

عن التَّوَّزىّ قال[1] :

« لما انقضى يوم الجمل ، خرج علىّ بن أبى طالب — كرم الله وجهه — فى ليلةِ ذلك اليوم ، ومعه قنبر[2] ، فى يده مشعلة من نار ، يتصفح القتلى ، حتى

(١) الكامل للمبرد جزء أول/ ١٣٦ .

(٢) قنبر : مولى على بن أبى طالب .

وقف عَلَى طلحة بن عُبيد الله ، فلما وقف عليه قال : « أعزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفى بطون الأودية ! ! شفيتُ نفسى ، وقتلت معشرى ! إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى[1] » .

وبعد موقعة الجمل هذه . . دخل موسى بن طلحة على علىّ — رضى الله عنه — فقال له علىّ : « إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : وَنَزَعنا مافى صدورهم من غِلّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين » .

وأمسى علىّ بالبصرة فى ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء[2] : أمسيتَ بالبَصرة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كان عندى ابنُ أخى ! قال : ومن هو ؟ قال : موسى بن طلحة ! قال ابن الكواء : لقد شَقِينا إن كان ابنَ أخيك ! فقال علىّ ويحك ! إن الله قد اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم ، فقد غفرتُ لكم » .

فإذا كان هذا هو رأى أصحاب القضية فى إخوانهم الذين نازعوهم فيها ، وقاتلوهم عليها ، فكيف نبيح نحن لأنفسنا أن ندخل خصوماً فيها ، بحساب غير هذا الحساب ، وبتقدير غير هذا التقدير ؟

إن ذلك — إن فعلناه — لم يكن إلا سهاماً طائشة ، إن أصابت أحداً فلن تصيب غير رُماتها !

ونعوذ بالله ، من أن نقتل أنفسنا بأيدينا ، وأن نبوء بالإثم ، من حيث نبغى المثوبة والرضوان !

إننا لا نريد بهذا الحديث الذى نخوض غماره . ونتحمل الكثير من المشقة والعناء بالمجازفة فيه — لا نريد إلا أن نتمثل صورة من البطولة الفذّة ، والإيمان

---

(١) عجرى وبجرى : سرى وجهرى ، أى أمرى كله .

(٢) أصبح رأساً من رءوس الخوارج فيما بعد .

الراسخ الوثيق ، الذى لاتزحزحه المحن ، ولا تنال منه الأحداث ، وإلاّ أن نجلىّ هذا الحدث الفريد فى إيثار الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، وما عند الله على ماعند الناس ، مما لم تشهده الحياة إلاّ فى رسله وأنبيائه ، وما يُمتحنون به من ضر وأذى ، فى سبيل مايحملون إلى الناس من خير وهدى ، لايلويهم شىء عن طريقهم ، ولا يعدل بهم وعد أو وعيد عن غاياتهم ، ولو وقفت الدنيا كلها فى وجوههم !

والوجه الواضح الذى تتمثّل فيه هذه المعانى واضحة مشرقة ، هو الإمام علىّ كرم الله وجهه ، وهو الذى من أجله ، ومن أجل تلك المعانى التى عاش لها ، وقُتل من أجلها كان هذا الحديث ، وتلك الدراسة لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام !

وعلىّ — كرم الله وجهه — هو بقية النبوة ، وخاتم خلافة النبوة ، وحياته كلها معركة متصلة فى سبيل الله ، وإيثار سخىّ لإعزاز دين الله ، وإعلاء راية الإسلام التى حملها رسول الله ، والتفّ حولها المهاجرون والأنصار ، فكانوا جند الله ، وكتيبة الإسلام ، قد تلقّوا الصّدْمة الأولى، فى سبيل الدعوة واحتملوا تبعات الجهاد فى سبيل الله ، صابرين مصابرين ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

أما علىّ ، فقد كان صدره درعاً واقية لدعوة الإسلام ، من أول يوم الإسلام، إلى أن تداعت حصون الشرك ، وذهبت معالمه . . !

وكان سيفه شهاباً راصداً ، يرمى أعداء الإسلام بالمهلكات ، ويشيع فى جموعهم الخزى والخذلان ، ويُلبس أبطالهم وصناديدهم المذلة والهوان .. ! حتى ليكون سيفه عَلَماً يسمّى « ذا الفقار » وحتى ليكون صاحب السيف مثلا يحدّث الناس به فى مواقف البطولات الخارقة ، فيقال : « فتى ولا كعلىّ » .

وكان قلبه مورداً صافياً ، ومشرَعاً عذباً سمحاً ، لما ضُمّت عليه شريعة الإسلام ، من نور وهدًى ، وما حملت من علم وحكمة ! حتى ليقال إن الرسول الكريم قال فيه : « أنا مدينة العلم ، وعليٌّ بابها » .

وكان لسانه ترجماناً صادقاً ، وبلاغاً مبيناً ، وبياناً محكماً ، وقضاء فيصلاً ، لكل حدَث مغلق ، وفى كل شبهة مظلمة ، وعند كل قضية معضلة . ! حتى ليكون فى هذا مثلاً مضروباً ، فقيل فيه : « قضية ولا أباحسن لها » وحتى ليقول الرسول فيه : « علىّ مع الحق ، والحق مع علىّ » .

ثم من بعد كله أو قبل هذا كله ، زهده ، وتقواه ، وعبادته . . وهو فى كل واحدة من هؤلاء ، الذروةُ العالية التى لاتنال ، والسابق المجلّى الذى لايدرك .

فإذا اجتمع له مع ذلك قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون ابنَ عم النبى ، ثم ربيبه الذى ينزل منزلة الابن فى بيته ، ثم يكون زوج ابنته ، فاطمة الزهراء ، ثم يصبح أباً للسبطين الكريمين: الحسن والحسين— نقول : إذا اجتمع لعلى كل ذلك أو بعض ذلك ، إلى ما عنده من صفات جسمية وروحية ، وعقلية ، فإن ميزانه فى الرجال يرجح أثقل الناس ميزاناً ، وأعظمهم قدراً !

ومع ذلك فإنا نرى الإمام — رضى الله عنه — قد فاته أكثر ما كان يؤمّل له ويرجى ، فى هذه الحياة !

فقد كانت الخلافة أقربَ إليه بعد رسول الله من أى صحابى آخر . .

فلما تمت البيعة لأبى بكر ، توقف قليلا ، وأمسك يده عن البيعة له بالخلافة ، حتى إذا رأى القبائل تتنادى بالرّدة والخروج عن طاعة الخليفة الجديد ، بادر فسدّ هذه الثغرة ، وأعطى الخليفة كل ولائه ونصحه !

وكانت سيرة أبى بكر رضى الله عنه شهادة بليغة بأن المسلمين قد اختاروا

فأحسنوا الاختيار ، ورأى علىّ — رضى الله عنه — أنه لو كان مكان أبى بكر فلربما فاته شىء كثير مما صنعه أبو بكر ، وفات المسلمين خير كثير لم يكن يجىء على يد غير يد أبى بكر ! !

ولهذا فقد رضى علىّ كل الرضا باختيار أبى بكر عمرَ للخلافة من بعده !

ثم لما جعل عمر الخلافة فى واحد من ستة ، رشحهم لهذا الأمر ، كان علىّ هو المرشح الأول عند نفسه ، وعند الغالبية العظمى من المسلمين . .
ولكن الخلافة صارت إلى عثمان رضى الله عنه . .

هذه واحدة !

وأخرى . .

الخلافة التى تمت له بعد مقتل عثمان !

لم تجىء إليه هذه الخلافة إلا محملة بتبعات ثقال ، محوطة بفتنة دونها فتنة الردّة التى واجهها أبو بكر !

لقد واجه أبو بكر فى حروب الردة أقواماً خرجوا على الإسلام ، فعرف طريقه إليهم ، وأمره فيهم .

وواجه علىّ جماعات مُسْلِمة خارجة على الخلافة . وفى هذه الجماعات عدّة من صحابة رسول الله ، ومن الصفوة المختارة عِنده ، بل وفيهم زوجه ، أم المؤمنين ،عائشة . . الحبيبة ابنة الحبيب !

فكيف يلقاهم علىّ ؟ وعلى أى وجه يحاربهم ، وبأى سيف يقاتلهم ؟

إن سيفه ليكاد يخذله فى ميدان هو سيّده ، والفارس المجلّى فيه ! ولاتسلْ عن المرارات التى تجرعها علىّ وهو يَلْقى أصحاب الجمل بسيفه . . إن كل قطرة أُريقت من دم هناك كان تنزف أمثالها قطرات من كيانه كله . . من قلبه ، وروحه ، ونفسه !

وثالثة !

فى الخلاف الذى كان بين علىّ ومعاوية !

لقد كان علىّ فى الحرب التى وقعت بينه وبين معاوية حرباً على نفسه ! يحارب انحرافات النفوس فى أتباعه ، ولا يقبل إلا من آثر دينه على دنياه ، وإلاّ من قاتل للحق ، قبل أن يقاتل للنصر !

وهكذا رجحت كفة معاوية ، ومكنت له الدنيا من الخلافة ، ولم تكتف بهذا بل جعلتها فى عَقِبه وأهله ، على حين كان نصيب عقب علىّ وأهله القتلَ والتشريد !

لهذا كانت سيرة علىّ — كرم الله وجهه — ملحمة واقعية ، يعجز الخيال عن شمولها والإحاطة بها . . فيها مادة خصبة طيبة ، لغذاء العقل ، والقلب ، ولإرضاء حاجات الوجدان والشعور .. من الإيمان ، والعلم ، والحكمة ، والأدب ، والسياسة ، والحرب ، والسلم !

ولهذا أيضاً . . كانت تلك الدراسة التى نُقَلّب بها صفحاتٍ من سيرته ، وفى حسابنا أن فى هذا وفاء يفرضه علينا الدين ، وتقضى به المروءة ، من الانتصار للمبادىء الكريمة ، التى قاتل عليها ، وقُتل فى سبيلها .

والذى نرجوه ونحن فى هذا الموقف ، ألا نميل مع هوًى ، وألا ننحرف إلى غير ما انعقدت عليه نيتنا ، وما انطوى عليه ضميرنا ، من الولاء لصحابة الرسول جميعاً ، وإنزالهم من قلوبنا منزلة الإعزاز والإكبار .

فإن تكن زلة ، أو عثرة ، فنبرأ إلى الله منها ، ونستغفره لها . . إنه أهلُ التقوى وأهل المغفرة » !

القاهرة : { جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ
سبتمبر ١٩٦٦ م

مَدخل إلى البَحث

ربما كان الأوفق أن نَتَأنى قليلا ، قبل أن نلتقى وجهاً لوجه ، بسيرة الإمام .. وذلك لنلقى نظرة على مسرح الأحداث ، التى عرضت له فى حياته ، ولنرود وجوه تلك الأحداث ، التى تشكلت منها القضايا ، التى قاتل من أجلها وقتل فى سبيلها !

وقبيل مقتل الخليفة عثمان ، وقبل البيعة لعلىّ بالخلافة ؛ لم تكن للإمام « علىّ » قضية ، يشترك معه الناس فيها ، ويجتمع له الأنصار حولها ، ويقاتل هو ومن معه عليها .

فلقد كانت حياة « علىّ » كرم الله وجهه ، قبل هذه الأحداث ، نَسَقاً واحداً ، متصلا بحياة الإسلام والمسلمين جميعاً ، لايُعرف له فى المسلمين من ينازعه أمراً ، أو يكشف له وجه عداوة . ولكنه منذ شغب الشاغبون على عثمان ، وكثيرٌ من الناس يتلفتون إلى علىّ ، سواء من كان منهم من شيعة عثمان ، كبنى أمية ، أو كان من الناقمين على عثمان ، والثائرين فى وجهه .. إذ ما كان لحدث ضخم كهذا الحدث يدور فى محيط المسلمين ، ثم لاتتجه الأنظار فيه إلى صحابة رسول الله ، وخاصة « علىّ » ابن أبى طالب ، المرشح الأول للخلافة ، بعد عثمان !

ولا نشكّ فى أن مكان علىّ من الخلافة بعد عثمان هو الذى جعل له فى أمر عثمان شأنا غير شأن بقية الصحابة ، ممن شاهدوا الأحداث ، أو شاركوا فيها !

ذلك أن عليا — وهو بهذا المكان من الخلافة ، وتلك المنزلة من نفوس المسلمين — لم يستطع أن يعتزل الناس ، خلال تلك الفتنة ، فكان كلّما أغلق

عليه بابه ، وجد من يطرقه فى إلحاح ، ومن يقتحم عليه عزلته ، مستصرخا ، أو مسترشداً ، أو عاتبا ، أو لائما .. بل إن عثمان ـ رضى الله عنه ـ كان أكثر مَن حَمَل عليًّا على أن يتصدى لهذه الأحداث ، ويلقاها فى كل وجه تطلع منه !

وكان بنو أمية ، والطامعون فى الخلافة بعد عثمان ، يرصدون حركات « على » وكلماته رصدَ المتوجّس ، وينظرون إليها نظر المتهم . وكأنهم يقولون بلسان الحال : كيف تدفع عن عثمان وأنت ترقب الفرصة فيه ، وترجو الخلافة من بعده ؟ وإذا لم يقل أحد ذلك تصريحا ، فقد لمح به كثيرون ، حتى لم يجد علىّ بداً من أن يلجأ إلى عزلة بعيدة عن المدينة . . ومع هذا فقد كثرت فيه الأقاويل بأنه خَذَل « عثمان » وخلّى بين الناس وبينه ، وأن عزلته تلك كانت إغراء بعثمان ، وإطماعا فى النيل منه ، أكثر منها دعوة إلى الناس باعتزال الفتنة ، والكفّ عن الخليفة ! !

وعلى أىٍّ فإن البيعة لعلى بالخلافة بعد مقتل عثمان ، جعلت لأولئك المرجفين بعلى ، والمتهامسين بالاتهام له ، مقالا يقولونه ، وسنداً ظاهراً لما يُلقون من تهم ، وما يُعِدّون من خلاف ومنازعة !

يقول ابن سيرين : « ما علمتُ أن عليا اتُّهم بدم عثمان ، حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس »[1] ! !

* * *

وإذن فنحن أمام حدث ، انعقدت على سمائه سُحب كثيفة ، تعمّى على الناظر فيه ، التثبتَ من مواقع قدميه ، والتعرف على الوجه الذى يسلكه ، ليبلغ غاية ، أو يحقق مقصداً !

---

(١) العقد الفريد : جزء ٤ ص ٣٠٥ .

ولهذا ، فقد رأينا أن نقف تلك الوقفة ، قبل أن نواجه هذه الأحداث ، وندخل فى غمارها !

فمن خارج دائرة الأحداث ، يمكن أن نلتقى بتلك الوجوه التى كان لها دور فى مجريات الأمور ، قبل أن يشتمل عليها ليل هذه الفتنة ، وينعقد عليها دخانها .

وهذه الرؤية من شأنها أن تجعل صحبتنا لأصحاب هذه الوجوه ـ إذا نحن التقينا بهم على مسرح الأحداث ـ صحبةً مأنوسة بما عرف عنهم من خير أو شر ، قبل أن تموج بهم أمواج الفتنة ، وتتدافع بهم تياراتها . . وذلك من شأنه أن يجعلنا نمسك بهم على وجه مقارب لما هم عليه ، ولما ينتظر من كلٍّ منهم ، حين يُمتحن فى دينه ، ومروءته ، وخلقه ! .

ونحن نعرف ما فى هذه الخطة من مواطن الضعف ، وما فى الأخذ بها من مخاطرة ومجازفة ، فى إقامة موازين الرجال ، وفى الحكم لهم أو عليهم .

فالأحداث هى التى تكشف عن معادن الرجال ، وتُمتحن بها عناصر القوة والضعف فيهم ، فكيف بنا ونحن نعزل رجالاً عن أحداث ، عاشوا فيها ، وشُغلوا بها ، ثم نحكم عليهم بما كنا نعرف من أمرهم ، قبل ذلك الابتلاء وهذا الامتحان ؟ .

وهل نَقْدٌ وتمحيص إلا عن محنة ، وبعد ابتلاء ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « ولنبلونّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم ، والصابرين ونبلوَ أخبارَكم »[1] .

ولكنا ـ مع هذا ـ نرى أن تلك الخطَّة ـ على ما بها وما فيها ـ هى البديل

---

(١) سورة محمد : ٣١

لكل خطة ، يُراد بها تصوّر هذا الصراع المتلاحم، الذى كان يدور بين الأطراف المتنازعة ، فى ضباب هذه الفتنة ، وفى دخان تلك الغاشية ، التى غشيت المسلمين ، وأوقعت العداوة والبغضاء بينهم ، ودفعت بهم إلى مواطن القتال ، فأراقوا دماءهم ، وقتلوا أنفسهم .

وإننا إذ نأخذ بهذه الخطة نضع فى تقديرنا أمرين :

الأمر الأول : ما أشرنا إليه من قبل ، من تعذر الرؤية الكاشفة لما كان يدور من صراع ، فى أثناء تلك الفتنة ، وللتيارات المختلفة التى كانت تحركها . .

فما لا شك فيه أن التاريخ لم يضبط صور هذه الأحداث ضبطاً محكماً ، ولم يجىء بها على الوجه الذى ظهرت به ، وجرت عليه ، بل لقد كانت ميداناً فسيحاً ، ومجالاً خصباً ، لما يُلقى إليها من نزعات وأهواء ، فاختلط فيها الحق بالباطل ، والواقع بما لم يقع !

وإذن ، فالاطمئنان إلى تلك المرويات من كتب السير ، والتاريخ ، والقصص والأدب وغيرها ـ فيما صُورت به وقائع تلك الفترة ـ هذا الاطمئنان إلى تلك المرويات ، والتعويل عليها وحدها ، فيه ظلم للحقيقة التى نعتقد أنها مطمورة فى أكداس هذه المرويّات ، المتضاربة ، المتناقضة .

والأمر الثانى : أننا نؤمن بأن الناس هم الناس ، وأن خيارهم ، هم خيارهم فى الرخاء والشدة ، وأن شرارهم ، هم شرارهم فى السرّاء وفى الضراء .. وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » .

وإذا كان للأحداث أن تغير شيئاً من ذاتية الإنسان ، أو تكشف عن قرارة ما فى كيانه من عناصر الخير أو الشر ـ فإن فيما ابتلى به المسلمون الذين

شاركوا فى أحداث تلك الفترة ، فى صراعهم مع المبطلين ، وقتالهم المشركين — ما كان كافياً لتمحيص مافى النفوس ، وابتلاء ما فى القلوب . . !

ولقد أعطى المسلمون الأولون ، أو الداخلون فى الإسلام — أعطوْا هذا الدين ما سمحت به نفوسهم ، وما وسعته قلوبهم ، كلٌّ حسب استعداده للخير ، وتقبله للهدى !

فليس كل المسلمين على درجة واحدة فى الاستجابة لله ولرسوله ، وفى الأخذ بهدى الله وسُنّة رسوله ! بل وليس كل من كانت لهم صحبة لرسول الله على سواء ، فى وَثاقة الإيمان ، وقوة اليقين ! فلقد كان فيهم المنافقون الذين كادوا لله ولرسوله ، وهم يُحسبون فى المسلمين ، يلقوْن الرسول ، ويلقوْن المسلمين بالمودة .. « يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » .. « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم » . . « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . . وهكذا فضحهم القرآن ، وكشف للرسول وللمؤمنين المستورَ من أمرهم ، والخفىّ من حالهم !

* * *

وإذ صح لنا هـذا ، فإننا سنعرض فى هذه الوقفة ، صورة مصغرة للشخصيات التى كان لها دور فى أحداث تلك الفترة ، أو الفتنة ، التى عصفت بالمسلمين ، وأوقدت نار الحرب بينهم ، وذهبت بآلاف النفوس من رجالهم !

وهذه الصور — على صغرها — تكشف عن الملامح البارزة لتلك الشخصيات ، وتوحى بالدور الذى من شأنها أن تقوم به ، فى كل موقف ، وفى كل حَدَث ! إن لم يكن ذلك على وجه محدد دقيق ، فهو على وجه مقارب ، أو مشاكل ! .

وقد أشرنا من قبل إلى تلك المصادر التى ضبطت تاريخ تلك الفترة ،

وأحداثها وأشخاصها ، وقلنا : إن هذه المصادر كانت ميدانًا فسيحًا ، ومجالاً خصبًا لما كانَ يُلقى إليها من نزعات وأهواء ، فاختلط فيها الحق بالباطل ، والواقع بما لم يقع !.

فالصور التى سنراها هنا لتلك الشخصيات إنما هى مستقاة من تلك الموارد ، بما تحمل من صفو وكدر ، وما تضم من حق وباطل ! وهذا ما لا حيلة لنا فيه ، إذ لا نملك أن نغيّر أو نبدّل فيما سطره التاريخ ، ومضت عليه أجيال الحياة ، دون أن تنقضه ، أو تكشف عن الزيف منه ! وإن يكن لنا من شىء هنا فهو الموازنة والمقابلة بين تلك المرويات ، وهذه الأخبار ، المتناقضة المتضاربة ، وترجيح بعضها على بعض .. فى شىء من القَصْد ،والحذر !

* * *

وإذن فلا بد من نظرة فى تلك المصادر ، فى سابقها ولاحقها ، وفى أصحابها ورواة أخبارها ، فذلك مما يعين على النظر فيما ينقل منها ، وفى مدى الاطمئنان إليها ، والأخذ بمروياتها .

هناك إذن نظرتان :

نظرة ، فى مصادر القضية ، أى فى الكتب التى كانت عُمدَةَ الأخبار ، ومصدرَ الحديث عن الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة .

ونظرة فى رجال القضية ، أى فى أولئك الذين كان لهم دور بارز فى تحريك أحداثها ، وتلوين صورها .

مصادر القضية

مصادر هذه القضية كثيرة متنوعة ، بعيدة غاية البعد ، فيما بين أولها وآخرها ، وأعلاها وأدناها . .

وحسبك أن تنظر فترى أن القرآن الكريم ، والحديث النبويّ ، من جهة ، ثم القصص الشعبي ، والخيال الشيعي من جهة أخرى — كلها مصادر ، يلتقى عندها رواة الأحداث لهذه القضية ، ومصورو وجوهها ! وانظر كيف يكون الحال فى صورة يكون القرآن الكريم والحديث النبوى بعض سِماتها ، ثم يكون القصص الشعبي والخيال الشيعي لوناً جارياً فيها ، ودما مسفوحاً عليها !

ندع هذا الآن ، وننظر فى لمحة خاطفة إلى أم تلك المصادر ، التى اعتمدنا عليها فى عرض هذه القضية ، وفى تصوير أحداثها .

أولا — القرآن الكريم

والقرآن الكريم إذ اعتُمد عليه كمصدر هنا، فإنما كان ذلك عن مقولات المفسّرين فى أسباب نزول الآية أو الآيات . !

فالقرآن الكريم ، إذ كانت تتنزل آياته مفرقة ، تناول أحداثا بعينها ، كانت تجرى فى محيط الدعوة الإسلامية ، فعرضها ، وكشف عن جوانبها ، وأبان عن مواقع العبرة والعظة فيها ، دون أن يلتفت كثيراً إلى الشخص الذى كان موضوع الحدث ، وسبب الواقعة !

قليل جداً أولئك الذين ذكرهم القرآن بأسمائهم فى معرض الأحداث ، ومثلهم فى القلة أولئك الذين أشار إليهم إشارة ، دون أن يصرح بأسمائهم .

ومن الأمثلة على الفريق الأول ، ماجاء عن أبى لهب ، وامرأته فى سورة سميت باسمه[1] ، وكذلك ماجاء عن زيد بن حارثة ، الذى كان متبنًى للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء القرآن بإبطال التبنىّ ، وحِلِّ زوجات هؤلاء المتبنَّين ، لآبائهم ، توكيدا لإبطال هذه البنوة ، وعزلها عن بنوة النسب المعروفة[2]

ومن الأمثلة على الفريق الآخر ، ماجاء فى القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن صاحبه أبى بكر ، وما كان بينهما فى الغار ، وهما فى طريقهما إلى دار الهجرة : « إلاّ تنصُروه فقد نَصَرَه الله ، إذ أخرجه الذين كفروا

---

(١) « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٢) يقول الله تعالى مخاطباً نبيه : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً »

ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزنْ إنّ الله معنا » . . فصاحب الرسول هو أبو بكر بلا شك ، وبلا خلاف !

ومادة التاريخ التى تؤخذ من القرآن هنا ، هى حق مطلق ، لامنازعة فيه ، ولا امتراء معه !

أما ما يُرْوَى من أخبار فى أسباب نزول الآيات ، وما يقال فى أنها نزلت فى فلان أو فلان ، فإن هذه الأخبار محمولة على رواتها ، ولكل ذى نظر أن ينظر فيها .

هذه المرويات من أسباب النزول ، قد كان لها دور فى تصوير أحداث تلك الفترة التى نؤرخ لها ، وكانت عنصرا واضحاً من العناصر التى صُورت بها الشخصيات التى كان لها دور فى تلك الأحداث ، فيقال إن هذه الآية نزلت فى فلان ، الذى كان من شأنه كذا ، وكذا ، وكان من أعماله كيت وكيت ! وهنا ينفتح باب فسيح للقول فى هذا أو ذاك ، من الذين عاصروا عهد النبوة ، فى مقام الحمد والذم على السواء !

والذى نريد أن ننبه إليه من أمرها هو ألا تكون من المسلّمات التى يحكم بها حكما قاطعا على من أضيفوا إليها ، وإنما ينبغى أن يكون شأنها شأنَ غيرها من الأخبار ، التى دارت فى محيط الشخص أو الأشخاص الذين تناولهم تاريخ تلك الفترة !

يُروى عن أحمد بن حنبل أنه كان يقول : ثلاثة لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى[١] » ، وهو يريد بهذا أن مادة التفسير إنما هى نظر شخصى المفسر ، ينظر فى كتاب الله ببصره أو بصيرته ، ثم يقول بما استطاع أن يرى من كلمات الله وما انكشف له من أسرارها .

---

(٣) الاتقان للسيوطى جزء ٢ ص ٢٢٠

أما الملاحم والمغازى ، فإنها — إذ لم تكن عن وثائق مدونة فى حينها ، بأيدى أهل الثقة والخبرة — فقد غلب عليها الهوى الشخصى ، وأصبح أمرها إلى مشاعر الناس ، وإلى مايغذّى تلك المشاعر ويرضيها .

ثانياً — الأحاديث النبوية

وما قلناه عن مقولات المفسرين فى أسباب النزول ، نقوله فى الأحاديث التى تضاف إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وما فيها من ذكر أشخاص بأعيانهم ووصفهم بصفات مدح أو ذم . . إذ ينبغى أن نتلقى هذه الأحاديث التى تزاحمت فى هذه الفترة — بشىء غير قليل من الحيطة والحذر ، وأن نذكر أن الفِرَق المتنازعة حينذاك قد كان من أسلحتها القوية فى الصراع الدائر بينها ، ما كان يمدّها به الأنصار والأعوان من أحاديث محرّفة أو مُتَقَوّلة على رسول الله !

وقد أصبحت هذه الأحاديث مادّة قوية واضحة فى بناء الأحداث ، وفى تصوير الشخصيات ، وفى تعديلها وتجريحها ، وقد أكثر الناس من التقوّل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى هذا الباب . وكأنهم تأولوا لهذا ، حين رأوا أن مايتقولونه فى هذا الباب . لايدخل منه شىء على الشريعة الإسلامية ، ولهذا لم يتحرجوا فى أن يتقوّلوا على رسول الله ، وأن يستكثروا من هذا التقوّل ، ثم يبلغ بهم الأمر إلى أن ينسوا أنهم يتحدثون عن لسان لاينطق عن الهوى ، فتجىء منهم المتناقضات ، ومالا يقبله العقل ، ولا يصدقه الواقع المحسوس !!

ثالثاً : كتب المغازى والتاريخ والسير

كتب المغازى والتاريخ والسير ، التى رسمت معالم تلك الفترة ، اعتمدت اعتماداً كبيراً على مرويات المفسرين للقرآن ، والمحدّثين عن رسول الله ، بل كان ذلك ، هو عمدتها فى هذا المجال ، تدور حوله ، وتبنى عليه !

ولهذا ، فإن هذه الكتب – على كثرتها – يمكن أن تحسب كتاباً واحداً ، إذ كان عمدتها – كما قلنا – مرويات المفسّرين والمحدّثين !

والخلاف بينها ، فى أن بعضها يأخذ بجميع المرويات ، على حين أن بعضها الآخر يقبل قليلا ويرفض كثيراً ، وعكس هذا فى نوع ثالث منها . يأخذ كثيراً ويعدل عن قليل .

ومنشأ هذا الإقلال أو الإكثار هو ما يقع فى نفس المؤرخ من هذه المرويّات ، ومدى ثقته بها ، وتعويله عليها .. على أن هناك فريقاً من المؤرخين غلبت عليهم نزعة خاصة ، مذهبية أو عقائدية ، أو سياسية ، فتخيروا من تلك المرويات ما وافق نزعاتهم ، ثم جعلوها نسقاً واحداً ، تؤلّف منه الصورة التى يرضون عنها !

* * *

وطبيعى أننا إذ نعرض لهذه المؤلفات باعتبارها مصادر للقضية التى نؤرخ لها لا نلمّ بها إلاّ إلماماً ، فإن دراستها دراسة موضوعية تحليلية ليس موضوع بحثنا ، وإنما هى لفتة مجملة إلى تلك المصادر ، نعرف بها وجوهها التى نصحبها عليها ، كما نصحب أناساً فى سفر .. فى قطار أو باخرة ، نرى وجوههم ، ونعرف سماتهم ، دون أن نتعرف على ما يشتمل عليه كيانهم من علم أو خلق . .

على أنه إذا كان هذا هو شأننا مع تلك المصادر فى أول الطريق ، فإننا إذ نلتقى بها لقاء متصلا فى مراحل البحث ، سنعرف الكثير عنها ، والوزن الصحيح لكل منها .

وهذه بطاقة تعريف بأهم تلك المصادر ، حسب ترتيبها الزمنى :

١ – تاريخ محمد ابن اسحق

المتوفى سنة ١٥١ هـ

يعدّ ابن إسحاق من السابقين الأولين ، من المؤرخين الإسلاميين ، وقد تتلمذ عليه كثيرون ، وأفادوا من علمه ، وما وعت ذاكرته ، وخط قلمه ، من أخبار وأحداث .

والذى بقى لنا من آثار ابن اسحق هو ما رواه عنه تلاميذه ، أو نقلوه من كتبه ، أما كتبه فقد فقدت فيما فقد من تراثنا المجيد ! .

وابن هشام صاحب « السيرة » اعتمد فى أكثر أخباره على ما نقله أو رواه عن أستاذه ابن اسحق ، حتى ليكاد يكون كتاب السيرة من إملاء ابن إسحق ، لم يُحدِث فيه ابن هشام جديداً ، إلا شيئاً من التهذيب والتبويب ، وإلا إضافات قليلة مما وقع له عن غير طريق ابن اسحق ! .

وقد اعتمد ابن إسحق فى مروياته التاريخية على كثير مما سمع أو قرأ من الإسرائيليات ، التى كانت معتمد القصاص والإخباريين ، فيما يُروى من أخبار السابقين ! .

أما أحداث ما بعد الإسلام ، فيما يتصل بالسيرة النبوية ومغازى الرسول ، وعصر الخلفاء الراشدين ، وفتوح المسلمين ، فقد اعتمد فيه على ما عند الناس من أخبار ، تناقلوها شفاهاً ، أو توارثوها فى مدونات متناثرة ، كالرسائل والخطب ، والعهود وغيرها ! مضافاً هذا إلى مرويّات المفسرين والمحدّثين .

وكان ابن إسحق قد نَصَبَ نفسه لهذا الميدان ، ميدان السير والأخبار ، فاجتمع له من ذلك شىء كثير ، تلقاه من كل مصدر ، وحدّث به كلّ من اجتمع إلى مجالسه ، حتى لقد شُهِر بذلك ، فكان مقصد العلماء والطلاب ، ويقال إن أبا يوسف ، صاحب أبى حنيفة ، كان ممن يحضر مجالسه ، ويستمع له .

روى ابن خلكان أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب ، وأنه تخلّف مرة عن مجلس أبى حنيفة لاشتغاله بالاستماع إلى ابن إسحق ، فلما جاء ، قال له أبو حنيفة — معرّضاً بكذب الإخباريين — يا أبا يوسف : من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ، وإن لم تمسكْ عن هذا سألتك والله على رءوس الملأ : أيهما كان أولاً ، وقعة بدر أم وقعة أحد [1] ؟ » .

يريد أبو يوسف أن يقول : إن حفظ الأخبار ، ودراسة التاريخ ، مما لا يستغنى عنه رجل الفقه ، فى استنباط الأحكام ، والاستدلال عليها من طبيعة الأحداث ، وملابسات زمانها ومكانها ! .

وعلى أىّ ، فإن ابن إسحق كان من المصادر الأولى للتاريخ الإسلامى إلى منتصف القرن الثانى ، وأنه غلب عليه طبع القاصّ الذى يوسّع من رقعة الأحداث ، ويستكثر من وجوه العرض لها ، حتى تُعجِبَ ، وتروق ! .

* * *

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جزء ٢ ص ٤٥٢ .

٢ – مغازى الرسول

للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

هو أبو عبد الله ، محمد بن عمر الواقدى .

ولد سنة ١٣٠ هـ بالمدينة المنورة .

وتوفى سنة ٢٠٧ ببغداد ، وقد سمع عن مالك بن أنس ، والثورى ، ومعمر بن راشد بن أبى ذؤيب ، وغيرهم .

وهو أستاذ محمد بن سعد ، صاحب « الطبقات الكبرى » وكان ابن سعد يسمَّى « كاتب الواقدى » وإن كان بعضهم قد جعل التلميذ أكثر ثقة من أستاذه !

وكتابه « المغازى » فى غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أفاد منه ابن هشام فى سيرته ، واعتمد عليه كثيراً فيما روى من سيرة الرسول وغزواته ، وقد أخذ عنه محمد بن إسحق[1] ، وكان يقول : « والله لولا أنه عندى ثقة ، ما حدَّثت عنه » .

وقال الإمام إبراهيم بن الحربى : من قال إن مسائل مالك وابن أبى ذؤيب تؤخذ من أوثق من الواقدى فلا تصدقه .

وقال ياقوت ، صاحب معجم الأدباء : « وهو مع ذلك ضعَّفه طائفة من المحدِّثين ، كابن مَعين ، وأبى حاتم ، والنسائى ، وأبى عدىّ ، وابن راهويه ، والدارقطنى .

أما فى أخبار الناس ، والسير والفقه وسائر الفنون فهو ثقة بإجماع » .

---

(١) يروى هذا الخبر ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ٢٧٨/١٨ ، والمعروف أن ابن إسحق توفى سنة ١٥١ على حين كان مولد الواقدى سنة ١٣٠ ، فإذا صح هذا كان معناه . أن ابن إسحق التقى بالواقدى وهو فى أول مدارج الشباب ، فى الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة وأنه سمع منه بعض ما وقع عليه من أخبار ، وبان له منها أنه صادق فيما يقول ، فشهد له تلك الشهادة ، شهادة أستاذ لتلميذه يتوسم فيه الخير .

٣ – تاريخ السيرة

لابن هشام

المتوفى سنة ٢٣٠ هـ

هو صاحب الكتاب المعروف بالسيرة .

وقد اعتمد فيه على ماروى عن أستاذه ابن اسحق ، ولم يخرج على تلك الروايات إلا فى أحوال قليلة ، وفى أمور جزئية ، ربما يكون الزمن قد كشف منها مالم يكن قد انكشف لابن اسحق فى مجال استماعه ، أو اطلاعه ! .

ولكتاب السيرة مكانته واحترامه ، كمصدر من مصادر السيرة النبوية ، بل إنه ليكاد يكون المصدر الأول المعوّل عليه فى تلك السيرة الطيبة ، فقد أخذ عنه كل من جاء بعده ، وعوّل عليه كل من تصدّى للكتابة فى العصر النبوى .

والذى أكسب ابن هشام وكتابه تلك المنزلة أنه لم يكن شيعة لأحد ، شأنه فى هذا شأن ابن اسحق ، أستاذه .

وهو يروى الأخبار عن ابن اسحق ، الذى يرويها متصلة السند عن أصحابها . . فإذا كان فيها شىء فهو فى أولئك الرواة . ومن جهتهم كانت آفتها .

٤ ــ الطبقات الكبرى

لابن سعد

المتوفى سنة ٢٣٠ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري .

ولد سنة ١٦٨ هـ بالبصرة ، وتوفى سنة ٢٣٠ هـ أى فى السنة التى توفى فيها ابن هشام صاحب كتاب السيرة ، وهو تلميذ « الواقدى » صاحب كتاب « المغازى » وكان يسمى كاتب الواقدى .

وكتابه « الطبقات » موسوعة تضم أخبار الصحابة والتابعين . حسب الترتيب الزمنى فى صحبتهم لرسول الله . فبدأه بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين ، ثم بمن سبق إلى الإسلام . ولم يشهد بدراً . . . . وهكذا .

وهو عند العلماء من أهل الثقة والعدالة .

يقول فيه الخطيب البغدادى : « محمد بن سعد » ، عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنه كان يتحرى فى كثيرٍ من رواياته .

وقال عنه ابن خلكان : « كان صَدُوقا ثقة » .

وقال عنه ابن حجر : « أحد الحفاظ الكبار ، الثقات ، المتحرّين » .

وقد ضعفه بعضهم ، لأنه كان تلميذاً للواقدى الذى كان متشيعاً لآل البيت ، وكان قاضياً للخلفاء العباسيين .

٥ – الإمامة والسياسة

لابن قتيبة الدينورى

المتوفى سنة ٢٧٦هـ

اهتمّ ابن قتيبة فى كتابه « الإمامة والسياسة » اهتماما خاصاً بالفتنة التى كانت فى أخريات خلافة عثمان ، ثم ماتلاها فى خلافة علىّ ، وما وقع من حروب ، كوقعة الجمل ، وصفين ، والنهروان ، وغيرها .

وهو ينقل عن كثير ممن سبقوه كابن اسحق ، وابن سعد ، وغيرهما .

وقد أورد معظم أخباره غير مسندة ، مخالفاً بذلك السَّنن الذى كان متبعاً عند رواة السير والأخبار ، ممن سبقوه ، أو عاصروه . إذ غلب عليهم المنهج الذى كانوا يتبعونه فى رواية الأحاديث النبوية ، وكان كثير منهم محدّثا ، قبل أن يكون مؤرخا .

واكتفى ابن قتيبة بأن يصدر أخباره بنسبتها تلك النسبة المجهّلة العامة .. فيقول : ذكروا ، أو قالوا ، أو حدثوا ، أو رووا .

ولعله لم يكن ذلك من ابن قتيبة عن رغبة فى الاختصار ، بقدر ماهو شعور بأن هذه الأخبار التى تروى أحداث هذه الفترة ، ليست على الصحة والسلامة التى يُطمأن إليها . ويوثق بها .. وإذن فليس ثمة داعية لربطها هذا الربط المحكم ، وشدّها ذلك الشد الوثيق بسلسلة موصولة الحلقات بأهل الثقة من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وإنه لأقرب إلى طبيعتها والأشبه بحالها أن ترسل هكذا إرسالا ، لا تُحمل على أحد ، ولاتضاف إلى أحد ، وبهذا يمكن أن يسوّى حسابها ، وتقدر قيمتها ، فى ذاتها ولذاتها ، دون نظر إلى شىء آخر وراء ما يحمل جوهرها من صدق أو كذب ! .

٦ – تاريخ الأمم والملوك

للطـــــبرى

المتوفى سنة ٣١٠ هـ

هو أبو جعفر ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب . . الطبرى
ولد سنة ٢٢٤ . وتوفى ببغداد سنة ٣١٠

وكتابه المعروف بتاريخ الطبرى ، أو (تاريخ الأمم والملوك) من أم مصادر التاريخ الإسلامى ، لاتساع موارده ، وصفاتها .

وقد اعتمد عليه ابن خلدون فى تاريخه المعروف ، وشهد لصاحبه بالثقة والعدل .

يقول ابن خلدون بعد أن نقل فى تاريخه واقعة الجمل : « هذا أمر الجمل ، ملخصاً من كتاب أبى جعفر الطبرى ، اعتمدناه للوثوق به . . »

ويقول تعليقاً على حادثة أخرى نقلها من تاريخ الطبرى : « أوردتها ملخصة عيونها ومُجاجتها من كتاب محمد بن جرير الطبرى ، وهو تاريخه الكبير ، فإنه أوثق ما رأيناه فى ذلك ، وأبعد عن المطاعن والشّبة .. فى كبار الأمة ، وخيارهم ، وعدولهم ، من الصحابة والتابعين » .

وحسبك بهذا شهادة على قدر هذا الكتاب وخطره ، ولا ينبئك مثل خبير ، فابن خلدون صاحب فلسفة التاريخ ، وناقد المؤرخين . قبل أن يكون مؤرخاً ، وناقلا عن أصحاب الأخبار . ومع هذا ، فإن الطبرىّ كان فى كتابه هذا متلقيًا ممن سبقه ، وناقلاً مما رواه المؤرخون قبله !

فلقد قبل الطبرىّ كل معارف عصره ، من غث وثمين ، وأخذ بكل المرويات وما تحمل من شبه وظنون دون أن يرفض شيئاً ، أو يتوقف عند

شيء ! وخاصة ما يتصل بما قبل الإسلام ، إذ كان متعمده فى ذلك على ما عند اليهود والنصارى ، الذين كان يسميهم أهلَ العلم .

وهذا وإن بدا عيباً واضحاً يُزرى بقدر من يتصدى لكتابة التاريخ ، فإننا نجد فيه لأسلافنا عذرًا يسع هذا العيب ، ويغطى ذلك النقص ، وهو أنهم كانوا حريصين على ملأ هذا الفراغ الكبير ، الذى اقتطعه الزمن من حياة الأمة العربية ، دون أن تضبط أحداثه أو يسجل تاريخه . فلم يكن أمامهم ـ والأمر كذلك ـ الا أخذ كل ما يقع لأيديهم من هذا التراث الضائع أو المشرف على الضياع !

أما ما بعد الإسلام ، فقد اعتمد فيه الطبرى على مرويات المفسرين والمحدّثين ، وقد كان هو إماماً فى التفسير والحديث . .

وقد اتهم الطبرى بأنه لم يكن محايدًا فى رواية الأخبار ، وأنه كان ذا هوًى مع الشيعة ، يحدّث بالأخبار التى تنتصر لرأيهم ، وتفحم خصومهم ! وهذا ما يفسّر العداوة التى كان يبديها الحنابلة له . . يقول ياقوت الحموى رواية عن أبى بكر بن خالويه : « ولقد ظلمته الحنابلة ، وكانت تمنع ولا تترك أحداً يسمع عليه . »[1] والحنابلة كانوا على عداوة للخلفاء العباسيين ، ولمن يحسن القول فيهم ، وذلك بعد محنة الإمام أحمد بن حنبل شيخ المذهب ، فى فتنة القول بخلق القرآن .

ومع هذا ، فقد ظل تاريخ « الطبرى » عمدة كتب التاريخ الإسلامى ، يتوارد عليه العلماء والمؤرخون ، قديماً وحديثاً . .

يقول ابن حزم عن واقعة الجمل وصفين : « وحديثهما قد اعتنى به ثقات أهل التاريخ كأبى جعفر بن جرير ، وغيره »[2] .

---

(١) معجم الأدباء جزء ٨ ص ٤٣ .

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص ٣٥٥ .

رجال القضية

هى صورة مجملة ـ كما قلنا ـ تلك التى رأينا أن نعرضها هنا ، لأولئك الذين كان لهم دور فى تلك القضية التى سنلتقى بها عما قليل !

وهذه الصورة المجملة ـ على صغرها ـ سنراها على أوسع مدًى ، حين تثيرها الأحداث ، وتحركها المواقف !

وقد رأينا ألا نعرض هنا صورتى عثمان وعلىّ ـ رضى الله عنهما ـ فإن الموقف موقفهما ، والأحداث تدور من حولهما ، ثم إن القضية ـ أولاً وأخيراً ـ هى قضيتهما .

١ – مروان بن الحكم

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبد مناف ، أبوه الحكم بن أبى العاص ، عم عثمان بن عفان ، رضى الله عنه .

أسلم الحكم عام الفتح إسلام الطلقاء ، وكان طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعينه .

قال « البلاذرى » : « إن الحكم بن أبى العاص كان جاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، وكان أشد جيرانه له أذى فى الإسلام .

« وكان قدومه إلى المدينة بعد فتح مكة ، وكان مغموصاً عليه فى دينه[١] فكان يمرّ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغمز به ، ويحكيه ـ مستهزئا ـ ويخلج بأنفه وفمه ، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه ، فبقى على تخليجه ، وأصابته خُبيلة .

« واطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، وهو فى حجر نسائه ، فعرفه ، وخرج إليه بعنزة ـ أى حربة صغيرة ـ وقال : « من عَذِيرى من هذا الوزغة اللعين ؟ » ثم قال : « لا يساكننى ، ولا ولده » فغرّبهم جميعاً إلى الطائف (فى موضع يقال له بطن وج) .

فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلّم عثمانُ أبا بكر فيهم ، وسأله ردّهم ، فأبى عليه ذلك ، وقال : « ما كنت لآوى طرداء رسول الله » ثم لما استُخلف عمر، كلّمه فيهم ، فقال مثل قول أبى بكر ، فلما استُخلف عثمان أدخلهم المدينة وقال : « كنت كلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، وسألته ردهم فوعدنى أن يأذن لهم ، فقبض قبل ذلك ».فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة، ثم ولّى الحكم صدقات قضاعة (حىٌّ باليمن)فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها

---

(١) أى مطعونا عليه ، ومتهما فى دينه .

له ، حين أتاه »[1] .

ومات الحكم في خلافة عثمان ، فصلّى عليه ، وضرب على قبره فسطاطا[2] » .

وكان للحكم واحد وعشرون ولداً ، وثمان بنات .

وقد ولد مروان لسنتين خلتا من الهجرة ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن ثمان سنين .

وكان كاتباً لعثمان رضى الله عنه إلى أن قتل .

ويكاد يُجمع المؤرخون على أن مروان هو الذى كان من وراء الأحداث التى أثارت الناس على عثمان ، ولولاه لما كان بين عثمان وبين الشاغبين عليه هذا الخلاف ، الذى أخذ يتسع شيئاً شيئاً ، حتى قُتل الخليفة بأيدى الثائرين عليه .

وما زال مروان فى متلاطم الأحداث والفتن حتى أصبح الخليفة الرابع ، من خلفاء بنى أمية ، بعد معاوية ، وابنه يزيد ، ومعاوية بن يزيد ! !

يقول ابن سعد فى طبقاته :

« فلم يزل مروان مع ابن عمه عثمان بن عفان ، وكان كاتباً له ، وأمر له عثمان بأموال ، وكان عثمان يتأول فى ذلك صلة قرابة ، وكان الناس ينقمون على عثمان ، تقريبه مروان وطاعته له ، ويرون كثيراً مما ينسب إلى عثمان لم يأمر به ، وأن ذلك عن رأى مروان ، دون عثمان ، فكان الناس شنِعوا بعثمان لِمَا كان يصنع بمروان ويقرّبه » .

ويروى صاحب الأغانى : أن ابن الزبير لما خلع يزيد ، وهو فى المدينة ، أمر من كان بالمدينة من بنى أمية أن يخرجوا منها ، فجاء مروان إلى عبد الله ابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن هؤلاء القوم ركبونا بما ترى، فضمّ عيالنا ، فقال : لست من أمركم وأمر هؤلاء فى شىء ، فقام مروان وهو يقول : قَبحَ الله هذا أمراً ، وهذا ديناً[3] !! » .

---

(١) فى المعارف لابن قتيبة أنها مائة ألف درهم .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ٥ ص ٢٧ .

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤ .

٢ – عبد الله بن سعد بن أبى السرح

أبوه سعد بن أبى السرح من المنافقين .

أسلم عبد الله قبل الفتح ، وهاجر إلى المدينة ، وكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدّ مشركاً ، وعاد إلى مكة يحدث قريشاً الكذبَ عن رسول الله ، ويقول : إنى كنت أصرّف محمداً حيث أريد . . كان يُملى علىّ : « عزيز حكيم » فأقول : « أو عليم حكيم » ! فيقول : نعم ، كلٌّ صواب !

وفيه أُنزل قوله تعالى : « ومَن أظلَمُ مِمّن افترى على الله كَذِباً ، أو قال أُوحِيَ إلىّ ولم يُوحَ إليه شىء ، ومن قال سأُنزل مثلَ ما أنزل الله . . ولو ترَى إذ الظالمون فى غَمَرَاتِ الموتِ ، والملائكةُ باسِطِو أيْديهم ، أَخْرِجوا أنفُسَكُمْ اليومَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غَيرَ الحقِّ ، وكُنتُم عن آيَاتِهِ تستَكبرون »[1] .

فلما كان يومُ الفتح أهدر الرسول دمَه ـ فيمن أهدر من المشركين والمنافقين ـ ولو وُجد متعلقاً بأستار الكعبة . . وقد قال صلوات الله وسلامه عليه يوم الفتح : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن جنح إلى الكعبة وألقى السلاح فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، غير عدوّ الله، عبد الله ابن أبى السرح . . . . »

وقد شفع له عثمان ـ رضى الله عنه ـ إذ هو أخوه من الرضاعة ، فانطلق به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلّم عليه فأعرض عنه ، ثم انصرف من قِبَلِ وجهه فسلّم عليه ، فصرف عنه وجهه . . ثلاث مرات . . ثم قال

---

(١) سورة الأنعام : ٩٣

لعثمان : نعم ! ! . فلما انصرف عثمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « ماصَمَتّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضربَ عنقه[1] » فقالوا : هَلاَّ أومأتَ إلينا ؟ فقال : « إن النبي لاينبغى أن تكون له خائنة أعين » .

ثم حين ولى عثمان الخلافة ولاه مصر ، سنة خمس وعشرين ، وعزل عنها عمرو بن العاص . . ثم لما فتح ابن أبى السرح أفريقية أعطاه عثمان خمس غنائم الغزوة الأولى ، وبقى أميراً على مصر حتى سنة أربع وثلاثين ، حيث ثار ابن أبى حذيفة فى مصر ، فمضى ابن أبى السرح إلى عسقلان ، وأقام بها حتى قتل عثمان »[2] .

ولا بد من وقفة عند هذا الوصف الذى وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى السرج بأنه « عدو الله » ثم إباحة الرسول دمه ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة ، لائذاً بالبيت الحرام .

إن ذلك حكم قاطع من رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذى لاينطق عن الهوى — بأن ابن أبى السرح لن يكون فى المؤمنين أبداً ، ولو لبس لباس المسلمين ، وتزيا بزىّ الإسلام . . إنه « عدو الله » .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبِلَ فيه شفاعة عثمان رضى الله عنه ، واستبقى حياتَه ، فإن ذلك لاينسحب على المصير الذى هو صائر اليه !

وسنرى أن ابن أبى السرح كان من بواعث الثورة على عثمان ، وأن أهل مصر كانوا فى مقدمة الأمصار التى خلعت طاعة الخليفة ، عثمان رضى الله عنه .

---

(١) وليس على أحد حرج فى أن يضرب عنقه بين يدى النبى ، إذ كان قد أهدر دمه .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى جزء ٥ ص ٤٩ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جزء ١ ص ٦٨ ، والمغازى للواقدى ص ٢٣٢ .

٣ — الوليد بن عقبة

أبوه عقبة بن أبى مُعيط بن أبى عمرو !

كان عمرو عبدًا لأمية بن عبد شمس ، ثم تبنّاه .

وأم الوليد أروى بنت كُريز ، وهى أم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كان قد تزوجها عفان بعد عقبة بن أبى معيط ، وبعد أن ولدت له الوليد ، وخالدا ، وعمارة ، وأم كلثوم . فهؤلاء أخوة عثمان لأمه .

وكان عقبة بن أبى معيط جاراً لرسول الله بمكة ، وكان يكثر مجالسته ، ويحسن معاشرته . ثم تحول بعد هذا ، فكان أشدّ الناس على رسول الله ، وأكثرهم أذى له .

قيل إن عقبة اتخذ يوماً ضيافة ، فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل ، فقالت قريش : صَبَا عقبة !

وكان لعقبة خليل(١) غائب ، بالشام ، فلما عاد سأل امرأته فيما سأل : مافعل محمد مما كان عليه ؟

قالت : أشد ما كان أمراً !

قال : ما فعل خليلى عقبة ؟

قالت : صَبَا !

فبات ليلة سوء .. فلما أصبح أتاه عقبة ، فحيّاه ، فلم يرد عليه ! فقال : مالك لا ترد ؟

---

(١) قيل إنه أمية بن خلف .

قال : لا أرد عليك تحيتك ، وقد صبوت ؟

قال : أوَ قد فعلتها قريش ؟ فما يبرىء صدورهم إذن ؟

قال : تأتيه في مجلس ، فتبزق في وجهه ، وتشتمه بأقبح ما تعلم من الشتم ، ففعل ! فلم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن مسح وجهه ، ثم التفت إليه فقال : « إن وجدتك خارجاً من مكة أضرب عنقك صبراً ! »

ومن يومها أصبح عقبة من ألدّ أعداء النبي ، حتى إنه كان يأتي بالفَرْث فيطرحه على باب رسول الله !

وفي عقبة نزل قوله تعالى: « ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه ، يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ، ليتني لم أتخذْ فلاناً خليلا ، لقد أضلّني عن الذكر بعدَ إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولا »[1] .

فلما كان يوم بدر ، كان عقبة بن أبي معيط في الأسرى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله صَبْراً . فقال : أتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال : نعم ، بكفرك ، وفجورك ، وعتوك على الله ورسوله . » ثم أمر علياً بضرب عنقه »[2] .

وفي الأغاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل عقبة ، قال : يامحمد ، أأنا خاصة من دون قريش ؟ قال : نعم . قال : فمن للصبية من بعدي ؟ قال : النار . . فلذلك سُمّي بنو أبي معيط صِبيةَ النار »[3] .

* * *

هذا عن عقبة ابن أبي معيط .

---

(١) سورة الفرقان : ٣٠ — ٣٢ .

(٢) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ١٨٦ ، السيرة لابن هشام جزء ص ٣٨٥

(٣) الأغاني جزء ١ ص ١٧

أما ابنه « الوليد » فهو من الطلقاء ، أسلم يوم فتح مكة ، وقد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم مصدِّقًا إلى بنى المصطلق ، فعاد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ، ومنعوا الصدقة ، فبعث إليهم النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فوجدهم على الإسلام ، لم يغيروا شيئاً ، وفى هذه الحادثة نزل قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

وفى خلافة عثمان — رضى الله عنه — ولاّه إمارة الكوفة بعد أن عزل عنها سعد بن أبى وقاص ، وكان سعد هو الذى كوّف الكوفة بأمر عمر ، وهو الذى فتح العراق ، ثم هو قبل كل هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر الخلافة من بعده .

وسنرى أن الوليد سار فى الكوفة سيرة أنكرها عليه المسلمون الذين عاشوا فى إمارة سعد ، وكان ذلك من الأسباب البارزة فى الثورة على عثمان .. رضى الله عنه .

٤ ــ معاوية بن أبى سفيان

أبوه ، أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

تزوجت هند الفاكه بن المغيرة المخزومى ، فقتل عنها ، ثم تزوجت حفص ابن المغيرة ، فمات عنها ، فتزوجها أبو سفيان .

---

(١) الحجرات : ٦ .

وقيل إن الفاكه بن المغيرة ، اتهمها بالزنا ، فبانت منه . . كما يروى ذلك صاحب العقد الفريد . . ويروى ابن أبى الحديد ، فى شرح نهج البلاغة أنها كانت تُذكر بفجور وعهر .

وفى الأغانى[1] أن المسافر بن عمرو بن أمية عشق هنداً ، فاتّهم بهما ، فحملت منه ، فلما بان حملها أو كاد خرج مسافر إلى النعمان بن المنذر يستعينه على أمره ، فتزوجها أبو سفيان بعده !

وقال الزمخشرى فى « ربيع الأبرار » :

« وكان معاوية يُعزى إلى أربعة : إلى مسافر بن أبى عمرو ، وإلى عمارة ابن الوليد ، وإلى العباس بن عبد المطلب ، وإلى الصبّاح ، وهو مُغَنٍّ لعمارة ابن الوليد .

« قال : وكان أبو سفيان دميماً قصيراً ، وكان الصباح عسيفاً لأبى سفيان ، شاباً ، فدعته هند إليها فغشيها . »

وقد كانت هذه المقولات شائعة فى هند قبل فتح مكة ، وكانت أخبارها تدور على الألسنة ، حتى لقد أمسك بها حسان بن ثابت ، فذكرها فى شعره ، وجعلها سهاماً يرمى بها فى صدور المشركين يومذاك ، وعلى رأسهم أبو سفيان . يقول حسان :

لمن الصبىُّ بجانب البطحاء   فى التُّرب مُلقى غيرَ ذى مَهْدِ
نَجَلَتْ به بيضاء آنسةٌ   من عبد شمس صَلْتَةُ الخدِّ
تسعى إلى الصبَّاح[2] معولة   ياهند إنك صلبة الحَرْدِ

(١) الأغانى . . جزء ٩ ص ٥ .

(٢) الصباح كان يخدم فى بيت أبى سفيان .

غلبت على شَــبَه الغلام وقد بان الســواد لحالكٍ جَعْدِ

وقال فى هند أيضاً :

لمن ســـــواقط صبيان منبّذةٍ باتت تَفَحّص فى بطحاء أجيادِ

باتت تمخّض ، ما كانت قوابلها إلا الوحوش ، وإلاّ جِنّة الوادى

فيهم صبىّ له أم لها نسب فى ذروة من ذُرى الأحساب أيّادِ

تقول وهناً وقد جَدّ المخاض لها ياليتنى كنت أرعى الشّوْل للغادى

قد غادروه لحر الوجــه منعفرا وخالها وأبوهــا سيدا النّادى

وهند هى التى قادت حملة النساء المشركات اللائى صحبن أزواجهن فى غزوة أحد ، للتحريض على الثأر بقتلى بدر . . فلما أصيب المسلمون ، واستُشهد حمزة أقبلت هند ومن معها تمثل بالشهداء ، وتقطع آذانهم ، ثم بقرت بطن حمزة ، وأكلت من كبده !

أما أبوسفيان فقد كان على رأس المشركين فى وقعتى بدر وأحد ، ثم فى وقعة الخندق ، وفى كل أمر كانت تجتمع له قريش لتقف فى وجه رسول الله !

وأسلم أبوسفيان عام الفتح ، والنبى والمسلمون على مشارف مكة .

وذلك أنه لما قرب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون من مكة فى طريقهم إلى فتحها ، ركب العباس بن عبد المطلب بغلة النبى ، وخرج يطلب أحداً إلى قريش ، ليأتوا إلى النبى ويستأمنوه،فأدرك ثلاثة من قريش ، فيهم أبوسفيان ، خرجوا يتجســون ، فقال العباس لأبى سفيان : والله إن ظفر بك ليضربنّ عنقك . . ثم أردفه خلفه ، وأخذه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستأمن له ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

فقال : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك . . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئاً بعد !

قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى . . ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك . . أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً !

فقال العباس : ويحك ! ! أسلمْ قبل أن تُضرب عنقك ، فشهد وأسلم ! »

وهو إسلام — كما ترى — على شىء من الخوف ، وشىء من الشك ، وشىء من الحسد أن يكون محمدا رسولا ، وأن تكون له الكلمة فى قريش ، وفى العرب جميعاً !

ولهذا فقد كان إسلام أبى سفيان صفقة تجارية ، حمى بها نفسه من القتل ، وضمن لنفسه مكاناً جديداً فى المجتمع الجديد !

إن أبا سفيان وأمثاله ممن كانوا أصحاب رياسة وسيادة فى قريش، لم تَطب نفوسهم أن يستجيبوا لمحمد ، وأن يكونوا من وراء كلمته . . يسمعون له ويطيعون ، فيما يدعوهم إليه !

وكان أبو سفيان لا يرى « محمداً » إلا من هذه الجهة التى ينازعه فيها الزعامة ، وينتزعها من يديه ، ولا يرى أن الأمر أمر نبوة ، لا يعنيها إلا هداية الناس ، وإلاّقياد تهم إلى سبل الخير والرشاد، وإلا إقامة موازين الحق والعدل بينهم . . وأنها — وهذه سبيلها — بعيدة عن الجاه والسلطان ، وعن التسلط والقهر ، وعن التطاول على الناس بالمنعة والقوة !

ولكن هكذا كانت نظرة أبى سفيان إلى النبى ، وإلى رسالة النبى !

شهد أبو سفيان جيوش المسلمين وهى تتدفق تدفق السيل ، فى طريقها إلى

مكة ، وكان العباس بن عبد المطلب معه ، وهو يرقب هذا المشهد . . فكانت كلما مرت قبيلة سأل عنها ، وأظهر استخفافه بها ، حتى إذا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، عليهم الحديد ، لايظهر منهم إلا الحدق . . قال : مَن هؤلاء ؟ قال العباس : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ! قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل ولا طاقة . . لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما ! فقال العباس : يا أبا سفيان . . إنها النبوة ! قال : فنعم إذن !

ولقد أصبح أبوسفيان فى المسلمين ، ولكنه ظل مع ذلك يَغَصّ بالإسلام الذى أنزله عن مقامه ، وقدّم عليه أمثال بلال ، وعمار ، وسلمان الفارسى ! وجعله إنساناً من عامة الناس ، وفى الصفوف المتأخرة فى المجتمع الجديد .

وكانت الأيام والأحداث تهيج فى أبى سفيان ما كان الإسلام يعمل على اقتلاعه من نفسه ، وتثير فى صدره حِكّة ، كلما أوشكت جراحاته أن تندمل !

فحيثما تحرك فى الحياة الجديدة ، وحيثما التفت إلى نفسه بين الناس ، لم يجد تلك الشخصية المرموقة التى كان يراها الناس منه ، ولم ير فيه إلا شبحاً لاتأخذ العين منه إلاما يسوء ويغيظ .

فأين أبوسفيان الذى عرفته قريش صاحب عِيرها ونفيرها ؟ لقد أنزله الإسلام عن هذا المقام ، ونزع بيده عنه هذا الرداء نزعاً ، ليكون واحداً فى آحاد الناس !

روى ابن عساكر ، أن أبا بكر — رضى الله عنه — لقى أبا سفيان مرّة ، فأغلظ له القول ، وأبوقحافة يسمع ، فقال : يا أبا بكر . . أتقول هذا لأبى سفيان ؟ فقال : يا أَبَهْ . . إن الإسلام رفع بيوتاً ووضع بيوتاً ، وكان بيتى فيما رفع ، وبيت أبى سفيان فيما وضع »[1] .

---

(١) ابن عساكر جزء ٦ ص ١٨١ .

ورُوِى أن عمر — رضى الله عنه — اجتاز فى سِكك مكة ، وأمر الناس أن يقمّوا أفنيتهم ، ثم اجتاز بعد ذلك بفناء أبى سفيان ، فرأى الفِنـاء على ما رآه أولاً ، فَعَلاَ أبا سفيان بالدِّرَّة بين أذنيه . فسمعت هند بذلك فقالت : أبِضرِبه ! أما والله لرُبَّ يوم لو ضربته لاقشعر بك بطن مكة ! ! فقال عمر صدقتِ ، ولـكن الله رفع بالإسلام أقواماً ، ووضع به آخرين » .

إن الجرح الغائر الذى أصاب أبا سفيان فى زعامته ورياسته منذ جاء الإسلام وألجأه إلى الدخول فيه — هذا الجرح لم يندمل أبداً ، وإن كل شىء حول أبى سفيان كان يحكّ هذا الجرح أبداً ، فينفَر قيحاً وصديداً . . كان ذلك فى حياة رسول الله ، ولـكنه كان يتحامل على نفسه ، ويوطنها على الصبر على ما تـكره ، خوف أن يفضحه الإسلام ، والقرآن ينزل بما يفضح المنافقين !

فلما ولى الخلافة أبو بكر ، ثم عمر ، كان يتربص المواقف ، ويتحين الفُرص . . لعل وعسى !

روى ابن الأثير عن عبد الله بن الزبير قال : كنت مع أبى باليرموك[1] ، وأنا صبى لا أقاتل ، فلما اقتتل الناس ، نظرت إلى ناس على تلّ لا يقاتلون ، فركبت وذهبت إليهم ، وإذا أبو سفيان بن حرب ، ومشيخة من قريش ، من مهاجرة الفتح ، فرأونى حَدَثاً ، فلم يتقونى .

قال : فجعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون : إيهٍ بنى الأصفر »[2] فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا : « ويح بنى الأصفر » فلما هزم الله الروم أخبرت أبى ، فضحك ، فقال : قاتلهم الله ، أبَوْا إلا ضِغنا ،

---

(١) موقعة ببلاد الشام كانت بين المسلمين والروم فى خلافة عمر .

(٢) إيه : كلمة إعجاب ، وبنو الأصفر : الروم .

لنحن خير لهم من الروم »![1] .

وفى رواية الأغانى :

« فكانت الروم إذا هزمت المسلمين ، قال أبو سفيان : إيهٍ بنى الأصفر » فإذا كشفهم المسلمون ، قال أبو سفيان :

وبنو الأصفر الكرام ملو ... ك الروم لم يبق منهم مذكورُ

فلما فتح الله على المسلمين ، وحدّثت أبى أخذ بيدى يطوف على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول حدِّثهم ، فأحدثهم ، فيعجبون من نفاقه ! »[2] .

فلما ولى عثمان الخلافة ، تنفّس أبو سفيان الصُّعَداء ، ومدَّ بصره إلى مايهظره هو وقومه بنو أمية من نصيبهم ؛ فى هذه الخلافة التى صارت إليهم . فعثمان رضى الله عنه ، هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية . .

لقد تحركت فى أبى سفيان شخصيته التى كان يعيش بها فى الجاهلية ، والتى أضواها الإسلام وأخفاها . . فجاء يسعى إلى عثمان ، وجمْعٌ من بنى أمية عنده ، فيقول : يابنى أمية ! إن الخلافة صارت فى تيم وعدىّ حتى طمعتِ فيها ، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم ، تلقف الصبىّ الكرة، فوالله مامن جنة ولا نار ! » فصاح به عثمان : « قم عنى .. فعل الله بك وفعل ! »[3] .

وفى ابن أبى الحديد : أن أبا سفيان مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال : يا أبا عمارة ! إن الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف أمس ، صار فى يد غلماننا اليوم يتلعبون به ! »[4] !

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ ص ١٥٩ .

(٢) الأغانى ج ٦ ص ٣٥٤ .

(٣) الأغانى جزء ٦ ص ٣٥٤ .

(٤) الأغانى جزء ٦ ص ٣٥٥ .

إن يكن فى هذه الأخبار مبالغة أو تزيّد ، فإن طبيعة الأمور تقضى بأن تقع على نحوٍ من هذا !

فأبو سفيان إذ تأخر فى الإسلام ، تأخرت مكانته فى المجتمع الإسلامى ، ولو أنه كان من السابقين إلى الإسلام لتغير تاريخ حياته ، ولربما كان أحد الخلفاء الراشدين ! فإنه حينئذ كان سيعطى الإسلام كل ما فى كيانه من قُوًى ، وكل ما كان يملك من حول وسلطان ، ولدخل فى الإسلام دخول المطمئن ، ولشارك فى بنائه وإقامة دعائمه !

ولكن هكذا أراد الله لأبى سفيان ! « فمن يُرِدِ الله أن يهديَه يشرحْ صدرَه للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصّعّد فى السماء . » فدخل فى الإسلام مكرهاً ، وعاش فى المجتمع الإسلامى مُحْرَجاً . . يرى أنه فى عزلة عن الدين الجديد والدولة الجديدة ، التى كان من ألدّ أعدائها ، وأشد خصومها !

* * *

فى هذا الجو الذى كان منعقداً على بيت أبى سفيان فى الجاهلية والإسلام عاش بنو أمية ، يدورون فى فلك زعيمهم ، ويأخذون عنه ويصدرون عن رأيه فى موقفهم من رسول الله ، ومن الدّين الذى جاء به ، ومن المجتمع الذى اجتمع عليه !

ولا شك أن ليس بنو أمية على سواء فى متابعتهم لأبى سفيان ، وفى أخذهم للموقف الذى وقفه من رسول الله ، ومن دعوته . . فقد خرج بعضهم عن سلطان هذه العصبية ، وفرّ بدينه ونفسه إلى الله ، كما خرج كثير من المسلمين السابقين عن سلطان الآباء والأمهات .

فهذا عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وهو أمَوىّ ، قد كان

فى السابقين إلى الإسلام ، والمهاجرين الأولين ، وأقرب القربين إلى رسول الله ، حتى لقد زوجه ابنتيه ، وقال لو كانت لنا ثالثة لزوجناها لعثمان » !

ومع هذا فإن بنى أمية فى مجموعهم كانوا جبهة مناظرة ومنافسة لبنى هاشم فى الجاهلية ، فلما أكرم الله بنى هاشم ، فاختار نبيه منهم انقلبت هذه المنافسة إلى حسد وعداوة ، ثم إلى حرب وقتال ؛ إلى أن رجحت كفة الإسلام ، وكتب الله لنبيه النصر ، فدخل بنو أمية فيما دخل فيه الناس !

* * *

ومعاوية ، هو ابن أبى سفيان ! والمرشح لرياسة بنى أمية من بعده ، لولم يجىء الإسلام ، فيغيّر من أوضاع الناس !

وهو من وراء أبيه ، يرصد خطواته ، ويحمل معه ما يحمل من مشاعر وعواطف ، قبل الإسلام ، وبعد الإسلام !

يُروى أن معاوية حين رأى أباه قد غُلب على أمره ، وأنه يوشك أن يدخل فى الإسلام — قال يخاطبه :

يا صخرُ لا تُسْلِمَنْ فتفضحَنا بعد الذين ببدر أصبحوا مِزَقَا
خالى ، وعمى ، وعم الأُم ثالثهم وحنظل الخير ، قد أهدى لنا الأَرَقا
لا تركنَنَّ إلى أمر تقلدنا والراقصاتِ به فى مكة الخُرَقَا
فالموت أهونُ من قول العداة لنا
حادَ ابن حربٍ عن العُزّى إذا فَرَقَا[1]

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذا من أبى سفيان ، ومن ابنه معاوية ، فيدعوهما إلى الإسلام فى رفق ولطف ، ويُفسح لهما الطريق إليه ،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد . جز ٢ ص ١٠٢ .

بما يسوق إليهما من ألوان الكرامة والتكريم ، ليستلّ مافى نفسيهما من مرارة وحسرة ، وحقد وحسد . . فى يوم الفتح ينادى منادى رسول الله : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ».. ثم فى يوم حنين ، يعطيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم ويختصهما بالعطاء الجزيل ! فيذهب كل من أبى سفيان ومعاوية بمائة من الإبل، ثم يتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية كاتباً من كتاب الوحى !

وفى إلحاق معاوية بكتاب الوحى يروى مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه ابن عباس يدعوه ليكتب له فوجده يأكل ، فأعاده النبى إليه يطلبه فوجده يأكل ، إلى ثلاث مرات ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا أشبع الله بطنه »[1]

ولما استخلف أبو بكر، وبعث الجيوش لفتح الشام كان يزيد بن أبى سفيان أحد الأمراء الأربعة على جيوش المسلمين ، وكان معاوية تحت لواء أخيه ، فلما مات يزيد بالطاعون سنة ثمانى عشرة استعمل أخاه معاوية مكانه ، على دمشق وجندها ، فأقره الخليفة على ذلك .

ولما استخلف عثمان جمع له الشام ، فكان معاوية صاحب السلطان الذى لايكاد يرجع إلى الخليفة فى شىء !

فلما قتل عثمان ، وبايع الناس لعلىّ بالخلافة ، أبى معاوية أن يبايع مطالباً بالثأر بدم عثمان ، واعتصم بالشام وأهله ، ينازع علياً ، ويُعدّ العدة لحربه ، ثم يلقاه محارباً فى معركة صفين .

وسنرى تفصيل ذلك ، فيما سيجىء من هذا الحديث بعد .

---

(١) صحيح مسلم : جزء ٨ ص ٧ .

٥ — عمرو بن العاص

أبوه العاص بن وائل ، بن هاشم ، بن سهم ، بن هُصيص ، بن كعب ابن لؤى . . والعاص هذا كان من المستهزئين ، وقد نزل فيه قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبتر » .

وأمه النابغة ، بنت حرملة العنزى ، سبيت من بنى جيلان بن عتيك ، وبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم انتقلت إلى عبد الله ابن جُدعان ، ومنه إلى العاص ، فولدت له عمرًا .

أسلم عمرو سنة ثمان من الهجرة ، مع خالد بن الوليد . . قبل الفتح بستة أشهر ، وكانت قريش قد بعثت به ـ قبل إسلامه ـ إلى النجاشى ، وراء مهاجرى المسلمين ، ليغرى بهم النجاشى ، ويوغر صدره عليهم ، حتى يخرجهم من جواره . ولكنه لم ينل شيئاً !

وعمرو ، هو الذى فتح مصر فى خلافة عمر ، فولاه الإمرة عليها ، وظل والياً ما بقى من خلافة عمر ، ثم أربع سنين من خلافة عثمان ، حيث عزله ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى السرح !

وكان عمرو ممن شاركوا فى التأليب على عثمان ، فى دهاء وحرص . فلما كان الخلاف بين علىّ ومعاوية عمل معاوية على ضمّه إليه ، ليتقوّى به على علىّ ، وجعل له مصر طُعمة ، إن هو انتصر فى هذا الصراع !

ومنذ تم الاتفاق بينه وبين معاوية ، أصبح قوة عاملة فى جبهة معاوية ، يعمل برأيه وبسيفه معًا ، فشهد حرب صفين ، وبرز لعلى فى القتال ، فكاد يأخذه سيف ابن أبى طالب لولا أن انكشفت سوأته ، فأعطاه علىّ ظهره ! ثم لما اشتد القتال ، وأطلت الهزيمة على جيش معاوية أشار برفع المصاحف ، وعن هذا التدبير فسد أمر علىّ ، ووقع الخلاف فى جيشه ، وانتهى الأمر بالتحكيم ، وكان هو الحكَمَ الذى واجه أبا موسى الأشعرى على ماسنرى .

٦ — أم المؤمنين عائشة

ابنة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه .

وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولدت في السنة الرابعة من البعثة .

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاة زوجه الأولى، خديجة، ـ رضي الله عنها ـ وذلك قبل الهجرة بسنتين ، وبَنَى بها في شوال ، بعد ثمانية عشر شهرا من هجرته إلى المدينة ، وقبل غزوة بدر الكبرى .

وقبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجرتها ، وفي حجرها ، وهي في الثامنة عشرة من عمرها .

وكانت حياتها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثماني سنوات وخمسة أشهر .

ولمكانتها ومكانة أبيها من رسول الله ، فقد أحبتها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وآثروها بالمودة والاحترام . . ثم كان ذلك لها عند المسلمين جميعاً .

وكان بيتها ـ بعد وفاة الرسول ـ مثابة للصحابة ، ومقصداً للمسلمين المقيمين في مدينة الرسول والوافدين عليها ، يلتمسون عندها آثار الرسول ، وأخباره ، مما لم يعلمها إلا أقرب القريبين إليه .

فلما كانت الأحداث التي وقعت في خلافة عثمان لم تر بداً من أن تعلن رأيها ، وتُسمع صوتها ، فلما قتل عثمان ، وبويع لعليّ بالخلافة وأباها عليه طلحة والزبير ، كانت هي على رأس تلك الجبهة . التي نازعت عليا ، وانتهى الأمر بالقتال ، في معركة الجمل المعروفة .

٧ – طلحة بن عبيد الله

هو طلحة بن عبيد الله ، بن عثمان ، بن عمرو ، بن كعب ، بن سعد ، ابن تيم ، بن مرة ، بن كعب . . يلتقى نسبه بالنبى صلى الله عليه وسلم عند مُرّة . ويكنى أبا محمد .

ويقال له طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات ! وليس هو الذى عناه الشاعر بقوله :

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان ، طلحة الطلحات

فذلك رجل من خزاعة »[1]

وطلحة من المهاجرين الأولين ، ومن العشرة الذين وُعِدُوا بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر – رضى الله عنه – ليكون منهم الخليفة من بعده !

ولم يحضر طلحة مجلس الشورى ، إذ كان غائباً .

وهو أحد أبطال الحرب فى الإسلام ، وقد ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، ووقاه يومذاك من ضربة قصد بها إليه ، فَشُلَّت يده ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « أوْجَبَ طلحة » أى وجبت له الجنة .

وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن أبى وقاص .

قال ابن قتيبة ، « وكان شديدا عثمان »[2]

وسنرى أنه أيّام حصار عثمان ، قد استولى على بيت مال ، حتى انتزعه منه علىّ ، ووزع ما فيه على المسلمين .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٠٠

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٠٠

وكان طلحة هو والزبير على رأس الجيش الذى حارب علياً يوم « الجمل » . وحين التحم القتال نظر إليه مروان بن الحكم ـ وكان فى هذا الجيش يقاتل علياً ـ فرمى طلحة بسهم أصابه فى ساقه ، وقال : « لا أطلب ثأرى بعد اليوم ! ».. إذ كان مروان يرى أن طلحة أغرى الناس بعثمان ، وفتح لهم الطريق إلى قتله . ولم يشهد طلحة حرب الجمل ، إذ مات بعد أن نزف دمه من هذا السهم الذى أصابه .

قال ابن حجر ـ فى الإصابة ـ : « لا يشك العلماء الثقات فى أن مروان قتل طلحة يومئذ ، وكان فى حزبه » .

٨ – الزبير ابن العوام

أبوه العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى .. يلتقى نسبه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الجدّ الرابع « قصى » .

وعَمته خديجة بنت خويلد ، زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم .

أسلم فى سنٍّ مبكرة اختلفت الرواة فيها ، بين ثمانى سنين ، وست عشرة سنة ، ومعنى هذا أنه دخل الإسلام فى صباه ، لصلته برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان له فى بيت الرسول داعية الاتصال ، بعمته خديجة ، رضى الله عنها.

وكما كان الزبير من السابقين إلى الإسلام ، كان من السابقين الأولين إلى الهجرة .. والزبير فارس من فرسان الإسلام المعدودين ، وقد ثبت مع النبى فى أحرج المواقف ، وكان من النفر القليل الذين ثبتوا مع النبى يوم أحد .. وهو من العشرة المبشرين بالجنة . روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الناس يوم الخندق ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لكل نبى حوارى ، وحوارىّ الزبير »

وقد نازع الزبير عليا فى الخلافة ، بعد أن بايع ، وبايع الناس لعلىّ ، وكانت حجته أنه بايع مكرها !

وكان هو وطلحة بن عبيد الله على رأس الجيش الذى قادته السيدة عائشة لقتال علىّ فى موقعة الجمل .

وقُتل الزبير بعد أن شهد أول مواقف الجمل ، فلما راجعه عليّ ، وذكر له أموراً ، كانت الأحداث قد حجبتها عنه ، اعتزل الحرب ، وقفل راجعا إلى المدينة ، وفيما هو فى بعض منازل الطريق لقيه ابن « جرموز » بوادى السباع ، فقتله غِيلة وغدرا ، ثم جاء بسيفه إلى علىّ كرم الله وجهه ، فقال : والله ما كان ابن صفية جبانا ولا لئيما ، ولكن الحَيْن، ومصارع السوء . ثم أخذ السيف وهزّه قائلا : « سيف طالما جَلّى الكُرب عن وجه رسول الله ! »

ويُقبِل ابن جرموز على عليّ قائلا : الجائزةَ ياأمير المؤمنين ! » فيجيبه أمير المؤمنين : « أما إنى سمعت رسول الله يقول : « قاتلُ ابن صفية فى النار! [1] »

ولا تذكر الأخبار أن علياً قتل ابن جرموز ، قاتل الزبير ، الأمر الذى ما كان علىّ يدعه بحال أبداً ، لوأيقن أن ابن جرموز هو الذى فعل هذه الفعلة الشنعاء . ! إذ يكون ابن جرموز ــ والأمر كذلك ــ قتل أمرأ مسلماً فى غير حرب !

والموقف هنا لايحتمل غير أمرين :

إما أن يكون هذا الخبر لم يقع على تلك الصورة ، وأن ابن جرموز لم يكن هو القاتل ، وإنما جاء بالخبر الذى ظن أنه يسر علياً ، وجاء بالسيف دليلا على صحة هذا الخبر !

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٠٥ ، أسد الغابة جزء ٢ ص ١٩٩ .

وإما أن ابن جرموز هو القاتل ، ولكنه لم يجيء إلى علىّ ، ولم يلقه ، ولكنه بعث إلى علىّ بمن يخبره الخبر ، ويطّلع على وقعه فى نفسه ، فلما علم ماعند علىّ له ، فرّ من وجهه .

وهذا ما نرجحه ، فإن ابن جرموز — كما تحدّث الأخبار — لم يظهر له وجه حتى كانت فتنة الخوارج ، فكان رأساً من رءوسها ، وقد لقى مصرعه على يد علىّ فى موقعة النّهْرَوَان ، التى أوقع فيها بالفرقة الأولى من الخوارج .

وسيكون لنا نظر أوسع فى هذه الحادثة ، حين نعرض لموقعة الجمل ، ومقتل الزبير ، رضى الله .

٩ — سعد بن أبى وقاص

أبوه مالك بن أهيب ، بن عبد مناف ، ابن زهرة ، من كلاب ، بن كعب ابن لؤى . . وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية ، بن عبد شمس .

وهو أحد العشرة الذين بُشّروا بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى الستة ، وكان أرمى الناس سهماً ، وكان أحد الذين ثبتوا مع النبى يوم أحد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول له : « ارم ، فداك أبى وأمىّ » . . ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته » . فكان إذا رمى لاتخيب رميته ، وإذا دعا لاترد دعوته .

وهو آخر العشرة موتاً ، مات سنة خمس وخمسين .

وقد اعتزل سعد الفتنة منذ يومها الأول ، ولما قُتل عثمان كان أحد الذين تخلفوا عن بيعة علىّ .

وقد كشف سعد لعلىّ بن أبى طالب عن توقفه فى البيعة له ، فقال : « والله يا أمير المؤمنين ، لا ريب فى أنك أحق الناس بالخلافة ، وأنك أمين على الدِّين والدنيا ، غير أنه سينازعك على هذا أناس ، فلو رغبتَ فى بيعتى لك ، أعطنى سيفاً له لسان ، يقول لى : خذ هذا ودع هذا !! »

فقال له علىّ ـ كرم الله وجهه ـ أترى أحداً خالف القرآن فى القول والعمل[1] ؟ لقد بايعنى المهاجرون والأنصار على أن أعمل فيهم بكتاب الله ، وسنة نبيه ، فإن رغبتَ بايعت ، وإلا جلست فى دارك . فإنى لست مكرهك على شىء ! » .

وظل سعد وفياً لهذا الرأى الذى رآه لنفسه ، فلم يشارك فى شىء من تلك الأحداث التى ماج فيها المسلمون ، حتى لقد سخط عليه ابنه هذا الموقف السلبى، فلم يرض لأبيه الصحابى ،المعروف له قدره فى الإسلام ، وعند المسلمين ، أن يعتزل الحياة ، وما يجرى فيها ، وأن يُقضى فى أمور المسلمين وهو ساكن لا يريم ، فكان ردّ سعد : « أى بنىّ . . أفى الفتنة تدعونى أن أكون رأساً ؟ لا والله ، حتى أُعطى سَيْفاً إن ضربتُ به مسلماً نَبَا عنه ، وإن ضربت كافراً قتله ! ! »

وهذا موقف أشبه بموقف ابن عمر الذى وصفه علىّ ـ كرم الله وجهه ـ بقوله فيمن اعتزلوا الفتنة : « خذلوا الحق ، ولم ينصروا الباطل ! » .

وكان علىّ يرى أن على المؤمن أن يأخذ مكانه من الأحداث ، وأن يتحرّى جانب الحق ، فيكون معه . . أما أن يقف بمعزل عن الفتن وهى تموج

---

(١) يقصد نفسه ، وأهله ، وعماله على الأمصار .

بالناس ، فذلك مما يقوى جبهة الباطل ، ويقلّل من أنصار المدافعين عن الحق .

وفى موقف سعد هذا ، يرى علىّ ، أن سعداً يتعلل بتلك التعلات ، وأنه إنما خذل علياً لشىء فى نفسه عليه . . !

ففى حديث لعلىّ عن الذين تخلفوا عن بيعته يقول عن سعد : وأما سعد لحسود »[1] .

وفى موقف آخر يذكر فيه أصحاب الشورى الذين اختاروا عثمان عليه.. يقول : « فصغى رجل منهم لضغنه » يقصد سعداً[2] .

والذى نود أن ننبه إليه هنا ، هو أن هذه الأقوال التى تنسب إلى علىّ، ليست بعيدة عن الظن والشك ، وخاصة إذا عرفنا أن سعداً كان قد اعتزل الفتنة من أيام عثمان . . فلم يكن معه أو عليه .. يقول سعد فى موقفه وموقف غيره من عثمان : « ولو شئنا دفعنا عنه ، ولكن عثمان غير وتغير ، وأحسن وأساء ، فإن كنا أحسنا فقد أحسنا ، وإن كنا أسأنا فنستغفر الله »[3] .

وكتب سعد إلى عمرو بن العاص ، وقد سأله فى أمر عثمان : إنك تسألنى مَن قَتَل عثمان ؟ وإنى أخبرك أنه قتل بسيف سلّته عائشة ، وصقله طلحة ، وسمّه ابن أبى طالب ، وسكت الزبير ، وأشار بيده ، ولو شئنا دفعنا عنه!»[4] .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) نهج البلاغة جزء ١ ص ١٧ .

(٣) الإمامة جزء ١ ص ٥٠ .

(٤) الإمامة جزء ١ ص ٤٨ .

١٠ – عبد الله بن مسعود

هو أبوعبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود ، بن غافل ، بن حبيب ، الهُذَلى .

كان أبوه حليفَ بنى زهرة :

أما هو فكان من السابقين إلى الإسلام ، وقد أجهر بالقرآن فى مكة ، ولم يكن أحد من المسلمين قد أجهر به قبله ، فضربته قريش حتى أدمته .

وقد خَدَم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يُلبسه نعليه ، وكان يُعرف فى الصحابة : بصاحب السواد والسواك .

هاجر الهجرتين جميعاً ، إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وشهد بدراً وما بعدها .

ولما بعثه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى الكوفة ، كتب إلى أهل الكوفة :

« إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً . وهما من النجباء ، ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى ! » .

فكان يعلّم أهل الكوفة القرآن ، ويفقههم فى الدين .

فلما كانت خلافة عثمان ، وتولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة ، وقع بينه وبين ابن مسعود خلاف ، وصل إلى عثمان ، ثم انتهى بأن استدعى عثمانُ ابنَ مسعود إلى المدينة .

وملخص الواقعة ، أن الوليد حين قدم أميراً على الكوفة كان بيت المال فى يد عبد الله بن مسعود ، فاستقرضه الوليد مالا ، فأقرضه ، ثم اقتضاه وفاء ما اقترض ، فلم يسمع له ، ثم شدّد عليه فى الطلب ، فكتب الوليد إلى عثمان ،

فكتب عثمان إلى ابن مسعود : « إنما أنت خازن لنا ، فلا تَعرِض للوليد فيما أخذ من المال ! »

فطرح ابن مسعود مفاتيح بيت المال ، وقال : « كنت أظن أنى خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لى فى ذلك !! »

وفى رواية : أن ابن مسعود خرج إلى مسجد الكوفة وقال : يا أهل الكوفة . . فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف ، لم يأتنى بها كتاب أمير المؤمنين ، ولم يكتب لى بها براءة ! »

فكتب الوليد بذلك إلى عثمان ، فنزعه من بيت المال . .

وروى البلاذرى : أن عبد الله بن مسعود حين ألقى مفاتيح بيت المال إلى الوليد بن عقبة ، قال : « من غيّر غيّر الله ما به ، ومن بدّل أسخط اللهَ عليه ، وما أرى صاحبكم إلا قد غيّر وبدّل . . أيعزل مثل سعد بن أبى وقاص ، ويولّى الوليد ؟ » .

فكتب الوليد إلى عثمان فى ابن مسعود يقول : « إنه يَعيبك ، ويطعن عليك » فكتب عثمان إلى الوليد بإشخاصه إلى المدينة ، فاجتمع الناس فقالوا : أقِمْ ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شىء تكرهه ! » فأبى عليهم ذلك ، وقال : « إن له علىّ حقّ الطاعة ، ولا أحبّ أن أكون أول من فتح باب الفتن » .

وحين التقى عبد الله بن مسعود بعثمان كان بينهما من الأمور ، ما سنعرض له فى حينه !

١١ – عمار بن ياسر

هو أبو اليقظان ، عمار بن ياسر بن عامر . . مولى بنى مخزوم .

كان هو وأبوه ، وأمه وأخوه ، من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وقد احتملوا الصدمة الأولى ، وعُذِّبوا عذاباً أليماً ، بأيدى السفهاء من مشركى قريش .

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمرّ على آل ياسر بالأبطح ، وهم يُعذَّبون فى رمضاء مكة ، فيقول : « صبراً آل ياسر . . موعدكم الجنة » .

وسمية أم عمار أول شهيدة فى الإسلام ، طعنها أبو جهل بحربة ، فماتت ، وقُتل بعدها زوجها ياسر .

أمّا عمار فإنه حين اشتد عليه البلاء أعطى المشركين ما أرادوا بلسانه ، مكرَهاً ، وظل الإسلام ملء كيانه . .

وأخبر النبىُّ أن عمارا كفر ، فقال صلى الله عليه وسلم : كلا ، إن عمارا ملىء إيماناً من قَرْنه إلى قدمه ، وأَخلَط الإيمان بلحمه ودمه .

وفى عمار نزل قول الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا . . . »[1] .

ثم هاجر عمار إلى المدينة ، وشهد بدراً وما بعدها من غزوات الرسول .

ولما بنى الرسول مسجده ، شارك فى بنائه ، وكان يحمل حِملَ رجلين ، فلما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثقلوه قال : قتلونى ، يحملون علىّ مالا يحملون ! » فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض فروته بيده ، ويقول : « وَيْحَ بن سميّة ، ليسوا بالذى يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية » !

---

(١) سورة النحل : ١٠٦

وارتجز علىّ ابن أبى طالب والناس يعملون فى بناء المسجد :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدًا

ومن يُرى عن البناء حائدًا

فجعل عمار يردد هذا الرجل وهو يعمل ، فظن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عماراً يُعرّض به ، فقال : « قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ! والله إنى لأُرانى سأعرض هذه العصا لأنفك! » .

وسمع النبى مقالة الرجل ، فغضب ، ثم قال : « ما لهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار ، إن عماراً جِلْدةُ ما بين عينى وأنفى !! » .

وقد وقع بين عمار بن ياسر وعثمان رضى الله عنهما ما كان سبباً فى وقوع الجفوة بينهما ، وذلك فى مهابّ الفتنة التى وقعت قبيل مقتل عثمان . .

وسنعرض لهذا فى حينه .

وكان عمار من الذين وقفوا إلى جانب علىّ كرم الله وجهه ، وقد شهد معه حربَ الجمل ، وصفّين ، حيث قتل فى هذه الموقعة .

وفى صفين قاتل قتالاً عنيفاً ، وكان لا يأخذ فى ناحية ولا وادٍ إلا تبعه أصحاب النبىّ ، كأنه عَلَمٌ لهم . . وكان يرتجز وهو يقاتل :

اليومَ ألقى الأحبّهْ محمداً وحزبهْ

ولما قُتل اختصم فى قتله اثنان ، فقال عمرو بن العاص : « إنْ يختصمان إلا فى النار ، والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

وقد أثار مقتل عمار فتنة فى جيش معاوية ، وتحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمار ، وقوله فيه : « إنما تقتلك الفئة الباغية » . .

فهذا شاهد حقّ على أن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية . . ولكن سَرْعان ما ألقت ألسنة الضلال على هذا الحديث شُبَهاً مضللة خادعة ، فقال قائل القوم : إننا لم نقتله ، وإنما قتله أولئك الذين أخرجوه إلى الحرب معهم ! ! .

١٢ – أبو موسى الأشعرى

هو عبد الله بن قيس ، بن سليم ، بن حضار ، ينتهى نسبه إلى يَعْرُبَ ابن قحطان .

جاء إلى مكة ، فحالف سعيد بن العاص بن أمية ، وعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راغباً فى الإسلام . . فأسلم بمكة .

واختُلف فى هجرته إلى الحبشة . . والقول أنه عاد إلى قومه ، ووافقت عودته إلى المدينة رجوعَ جعفر بن أبى طالب وأصحابه من الحبشة فى سفينتين ، فجاء أبو موسى وأصحابه مع جعفر وأصحابه ، ووافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فقسم رسول الله لهم فى فيئها ، ولم يقسم لأحد غيرهم ، ممن لم يشهد فتحها من المسلمين .

ولاه عمر بن الخطاب البصرة .

ولما ولى عثمان الخلافة أقره على البصرة أربع سنين ، ثم عزله ، وولى مكانه ابن خاله ، عبد الله بن عامر بن كريز ، بن ربيعة ، بن حبيب ، ابن عبد شمس ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكتب إلى أبى موسى : « إنى لم أعزِلك عن عجز أو خيانة ، وإنى لأحفظ فيك استعمال رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وعمر ، إياك ، وإنى لأعرف فضلك ، وإنك

من المهاجرين الأولين ، ولكنى أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر ، وقد أمرته أن يعطيك ثلاثين ألف درهم ! »[1] .

وحين ثارت الكوفة على الوليد بن عقبة ، ولّى عثمان مكانه سعيد ابن العاص ، ثم عزله ، إذ لم يكن أهلاً رضًى عند أهل الكوفة ، وولى أبا موسى الأشعرى ، وما زال والياً على الكوفة حتى مقتل عثمان والبيعة لعلىّ ، فأقرّه علىّ عليها .

فلما كان ما بين علىّ وأصحاب الجمل ، بعث علىّ عمار بن ياسر ، ومحمد ابن أبى بكر إلى أهل الكوفة يستنفرهم . وأقبل وجوه أهل الكوفة على أبى موسى يسألونه الرأىَ ، وكان مما يلقاهم به قوله : « أما سبيل الآخرة فى أن تلزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا ، فالخروج مع من أتاكم ! » .

ثم جمع أبو موسى أهل الكوفة يخطبهم ، قائلا : أيها الناس ، إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه فى المواطن ، أعلم بالله ورسوله ممن يصحبه ، وإن لكم علىّ حقاً أؤديه إليكم . . إن هذه الفتنة ، النائم فيها خير اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير الساعى ، والساعى خير من الراكب ، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلىَ هذه الفتنة! » .

فقام عمار بن ياسر فقال : « أيها الناس، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين[2] ، ولعمرى ما صَدَق فيما قال ، وما رضى الله من عباده عما ذكر ، قال الله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىءَ إلىَ أمر الله .

---

(١) الطبقات لابن سعد : الجزء الرابع ص ١٠٥ ، والجزء الخامس ص ٤٥

(٢) يقصد عليا وأصحاب الجمل .

فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ، إن الله يحبّ المقسطين » وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكونَ الدين كلُّه لله » . . فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى ، من أن يجلسوا فى بيوتهم ، ويُخَلُّوا بين الناس ، فيسفك بعضهم دماء بعض !! فسيروا معنا إلى هاتين ، واسمعوا حججهم ، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه ، فإن أصلح الله أمرهم رجعتم مأجورين ، وقد قضيتم حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض ، نظرتم الفئة الباغية ، فقاتلتموها حتى تفىء إلى أمر الله ، كما أمركم الله ، وافترض عليكم!![1] » .

وكان أبو موسى الأشعرى هو الذى اختاره أصحاب علىّ ليكون حَكَماً مع عمرو بن العاص ، وكان من أمر الحكمين ما سنرى بعد قليل .

١٣ — عبد الله بن عمر بن الخطاب

كان من أهل السبق إلى الإسلام . . أسلم بمكة ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة . . فيه من أبيه عمر تقواه وخوفه من الله ، وتتبعه لهدى النبى ، واقتدائه به .

ولم يكن فيه من عمر مصادمته للأحداث ، وتمرسه بالمواقف ، وإنما كان من أولئك الذين يؤثرون الانطواء على ذواتهم ، والنظر إلى أنفسهم فى الملمات ، والمحرِجات !

ولمكانته فى المسلمين لتقواه وورعه ، اختاره عمر فى أصحاب الشورى ، على أن يشاركهم فى الرأى لا فى الخلافة . . لاضنًّا بها عليه ، ولكن ضنًّا به عليها ، أن تخرجه من العزلة النفسية ، والحياة الروحية التى كان يعيش فيها .

---

(١) الإمامة والسياسة : جزء ١ ص ٦٧

عن أبي مُليكة عن عائشة أنها كانت تقول : « ماكان أحدٌ يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله ، كما كان يتبعه ابن عمر » .

وكان ابن عمر أملكَ شبابِ قريش لنفسه عن الدنيا.

وقد اعتزل الفتنة في أيام عثمان ، ثم مازال على موقفه هذا من الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك ، إلى أن لحق بربه .

عن زيد بن أسلم : أن ابن عمر كان في زمان الفتنة ، لا يأتي أميرٌ إلا صلّى خلفه ، وأدى إليه زكاة ماله »[١] .

ويُروى عنه أنه كان يقول : جاء أمر فيه السيف ، ولا أعرفه! »[٢] .

وكان يقول : « كففت يدي فلم أندم ، والمقاتل على الحق أفضل ! » . . وهذا يعني أنه كان يرى لنفسه أن يعتزل الفتنة ، وأن يخرج منها لا عليه ، ولا له ، وإن فاته في ذلك فضل المقاتلين على الحق ، لأنه لايدرى ــ على وجه اليقين ــ عَلَى من يضع سيفه حين يقاتل ! وهذا الموقف قد صوره الإمام عليّ كرم الله وجهه أروع تصوير حين قال في الذين اعتزلوا الفتنة ، ولم يأخذوا لهم مكاناً مع أحد الفريقين . . يقول : « خذلوا الحق ، ولم ينصروا الباطل »[٣] .

وكان ابن عمر في المتخلفين عن بيعة عليّ في الخلافة . . وقد بعث عليّ إليهم من يدعوهم إليه ، فكانوا على موقفهم ، وقد أعطى عليّ ــ كرم الله وجهه ــ كلٌ واحد منهم الوصف الذي يراه أهلاً له في هذا الموقف . . فكان مما وصف به ابن عمر قوله : « أما ابن عمر فضعيف ! »[٤] .

---

(١) الطبقات . لابن سعد جزء ٤ ص ١٤٣ .

(٢) الإمامة والسياسة . جزء ١ ص ٥٦ .

(٣) نهج البلاغة جزء ٢ ص ٩٦ .

(٤) الإمامة والسياسة جز ١ ص ٥٤ .

١٤ – محمد بن طلحة

هو ابن طلحة بن عبيد الله . . وكان يسمّى السجّاد ، لعبادته وفضله .

وقد شهد مع أبيه موقعة الجمل ، وكان متكرهاً للخروج فى هذه الفتنة ، ولكنه لم يُرد أن يخرج عن طاعة أبيه .

قالوا : « وقاتل محمد بن طلحة يوم الجمل قتالا شديداً ، فلما لَحِمَ الأمر ، وعُقر الجمل ، وقُتِل كل من أخذ بخطام الجمل ، وعائشة عليه ، فقال لها : ماترين يا أمّة ؟ قالت أرى أن تكون خير بنى آدم[1] ! فلم يزل كافًّا حتى انكشف الموقف ، وكانت الهزيمة ، وكان فى القتلى ! !

واختُلف فيمن قتله ، وقيل إن قاتله حمل عليه بالرمح ، فقال محمد : أذكّرك « حَمَ » فطعنه فقتله !

وقال الذى قتله :

وأشعثَ قوّامٍ بآيات ربّه | قليل الأذى فيما ترى العينُ مسلمُ
هتكتُ له بالرمح جيب قميصه | فخرّ صريعاً لليدين وللفم
يذكّرنى حَمَ[2] والرمح شارعٌ | فهلا تَلاحَمَ قبل التقدم
على غير شىء غير أن ليس تابعاً | علياً ومن لايتبع الحق يندم

قالوا . فسار علىّ من ليلته فى القتلى ، معه النيران ، فمر بمحمد بن طلحة قتيلا ، فرد رأسه إلى الحسن بن على ، ثم قال : السجاد ورب الكعبة قتيل كما

---

(١) تريد أن يقاتل ، ولا يتحول عن القتال !

(٢) يريد قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . الآية ٢٣ من سورة الشورى (حم عسق) .

ترى .. أبوه صرعه هذا المصرع ، لولا أبوه ، وبرّه به ما خرج هذا المخرج لورعه وفضله ! فقال له الحسن : ما كان أغناك عن هذا ؟ فقال علىّ : مالى ولك ياحسن ؟ ودّ أبوك قد كان مات قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! »[1] .

وبعد :

فقد طالت بنا الطريق ، وجاوزت المدى الذى كنّا نقدره لهـا ، فى هذا المقام .

ولهذا ، فإننا قد أمسكنا عن المسير ، وعدلنا عن التعريف بكثير من المصادر ، وبكثير من الشخصيات التى لها دور فى تلك القضية التى نعالجها !

فالذى عرفنا ، إشارة دالة على مالم نعرف ، والوجوه التى لم نلتق بها فى تلك الرحلة سوف نلقاها فى مجال أوسع وأرحب !

وقد آن لنا أن نلتقى بالإمام علىّ ، الذى هو غاية هذا البحث ، وموضوع تلك القضية ! !

وحياة علىّ ، شطران متمايزان : حياته فى عهد النبى ، وحياته بعد النبى .

ولكل من الحياتين ظروف وملابسات ، غيّرت مجرى الحياة كلها من حوله ، على حين ظل الإمام — كرم الله وجهه — على المنهج الذى أقامه الرسول عليه ، من أول الطريق إلى نهايته .. لم ينحرف ، أو يتوقف !

ولهذا ، فإننا سنجعل لكل شطر دراسة خاصة ، ذات أبواب وفصول .

* * *

---

(١) الطبقات جز ٥ ص ٥٤ .

المبحث الأول

حَيَاةُ عَلِيّ
في صُحبَة الرَسُول

الباب الأول

من الجاهلية إلى الإسلام

في بيت النبيّ :

لم يذكر المؤرخون – على وجه التحديد – السّنة التي ضُمّ فيها « عليّ » إلى جناح النبيّ ، وسكن فيها إلى بيت النبوّة .

ولكن المقطوع به ، أن ذلك كان بعد أن تزوج النبي بالسيدة خديجة ، وانتقل من دار عمه أبي طالب . إلى بيت الزوجية الجديد !

فقد كان الرسول – قبل أن يتزوج – يعيش مع عمه أبي طالب ، ومع امرأة عمهْ « فاطمة »، ومع أولاد عمه .. من بنين وبنات .

وكان يجد في هذه الأسرة رعاية الوالد ، وحنان الأم ، وأنس الأخوة . . فأنساه ذلك مرارة اليُتم ، ووحشته ، وعزلته .

والحق أن عمّه أبا طالب، وامرأة عمّه « فاطمة » كانا له أكثر من أبوين !! يؤثرانه على أبنائهما ، بالمودة والرعاية ، ويفيضان عليه من عطفهما ، وبرهما ، بما لم يظفر به ابن من أبويه . . وذلك غير مستغرب ، ولا مستبعد ، من أي إنسان يرى « محمداً » ، ويتصل به ، ويعيش معه . . فليس بمنكر إذن مايُروى من الأخبار ، التي تحدّث عن تعلق أبي طالب وزوجه « بمحمد » ، وإيثارهما إياه على أبنائهما . . إذ فضلاً عن عاطفة القرابة التي تجمعُ بين محمد وعمّه وامرأة عمّه ، وفضلا عن ثوب اليتم الذي لبسه « محمد » في بطن أمه ، وما يثير هذا اليتم من مشاعر الرحمة والحنوّ – فإن ما اشتمل عليه « محمد » من شمائل ، وما جمّله الله به

من سجايا ، لهو شيء عظيم رائع ، تتملاه العيون خاشعة ، وتقف إزاءه العقول مقدّرة مفكرة ، لاتدرى لهذا الجلال سراً ، ولا تعرف لتلك الوضاءة ، وهذا البهاء تأويلاً ، إلا أنه شيء واقع محسوس ، لاشك فيه ، ولا امتراء !

فمحمد ، قبل النبوة ، هو محمد النبي . . في كمال أدبه ، وعظمة خلقه ، وسماحة نفسه ، ولين جانبه ، وعفة لسانه ، ويده !

فلا عجب أن يكون « محمد » في بيت عمّه ، في هذا المكان المكين الذى كان له من عمّه وامرأة عمه ، وأبناء عمّه .

وقد رأى « محمد » حين انتقل من بيت عمه إلى بيته الجديد ، أن يحمل عن عمّه شيئاً من مئونة عياله . . فقد كان أبوطالب كثير العيال ، قليل المال . .

فجاء محمد إلى عمّه العباس ، يدعوه إلى أن يشاركه في هذا الأمر ، وأن يحمل معه عن أبى طالب مئونة بعض عياله ، وقد أجابه عمّه العباس إلى هذا ، فأقبلا على أبى طالب ، يعرضان عليه أن يأذن لهما في أن يتكفل كل واحد منهما بأحد أبنائه . . فأجابهما إلى ذلك قائلا : خذا من شئتما ، ودعا لى عقيلا . . فأخذ كل منهما بيد ولد من أولاد أبى طالب !

تُرى . . أكانت عَيْلة أبى طالب هى وحدها التى حَملت « محمّدا » على أن يسعى هذا السّعى ويدبّر هذا التدبير ؟

ألاَ يصح لنا أن نأخذ في الاعتبار هنا أن « محمداً » حين ترك بيت عمه إلى بيته الجديد قد دخلته وحشة ، لم يذهب بها ما وجد من سَكنَ وأنس ، مما كانت تفيضه عليه السيدة خديجة رضى الله عنها ، من حبّها وبرها وحنانها . . ؟

إن قلب « محمد » سيظل يخفق أبداً بحب هذا البيت ، الذى ضمّه صبياً ، وكفله يافعاً ، ووسعه شاباً ، حتى بلغ مبلغ الرجال !

ولم يكن مما يقبله الأدب النبوى ، أو ترضى عنه حكمة النبوة وكياستها ، أن تنتقل السيدة خديجة إلى بيت أبى طالب ، وأن تغلق بيتها فى وجه هذه السعادة الغامرة التى كانت ترقبها من تلقاء « محمد » وسَكَنه إلى بيتها . . فذلك إن يكن فيه تَطْيِيب لنفس عمه وزوج عمه وأبناء عمه ، فإن فيه جَرحاً لكبرياء سيدة ،تقطعت دون الوصول إلى رضاها أعناق أشراف قريش وسادتها ، لتقبل أياً منهم زوجاً ، ولها عليهم حكمها الذى تحكم ! ! وإن فيه لحرماناً لها من هذا الخير المقبل عليها ، والذى تريد أن يملأ عليها وجودها كله .

وأياً كان الأمر ، فإن « محمداً » سعى هذا السعى إلى عمّه ، فخرج من بيت أبى طالب وفى يده « علىّ » .. أصغر أبناء عمه ، يرعاه ، ويكفل تنشئته .

وإذا صدقت الروايات التى تقول إن عليًّا أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ،كان معنى هذا أن النبى ضمه إليه وهو فى العام الأول من عمره [١] .

وإذا صحت الرواية التى تقول إنه أسلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة كان معنى ذلك أنه ضُمّ إلى بيت النبى وهو ابن ثلاث سنين !

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فإن المقطوع به أن علياً ولد بعد زواج النبى من السيدة خديجة ، وأنه لم يعش فى بيت أبيه إلا ريثما درج فى مدارج الطفولة ، ولم يبلغ حد الصبا !

ولا ندرى أكان « محمد » عقد العزم على أن يختار علياً ، ويضمه إليه من بين إخوته ، فآثر ألا يكون ذلك على وجه قد يثير فى إخوته مايثير من حسد له ، وعتب على محمد ، أو اتهام للأبوين فى إيثار بعض الأبناء على بعض ــ فجاء إلى أبى طالب بصحبة العباس ، يصنع مثل صنيعه ، حتى يقع الأمر على هذا الوجه ، ويجىء على هذا الأسلوب ، الذى لاتعقبه ضغينة ، أو مَعْتبة ، أواتهام !

(١) ذلك أن النبى ضم عليا إليه بعد زواجه بقليل ، وقد كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وبعث على تمام الأربعين .

إنه إن يكن ذلك عن تدبير من محمد ، فأحرِ به ، أن يكون . فهو من بعض أدب النبوة ، ولمحة من لمحاتها المشرقة ، فى الأدب والتربية .

وعلى أىٍّ فقد اختار الله لعلىٍّ وقدّر له أن ينال هذا الشرف العظيم ، وأن يُربى فى حجر النبوة ، وأن يشهد مطالع الرسالة الإسلامية من يومها الأول ، وأن يتلقى من فم النبى مفتتح الرسالة ومختتمها ، وما بين مفتتحها ومختتمها ، مما نزل به الوحى ، من آيات الله .

وهكذا قُدّر لعلى أن يولد وطيب النبوة يعطّر الأجواء من حوله ، وأنوارها تفيض عليه من كل أفق ، وتطلع عليه من كل صوب . . حتى إذا تحولت مطالع النبوة إلى أفقها الجديد فى دار الهجرة ، تحوّل علىّ معها إلى هذا الأفق . . ثم لم يزل يدور فى فلكها ، حتى غربت شمس النبوة ، ولحق النبى بجوار ربه !

يقول الإمام علىّ متحدثاً بتلك النعمة التى أنعم الله عليه بها ، وما كان لها من أثر فى بناء حياته الروحية والعقلية ، وما أمده الله بسببها من أمداد الرضا والرضوان — يقول :

« وقد علمتم موضعى من رسول الله صلى الله عليه وآله ، بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعنى فى حِجْره وأنا وليد ، يضمنى إلى صدره ، ويكنُفُنى إلى فراشه ، ويُمسّنى جسدَه ، ويُشمّنى عَرْفه ، وكان يمضغ الشىء ثم يُلقمنيه . . ولقد كُنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه . . يرفع لى كل يوم من أخلاقه عَلَماً ، ويأمرنى بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيرى ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الإسلام غير رسول الله — صلى الله عليه وآله ، وخديجة ، وأنا ثالثهما . . أرى نور الوحى والرسالة ، وأشَم ريح النبوة . »[1]

---

(١) نهج البلاغة جزء ١ ص ٢١١ .

والحقّ أن علياً كان أوفر الناس حظًا ، وأطولهم صحبة لرسول الله ، فمنذ وُلد عليّ ، وهو بين يدى محمد،قبل النبوة و بعدها.لم يفترق عنه ،فى سِلم أو حرب، وفى حِلٍ أو سفر ، بل كان بين يدى النبى ، وتحت سمعه وبصره ، إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وهو على صدر عليّ ، حيث سكب آخر أنفاسه فى الحياة !

يقول عليّ : « ولقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لعلىَ صدرى ، ولقد سالت نفسُه فى كفّى . فأمررتها على وجهى ، ولقد وَليتُ غسله صلى الله عليه وعلى آله ، والملائكة أعوانى ، فضجت الدار والأفنية . . مَلأٌ يهبط ، وملأ يعرج ، وما فارقتْ سمعى هَيْنَمة منهم ، يصلّون عليه ، حتى واريناه ضريحه . »[1]

وإذا أنت ذهبت تستعرض جميع الذين كانوا فى كنف النبى ،من زوج وولد ، لم تجد أحدًا منهم قد كان له من طول صحبة النبى ، ومن مخالطته ،ما كان لعلى . . فلقد صحب عليّ النبى صحبة متصلة أكثر من ثلاثين عاماً ، وتلك مدة لم يظفر بها أحد من المسلمين جميعاً .

فإذا اجتمع إلى طول الصحبة قرابة قريبة ، وإلف متصل ، ومخالطة فى حلو الحياة ومرها ، ثم صادف ذلك كله أذناً واعية ،وقلباً ذاكراً ، وعقلا حافظاً ـ كان ما يُنسب إلى « عليّ » من علم ، وحكمة ، ونفاذ بصيرة ، وشفافية روح ، وكان ما ضبطه التاريخ من خطبه ورسائله ـ كان ذلك كله قليلا إلى ما يُرجَى منه ، ويؤمل فيه ، وإن استكثره المستكثرون، وشك فيه الشاكون !

ولقائل أن يقول : إن هذه الخطبة ليست لعلى ، أو أن تلك الرسالة لا تجرى على أسلوبه المعروف ، أو لا يستدعيها الحال التى كانت تحيط به..

---

(١) نهج البلاغة جزء ١ ص ٢٢٠ .

لقائل أن يقول فى هذا ماشاء ، ولـكن لا استكثاراً ، ولا استبعاداً أن يؤتى أحد كل هذا العلم . . بل إن هذا الذى جُمع من خطب الإمام ، ورسائله ، وحكمه هو قليل من كثير ضاع ولم يحفظ !

وماذا يقال فى نبتة من دوحة هاشم . . فى مغارس النبوة ، وفى معرض غيثها ، ومطلع أضوائها ، ومهاب أنسامها ؟ إنها لهى الشجرة الطيبة المباركة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أُكُلَها كل حين بإذن ربها ، لاتجفّ أغصانها ، ولا ينفد ثمرها .

والذى نريد أن نقوله هنا ، هو أن القَدَر الذى فتح لعلىّ الباب الذى دخل منه إلى بيت « محمد » ثم وصل بين على وبينه هذه الصلة الوثيقة ، قبل الرسالة وبعدها ، ثم جعل من علىّ صهراً لرسول الله فى ابنته التى امتد بها نسل النبى ، دون غيرها من أبناء النبى وبناته ـ هذا القَدَر قد فتح للناس طرقاً كثيرة إلى علىّ ـ رضى الله عنه ـ فأحبّه بعضهم وأفرط فى حبّه ، حتى لقد جاوز بهذا الحبّ حدود العقل والحكمة ، وخرج به على مفاهيم الإسلام ومقرراته . . ! على حين أبغضه بعضهم ، وأسرف على نفسه فى هذا البغض ، فكاد له ، وحاربه حياً ، وميتاً ! ، يقول الإمام علىّ كرم الله وجهه : « هلك فىّ اثنان : مُحبّ مفرط . ومبغض مفرط ! »

وهذا الحبّ المفرط ، وذلك البغض اللئيم ، غير مستبعد من الناس فى علىّ ، وفى غير علىّ ، ممن كانت تربطهم بالنبى روابط الولاء ، والحبّ والإيثار . . إذ كان المؤمنون على حبّ النبى والولاء له ، ولمن آزره ، ونصَرَه ، ونافح عن رسالته . . وكان المنافقون ومن فى قلوبهم مرض ، على بِغْضة وعداوة لرسول الله ، وآله ، وصحبه ، والمؤمنين جميعاً ، كلٌّ على مقدار بلائه فى الإسلام ، وحظه من رضى الرسول وحبّه !

يقول علىّ كرم الله وجهه : «لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفى هذا ، على أن يُبغضنى ما أبغضنى ، ولو صببت الدنيا بجمّاتها[1] على المنافق على أن يحبنى، ما أحبنى ، وذلك أنه قُضى فانقضى على لسان النبى الأمى ، صلى الله عليه وآله، أنه قال : « ياعلى . . لايُبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق »[2].

وأمر آخر من أمر هذا القدَر ، الذى أضاف علياً إلى « محمد » وضمه إلى جناحه . .ذلك أن علياً حلِىَ من هذه الصحبة الملازمة بصفتين ، انفرد بهما وحده، لايكاد ينازعه أحد فيهما ، وهما : الضرب بالسيف فى سبيل الله ، والفقه الحق لدين الله ، ولـكتاب الله .

فقد كان على بطل الإسلام دون منازِع . . لا يعرف المسلمون سيفاً كسيف على ، فى إطاحته لرءوس أئمة الـكفر ، وطواغيت الضلال ، من سادة قريش وقادتها ! !

وكان علىّ فقيه الإسلام ، وعالم الإسلام ، وحكيم الإسلام ، غير مدفوع عن هذا أو منازع فيه !

وهذه المرويات من آثاره تشهد بأنه كان البحرَ الذى لايُسْبَر غوره ، وأن مقاطع أحكامه ، وفواصل قوله ، وجوامع حِكَمه ، قد مَسّتها نفحة من نفحات النبوة فخالطت النفوس ، ومازجت القلوب ، وسكنت إلى العقول ، حتى لقد عَلِق الناس منها بهذا القدر الـكبير ، لأول وقعها فى الآذان ، قبل أن تحويها الأوراق وتضمها الصحف !!

ولا ندرى ماذا كان يكون بين أيدينا من علم الإمام وفقهه ، وأدبه ،

---

(١) أى بكل مافيها من عظيم وحقير .

(٢) نهج البلاغة . جزء ٢ ص ٩٣ .

وحكمته، لو أن الأحداث الجسام التي عَرَضت له ـ قبل الخلافة وبعدها ـ أفسحت له شيئاً من الجِمام من الحروب المتصلة، والفتن المتسمرة ؟

ولو أن إنساناً غير على بن أبى طالب، امتحن بما امتُحن به، من شدائد وأهوال، لتبلدت مشاعره، وعُطلت مَلَكاته، ولما وجد العقل الذى يفكر ويقدّر، ولا اللسان الذى ينطق ويُبين !

ولكنها النفس الكبيرة العميقة، تمرّ بها الأحداث المزلزلة، والكوارث المُكْرِبَة، كما تمر الأعاصير العاتية بالجبال الشامخة، فتتطامن عندها، وتتخاشع بين يديها، وتتكسر متداعية تحت قدميها !

وندع هذا،

فما حديثنا هنا عن « الإمام » وما ضُمت عليه شخصيته، من آيات العظمة، وروائعها، فذلك له موضعه، فى الفصول التالية، من هذا البحث.

ولكن هذا الحديث ـ على وَجازته ـ هو إشارة من بعيد. إلى شخصيّة الإمام، بصورة مجملة، إلى وجه من وجوه تلك الشخصية العظيمة الكريمة، نأنس بها فى طريقنا إليه، ونتزود بها قبل لقائنا به !

* * *

اسمه، وكنيته :

« علىّ »

هو الاسم الذى عُرف به الإمام ـ كرم الله وجهه ـ منذ ولد . . ليس له اسم غيره، فى جاهلية أو إسلام ! به ولد، وعاش، ومات.

ولله فى هذا حكمة، نرى آثارها، ونشهد آياتها، فيما أراد لهذا العبد من عباده، من كرامة وتكريم.

لقد جاء الإسلام ، فوَلّدَ الناسَ ميلاداً جديداً . . !

دخل عليهم من كل مدخل ، يصلهم بالحياة ، أو يصل الحياة بهم !

دخل على قلوبهم . . فجلّى عنها ظلام الشرك والضلال ، وسكب فيها مواطر الإيمان والهدى .

ودخل على عقولهم ... فكشف عنها عَمَايتها ، وسفاهتها ، وسلك بها مسالك الحق ، ووصلها بسبل الخير والرشاد .

ودخل على مشاعرهم وعواطفهم ، فألاَن حواشيها ، وهذب جوانبها ، واقتلع أشواكها ، وأطلع منها زهراً طيباً ، وثمراً جَنِيًّا مباركا .

وقبل هذا كله ، دخل الإسلام على من دخلوا فيه ، واستجابوا له ، فنزع عنهم سِمات الجاهلية ، وشِياتها . . فغيّر أسماءهم التى وُلدوا بها ، مما لم يكن يتفق ومبادىء الدين الجديد ، وما يحمل إلى الناس من رحمة ، وهدى ، وخلع عليهم أسماء غيرها ، ذات دلالات طيبة ، تكسو صاحبها بهاء وحسناً ، وبهذا يَجمُل ظاهره وباطنه جميعاً .

وقد ثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه غير اسم « عاصية » وقال : « أنت جميلة » وسمى حرباً: سَلْماً ، وسمى المضطجع: المنبعث. .وهكذا كان يفعل صلى الله عليه وسلم فى الأسماء والكُنى ، للأشخاص والأماكن ، والأشياء . . ينزع عنها كل اسم كريه ، ينتسب إلى عقيدة فاسدة ، أو يضاف إلى خلق منكر ، ثم يخلع عليها أسماء كريمة ، تنتسب إلى الفضل والخير والإحسان . ولكنّ الله ـ سبحانه ـ أراد لعلىّ أن يولد فى الإسلام ، قبل الإسلام ، وأن يربّى فى حجر النبوة ، قبل النبوة ، فكان ذلك حجازاً له عن الجاهلية وأباطيلها . . فلما جاء الإسلام استقبله بالفطرة السليمة ، والاسم السليم !

ولا يكاد التاريخ الإسلامى يذكر أحداً وُلد فى الجاهلية ، ثم دخل فى الإسلام فكان دخوله على تلك الصفة التى دخل بها علىّ فى الإسلام .

فالذين دخلوا فى الإسلام من مواليد الجاهلية ، لهم حياتان : حياة فى الجاهلية ، وحياة الإسلام . . ولكل من الحياتين وجه غير وجه الأخرى ، تلك ضلال وعمى ، وهذه نور وهدى .

أما علىّ ـ كرم الله وجهه ـ فكانت حياته فى الجاهلية والإسلام على سواء . لم يغير منه الإسلام شيئاً ، فى ظاهر أو باطن . . إذ ولد مسلماً قبل الإسلام . . ! !

* * *

فهل لنا أن نضيف هذا التوفيق فى اختيار اسم علىّ ، إلى تلك الموافقات المسددة ، التى كان لها أثرها القوى الملحوظ ، فى حياة الإمام ، وفى ظهور شخصيته على هذا النحو الذى عرفته الحياة له ، وشهده الناس منه ؟

وهل لنا ، إذ ننظر فى حياة الرسول الكريم ، وفى هذا التوفيق الربانى ، الذى عدل بأهله أن يختاروا له اسماً من تلك الأسماء المحببة إلى الجاهلية ، الجارية على ألسنتها ، مثل قتال ، وفراس ، وعبد يغوث ، وعبداللات ، وعبد العزى ، ونحوها ، ثم ألقى على ألسنتهم اسم « محمد » الذى لا يكاد يُعرف فى الأسماء اسم غيره ، أدلّ على صاحبه ، وعلى محتوى ذاتيته ، وما له فى الناس وفى الحياة من آثار .

وليس اسم « محمد » من الأسماء التى كان الجاهليون يسمون به أبناءهم ، على ما فيه من لطف وحسن ، فى المبنى والمعنى ، حتى لتكاد الجاهلية كلها تخلو ممن يحمل اسم محمد !

وقد ذكر المؤرخون بضعة أشخاص سُمّوا بمحمد ، بين يدى البعثة النبوية ،

وبعد أن ولد « محمد » ، ولعل تسمية النبي بهذا الاسم ، كانت أشبه بإرهاص للعرب ، أن يتخففوا من الجاهلية ، وأن يستشرفوا مطالع الدعوة السماوية التى آذنت شمسها أن تطلع فيهم !

نقول : هل لنا إذ ننظر إلى هذا التوفيق الربانى فى اختيار اسم « النبى » وتوافق هذا الاسم مع الرسالة السماوية التى أعده الله لها ، والتى يمكن أن يكون هذا الاسم عنواناً لها ـ هل لنا أن نقول إن اختيار هذا الاسم « لعلى » كان نفحة من نفحات النبوة ، ولمحة من لمحاتها ، حين نظر محمدٌ إلى وجه هذا الوليد وقع فى نفسه أنه فى الأعلَيْن من عباد الله ، وأنه جدير بأن يكون فى المقام الأعلى فى الإسلام ؟

فاسم « على » لم يكن مما تسمّى به العرب فى جاهليتها ، ولم يحفظ التاريخ الجاهلى من تسمى به قبل صاحبه ، علىّ بن أبى طالب ! . . إنه كان كاسم « محمد » فى لطفه وحسنه ، وفى غفلة الجاهلية وضلالها عن تداوله ، والتنادى به !

فلعل « محمداً » هو الذى اختار لابن عمه الوليد هذا الاسم ، وأشار على عمّه وزوج عمه أن يسموا وليدهم به !

واسم « على » يلتقى مع اسم « محمد » لقاء إخاء ومعانقة ـ وهما معاً يضبطان السمات البارزة التى تركها الإسلام فى الأمة العربية ، حين تحولت من الجاهلية إلى الإسلام .

فلقد كسب العرب بدخولهم فى الإسلام ماجعلهم أهلاً لأن يُحمَدُوا ويَحْمَدُوا ، وأن يكونوا من المحمودين الحامدين . . المحمودين فى الناس لما خلع عليهم الإسلام من نعم ، وما أفاض عليهم من خير وهدى ، والحامدين لله على أن فَضّل عليهم بفضله: إذ بعث فيهم رسولا منهم،يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . »

كذلك كسب العرب بدخولهم فى الإسلام علوّا فى الدنيا والآخرة ، فكانوا حملة رسالة الهدى إلى الناس ، بلسانهم العربى الذى نزلت به كلمات الله !

ولهذا التوافق بين هذين الاسمين الكريمين : محمد وعلى ، ولقائهما معاً قبل أن تتداولهما العرب ، وتتعامل بهما ـ نظر بعض الغلاة من شيعة على فى هذا وعدّوه شهادة على فضل على .. ولم يكتفوا بهذا ، بل جعلوا هذا التوافق أمراً سماويًّا ، فوضعوا لذلك حديثاً نسبوه إلى النبى . . « خلقتُ أنا وعلى من نور ، وكنا على يمين العرش قبل أن يُخلق آدم بألفى عام ، ثم خلق الله آدم فانتقلنا فى أصلاب الرجال ، ثم جَعَلنا فى صلب عبد المطلب ، ثم شقّ أسماءنا من اسمه ، فالله محمود ، وأنا محمد ، والله الأعلى ، وعلىّ ، علىّ ! ! » .

قال الشوكانى : فى تعليقه على هذا الحديث « وهو موضوع ، وضعه جعفر بن أحمد بن على بن بيان . . وكان رافضياً وضاعاً »[1] .

وأيا كان ، فإن اسم « على » حين يظهر فى حياة الجاهلية ، وحين يدخل فى مجال الحياة النبوية ، ويضاف إلى النبىّ « محمد » ـ لا ينظر فيهما ناظر من تلك الجهة إلا وجد بينهما قرابة قريبة ، ودلالة دالة ، على أنهما من معدن متخيَّر ، ممسوس بألطاف الله ، محفوف برحماته .

هذا ويحدّث المؤرخون ، أن أبا طالب كان غائباً حين ولد له هذا الغلام ، وأن أمه سمته « أسداً » . . فلما رجع لم يرض له اسم « أسد » وسماه علياً !

وقيل : بل إن أمه سمّته « حيدرة » ـ وهو من أسماء الأسد . . وليس هذا ببعيد ، إذ كانت أمه فاطمة ، من بنى أسد ، فأوحى إليها اسم جدها أن تسمى

---

(١) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ، للشوكانى ص ٣٤٢ .

ابناً من أبنائها أسداً ، أو اسماً من أسماء الأسد . . يقول ابن السيد البطليوسى فى كتابه « الاقتضاب » فى التعليق على هذين البيتين اللذين ارتجزهما الإمام علىّ فى يوم خيبر ، وهو يَلْقَى اليهودى « مَرْحبًا » :

أنا الذى سمتنى أمىّ حيدرَهْ

أضرب بالسيف رقاب الكفَرَهْ

كليث غابٍ غليظ القصَرَه

أكيلكم بالسيف كيل السَّنْدَرَه[1]

يقول البطليوسى : « أراد سمتنى أمىّ « أسداً » فلم يمكنه ، لأجل القافية فذكر حيدره ! ! »

وقد ناقش صاحب اللسان هذا الرأى فقال : « وهذا العُذْر لايتم ، إلا إذا كان الرجز أكثر من هذه الأبيات ، ولم يكن أيضاً ابتدأ بقوله : أنا الذى سمتنى أمىّ حيدره ! » .

ونقول : أهذا قول يقال فى الإمام ، وفى امتلاكه ناصية البيان ؟ أتحكمه القافية حتى لتلجئه إلى أن يغير اسمه ؟ وهل كان يضيق بأية قافية فى ابتداء أو فى غير ابتداء ؟ إن ذلك أبعد شىء يقع فى ظن أو وهم !

ويروى صاحب اللسان فى مادة « حيدر » أن مرحباً اليهودى خرج يوم خيبر وهو يرتجز :

إنّا أناس ولدتنا عَبْهرهْ

لنا سنا الوشْى وَرِيْطٌ حَبِرَهْ

أبناء حرب ليس فينا غُدَره

---

(١) القصرة : الرقبة ، والسندرة : ضرب من الكيل ، غراف ، جراف ، ويراد به هنا القتل الكثير السريع .

ثم يقول :

« فإن يكن هذا القول لمرحب كان لعدول الإمام عن ذكر « أسد » إلى ذكر حيدره ، مندوحة . . إذ جاء على قافية مرحب ! » .

وهذا قول مردود ، بما رُدَّ به سابقه !

وهل يُعقل أن تستقيم ليهودىّ قافية عربية ، ثم يعجز عن ذلك أفصح فصحاء العرب ، وأبينهم بياناً ، بعد رسول الله ، عن أن يقيم لنفسه قافية ؟

وإذن ، فإنه إذا صحت نسبة هذا الرجز إلى علىّ ، كان من المقطوع بهأن أمّه قد سمته « حيدره » ولم تسمه أسداً . . أو أن اسم « حيدره » لم يكن اسماً لعلىّ ، وإنما كان من الأسماء التى تغنّى بها الأم لوليدها ، وهى تهدهده بين ذراعيها وعلى صدرها ، وهذا هو الأرجح عندنا ، وفى إضافة هذه التسمية إلى الأم ، مايؤيد هذا الرأى[1] .

أما كنية « على » فهى أبو الحسن . وكان له أكثر من كنية . . فقد كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبا الريحانتين » كما يروى ذلك عن جابر ابن عبد الله — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : « سلام عليك يا أبا الريحانتين ، فعن قليل يذهب ركناك ، والله خليفتى عليك » فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علىّ : هذا أحد الركنين الذى قال صلى الله عليه وسلم ، فلما ماتت فاطمة ، قال : هذا الركن الآخر ، الذى قال صلى الله عليه وسلم » والريحانتان هما ، الحسن والحسين .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً « أبا تراب » وكانت تلك الكنية أحب الكُنى إلى على كرم الله وجهه .

---

(١) إذ كانت تسمية الأبناء إلى آبائهم ، ثم لم يكن من حرج على الأم أن تدلل وليدها بما تشاء من أسماء وألقاب .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء بيت فاطمة فلم يجد علياً فى البيت ، فقال : أين ابن عمك ؟ فقالت كان بينى وبينه شىء فغاضبنى ، فخرج ، ولم يَقِلْ عندى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لإنسان : «انظر أين هو؟» فجاء فقال : يارسول الله هو فى المسجد راقد ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شِقّه ، فأصابه تراب ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه ويقول : قم أبا التراب ، قم أبا التراب »[1]

أبوه وأمه :

وأبوه هو أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، عم النبى ، وكافله بعد جده عبد المطلب . . وقد كان أبو طالب درعاً حصينة للنبى ، فلم تنل قريش منه منالاً ، إلا بعد وفاة عمه أبى طالب .

وأمه هي فاطمة بنت أسد بن هاشم . . وهى أول هاشمية وَلَدت هاشمياً ، وقد أسلمت ، وتوفيت بالمدينة ، وتولى النبى دفنها ، وأشعرها قميصَه ، واضطجع فى قبرها . . وقال صلى الله عليه وسلم فيها : إنها كانت أحسن خلق الله صنيعاً إلىّ بعد أبى طالب . . وبكى ، وقال : جزاكِ الله من أمٍّ خيراً ، فلقد كنت خيرَ أم ».

يقول صاحب « الرياض النضرة » : وكانت ربت النبى صلى الله عليه وسلم ، وولدت لأبى طالب ،طالباً ، وعقيلا، وجعفراً ،وعلياً ، وأم هانىء واسمها فاختة ، وجُمانة !

قالوا : وكان علىّ أصغر ولد أبى طالب . . كان أصغر من جعفر بعشر سنين ، وكان جعفر أصغر من عقيل بعشر سنين ، وكان عقيل أصغر من طالب بعشر سنين !!

---

(١) صحيح مسلم : جزء ٧ ص ١٢٤ .

أولّيته فى الإسلام:

اختلف رواة الأخبار فيمن كان أول المسلمين استجابة لرسول الله ، والدخول معه فى دين الله !

لاشك أن خديجة رضى الله عنها كانت أول من صدق الرسول واستجاب لدعوته ! إذ كانت إليها شكاة النبى ، مما كان يُلّم به من الوحى لأول عهده بالاتصال به ، وكانت من قبل هذا تستشعر أن محمداً إنسان مؤهل لأن يبلغ أسمى منازل الشرف والكمال ، لما اشتمل عليه من عظيم الأخلاق وحميد السجايا .

فلا نزاع إذن فى أن السيدة خديجة هى أول الناس إسلاماً ، إذ كانت ترى مطالع النبوة قبل أن تظهر شمسها فى الأفق ، وتستشرف لما قبل أن تأذن السماء بها .

أما مَن أول المسلمين من الرجال ، فهو موضع الخلاف بين العلماء ، وأصحاب السير ، كما أنه مثار جدل بين من يتشيعون لعلى ، وبين من يشغبون عليه !

وأولية الإسلام ، والسبق إليه ، مَيزة لها حساب فى ميزان الرجال ، وفى تقديم بعضهم على بعض ، فى منازل المجتمع الجديد الذى أقامه الإسلام .

فحين يتساوى الرجلان إيماناً ، وعدلاً ، وجهاداً ، وبذلا ، ونُصحاً لله ولرسوله ـ يكون أسبقهم إلى الإسلام أولاهم بالتقدم فى ركب المسلمين ، وفى الدنو من الإمامة والخلافة !

فبهذا السبق احتج أبو بكر على الأنصار يوم السقيفة ، حين أرادوا الخلافة ، وتشاوروا فيمن يخلف رسول الله منهم . . فكان من حجج أبى بكر التى حاجّهم بها : سَبْقُ المهاجرين إلى الإسلام . . هذا السبق الذى

به قدّم الله المهاجرين على الأنصار فى كل موضع يجتمعان فيه ، فى القرآن . . فقال أبو بكر : « أسلمنا قبلكم ، وقُدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » .

على أن أمر السبق إلى الإسلام ، ليس هو وحده الذى يُنزل المسلمين منازلهم من الإسلام ، فقد سبق ناس وتأخروا ، وتأخر أناس وتقدموا . . ! وإنما هو البلاء والامتحان فيما بعد الإسلام ، مِنْ صِدْقٍ وعمل ، أو نكوصٍ وفتنة !

فهذا عبد الله بن جحش الأسدى ، كان من السابقين إلى الإسلام ، ومن المهاجرين الأولين إلى الحبشة . . قد فُتن هناك فى دينه ، فمات على غير الإسلام !

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله ـ لم يكن من النفر الأولين الذين سبقوا إلى الإسلام ، بل كان من أشد الناس على الإسلام والمسلمين ، فى مطلع الإسلام ، ثم دخل فى دين الله ، فكان ركناً قوياً من أركان هذا الدين ، ويداً قوية عاملة فى إقامة بنائه ، وترسيخ قواعده !

هذا ، ولم يُنظر إلى سبق علىّ إلى الإسلام إلا حين أثيرت مسألة الخلافة . . وهل كان أحقّ بها من أبى بكر ، الذى كان السبقُ إلى الإسلام حجةً من حججه على الأنصار ؟

فعلىّ وأبو بكر ـ رضى الله عنهما ـ صنوان فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى البذل والفداء لإعزاز كلمة الله ، ينزلان من قلب رسول الله ، ومن رضاه ، منزلة قريبة مدانية !

فإذا خلا مكان رسول الله ، وتقدم أبو بكر ليكون خليفته ، أو تقدم علىّ ليكون خليفته ، كان كل واحد منهما أهلاً لهذا المقام ، وأحقّ به !

وقلْ مثل هذا فى عمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير وسعد بن أبى وقاص ،

وعبد الرحمن بن عوف ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من العشرة الذين بُشّروا بالجنة فى حياة الرسول !

ولكن الأمر لم يأخذ سبيل المفاضلة والموازنة ؛ إلا بين أبى بكر وعلىّ بن أبى طالب ! حيث كان هذا أولَ موقف يقفه المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليختاروا الرجل الأول فيهم .

وطبيعى أن نزول الأنصار عن موقفهم من الخلافة ، وعدولهم عن رأيهم فيها ــ لم يكن إلا مجرد تسليم منهم بتقديم المهاجرين عليهم ، وقيامهم بأمر الخلافة دونهم . . ولم يكن فى هذا التسليم اعتراف ضمنى منهم بخلافة أبى بكر أو غيره من المهاجرين ، وإنما ذلك أمر مردُّه إلى المهاجرين وحدهم ، يختارون من بينهم من يرونه أهلاً للخلافة . .

ولهذا ، فإنه بعد أن سلّم الأنصار للمهاجرين بهذا الحق ، أشار أبو بكر على أصحاب السقيفة أن يختاروا أى الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبا عبيدة بن الجراح . . ! ولكن هذين الصحابيين رأيا أن يقدما أبا بكر عليهما ، وأن يمدّا يديهما إليه لمبايعته ، فلما بايعاه بايعه الأنصار ، ومن كان حاضراً من المهاجرين . !

وإذا كان يوم السقيفة ، قد انتهى باختيار أبى بكر ، وبمبايعة المسلمين له بالخلافة ، وإذا كانت الخلافة قد انتهت بعد هذا إلى من انتهت إليهم ، بعد أبى بكر ، فجاء عمر بعهدٍ من أبى بكر ، ثم جاء عثمان عن اختيارٍ من أهل الشورى الذين اختارهم عمر ، وجاء علىّ بعد مقتل عثمان ، وبويع له بالخلافةِ فإن مسألة المفاضلة والموازنة بين الخلفاء الراشدين لم يكن لها ثمة داعية ، ولم يكن أحد ينظر إليها ، وخاصة بين علىّ وأبى بكر . . فقد رضى علىّ عن أبى بكر كل الرضا ، ورضى أبو بكر عن علىّ كل الرضا . . وكذلك كان

الأمر بين علىّ وعمر ، ثم بينه وبين عثمان . . رضى الله عنهم أجمعين . !

ولكن ماحدث فى خلافة علىّ ، من فُرقة واختلاف بين جماعة المسلمين ، جعل القضية تعود ليومها الأول ، وفى صورة أعنف وأشد !

ذلك أنه ما كاد يبايع لعلىّ بالخلافة حتى قام من صحابة رسول الله ، ومن أهل الشورى ، من يأباها عليه ، وينازعه فيها ، ويقاتله من أجلها ، ويريده على أن يردّ أمر المسلمين إليهم فى الخلافة ، ليختاروا من يرونه لها . .

وتدور المعارك ، وتتعدد ميادين القتال ، وتقوم إلى جانب السيف فى كل معركة ، ألسنة تقول ، وحجج تقام ، وأحاديثُ تُروى . . وعلىّ ــ رضى الله عنه ــ هو غرض المقاتلين بسيوفهم ، والقائلين بألسنتهم .. وعلىّ وشيعة علىّ يلقَوْن السيف بالسيف ، واللسان باللسان ، والحجة بالحجة !

وهنا تبرز أولية علىّ فى الإسلام ، فتكون مقولةً من مقولات علىّ وشيعته فى أهليته لخلافة رسول الله ، وأحقيته بتلك الخلافة . . هذا إلى قرابة قريبة من رسول الله ، ورحِم ماسّة منه ، تجعله أولى الناس به وبميراثه منه : « وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض فى كتاب الله . »

فإذا كان هؤلاء الذين نازعوا علياً أن يكون الخليفة على المسلمين بعد عثمان ، يستكثرون عليه الأمر ، ويريدون أن يؤخروه عن تلك المنزلة ــ إذا كان هذا هو رأى هؤلاء المنازعين له ــ فإن علياً عند نفسه ، وعند شيعته ــ هو أولى الناس بالخلافة ، لا بعد عثمان ، بل قبل أبى بكر ، وقبل أى صحابى يقدّم نفسَه للخلافة ! !

وأسبقية علىّ إلى الإسلام ليست هى كل ما هنالك من أسباب خلافته لرسول الله ، بعد وفاته ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما هى جزئية من جزئيات القضية ــ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ــ ومع هذا، فإن المنازعين لعلىّ لم يسلّموا له

بها ، وكان بينهم وبين القائلين بها ، أخذٌ وردٌّ ، طال أمده ، ولم تنقطع موارده !

وقد عرض الجاحظ فى رسالة « العثمانية » حجج القائلين بأسبقية علىّ وتقدمه على أبى بكر فى الإسلام ، ودفوع خصومهم ، فأثار معركة حامية ، أجرى فيها قلمه ، فصال وجال ، وضرب وجوه الحجج بعضها ببعض ، حتى أرهقها جميعاً ، وتركها صرعى ، خامدة الأنفاس ![1] .

وفى طبقات ابن سعد أخبار كثيرة ، تتحدث عن أولية علىّ فى الإسلام . . فمن زيد بن أرقم قال : « أول من أسلم على يد رسول الله صلىّ الله عليه وسلم ، علىّ » .

وعن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : « أول من صلى ، علىّ ، وهو ابن عشر سنين » . وعن الحسن بن زيد ، بن الحسن ، بن على ، بن أبى طالب ، أنه حين دعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، كان ابن تسع سنين » . وعن ابن عباس ، قال : « أول من أسلم من الناس بعد خديجة ، علىّ » وعن محمد بن عمر ، قال : « وأصحابنا مجمعون أن أول أهل القبلة ، الذى استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خديجة بنت خويلد ، ثم اختلف عندنا فى ثلاثة نفر ، أيّهم أسلم أولاً : فى أبى بكر ، وعلى ، وزيد بن حارثة ، وما نجد إسلام علىّ صحيحاً ، إلا وهو ابن إحدى عشرة سنة »[2] .

وأكثر الذين ينازعون فى أسبقية علىّ فى الاسلام ، لايعتدّون بالسبق الزمنى ، وإنما تراهم قد يسلّمون به ، ولكنهم لايرون إسلام علىّ إسلاماً يعتدّ

---

(١) انظر رسالة العثمانية للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، جزء ٢ ص ٢١ .

به فى تلك السن المبكرة ، إذ لم يكن عن نظر وتدبر ، فقد أسلم علىّ حين كان صبياً لم يبلغ مبلغ الإدراك والتمييز !

والذى نقوله هنا هو ما قلناه من قبل ، وهو أن علياً ولد مسلماً ، على الفطرة ، إذ كان مرباه منذ طفولته فى بيت الرسول ، الذى عصمه الله ، وعصم من كان فى بيته من شرك الجاهلية وضلالها !

فإذا كان للأسبقية فى الإسلام ، فى هذا الدور التمهيدى للدعوة ، فضل يتقدم به بعض الناس على بعض ، فى منازل الإسلام ـ فعلىّ ـ لاشك ـ أولُ المسلمين ، بعد خديجة رضى الله عنها . .

* * *

ليلة خالدة . .

لم يذكر المؤرخون أن عليّا كان فى المعذَّبين من المسلمين ، الذين أخذتهم قريش بالبأساء والضراء . . ولعل ذلك كان لمكانة أبيه أبى طالب فى قريش ، من جهة ، ولصغر سنّه من جهة أخرى . . وإن كان ذلك لم يُعْفِه من الأذى الذى أصاب بنى هاشم جميعاً ، حين اعتزلتهم قريش ، وألجأتهم إلى الخروج من ديارهم ، والانعزال فى شِعْب أبى طالب ، طوال مدة المقاطعة .

وفوق هذا ، فقد احتمل علىّ ـ رضى الله عنه ـ آلاماً نفسية قاسية ، خلال هذا الصّراع العنيف المتصل ، بين النبىّ وقومه .

فهذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كاد يواجه قومه . برسالته التى أمره الله بتبليغها للناس ، حتى سلقوه بألسنةٍ حداد ، وحتى رموه بالضرّ والأذى ، فى صور متعددة ، وضروب مختلفة . . وهو صابر محتسب ، إلى أن يقضى الله بينه وبين قومه !

ولقد كان علىّ ، يرى هذا ثم يرى الآلام النفسية التى يعالجها الرسول ، ويبيت عليها . . إذ يرى قومه على مدرج الهاوية ، وهم فى صَمَم عن هذا النذير، الذى يهتف بهم : أن اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . . فلا يجد لهذا الصوت من سميع أو مجيب ، إلا من نفر قليل ، لايعدّ شيئاً إلى هذه الأمم المتساقطة فى الهاوية، تساقط الفراش على النار . . ثم لايجد إلا حَسْرةً وأسى ، يبيت فيهما ، ويصبح عليهما ، إشفاقاً على قومه ، وأسفاً على هذا الخير الأيصيبوا منه شيئاً . وحتى ليجىء وحى السماء ، منبهاً النبىّ إلى أن يخفف من هذا الألم الذى يعيش فيه ، ويكاد يقضى عليه : « فلا تَذْهبْ نفسُك عليهم حسرات »(١) « ولا تحزن عليهم ، ولاتكُ فى ضَيقٍ مما يمكرون »(٢).

والذى لاشك فيه أن عليًّا قد أخذ نصيبه من تلك الآلام النفسية التى كان يعانيها الرسول قبل الهجرة ، كما أخذ نصيبَه منها كلُّ من كان فى بيت النبىّ من زوج وولد !

* * *

وإذا كان التاريخ لم يسجل لعلىّ حدثاً بارزاً فى الدعوة الإسلامية ، بمكة ، قبل الهجرة ، فإن الأيام قد احتفظت له بأروع موقف فى خاتمة هذا الدور ، من حياة تلك الدعوة !

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أذِنَ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، ثم بالهجرة إلى المدينة ، بعد أن تمت بيعة العقبة بين رسول الله والأنصار . . ولم يبق فى مكة إلا من حبسه ضعفه أو مرضه . . وأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعلياً عن أن يهاجرا ، حتى يأذن لهما .

---

(١) سورة فاطر : ٨

(٢) سورة النحل : ١٢٧

وأَذِنَ الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة ، فآذَنَ أبا بكر بما أمره الله ، وأعلمه أنه صاحبُه فى تلك الهجرة ! فهاجر الرسول ، وفى صحبته صاحبه الصدِّيق أبو بكر .

أما علىّ ، فقد أراده الرسول لأمر آخر !

كانت قريش قد أجمعت أمرها على أن تبيّت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأن تضربه بيد واحدة ، تشترك فيها جميع بطونها وأفخاذها ، حتى يتفرق دمه فى قريش كلها ، فلا يكون لبنى هاشم سبيل إلى الطلب بدمه ، والثأر له ، وإلا كان عليهم أن يحاربوا قريشاً كلها !

وجرت الأحداث إلى غايتها . . فقريش تعدّ العدّة ، وتحكم المؤامرة ، وتوقّت لها .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، يستعدان للهجرة ، ويتدارسان أسلوب تنفيذها ، ويرسمان خط سيرها ، وساعة بدئها .

ويلتقى التدبيران : تدبير قريش ، وتدبير الرسول ، التقاء جيش فى ميدان القتال . !

ويُسفر وجه الصبح ، وقد انجلى غبار المعركة عن قريش ، تجرر أذيال الهزيمة ، وتقلّب يد الحسرة والندامة . . إذ خاب سعيها ، وبطل تدبيرها ، ونجا رسول الله ، مما كانت تريد به من سوء !

لقد دعا رسول الله عليًّا ليلة الهجرة ، وطلب إليه أن يبيت فى المكان الذى اعتاد الرسول أن يبيت فيه ، وأن يتغطى بالبُرْد الحضرمى ، الذى كان النبى يتغطى به ، حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار ، رأى وكأنّ النبىّ نائم فى مكانه ! مُغطًّى بالبُرد الذى كان يتغطى به !

وقد كان .. لخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجراً ، في تلك الليلة وأخذ الله ـ سبحانه ـ على أعين القوم ، فلم يروه !

فلما أصبح القوم ، نظروا ، فرأوا عليًا ، ورأوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلت من أيديهم ، وفاتهم ما كانوا قد دبروا له من سوء !

وبقى عليّ في مكة أياماً ، يؤدّى فيها الودائع التي كانت عند رسول الله للناس ، إذ كان صلى الله عليه وسلم موضع ثقة الناس جميعاً ، مَن آمن به ، أو كفر ، على السواء !

عن عبد الله بن أبي رافع ، عن عليّ ، قال : « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، في الهجرة ، أمرني أن أقيم بعده ، حتى أؤدى ودائع كانت عنده للناس ، ولذا كان يسمى الأمين . فأقمت ثلاثاً ، فكنت أظهر ، ما تغيبت يوماً واحداً ، ثم خرجت ، فجعلت أتتبع طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قدمت بني عمرو بن عوف ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقيم ، فنزلت على كلثوم بن الهدم ، وهنالك منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

وفي سيرة ابن هشام : « وأقام عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ بمكة ثلاث ليال ، وأيامها ، حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ليس أحد عنده شيء يخشى عليه ، إلا وضعه عنده ، لِماَ يعلم من صدقه ، وأمانته . صلى الله عليه وسلم »[2] .

---

(١) الطبقات : جزء ٢ ص ٢٢ .

(٢) السيرة لابن هشام : جزء ٢ ص ٧٩ .

خاطرة ! :

وهذا الذى كان من علىّ فى ليلة الهجرة ، إذا نُظر إليه فى مجرى الأحداث التى عرضت للإمام علىّ فى حياته بعد تلك الليلة ، فإنه يرفع لعينى الناظر ، أمارات واضحة ، وإشارات دالة ، على أن هذا التدبير الذى كان فى تلك الليلة، لم يكن أمراً عارضاً ، بالإضافة إلى علىّ ، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها !
فلنا أن نسأل :

أكان لإلباس الرسول صلى الله عليه وسلم شخصيته لعلىّ ، تلك الليلة، مايوحى بأن هناك جامعة تجمع بين الرسول وبين علىّ ، أكثر من جامعة القرابة القريبة التى بينهما ؟ وهل لنا أن نستشفّ من ذلك ، أنه إذا غاب شخص الرسول كان عليًّا هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه ، وتمثل شخصه ، وتقوم مقـــامه ؟

وأحسب أن أحداً قبلنا لم ينظر إلى هذا الحدَث نظرتنا هذه إليه ، ولم يقف عنده وقفتنا تلك ، حتى شيعة علىّ ، والمبالغين فى التشيع له ! فإنا نراهم لايلتفتون كثيراً إلى هذه الواقعة ، ولا يقيمون منها شاهداً يشهد لعلىّ أنه أولَى الناس برسول الله والقيام معه ، على حين نراهم يتعلقون بكل شىء يرفع عليًّا إلى تلك المنزلة !! وأحسب كذلك أننا لم نتعسف كثيراً ، حين نظرنا إلى علىّ ، وهو فى بُرد الرسول ، وفى مثوى منامه الذى اعتاد أن ينام فيه — فقلنا هذا خَلَفُ رسول الله ، والقائم مقامه !

ثم نحن إذا نظرنا إلى علىّ وهو يواجه قريشاً ، بعد أن فعل فعلته بها ، وبعد أن صفعها تلك الصفعة المذلّة المهينة ، ثم تصفحنا هذه الوجوه المنكَرة ، وتلك الأعين المحدّقة ، وهى ترمى عليًّا بنظراتها الحاردة المتوعدة ، إذ خَدَعَها عن « محمد » ، ومكر بها، حتى أفلت «محمد» من بين يديها — ألا يذكّرنا هذا

المشهد ، بما كان من قريش لعلىّ ، وإرهاقها له ، وتجنّيها عليه ، بعد أن دخلت فى الإسلام . . حيث لم يَرَ منها إلا حنقاً عليه ، وكيداً له ، وازوراراً عنه ! ؟

وإن لك أن تقول : إن الفرق كبير بين قريش الملحدة الكافرة ، المتحدية للرسول ، ولمن يجتمع إلى الرسول ، وبين قريش المسلمة ، المستجيبة لرسول الله ، والمجاهدة فى سبيل الله !

ولكن .. لنا نحن أيضاً أن نقول : إنه إذا كان الإسلام قد ذهب بسخائم النفوس ، وضمد جراحات القلوب ، فإنه قد بقى فى كثير من النفوس بعض هذه السخائم . مُنْدَسة خامدة ، إذا حركتها الأحداث تحركت ، وبقى فى بعض القلوب ندوب ، هى ساكنة ما سكنت الأحداث ، فإذا طاف بها طائف من المواقف المتأزمة نَغَرتْ ، وألقت بما فيها من قيح وصديد !

إن هذا الذى كان من علىّ ليلة الهجرة ، فى تحدّيه لقريش ، هذا التحدّى السافر ، وفى استخفافه بها ، وقيامه بينها ثلاثة أيام ، يغدو ويروح — إن ذلك لا تنساه قريش لعلىّ أبداً ، ولولا أنها وجدت فى قتله يومئذ إثارة فتنة ، تمزق وحدتها ، وتشتت شملها ، دون أن يكون فى ذلك ما يبلغ بها غايتها فى « محمد » — لولا ذلك لقتلته ، وشفت ما بصدرها منه ، ولكنها تركته ، وانتظرت الأيام ، لتسوى حسابها معه !

وأمر آخر !

هاجر الرسول إلى المدينة ، وترك وراءه فى مكة ، قلوباً مضطغنة عليه ، مغيظة منه ، متحرقة إلى ضرّه وأذاه . . واستقبل فى مهاجره الجديد وجوهاً فياضة بالبشر ، وقلوباً عامرة بالخير والحب .

وهاهو ذا علىّ يخلُف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا المجتمع المضطرب ، ومع هذه الجماعة الحانقة المبغضة . . يعيش معها أياماً ثم يلحق بالرسول فى مهاجره الجديد !

ثم مضى الرسول إلى ربّه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وانتقل من دار إلى دارٍ خير منها . . أشبه بانتقاله مهاجراً من مكة إلى المدينة . . وترك علياً وراءه يصطدم بالأحداث ، ويكابد الشدائد ، حتى يلحق بالرسول فى الرفيق الأعلى ، كما لحق به فى مهاجره من قبل !

ألا يبدو لنا من هذه الموافقات ، مانستشف منه أن لعلىّ شأناً فى رسالة الرسول ، ودورا فى دعوة الإسلام ، ليس لأحد غيره من صحابة الرسول ؟

وبعد — فهذه خطرات ، لانحسبها على تلك القضية ، ولا ندخل بها فيها ، ولا نضيفها إلى حساب علىّ رضى الله عنه ، ولا نأخذ بها فيما نأخذ به من مرويات التاريخ عنه .

إنها ليستْ حقائق يمكن أن تقبض منها اليد على شىء ، ولكنها خفقات قلب ، تَهيجه الذكريات ، لموقف من تلك المواقف الخالدة ، فيخشع لجلالها ، وينتشى بروعتها !

* * *

الباب الثانى

فى موكب الدّعوة

الفصل الأول

في دار الهجرة :

أفلت علىّ من قريش ، وصدق ماوعده رسول الله ، فلم يخلص إليه من القوم أذى ، وأسرع الخطا للحاق برسول الله فى دار هجرته ، ليصل حياته بحياة الرسول ، ولينضوى تحت جناحه الذى أظله منذ صباه ، والذى لم يبت ليلة بعيدا عنه ، منذ آوى إليه ! اللهم إلا تلك الليالى ذوات العدد ، التى خرج فيها الرسول من مكة إلى الطائف يدعو أهل ثقيف إلى الاسلام .

ويتحدث الرواة أن عليًا لحق بالرسول وهو بمنزله الذى نزله بقباء ، قبل أن يدخل المدينة[1] .

فاذا صح ذلك ، فان عليًّا يكون قد دخل المدينة فى موكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع قدميه على أثر أقدام الرسول ، فى طريقه إلى المنزل الذى نزله منها ، واتخذ فيه مسجده ، وركز فيه الراية التى اجتمع إليها المسلمون ، وانطلقت منها دعوة الإسلام .

على أن الذى كان ينتظر عليًّا فى مدينة الرسول شىء أعظم من هذا ، وأكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا . . ! شىء اختُصّ به علىّ وحده ، لم يشاركه

---

(١) الطبقات جزء ٣ ص ٢٢ .

فيه أحد من المسلمين ، الذين أخذ كل منهم بحظه من الإسلام ، وبمكانته من رسول الله !

فى المدينة كان أولُ عمل عمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، أخوّة خاصة ، غير تلك الأخوة العامة التى جعلها الإسلام بين المسلمين جميعاً . . هى إخوة تجمع بين اثنين ، جمعاً موثقاً ، يشارك فيه الأخ أخاه ، فى أمره كلّه ، فى سرائه وضرائه ، وفى حلو عيشه ومره ، وفى لين حياته وخشونتها .

وفى هذه المؤآخاة عرّف رسول الله كلّ أخ بأخيه ، وجمعه إليه ، ووصله به ، وتولّى بنفسه اختيار المتآخين ، ليجمع المرء على من هو أشكل به ، وأقرب إلى طبيعته ، وما اشتمل عليه من صفات ، ليتم التوافق ، ويثمر التآخى أطيب الثمرات .

فعن عبد الله بن محمد بن عمر بن علىّ عن أبيه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، آخى بين المهاجرين بعضهم ببعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، فلم تكن مؤاخاة إلا قَبل بدر . . آخى بينهم على الحق والمواساة ، فآخى رسول الله بينه وبين علىّ بن أبى طالب »[1] .

وعنه أيضاً : أن النبى صلى الله عليه وسلم حين آخى بين أصحابه وضع يده على منكب علىّ ، ثم قال : « أنت أخى ، ترثنى وأرثك ، فلما نزلت آية الميراث قطعتْ ذَاكَ »[2] .

وهذه الأخوة للنبى ، التى جعلها الرسول لعلىّ وحده ، واختصه بها ، تدعونا إلى أن نتحقق منها أولا ! ونستوثق من الأخبار التى تحدّثت بها ، وذلك قبل

---

(١) الطبقات جزء ٣ ص ٢٢ .

(٢) الطبقات جزء ٣ ص ٢٢ .

أن ننظر فى دلالاتها ، وما فى هذه الدلالات من شواهد الفضل والإحسان ، لمن اختصه النبى بأخوته ، لاعن محاباة ، وإنما عن أمرٍ من أمر الله ، وفضل من فضله ، الذى « يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

روى ابن هشام قال : « وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا — ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل — « تآخوا فى الله.. أخوين . أخوين ، ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب ، فقال : «هذا أخى » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّدُ المرسلين وإمامُ النبيين ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد — وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، أخوين »[1] .

وعن محمد بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعن محمد بن صالح ، قالوا : « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين علىّ بن أبى طالب وسهل بن حُنيف »

وسهل بن حنيف أنصارى . . فهى أخوة بين مهاجرىّ ، وأنصارىّ ، فقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين أولاً ، ثم آخى بينهم وبين الأنصار ثانياً ، فكان لكل مهاجر أخوان : أخ من المهاجرين ، وأخ من الأنصار .

وإذن فهذا الخبر الذى يحدث عن تلك المؤاخاة التى كانت بين علىّ ، وسهل بن حنيف ، هى فى المؤاخاة التى جعلها الرسول بين المهاجرين والأنصار ، بعد تلك الأخوة التى أقامها بين المهاجرين فيما بينهم .

وقد تحدَّث علىّ — كرم الله وجهه — فى مواقف كثيرة من أخوته لرسول الله صلى عليه وسلم ، وذلك فى مقام المواجهة لمن كانوا ينازعونه الأمر ، حين

---

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٨٨ .

آلت إليه الخلافة ، أو يدفعونه عن الخلافة ، حين كان يطالب لنفسه بها .

ولاشك أن هذه المقولات التي رواها رواة التاريخ عن عليّ ، إلى تلك الأخبار التي رواها أصحاب الحديث عنه ، وهي جميعها يدعم بعضها بعضاً ـ تجعلنا نطمئن إلى هذه الواقعة ، ونقبلها فيما نقبل من أخبار عليّ كرم الله وجهه !

وإذا صح ذلك عندنا .. فما مدلوله ؟ وهل لنا أن نجد فيه شيئاً يضاف إلى ما لعليّ من فضل في خاصة نفسه ، وفيما أعطى لله ولرسوله من جهاد وتضحية وإيثـــار ؟

والجواب بلا تردّد : أنه نعم !

وقد أمسك عليّ نفسُه ـ فيما رُوى عنه ـ بهذا الفضل العظيم ، والشرف الكبير ، اللذين كانا له من هذا النسب الكريم ، وتلك الأخوة التي تجمع بينه وبين رسول الله ، في رحاب الله ، وفي دين الله ، وعلى طريق الدعوة إلى الله !

ولو سكت عليّ عن التحدث بهذا الفضل ، ومباهاة الناس بتلك الأخوة وإلفاتهم إليها ـ لما سكت الناس ، إذ كانت دلالتها أظهر من أن تخفى على أحد ، وكان ماتنطوى عليه من نفحات النبوة أقوى من أن يحول بينها وبين أن تُشمّ في أعطاف عليّ ، ما يعرض للأنوف من علل ، وما يصيب القلوب من مرض !

على أننا لا نرى بدّاً من أن نجلّى عن هذه الأخوّة . ما يكون قد زاحمها ، أو غطّى عليها من قرابة عليّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهذه القرابة القريبة من شأنها أن تكون على سبيل التجوز ـ أخوّة تجمع ابن العم إلى ابن عمه ، كما تجمع الأخ إلى أخيه !

ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليّ ـ رضى الله عنه ـ ابنا عمٍّ، نسباً وقرابة. قد كان مربّاهما إلى أبي طالب ، العمّ البار الرحيم ، الذى قام من « محمد » مقام

الأب ، عطفاً ، وحنوًا ، بل إنه ـ كما عرفنا ـ قد آثر « محمدًا » على أبنائه ، واختصه بالقدر الأكبر من حبّه وبره ! حتى لقد كان ـ والأمر كذلك ـ لابنه « على » أشبهَ بالعمّ ، إذ استأثر « محمد » بأبوته ، واستأثر « محمد » كذلك بعليّ دونه ، فى رعايته ، وتنشئته ، والنظر فى أمره كلّه ، قريبه وبعيده !

فهذه القرابة التى جمعت بين « محمد » و « عليّ » على هذا الوجه ، من شأنها أن تجعل من ابنى العم « أخوين » نسباً وقرابة ، دون أن يكون لفارق السنّ بينهما حساب ، فى تقريرِ هذه الأخوّة ، وإجرائها إلى غايتها . فقد كان بين عليّ وبين بعض إخوته من أبيه وأمّه ، أكثر مما بينه وبين ابن عمه « محمد » ، من فارق السنّ !

وعند أكثر الذين تلقّوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعليّ : « أنت أخى ، ترثنى وأرثك » قد وقع فى نفوسهم أن هذه الأخوة أخوة قرابة ونسب ، إن لم تكن على سبيل الحقيقة ، فهى على مجاز ، مقارب للحقيقة ، مؤيد لها !

والأمر فى تقديرنا على غير هذا ! وإن لنا أن ننسى هذه القرابة النسبية التى بين محمد وعليّ ، وأن نفصلها عن هذا النسب الجديد ، الذى جمع به الرسول بينه وبين عليّ ، فجعله له أخاً ، إذ كان لهذه الأخوة مقومات أخرى ، غير مقومات النسب والقرابة ! فقد ظلت هذه الأخوة قائمة بعد أن نَسخَتْ آيات المواريث ما كان يترتب عليها من ميراث الأخ من أخيه ، وهى كذلك تظل باقية إذا لم يكن من ورائها قرابة ونسب !

وعلى هذا ، فإنه إذا جاز لنا أن نحسب لهذه القرابة حسابها فى هذه الأخوة التى جمع فيها النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بينه وبين عليّ ، فإن هـذا الحساب لا يستقيم أبداً ، ولا يكون له معتبَر بحال ، إلا إذا نظر ناظر فرأى بين ابنى العم مشاكلة ومقاربة ، فى الصفات النفسية والروحية ، وفى كل ما تحتاج إليه

الدعوة الجديدة ، من قوّى فى الرجل الذى يحمل رسالتها ، وفى الرجال الذين يشدون من أزره ، ويسندون ظهره ، فى الحفاظ عليها ، وفى إبلاغها للناس ، وفتح الطرق لها إليهم ، وإزاحة المعوّقات التى تحول بينهم وبينها !

فإذا اجتمع إلى تلك الصفات النفسية والروحية ، التى تُدنى إنساناً من الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قرابة مدانية ـ كان ذلك مما يدعم تلك المنزلة التى يَنزلها من رسول الله ، ويوثقها ، ويزيدها قرباً إلى قرب ، وقوة إلى قوة !

فلقد كانت قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنى هاشم قوة له ، فى وجه أعدائه الذين أنكروا عليه دعوته فيهم ، ومقامه بينهم . . ذلك وبنو هاشم كانوا على ما كانت عليه قريش ، من الإنكار لدعوته ، والمجانبة لرسالته . . ولكنهم انتصروا له حميةً ، ودافعوا عنه قرابة ، ولم ينتصروا الدين الذى يدعو إليه ، ولم يدافعوا عن الرسالة التى يحملها إليهم ! وإن كثيراً منهم قد دخل معه فى دين الله استجابة لعاطفة القرابة تلك ، من غير نظر إلى هذا الدين ، وما يحمل إلى الناس من خير ، وهدى ، ورحمة !

يُروى لأبى طالب هذان البيتان ، من شعر ، كان يقوله فى وجه قريش ، حين كانت تتربص بالنبي ، وتطلب الفرصة للقضاء عليه ـ يقول :

كذبتم ، وبيتِ الله ، نُخْلِى محمداً
ولمّا نطاعنْ دونه ونناضلِ
ونُسْلمه حتى نُصَرَّع حوله
ونَذْهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

وسواء صح هذا الشعر ، أو لم يصحّ ، فى نسبته لأبى طالب ، فإنه شيء من

بعض عاطفته ، وعاطفة بنى هاشم ، نحو محمد ، فيما كان بين قريش وبينه .

وفى شِعْب أبى طالب الذى انحاز إليه بنو هاشم ، وفيهم من هو أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عمه أبو لهب ـ فى هذا الشعب تبرز الحكمة فى اختيار رسل الله من أواسط أقوامهم ، ومن الجبهة القوية السليمة فيهم ، ليكون منهم العضد القوية ، واليد الدافعة ، لسفاهة السفهاء ، وبغى الباغين ، ممن تحدثهم أنفسهم بالعدوان على من اختارهم الله لرسالاته ، واصطفاهم لهداية عباده .

وقد ذكر القرآن الكريم ما كان من قوم شعيب ، وما سوّلت لهم أنفسهم فيه ، من العدوان عليه والبطش به ، لولا أنهم كانوا يحسبون حساباً لأهله وذوى قرابته ، الذين يرون الاعتداء عليه اعتداء عليهم ، وامتهاناً لكرامتهم ، واستباحة لحمام . . يقول القرآن الكريم فى هذا : «قالوا شعيب ، مانفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطُك لَرَجَمْناك ، وما أنت علينا بعزيز ! قال ياقوم : أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظِهرياً ؟ . . » (١)

وموسى عليه السلام ـ حين أرسله الله ـ سبحانه ـ رسولاً إلى فرعون ، وجد فى نفسه رهبة لهذا الموقف ، وضعفاً عن احتماله ، فطلب إلى ربه أن يكون إلى جانبه من يعينه ، ويشد أزره ، ولم يتخير لذلك إنساناً بعيداً عنه ، وإن كان ذا جنان ثبت ، ولسان طلق ، بل تخير أخاه هارون ، ليقف معه هذا الموقف ، وليعطيه كل ماعنده : لله ولرسوله ، ثم لقرابته ، ولحمة نسبه ! كل جانب منهما يشدّ الآخر وَيَرْفِدُه ، إذا ضعف جانب ، أمسك به الجانب الآخر !

---

(١) سورة هود ٩٢ .

وفى هذا يقول القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام : « قال رب اشرحْ لى صدرى ، ويسّرْ لى أمرى ، واحلُلْ عقدةً من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى . . هرون أخى . . اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى »[١] ويقول أيضاً : « قال ربّ إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ ، وأخى هرون هو أفصح منى لساناً ، فأرسِله معىَ رِدْءًا يصدّقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشدّ عضدكَ بأخيكَ ، ونجعل لكما سلطاناً »[٢].

وقد ظلت هذه الأخوة عاملة بين محمد وعلىّ ، تعطى آثارها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى كل موقف يحتاج فيه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أن يلقاه بنفسه أو بمن يراه بمنزلة نفسه!

ونذكر هنا حدَثين بارزين ، كان على النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقوم لهما بشخصه ، أو يندب لهما من هو أشبه بشخصه .

* * *

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكراً أميراً على الحج ، يقيم المسلمين حجّهم ، وما كاد أبو بكر — رضى الله عنه — يوافى الموسم ، حتى نزلت سورة « براءة » وفيها بلاغ للناس ، وإنذار للمشركين ، بألا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا !

والرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مطالب أن يبلغ هذا للناس ، ولمن لم فيه شأن ، امتثالاً لقوله تعالى : « يأيها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالته »[٣].

---

(١) سورة طه : ٢٦ — ٣٢ .

(٢) سورة القصص ٣٣ — ٣٥ .

(٣) سورة المائدة : ٦٧

وكيف للرسول أن يشهد موسم الحج ؟

لقد بعث أبا بكر أميراً على الناس ، وهذا شرف عظيم قد ألبسه الرسول صاحبَ هجرته ، ورفيقه في الغار ، أبا بكر ، رضى الله عنه ، فلو حضر النبي موسم الحج ، لنزع عن أبى بكر هذا الثوب الكريم الذى ألبسه إياه ، وفى هذا مافيه من فتح أبواب كثيرة لمقولات المنافقين ، وتخرصات مَن فى قلوبهم مرض! وأبو بكر أكرم عند الله ، وعند رسوله ، وعند المؤمنين ، من أن يصبح هدفاً للسهام المسمومة ، من أفواه أهل النفاق والسوء !

ومن جهة أخرى ، فإن أبا بكر — مع مالَه من مكانة عند الله وعند رسوله — لايبلّغ عن رسول الله ، مامن شأن الرسول أن يبلغه بنفسه !

ولهذا ، فقد نَدَب رسول الله صلى — الله عليه وسلم — علىّ ابن أبى طالب لهذا الأمر ، ومعه سورة « براءة » يقرؤها فى أهل الموسم ، ويعلمهم بما جاء فيها من أحكام !

حدث ابن هشام فقال : « بَعَث رسول — الله صلى الله عليه وسلم — أبا بكر ، أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للناس حَجّهم .. والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر — رضى الله عنه — ومن معه من المسلمين ، ونزلت « براءة » فى نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم : ألاّ يُصَدّ عن البيت أحدٌ جاء ، ولا يُخاف أحد فى الشهر الحرام .. وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس ، من أهل الشرك ، وكانت مع ذلك عهود بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب ، خصائص .. إلى آجال مسماة .

« قال ابن إسحاق ، وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنيف عن أبى جعفر ، محمد بن على — رضوان الله عليه — أنه قال : لما نزلت براءة على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله،لو بعثتَ بها لأبى بكر ! فقال : «لا يؤدّى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا على بن أبى طالب — رضوان الله عليه — فقال له : « اخرج بهذه القصة من صَدْر براءة ، وأذِّنْ فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنًى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . . ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته » فخرج علىّ بن أبى طالب — رضوان الله عليه — على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « العضباء » حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير ، أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج . . حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — فأذّن فى الناس بالذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . »(١) .

هذه واحدة ! .

وأخرى ! .

فى غزوة تبوك . . دعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج معه إلى تلك الغزوة ، وقد أعلن أصحابه بها ، وكان فى كل غزوة لا يصرّح لهم إلا بأنهم سيغزون ، دون أن يذكر لهم الجهة التى يغزونها .

أما هذه الغزوة ، فقد رأى أن يُؤْذِنهُم بها ، ليأخذوا لها عدتها، من زاد وعتاد ، لبعد الشُّقّة ، وما عند الأعداء من قوة ومنعة ! .

وكانت تلك السَّنة مُمحلة مجدبة ، والناس فى شدة وعَنَاء .

---

(١) السيرة لابن هشام ص ٣ : ٦٠ .

ولهذا دعا الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أصحابَه إلى البذل فى سبيل الله ، وقد بذل المسلمون جهدهم .

ومع هذا ، فإن الجيش فى حاجة إلى كل ما عند المسلمين من قوة ، ظاهرة أو خفيّة ـ كثيرة أو قليلة ـ وهم فى وجه قوة ، لم يعرفوا ما عندها من عُدد الحرب وأساليب القتال ! .

وموقف كهذا لا يُستغنى فيه عن علىّ بن أبى طالب ، الذى يَعُدّه المسلمون جيشاً وحده ، وجبهة قوية قاهرة فى وجه الأعداء . . !

ومع هذا ، فقد تخلف ابن أبى طالب عن هذا الجيش ! .

تخلف بأمرٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ولكن لا خوفاً عليه ، ولا ضنًّا به ، فما خاف الرسول عليه ، ولا ضنّ به فى أشد المواطن ، وأكثرها تعرضاً للموت . . لأن الموت فى سبيل الله هو غاية المؤمنين ، ولا يَضنُّ به رسول الله على مَن أحبَّ ! .

ولقد أرجف المنافقون بعلىّ ، وقالوا فيه أقوالا شنيعة . . قالوا : إن رسول الله استثقل صحبته ، وكره أن يكون رفيق سفره ! .

وفزع علىّ لهذه المرجفات ، وجاء إلى النبى يسأله فى هذا التخلف ، وفيما يقول المنافقون فيه .

وعندئذ لم يكن بدٌّ من أن يصرّح النبىّ بما كان يُخفيه ، وكشف عن السرّ من وراء تخلف علىّ . . وكان فى ذلك ما أثلج صدر علىّ ، وكبت قلوب المنافقين ، وأخرس المتخرصين .

وهكذا يصدق قول القائل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويتْ ، أتاح لها لسانَ حسود

روى ابن سعد فى طبقاته . . قال « أخبرنا رَوْح بن عُبادة قال : أخبرنا

عَوْن ، عن ميمون ، عن البَرَاء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، قالا : لما كان عند غزوة جيش العسرة ، وهى تبوك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ابن أبى طالب : « إنه لا بد من أن أقيم أو تقيم ، نخلفه ، فلما فصل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غازيا ، قال ناس : ما خلّف عليًا إلا لشىء كرهه ، فبلغ ذلك علياً ، فاتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهى إليه ، فقال له : ما جاء بك يا على ؟ قال : لا ، يا رسول الله ، إلا أنى سمعت ناساً يزعمون أنك إنما خلفتنى لشىء كرهته منى ، فتضاحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « يا علىّ . . أمَا ترضى أن تكون منى كهارون من موسى ، غير أنك لست بنبى؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فإنه لكذلك » (١) .

وروى ابن هشام فقال : وخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ ابن أبى طالب — رضوان الله عليه — وراءه على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف المنافقون ، وقالوا : ما خلّفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبىّ الله : زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى ؟ قال : كذبوا ، ولكنى خلّفتك لِمَا تركتُ ورائى ، فاخْلُفْنِى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا علىّ أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبىّ بعدى ؟ فرجع علىّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سفره » .

قال ابن اسحق : وحدثنى محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم

---

(١) الطبقات : ٣ ص ٢٥ .

ابن سعد بن أبى وقاص عن أبيه سعد ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ تلك المقالة[١] » .

* * *

وعند هاتين الواقعتين يقف بعض الغلاة طويلاً ، يستحلبون منهما دلالات كثيرة ، لايزالون يمخضونها حالاً بعد حال ، ليقيموا منهما الشواهد التى تمثّل لهم الإمام علىّ كرم الله وجهه إنساناً جاوز حدود الإنسانية ، بما لم يبلغه نبىّ أو رسول !

هذا ، على حين أن طوائف أخرى من الخوارج وغيرهم لا ترى لهذه المرويات ـ إن صحت ـ أية دلالة على خِصّيصة اختُصّ بها علىّ دون من معه من صحابة رسول الله ، فما هى إلا أمور عارضة ، صادفت عليًّا ، كما صادفت كثير من أمور الرسول بعضَ صحابته !

وهذا وذاك محمول على غير محمل العدل والإنصاف .

من الجائز التسليم بأن هذه المرويات غير صحيحة ، وعندئذ تضاف إلى تلك المرويات الكثيرة ، التى دُفع بعدم صحتها فى نسبتها إلى الرسول .

وبذلك يريح المرء نظره منها ، ويصرف وجهه عنها ، فلا يكون لأوليا علىّ أو أعدائه متعلّق بها . أمّا أن تكون هذه المرويات مقبولة على أية درجة من درجات القبول ، ثم لا يكون لها حساب فى فضل من تُضاف إليه ، فذلك ما لا يجوز التسليم به بحال !

إن فيها شيئاً ، وشيئاً غير قليل من المحامد والمآثر ، لمن تَردُ عليه ، وتُوجه له ، ولكنّ شيئاً من ذلك لا يَخرج بمن تلبسه عن حدود البشرية بحال أبداً ،

---

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٣٣٢ .

وغاية ما يمكن أن يكون له ، هو أنه فى منازل الأخيار المصطفَين من عباد الله !

ولو ذهبنا ننظر إلى هذا الفضل المسوق لابن أبى طالب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذين الموقفين ، لرأينا أنه إنما سيق إليه عن قصد من رسول الله ، امتثل فيه أمرا سماويا تلقاه من ربه ، ليكون علىّ هو المختار لهذين الموقفين ، لمزية فيه ، لا توجد فى غيره من صحابة رسول الله !

ففى بَعْثِهِ بسورة براءة إلى أهل الموسم ، ونَبْذه ما كان للمشركين من عهد ـ هذا الأمر كان يمكن أن يقوم أى صحابى من أصحاب رسول الله ، بل إن أبا بكر أمير الموسم كان أحقّ به وأولى ، لولا مَلْحظ خاص ، لا يتم هذا الأمر إلا به ، ولا يصلح له من الناس إلا من كان على وصف خاص ، مهيأ له !

والملحظ هو فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤدِّى عنى إلا رجل من أهل بيتى » فإن ذلك يعنى أن العهود والمواثيق التى يعقدها الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى مما يحسب فى ذِمّة الشخص ، يتولاّها المرء بنفسه ، أو من هو بمنزلة نفسه ، ولهذا كان انتداب أحدٍ من أهل بيت الرسول أمراً لازماً فى هذا الأمر ، إذا لم يكن الرسول نفسُه هو الذى يقوم به !

وذلك أن هذه العهود كانت بين الرسول وبين بعض القبائل التى لم تكن قد دخلت فى الإسلام .

وقد تخيّر النبى لذلك خيرَ أهل بيته ، ليؤدى عنه ما كان عليه أن يؤديه هو بنفسه .

وقد يسأل سائل : لماذا كان هذا الموقف بالذات هو الذى يقوم فيه

النبيّ بنفسه وشخصه أو من هو كنفسه ، وكشخصه . وقد كان الرسول يبعث بأصحابه ، مبشرين ومنذرين ، ومبلغين رسالته ، إلى القبائل . فلِمَ هذا الموقف بالذات ، لا يرضى فيه النبي إلا أن يكون مبعوثه واحداً من أهله ؟ .

والجواب ، هو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد عقد مع أقوام عهوداً ومواثيق . وهو ضامن فى شخصه لتلك العهود وهذه المواثيق ، لا باعتبار أنه نبيّ ، بل على أنه عربى فى مواجهة عربىّ . إذ لم يكن المشركون يتعاملون مع النبيّ باعتبار أنه نبيّ . وإنما على أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . ولو كانوا يعترفون بنبوته لآمنوا به ، ولما كان بينه وبينهم خلاف . . وهذا ما حدث يوم الحديبية ، حين عُقد الصلح بين قريش وبين النبيّ . . إذ ما كان علىّ كرم الله وجهه يكتب باسم الله الرحمن الرحيم فى صدر الكتاب ، حتى قال ممثل قريش(1) . . لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهمّ . . ثم ما كاد يكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، حتى قال ممثل قريش : لا ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! »

وإذن . فهذه العقود التى بين النبي وبين مشركى قريش ، كانت عقوداً شخصية ، فى ذمته هو أولاً ، وقبل كل شىء . وعلى هذا ، فإن من تعاقدوا مع النبيّ من المشركين ، لا يرضَوْن أن يُحِلهم من هذه العقود إلاّ من كان طرفاً معهم فى عقدها ، أو من يقوم مقامه من خاصة أهله . . فإذا جاء أبو بكر أو غيره من صحابة رسول الله ، يعلن قبيلة أو جماعة أو فرداً من المشركين ، بحلّ العقد الذى عقده الرسول ، فإنما يكون ذلك باعتبار أنه واحدٌ فى الجماعة الإسلامية ، التى تؤمن برسالة محمد ، وتدين له بالولاء والطاعة . . والمشركون

---

(1) هو سهيل ابن عمرو .

لا يعترفون بهذا ، إذ لم يتعاقدوا مع محمد بصفته تلك ، التى يجتمع عليها المسلمون حوله .

ولهذا كان قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى هذا الموقف : « لا يؤدّى عنى إلا رجلٌ من أهل بيتى » إنما هو وضع للأمر فى موضعه الصحيح ، الذى لا يقبل غيره فى هذا الموقف ! .

وانظر : ماذا يكون الحال لو بعث النبىّ بشخص ليس من خاصة قرابته ، فأبرم باسمه عقداً ، ثم ارتد هذا الشخص عن الإسلام ، وأصبح فى جماعة المشركين ، وهذا أمر ليس بعيدَ الوقوع ، إذ ارتد بعض المسلمين فى عهد النبىّ ، كعبد الله بن أبى السرح ، الذى كان يكتب الوحى مع من يكتبون للنبى — فمن يحمل تبعة هذا العمل ؟ إن لهذا المتعاقد باسم النبى أن يحلّ نفسه من كل التزام . . لأنه تعاقد بصفة قد زالت عنه بارتداده . .

والأمر يقع على غير هذا تماماً ، لو أن شخص المتعاقد باسم النبى كان من أهله خاصة ، ثم ارتد مشركا . . إنه فى تلك الحال ضامن الوفاء بما تعاقد عليه ، باعتباره عصبية محمد ، وليس لمحمد ولا لعصبيّة محمد أن تحل نفسها من هذا العقد .

هذا ، ويلاحظ أننا فى هذا التقدير إنما ننظر إلى أمرين :

أولهما : الطرف الآخر ، من طرفى العقد ، وهو طرف المشركين ، الذين لا يعترفون بالإسلام ، ولا يقرّون الرابطة التى تجمع المسلمين بعضهم ببعض ، ثم تضيفهم جميعاً إلى رسول الله .

وثانيهما : الأمة العربية ، وما كانت تخضع له يومذاك من أحكام العصبية والتزاماتها . . ولعلنا نستحضر هنا موقف بنى هاشم جميعاً ، مسلمهم ومشركهم

فى المقاطعة التى فرضتها قريش عليهم ، كسلاح من الأسلحة التى تحارب بها محمداً ، ودعوة محمد !

وفى تخلف علىّ ، فى غزوة تبوك ، وقول الرسول صلى الله علية وسلم له : « إمّا أن أبقى أو تبقى » بيان صريح بأن عليًا — كرم الله وجهه — فى منزلة عند النبى لا يقوم بها أحد غيره . . وإذا لم يكن ذلك فى جميع الأحوال ، فهو فى الحال التى تتصل بشخص النبى ، وبخاصة نفسه .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم لعلى : « أفَلاَ ترضى ياعلىّ أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبىّ بعدى » — فى هذا مايشير إلى أن مابين النبى وعلىّ أكثر من القرابة ، وأن أحدهما مكمل للآخر ، ولو كانت هناك نبوّة بعد النبى لكان علىّ هو صاحبها !

* * *

وإذ نحن قد فتحنا هذا الباب ، وأغرينا أنفسنا بالتحديق فى هذه الآفاق البعيدة عن مواقع النظر ، والرؤية الكاشفة ، فإننا لا نرى أن نغلق هذا الباب، ونردّ الطرف عنه ، إلا بعد أن ننظر فى زواج علىّ — كرم الله وجهه — من فاطمة الزهراء رضى الله عنها . . وهى صغرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فماذا فى هذا الزواج من ابنة رسول الله ، من فضل يختص به علىّ وحده دون غيره ، ممن تزوجوا من بناته ، صلوات الله وسلامه عليه ؟

إن الصهر إلى رسول الله شرف عظيم . وفضل سابغ . .

وقد تزوج عثمان رضى الله عنه بابنتى رسول الله (رقية وأم كلثوم) فاكتسى بذلك هذا اللقب الكريم .. « ذا النورين » .

ومع هذا ، فإن فى زواج علىّ من فاطمة شيئاً أكثر من هذا الذى ظفر به عثمان !

فأولا : فاطمة ـ رضى الله عنها ـ اختُصّت من بين أخَواتها بهذه الدرجة الرفيعة التى رفعها الله إليها لجعلها ، فى مقام مريم ابنة عمران ، حيث وصفهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهما خير نساء العالمين . .

وثانيا : أن فاطمة — وحدها — من دون أبناء النبى وبناته — هى التى كان منها سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحسن والحسين) ومنهما كان نسل رسول الله !

وإذ ننظر إلى هذا الأمر ، مع ضميمة ماسبق من مواقف فى هذا المقام — نجد أن ذلك الموقف متسق مع ماسبقه ، جار على الغاية المتجهة له ، والبالغة بابن أبى طالب ، ما أراد الله له من كرامة وتكريم !

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون له بنين وبنات ، ثم يختارهم الله جميعاً إلى جواره فى حياة الرسول ، عدا فاطمة رضى الله عنها ، ثم لايقف الأمر عند هذا ، بل يكون من حكمة الله ألا يُعقّبَ أحد من أبناء الرسول وبناته ولداً ، ومن كان له ولد من بناته، مات هذا الولد صغيراً . . وهكذا يصبح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لا يَرى له ولداً غير فاطمة ، ولا نسلا متصلا إلا ما كان من فاطمة ، وعلىّ !

فى كل أمرٍ كان يَعنِى الرسول ، فى شخصه ، وفى خاصة نفسه ، كان علىّ هو الذى يُندب لهذا الأمر ، ليحلّ محل الرسول فيه ، وليأخذ المكان الذى تركه وراءه !

مبيت علىّ فى بُرد الرسول ، وعلى فراشه ، ليلة الهجرة ، وقراءته منازل

من سورة براءة على أهل الموسم، من المسلمين والمشركين، وخلافته الرسول على آل البيت فى غزوة تبوك !

أفيجوز لنا أن نذكر مع هذا خلافةَ عليّ الرسول ، فى أن يكون منه النسل، وأن يكون ولد عليّ وفاطمة نسلاً مباركًا للرسول ولعليّ معًا ؟

نذكر هذا ، ونحن نقرأ قول الله تعالى : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النبيين » . فأولاد عليّ ليسوا أبناء الرسول على الحقيقة ، فما كان أبناء الرجل على الحقيقة إلا من كانوا من صلبه !

وإذا كان أبناء الأبناء فى حكم الأبناء ، فإن أبناء البنات ليسوا على هذه الشاكلة . . هذا هو واقع الحياة ، وماجرى عليه العرف ، حتى ليقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ومع هذا فإنه ليس بمنكر أن نسمّى أبناء فاطمة وعليّ أبناء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم فى حكم الأبناء ، ففاطمة بنت الرسول ، وعليّ ابن عم ، أشبه بالابن ! !

وأكثر من هذا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يدعو الحسن والحسين ابنيه ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه فى الحسن — رضى الله عنه — « إن ابنى هذا سيد ،ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »

وبعد ، فما دلالة هذه الأمور وما مقطع الرأى فيها ؟

ونقول : إنها ليست بالتى تسوِّى بين الرسول ، وعليّ ، ولا بالتى تجعل لعليّ سببًا إلى ماهو من أمر الرسالة التى اختُص بها النبي وحده . . فهذا مقام ليس لأحدٍ أن يشارك النبيّ فيه .

« محمد رسول الله . »

هذا الوصف ، بكل مايحمل من معانى الجلال والعظمة، هو لمحمد وحده ، ليس لأحد من صحابته أو ذوى قرابته نصيب منه ، إلا مايشّع من ومضات جلاله ، وما يفوح من شذى أرواحه !

فإذا قيل إن عليًا أخو النبى ، وزوج ابنته فاطمة ، سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، ريحانتى شباب الجنة ، الحسن والحسين .. ثم إذا قيل إن عليًا هو الشخص القائم مقام الرسول فى كل موقف يُلتمس فيه شخص الرسول ، لا رسالة الرسول — إذا قيل ذلك فى « على » فإنه لايعطى أكثر من دلالة واحدة ، هى أن عليًا أقرب الناس إلى الرسول ، وألصقهم به وأولاهم ، فيما يمس ذاته ، ويتصل بشخصه !

وهذا المعنى هو الذى نريد أن نستصحبه معنا ، فى كل موقف يقفه علىّ فى مواجهة الحياة ، وفى تحديات الأحداث !

* * *

الفصل الثاني

في معارك الإسلام

قتلى قريش :

الإيثار ، والتضحية ، والفداء ، والاستشهاد في سبيل الله ، هي أبرز المعاني التي غرسها الإسلام في قلوب أتباعه ، وتعهّدها الرسول الكريم بحكمته ، ونفخ فيها من روحه ، حتى لقد جاء الرجل من هذا الغرس الكريم ، معادلاً عشرة رجال ، في ميدان البأس والقوة !

وليس هذا التقدير عن حَدْس وتخمين ، أو عن فراسة ونظر ، ولكنه عن خبر صادق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

يقول الله تعالى : « يا أيها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون »[1]

فهذا وَزْنُ الرجال الذين صَدَقوا الله ، وصدقوا رسوله ، فكان الموت في سبيل الله أمنية يتمنونها ، إذا فات أحدَهم ظن بنفسه الظنون ، ووقع في قلبه أنه غير أهل لهذا المقام الكريم .

ثم لما كثر عدد الداخلين في الإسلام ـ وذلك في عهد الرسول أيضاً ـ ممن

---

(١) سورة الأنفال: ٦٥ .

أسلموا بإسلام الناس ، ودخولهم فى دين الله أفواجاً ـ خفّ وزن المسلمين فى مجموعهم ، وإن لم يخف وزن الذين سبقوا إلى الإسلام ، فهم هم ، كما وزنهم الحق جلّ وعلا ، وعلى ماشهدهم الإسلام عليه . وفى هذا يقول الله تعالى :

« الآن خفّف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضَعْفًا » .

فهذا الضعف وارد على الجماعة الأولى ، حين اختلط حسابها بحساب هؤلاء الداخلين فى الإسلام ، بلا تقدير أو نظر ، « فإن يكن منكم مئةٌ صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين ، بإذن الله ، والله مع الصابرين[1] »

* * *

وقد كان « علىّ » كرم الله وجهه فارس الجماعة الإسلامية الأولى ، وإنّ حسابه فيها ليس حساب عشرة رجال ، وإنما حساب عشرات وعشرات ! كما كان ذلك أو قريب منه شأنَ عدد من أبطال هذه الجماعة . . إذ لم يكن أصحاب رسول الله على درجة واحدة من البطولة الفروسية ، وإن كانت منازلهم متقاربة فى وثاقة الإيمان ، وتوطين النفس على البلاء والاستشهاد فى سبيل الله !

فحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ لم يكن من المحاربين المعدودين فى ميادين الحرب والنضال ! ومثله غير واحد من صحابة الرسول ، كأبى بكر ، وعثمان ، رضى الله عنهما .

والصحف التى سجلت غزوات الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تشهد أن علىّ بن أبى طالب كان جيشاً عاملا فى كل ملتحم ، بين المسلمين والمشركين .

وهذه حقيقة تظاهرت على صدقها الأخبار المتواترة ، نثراً وشعراً ، كما سجلها القصص الشعبى الشائع على الألسنة ، والمتلقّى من جيل إلى جيل !

---

(١) سورة الأنفال : ٦٦ .

ولهذا ، فإننا لا نقف كثيراً عند الحديث عن بطولة عليّ وشجاعته ، وبلائه في ضرب جبهة المشركين ، وكسر شوكتهم !

وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض تلك المواطن ! فالقليل منها يدل على الكثير ، والحاضر يشهد للغائب !

في معركة بدر :

ففي معركة بدر ، وهي أول صدام مادىّ بين الإسلام والشرك ، وأول اختبار عملي لقوة المسلمين والمشركين ـ في هذه المعركة قُتل من المشركين ـ من كفار قريش ـ تسعة وأربعون ، وقيل خمسون ![1] .

وفي السيرة ، لابن هشام ، أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين قتيلا ، وكذلك كان عدد أسراهم سبعين أيضاً .

وهذا مانشير إليه الآية الكريمة ، التي نزلت في غزوة أحد ، والتي يخاطب الله سبحانه بها المسلمين : « أوَ لمّا أصابتكم مصيبة قد أصَبْتُمْ مِثليْها قلتم أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير» .

وعِدّة من قتل من المسلمين يوم بدر سبعون شهيداً . . ولم يستأسر منهم أحد[2] .

ويكاد يُجمع المؤرخون على أن قتلى عليّ في هذا العدد اثنان وعشرون قتيلا . . قتلهم أو شارك في قتلهم !

ولا تختلف الروايات كثيراً في هذا العدد ، ولا في أسماء المقتولين المضافين إلى عليّ . . وإذا كان لنا أن نشك في هذا العدد ، وأن ننزل به إلى النصف

---

(١) المغازي للواقدي . غزوة بدر / ٨٥

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢٩٨ .

أو الربع ، فإنه يبقى بعد ذلك مايقيم لنا وجها للقول بأن علياً كان بطلَ هذه المعركة وفارسها .

وحين نتفرس فى وجوه القتلى الذين أضيفوا إلى علىّ كرم الله وجهه ، نرى أنهم كانوا وجوه قريش ، وأهل العزة والقوة فيها ، كما أنهم كانوا رءوساً فى الكفر ، والمحادّة لله ورسوله ، وأنه قلّ أن يكون بيت من بيوت قريش لم ينله سيف علىّ فى تلك المعركة .

فمن بنى عبد شمس بن عبد مناف :

● حنظلة بن أبى سفيان بن حرب (ويقال : اشترك فى قتله حمزة وعلىّ ، وزيد بن حارثة)[1] .

● العاص بن سعيد .

● عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس ، قتله علىّ صبراً بأمر من النبى ، ويقال قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح .

● عتبة بن ربيعة (اشترك فى قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وحمزة وعلىّ) .

● الوليد بن عتبة بن ربيعة (أخو هند ، زوج أبى سفيان، وأم معاوية .)

● عامر بن عبد الله ، الأنمارى (حليف بنى عبد شمس) .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف :

● طعيمة بن عدىّ ، (ويقال إن حمزة هو الذى قتله)

---

(١) فى رسالة لعلى بن أبى طالب إلى معاوية يقول : أنه قتل أخاه وخاله وجده . . فأخوه هو حنظلة هذا ، وجده هو عتبة ، وخاله هو الوليد بن عتبة .

ومن بنى أسد بن عبدالعُزّى بن قصى :

● زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (يقال إنه قد اشترك فى قتله علىّ وحمزة وثابت بن الجزع)

● نوفل بن خويلد بن أسد : وكان من شياطين قريش ، وهو الذى قَرَن أبا بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، حين أسلما ، فى حبل ، ولذلك كانا يسميان القرينين)

ومن بنى عبد الدار بن قصى :

* النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله علىّ صبراً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* زيد بن مليص ، مولى عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار[1] .

ومن بنى تيم بن مرة :

* عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم[2]

ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة :

* حرملة بن عمرو بن أبى عتبة (حليف لهم) . . يقول الواقدى لاخلاف فى هذا ، ولكن ابن هشام يقول إن قاتله هو خارجة بن زيد ، من الخزرج .

* مسعود بن أبى أمية بن المغيرة .

* قيس بن الوليد بن المغيرة .

---

(١) تلك رواية صاحب المغازى ، أما ابن هشام فيذكر أن قاتله هو بلال بن رباح .

(٢) ويقال إن صهيبا هو الذى قتله ، ويقال بل إن قاتله هو عبد الرحمن ابن عوف .

* أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة . ويقال إن عمار بن ياسر هو الذى قتله .

* عبد الله بن المنذر بن أبى رفاعة بن عائذ .

* حاجب بن السائب بن عويمر بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم .

ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى :

* العاص بن منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم .

* أبو العاص بن قيس بن عدىّ بن سعيد بن سهم ، ويقال إن قاتله النعمان بن مالك ، ويقال أبو دجانه .

ومن بنى جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤى :

* أوس بن معير بن لوذان ، ويقال قتله الحصين بن الحارث بن المطلب .

ومن بنى عامر بن لؤى :

* معاوية بن عامر (حليف لهم من عبد القيس) ويقال قتله عكاشة ابن محصن .

* * *

فأنت ترى كيف كان ابن أبى طالب سيفاً بتاراً ، يضرب فى رقاب أئمة الكفر ، فى قريش ، وأن قريشاً قبل أن تدخل الإسلام كانت تذكر فى حزنها على قتلاها ، ووجه كل قاتل ، وترصد له يوماً للثأر والانتقام ، ولقد شفا كثير منهم نفسه فيمن أصيب من المسلمين يوم «أحد »،حتى لقد بلغ الأمر بهند بنت عتبة أن تغرى وحشيا ــ قاتل حمزة ــ بأن يكون همّه فى هذا اليوم أن يرمى حمزة بحربته ، حتى إذا سقط أسد الله فى ميدان المعركة ، أقبلت هند على حمزة، فبقرت بطنه ، وتناولت كبده فلاكتها . . ولم تكن وحدها هى التى فعلت

هذا ، بل دعت كل النسوة اللاتى جئن مع المشركين ، فعِثن فى جثث الشهداء كما تعيث الضباع فى الفريسة .

يُروى أن جبير بن مطعم ، قال لوحشىّ ، قاتل حمزة يوم أحد : إن قتلت محمداً فأنت حرّ ، وإن قتلت عليًا فأنت حرّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ! فقال وحشى : أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما علىّ فرجل حَذِر كثير الالتفات فى الحرب ، ولكنى سأقتل حمزة ، فقعد له ، وزرقه بالحربة فقتله »[1]

يقول ابن هشام : رواية عن ابن سحق :

«ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدّعْن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وانفهم خَدَما[2] وقلائد ، وأعطت هند خَدَمها وقلائدها وقرطها ، وحشياً . ثم جعلت تقول :

نحن جزيناكم بيوم بدرِ
والحرب بعد الحرب ذاتُ سُعْر
ما كان عن عُتبةَ لى من صبرِ
ولا أخى ، وعمّه ، وبكرِى
شفيت نفسى وقضيتُ نذرى
شفيتَ « وحشىُّ » غليلَ صدرى
فشكرُ وحشىٍّ علىّ عُمُرى
حتى تَرِمَّ أعظمى فى قبرى

(١) من رسالة نقض العثمانية لأبى جعفر الإسكافى — من مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ص ٥٩ .

(٢) الخدم : الخلاخيل .

وقد أجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

خَزِيتِ فى بدر وبعد بدرِ ... يابنت وقاع عظيم الكفرِ

صبحك الله غداة الفجر ... مِلْهَا شيميينَ الطوال الزهر

بكل قطاعٍ حسامٍ يفرى ... حمزة ليثى وعلىّ صقرى

وبذرك السوء فشر نذر

ولم يكن النساء وحدهن هن اللاتى بلغ بهن السفه ، ولجّ بهن الضلال إلى هذه الصغار الذى لم تعرفه العرب . بل لقد كان فى الرجال من أسفّ هذا الإسفاف ، وأعماه الحقد عن أن يرى عاقبة ما يفعل !

فهذ أبو سفيان . . يمرّ بالقتلى ، ويتفرس فى وجوه الشهداء ، فيرى حمزة ابن عبد المطلب ، وقد فعلت به هند — امرأته — ما فعلت ، فلا ينكر هذا ، ولا يستبشعه ، بل يضرب بزج الرمح فى شدق حمزة ويقول : ذق عُقَق[1] . فيراه الحُلَيس بن زبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة (وكان يومئذ سيد الأحابيش — وهم الذين استعانت بهم قريش من القبائل التى حول مكة من غير قريش — فلا يملك الرجل أن يصرخ بأعلى صوته ويقول : يابنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون ! » فقال أبو سفيان فى استخزاء : اكتمها عنىّ !

ولا شك أن قريشا لم تشف مابها ، على الرغم مما أصابت من المسلمين فى غزوة أحد ، وعلى ما فعلت بحمزة ، وما خلّفت فى المسلمين من حزن وأسىّ على هذا البطل العظيم !

---

(١) يرمى حمزة بالعقوق ، لأنه خرج على قومه وانحاز إلى أهل المدينة مع النبى لقتال قريش !!

فلقد ظلت قريش تبكى قتلاها فى بدر وفى أحد زمناً طويلاً ، حتى دخل الإسلام مكة ، وحجز الإسلام بين قريش وبين جاهليتها ، وشركها ، ولم يكن لأحد أن يجهر بالحزن والحسرة على من وقع من المشركين فى معارك الإسلام ، فانطوت الصدور على ما فيها من مرارة وحقد ونقمة ، إلا من شرح صدره للإسلام ، فشرى نفسه وأهله وولده ، ابتغاء مرضاة الله ! .

روى ابن هشام أن هنـد بنت عتبة التى فعلت بحمزة هى وصاحباتها ما فعلت ، ولم تجد فى هذا عزاء لما أصيبت به فى أهلها يوم بدر ، فلقد كانت تنظر إلى آخرين غير حمزة ، وتمنّى نفسها بأن تراهم صرعى ، تمثّل بهم ، وتأ كل من أكبادهم — يروى لنا ابن هشام هذه الأبيات ترددها وهى منصرفة من أحد :

رجعتُ وفى نفسى بلابلُ جمّـة وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

مِنَ اصحاب بدر ، من قريش وغيرهم بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب

ولـكننى قد نلت شيئاً ولم أكن كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى[1]

وسواء أكانت هند هى التى قالت هذا الشعر ، أم نَحَلَه أحد لها ، فإنه المقول بلسان الحال ، والمعبر عن واقع الأمر .. !

وهل كان حقدها على علىّ ، وتمنيها لمصرعه دون ما كانت تحقد على حمزة وتتمنى له ؟ .

لقد قتل علىّ يوم بدر أخاها الوليد وابنها حنظلة ، ويقال إنه قتل أو شارك مع حمزة فى قتل أبيها عتبة !

ثم لقد كان لعلىّ فى يوم أحد ما كان له فى يوم بدر .من الإطاحة برءوس أئمة الـكفر من قريش ! .

(١) السيرة لابن هشام ـ ٣ ص ٣١

ويذكر المؤرخون أن قتلى المشركين فى أحد كانوا اثنين وعشرين قتيلا .

ومن قتلى علىّ فى هذا اليوم ، طلحة بن أبى طلحة بن عبد العزّى بن عثمان ابن عبد الدار ، صاحب لواء المشرين فى تلك المعركة . . .

وقد سُجّل هذا الحدَث فى شعر للحجاج بن عُلاط السُّلمى ، يمدح علىّ ابن أبى طالب ، وما كان له من بلاء فى هذا اليوم العصيب ! يقول السلمى :

لله أى مذبّبٍ عن حرمة ... أعنى ابن فاطمة [1] المعمَّ المخولا

سبقت يداك له بعاجل طعنةٍ ... تركت طليحة للجبين مجدّلا

وشددت شدة باسل فكشفتهم ... بالحَزْن إذ يهوون أخولَ أخولا [2]

ومن قتلى علىّ فى هذا اليوم أيضاً : عبد الله بن حميد بن زُهير بن الحارث ابن أسد ، وأبو الحكم بن الأخنس بن شريق ، حليف بنى زهرة بن كلاب .

هذا ، عدا من اشترك علىّ فى قتله ، أو اختُلِف فيمن قتله ، أهو علىّ أم شخص آخر .

فغير منكور إذن تلك اليد الضاربة ، وهذا السيف البتّار ، اللذين كانا لعلىّ فى معارك الإسلام .

وغير منكور أيضاً هذه التّرات التى كانت للمشركين عند علىّ ، والتى لم يخلُ منها بيت من بيوت قريش .

وفى مقام المناظرة والجدل ، حاول بعض المنابذين لشيعة علىّ أن يهوّنوا من بطولة علىّ وبلائه فى معارك الإسلام ، وأن يسقطوا ذلك من حساب التفاضل فى منازل الإسلام !

---

(١) ابن فاطمة هو على بن أم طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم .

(٢) أخولَ أخول : شرحها ابن هشام : متفرقين مشتتين .

وفى رسالة العثمانية « للجاحظ » يعرض الجاحظ على لسان « العثمانية »[1] رأيهم فيما ينسب إلى علىّ من فضل فى معارك الإسلام ، والفتك بصناديد قريش . يقول الجاحظ :

« والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ ، قتلُه الأقرانَ ، وخوضه الحروب . وليس له فى ذلك كبيرُ فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لوجب أن يكون للزبير ، وأبى دجانة ومحمد بن مَسْلمة ، وابن عفراء ، والبراء ابن مالك ، من الفضل ماليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحداً ، ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش ومعه أبو بكر !

ثم يقول : « وأنت ترى الرجلَ الشجاع ، قد يقتل الأقران ، ويجندل الأبطال ، وفوقه من العسكر من لايقتل ولا يبـــارز ، وهو الرئيس ، أو ذو الرأى والمستشار فى الحرب ، لأن للرؤساء من الاكتراث ، والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ماليس لغيرهم ، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ويستنصر ، وباسمه ينهزم العدو .

ويقول : عَلَى أن مشى الشجاع إلى الأقران ليس على ماتوهمه من لايعلم باطن الأمر ، لأن معه فى حال مشيه إلى الأقران أموراً أخرى ، لايبصرها الناس ، وإنما يقضون على ظاهر مايرون من إقدام وشجاعة ، فربّما كان سبب ذلك الهَوَج ، وربما كان الغَرَارة والحداثة ، وربما كان الإحراج والحمية ، وربما كان لمحبة النَّفْج[2] والأحدوثة ، وربما كان طباعا كطباع القاسى ، والرحيم ، والسخىّ ، والبخيل !!

---

(١) وهم المتشيعون لعثمان ، فى مواجهة المتشيعين لعلى .

(٢) النفج : الافتخار .

ثم يقول أيضاً :

« ووجه آخر : إن علياً لو كان كما يزعم شيعته ، ما كان له بقتل الأقران كبيرُ فضل ، ولا عظيم طاعة ، لأنه قد رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له : « ستقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين ، والمارقين » . . فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه . . »[1]

وأنت ترى أن الجاحظ هنا يقيم من قوة بلاغتـه ، وسطوة بيانه حجة وسلطاناً ، لأمر لأمِساك له ، ولا سند . . وأن منطق المغالطة هو الذى قام عليه هذا البناء الشامخ !

ولا نرى ردًّا على « الجاحظ » أبلغ مما ردّ به عليه أبو جعفر الإسكافى فى تفنيده للحجج التى أوردها الجاحظ فى رسالته العثمانية .

يقول أبو جعفر :

« وكيف يقول الجاحظ : لا فضيلة لمباشرة الحروب ، ولقاء الأقران ، وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك ؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟ أتراه لم يسمع قول الله تعالى :« إن الله يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والمحبة من الله تعالى هى إرادة الثواب ، فكل من كان أشد ثبوتاً فى هذا الصفّ ، وأعظم قتالاً كان أحبّ إلى الله ، ومعنى الأفضل الأكثر ثواباً ، فعلىّ ـ عليه السلام ـ إذاً هو أحب المسلمين إلى الله . لأنه أثبتهم قَدَماً فى الصفّ المرصوص ، لم يفرّ قط ، بإجماع الأمة ، ولا بارزه قِرن إلا قتله . . فموقف الناس فى الجهاد على أحوال ، وبعضهم فى ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة، كان أثقل على أكتاف الأعداء ،لشدة نـكايته فيهم ، ممن وقف فى المعركة وأعان

---

(١) العثمانية ص ١٠ ، ١١ .

ولم يُقْدِم . . وكذلك من وقف فى المعركة وأعان ولم يقدِم ، إلا أنه بحيث تناله السهام والنبل — أعظم غَنَاء وأفضل ممن وقف بحيث لا يناله ذلك .

ثم يقول :

« وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش، ونظرت السِّيَرَ ، وقرأتَ الأخبار، عرفتَ أنها كانت تطالب محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتقصد قَصْدَه ، وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها ؛ طلبت علياً وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً ، وأقربهم منه قربا ، وأشدهم عنه دفعاً ، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره فى البأس والقوة ، والشجاعة ، والنجدة والإقدام والبسالة !

ويقول أيضاً :

« ولِمَا قلنا من مقاربة علىّ فى هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناسبته إياه ، ماوجدناه فى السِّيَر والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ، وقد برز علىّ إلى عمرو بن ودّ ، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : « اللهم إنك أخذت منى حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليومَ علياً . . ربِّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين » .

وقد حاول الجاحظ فى رسالة العثمانية أن يهوّن من شأن عمرو بن ودّ ، فيقول : « ثم قصد الناصرون لعلىّ والقائلون بتفضيله ، إلى[1] الأقران الذين قتلهم ، فأطروهم ، وغلوا فيهم ، وليسوا هناك !! فنهم عمرو بن ود ، ذكروا أنه أشجع من عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ، وبسطام بن قيس . . وقد

---

(١) الجار والمجرور متعلقان بالفعل قصد .

سمعنا بأحاديث الفجار وما كان بين قريش ودوس ، وحلف الفضول ، فما سمعنا لعمرو بن ودّ ذكراً فى ذلك » .

وقد تولّى أبو جعفر الإسكافى تفنيد هذا الرأى بقوله : « أمر عمرو بن ود أشهر وأكثر من أن يُحتجّ له ، فليتلمح كتب المغازى والسير ، ولينظر مارثته به شعراء قريش لما قتل . . فمن ذلك قول سافع بن عبد مناف بن زهرة ابن حذافة بن جمح ، يبكى عمر بن ود :

عمرو بن عَبْدٍ كان أولَ فارس ... جزَعَ المَزَار[1] وكان فارس مَلْيَلِ

سمحُ الخلائق ماجدٌ ذو مِرّة ... يبغى القتال بشِكّة لم ينكل

ولقد علمتم حين ولّوا عنكمُ ... أن ابن عَبْدٍ منهمُ لم يعجل

سأل النزّال هناك فارسٌ غالب ... بجنوب سَلْعٍ ليته لم ينزل

فاذهبْ علىّ ما ظفرت بمثلها ... فخراً ولو لاقيت مثل المِعْضَل[2]

وقال هُبيرة بن أبى وهب المخزومى يعتذر عن فراره من علىّ بن أبى طالب وتركه عمراً يوم الخندق :

لعمرك ما ولّيت ظهرى محمداً ... وأصحابَه جُبناً ولا خيفة القتل

ولكننى قلّبت أمرى فلم أجد ... لسيفى غَناء إن وقفت ، ولا نَبلى

فلا تبعَدَنْ ياعَمْر حياً وهالكا ... فقد مُتّ محمود الثنا ماجد الفعل

كفتك علىٌّ لن ترى مثل موقفٍ ... وقفتَ على شِلْو المقدّم كالفحل

فما ظفرت كفاك يوما بمثلها ... أمنت بها ماعشت من زلة النعل

وقال هبيرة أيضاً :

---

(١) قطع الخندق عرضا

(٢) الأمر المتناهى فى الشدة .

لقد علمتْ عُلْيَا لؤيٍّ بن غالب لَفَارسُها عمرٌو إذا ناب نائب
وفارسها عَمرٌو إذا ما يسوفه علىٌّ ، وإن الموت لا شك طالب
عَشِيَّةَ يدعوه علىٌّ وإنه لفارسها إذْ حام عنه الكتائب

وقال حسان بن ثابت .

لقد شقِيتْ بنو جُمَح بن عمرٍو ومخزوم وتيم ما تقيل
فتى من نسْل عامر أَرْيَحِىّ تطاوله الأسنة والنصولُ
دعاه الفارس المقدام لما تكشفت المقانب والخيول
أبو حَسَن ، فقنّعه حُسَاماً جُرَازاً لا أذلّ ولا نَكول
فغادره مُكبّاً مُسْاحِبًا (١) على عفراء . . . لا بَعُدَ القتيل

* * *

فهذه شهادة قاطعة بما كان لعمرو بن ود من مكانة فى ميادين القتال ، حتى ليقال إنه كان يُعَدل بألف فارس !

ولو لم يسجل الشعر هذا الوصف لعمرو بن ود لكان اقتحامه ، الخندق مع النفر القليل من أصحابه ، ومواجهته لجيش المسلمين — لكان فى ذلك البرهان القاطع على أنه الفارس الذى لا يقوم له من الأبطال أحد . . .

يقول أبو جعفر : « وآثاره — يعنى عمراً — يوم الفجار مشهورة، تنطق بها كتب الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة : عتيبة ، وبسطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب ، وأهل بادية .. وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَر وحجر ، لا يرون الغارات ، ولا ينهبون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم .

(١) أى ممددا

فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء ![1] » .

في غزوة الخندق :

فني هذه الغزوة جمعت قريش أحلافها ، وأجابت بهم على المدينة ، بعد أن تحالفت مع اليهود على أن يكونوا حرباً على النبيّ ومن معه ، حين ينشب القتال .

وقد رأى النبيّ أن المسلمين قد أحيط بهم ، فقريش وأحلافها في مواجهة المسلمين ، ويهود وكيدها وراء ظهورهم . . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « إذ جآءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . . هنالك ٱبْتُلِيَ المؤمنون وزُلزلوا زِلزالا شديداً » .

فكان من تدبير النبي أن يحفر خندقاً حول المدينة ، ليكون أشبه بحصن يواجه منه المسلمون قريشاً ، وهم بمأمن من أن يبغتهم اليهود من وراء ظهورهم .

وحين أقبلت « قريش » بجموعها وبأحلافها وجدت الخندق بينها وبين المدينة والمسلمين ، فعسكرت حوله ، وأخذت تفكر وتقدر ، ولم يكن بين الفريقين قتال ، إلا أن فوارس من قريش تيمموا مكانا ضيقاً فاقتحموه بخيلهم ، وهؤلاء الفوارس هم : عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب بن مرداس ...

ودعا عمرو بن ود إلى المبارزة ، فتهيب الناس لقاءه ، ولم يخفّ أحد إليه ، فقام عليّ ابن أبي طالب يريد منازلته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اجلس ، ثم

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٦٤

صال عمرو وجال ، وهو يدعو إلى من يبارزه ، والناس على موقفهم منه ، وعلىّ يهمّ ، والرسول يقول له اجلس .. ضنًّا به ، وخوفا عليه، من لقاء عمرو ، وقام له على آخر مرّة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اجلس .. إنه عمرو !! فقال وأنا علىّ ! فأدناه الرسول وقبّله وعمّمه بعمامته ، وخرج معه خطوات كالمودع له ، القلِق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل النبي رافعاً يديه إلى السماء مستقبلا لها بوجهه ، والمسلمون صموت حوله ، حتى ثارت الغَبَرة ، وسمعوا التكبير من تحتها ، فعلموا أن علياً قتل عمرًا : فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون تكبيرة سمعها مَن وراء الخندق من المشركين . . ولذلك قال حذيفة بن اليمان : « لو قسمت فضيلة علىّ بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم » . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « وكفى الله المؤمنين القتال » قال : « بعلىّ بن أبى طالب »[1] هذا ، ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى علياً وقد أسرع نحو عمرو بن ود : قال .. « الآن برز الإسلام كله ، للشرك كله ! »

والحق أن مكان علىّ بن أبى طالب فى معارك الإسلام ، ومكانته فى الأبطال ، أكبر من أن تختفى وراء دخان التعصب والجدل ، وأن تُعمّى عليها مقولات القائلين فى مواقف الخصومة والملاحاة . .

ولو أن بطولة علىّ كانت موضع شك ، أو كان انفراده بها موضع منازعة لما سار الحديث عنها مسير المثل . فكان مما قيل فيه وفى سيفه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فارس إلا علىّ » ! .

* * *

وما لهذا كان حديثنا عن بطولة علىّ وشجاعته ، وشدة بأسه ، وإنما

(١) رسائل الجاحظ ص٦٠

ساقنا إلى هذا الحديث ، ما أردنا تقريره ؛ من أن عليًّا كان أكثر المسلمين شدة على مشركى قريش ، وأكثرهم تنكيلا بهم ، وإلجاعاً لهم فى الأبناء والآباء . والأعمام ، والأخوال ! .

والذى نريده من هذا هو أن نذكر تلك التِّرات ، وهذه الإحن ، التى وقعت فى القلوب وغمرت النفوس ، فى المعارك التى وقعت بين المسلمين ومشركى قريش ، وما وقع فيها من صرعى . . وأن نذكر أن تلك الإحَن ، وهذه التِّرات ، قد صادفت من قريش قلباً خاليًا من الإيمان بالله ، فتمكن الحزن منها ، واستمرّت الحسرة فيها ، على حين أن ما أصاب المسلمين فى أنفسهم ، وفى أهليهم لم يكن ليجد له مقاماً فى نفوس آمنت بالله ، وآثرت الموت على الحياة ، وطلبت الشهادة وتعجيلها فى سبيل الله .

هذه الإحَن وتلك التِّرات ، التى وقعت فى نفوس قريش المشركة . قد ظلت حية فيها بعد أن دخلت فى الإسلام هذا الدخول العام ، الذى كان عن قهر أكثر منه عن نظر واقتناع !

وسنرى آثار ذلك وشواهده ، حين يُمتحن المسلمون بتلك الفتن التى أطلت برءوسها بعد وفاة النبى ، وحين تقف قريش فى وجه بنى هاشم وحين تذودهم عن الخلافة . ثم تنالهم بسيوفها ، فتقتل شِيبَها وشبّانها ، وصبيانها ، وتشرّد بعقائلها وحرائرها ، وكأنها إنما تثأر بهذا لقتلاها فى بدر وأحد ، وحسبنا أن نذكر هنا مصرع الحسين وآل بيته فى كربلاء ، ثم مصرع آل البيت فى موقعة الطفّ ، وما تلا ذلك من وقائع ! .

* * *

المبحث الثانى

حياة على

فى صحبة من بعد الرسول



الباب الأول

مع أبي بكر وعمر

الذراع المخيف :

كانت وفاة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حدثاً مهولاً مذهلاً ، دارت به رءوس الملأ الذين عاشوا في صحبته ، وفُزّعت له أفئدتهم ، وانفطرت منه قلوبهم !

لقد كان صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يقين من أن رسول الله مدعوٌ يوماً إلى مايُدْعى إليه الناس ، وأنه ميت ، كما أنهم ميتون .! فهذه حقيقة مقررة .. والرسول يبلغها في آيات القرآن الكريم ، التي كانت تنزل عليه : « إنك ميت وإنهم ميتون » .. « وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » .. « كل نفس ذائقة الموت » !

يعرف صحابة رسول الله والمسلمون أن رسول الله الذى يعيش معهم ، سيفارق هذه الحياة يوماً ، حين يجيء أجله .. ولكن أحداً منهم لم يكن يترقب هذا اليوم ، ولا ينظر إليه ، ولا إلى مابعده ! إذ كان حبهم للرسول ، وتعلقهم به ، وإفناء وجودهم فيه ، لايجعل لهذا الخاطر الأسود سبيلا إلى حياتهم القائمة فى ظل النبيّ .. تلك الحياة التى نعموا بها ، واطمأنوا إليها !

وحسبنا أن نذكر هنا ، أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد ذُهل فى هذا اليوم عن كل هذه الحقائق التى أعلنها القرآن ، فأنكر على القائلين

قولهم : إن النبىّ قد مات ! وجاء إليهم صائلا بسيفه ، وهو يقول : « كذبتم ! والله ما مات . . وإنما ذهب كما ذهب موسى إلى ربّه . . . !

حسبنا هذا ، لنعلم مدى الصدمة التى أصابت المسلمين ، فى هذا اليوم الذى علموا فيه أن نبيهم قد أخلى مكانه من هذه الدنيا !

وندع النظر فيما أصاب المسلمين من كَمَد ، وما وقع فى نفوسهم من حسرة وألم ، يوم وفاة النبىّ ، وننظر فيما نزل بهم من حيرة وقلق ، وهم يواجهون الحياة ، بغير هذا النور ، الذى كان يكشف لهم الطريق ، ويهديهم سواء السبيل !

فالمسلمون فى صحبة الرسول ، كانوا فى اختبار دائم ، وتمحيص متّصل . . يتعهدهم رسول الله ، واحداً ، واحداً ، ويتفقدهم حالاً حالاً . . فلا يُلِمّ بأحدهم شبهة إلا كشفها ، ولا تنزل به غاشية إلا جلاّها ، ولا تَحيك فى صدر أىٍّ منهم نَزْغَة ، أو يطرقه وَسواس ، إلا كان عند الرسول دواؤه وشفاؤه .
وأكثر من هذا . .

فقد كان الرسول ـ بما أراه الله ـ يرى من أصحابه مالا يَرَوْن ، فيدخل عليهم فى أنفسهم ، وفى مسرى مشاعرهم ، ومسارب تفكيرهم ، فيعمُرُ قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالسكينة . . لأنهم ـ وهم مع النبى ـ فى ضمانِ مَن يَطِبّ لهم ، ويكشف المستور من عللهم !

أرأيتَ إلى من يسبح فى الماء وفى صحبته قارب النجاة ، وبين يديه من يخفّ لنجدته ، إذا عرض له عارض من ضعف أو وهن ؟ إنه ـ والحال كذلك ـ يسبح وملء جوانحه طمأنينة أنه لن يغرق ، ولن يبتلعه اليم . . وهو بهذا الشعور يقطع المسافات الطويلة بجنان ثابت ، وقلب مطمئن ، ونفس ساكنة ، وقد يبلغ الغاية دون أن يحتاج إلى من يساعد أو يعين !

ثم أرأيت لو أن هذا السباح الماهر قد التفتَ على حين غفلة ، فلم يجد إلا نفسه والماء ، وليس ثمة من يجيب إذا دعا ، أو ينقذ إذا فغر البحر فاه لابتلاعه ! ؟ إنه لاشك سيضطرب ، بل وينزعج ! وربما ذهبت نفسه شَعاعاً ، فهلك خوفاً وفزعاً ، قبل أن يهلِك ضعفاً وعجزاً .

حقاً . . إن المسلمين ، إذ ذهب عنهم رسول الله ، فقد ترك فى أيديهم كتاب الله ، وسنة رسول الله . . ولـكن ذلك هو زاد المسلمين الذين لم يصحبوا الرسول ، ولم يعايشوه ، ولم يستظلوا بظله الظليل . . أما الذين كانت لهم مع الرسول صحبة ومعايشة ، ولهم إليه سَـكَنٌ أو نظر ، فإن الأمر مختلف!! إذ كان لهم إلى هذا الزاد الموروث ، زاد آخر ، كانوا يطعمون منه ، ويعيشون عليه ، بما كان يسرى إليهم من عَرف الرسول ، وشذَى أنفاسه الطاهرة !

وشتان بين أن يتعرف المرء على أدواء نفسه ، وعلل روحه ، وأدران قلبه، وأن يسوق إليها ما فى كتاب الله من دواء ، وما فى سنة الرسول من هدى ونور ، وبين أن يتولى ذلك عنه رسول من عند الله ، قد جعل الله إلى يديه طبّ الأرواح ، وشفاء النفوس والقلوب !

هذا فى محيط الصحابة ، وفى خاصة أنفسهم !

أما فى المجتمع الإسلامى ، فإن الأمر كان أعظم أثراً ، وأشدّ خطراً !

لقد انقطع بموت الرسول ، النورَ الذى كان يصل الأرض بالسماء ، والذى كان يكشف ما يَحيك فى صدور المنافقين ، وما يتناجى به أهل المكر والسوء ! فيفضح أمرهم ، وينبه المسلمين إلى مواقع الخطر ، ومواطن السوء !

وهذا الـكشف السماوى فى حياة النبىّ ؛ قد جعل كثيراً من النـاس يُصلحون من أنفسهم ، ويُميتون فيها وساوس الشر ، ومطالع السوء ، فيُقبلون على الإسلام بقلوب سليمة،ونيات مخلصة ، كما أنه قد حمل كثيراً من أهل الضلال

والنفاق على أن يعيشوا فى حَذَر وإشفاق من أن يَفضَح الله أمرَهم ، ويُرِى الرسول والمؤمنين مايبيّتون وما يدبرون !

«يَحذَرُ المنافِقُونَ أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبئهم بما فى قلوبهم . . قل استهزئوا ، إن الله مخرجٌ ما تحذَرُون[1] » .

وإذ قد ارتفع هذا بوفاة الرسول ، فقد خُلِّى بين الناس وبين أنفسهم وما فيها: من إيمان لم يتلبس بنفاق ، أو نفاق قد تلبّس بإيمان ، أو نفاق خالص، لم يخالطه شىء من إيمان .

وهكذا ألقت النفوس بما فيها من خير وشر ، وجرى الناس على سجاياهم وما يحملون للإسلام من حب أو بغض ، ومن إخلاص أو مداهنة، وبدأت الجماعة الإسلامية تأخذ من هذا وذاك ، وأخذ المسلمون يطعمون من حلو الحياة ومرها ، حتى كانت تلك الفتن التى اضطرب لها المجتمع الإسلامى كله !

* * *

ودع أمر الخلاف فى الخلافة بعد وفاة الرسول ، فإنه ما كادت الفتنة تطل برأسها ، حتى عالجها المسلمون بإيمان وحكمة ، فقضوا عليها فى مهدها !

ولا تذكر الرِّدَّة والخطر الذى كان يتهدّد الإسلام والمسلمين منها ، فإنها ـ على ما كانت تنطوى عليه من بلاء عظيم ، وخطر جسيم ـ أهون هواناً وأضعف ضعفاً مما ابتلى به المسلمون بعد ذلك ، مما سنعرض له بعد قليل !

فالرِّدَّة كانت انحرافاً سافراً عن الجماعة الإسلامية ، ولم تكن فى صميمها حرباً على الدين ولا خروجاً عليه ، ولهذا رأى بعض الصحابة ومنهم عمر ، أن يُقبَل منهم الإسلام ، مع التجاوز عن أخذ الزكاة بيد السلطان ، وتركها ذمةً يحتملها الإنسان فى ضميره ، كما يحتمل الصوم والصلاة !

وأيًّا كان الأمر ، فقد صح عزم أبى بكر والجماعة الإسلامية على ردّ تلك الجماعة الشاردة عن طريقها ، وضمّها إلى الجماعة . . وقد كان ، فسكنت

---

(١) سورة التوبة : ٦٥ .

العاصفة بعد هبوبها ، وجرت سفينة الجماعة الإسلامية بعدها فى ريح رُخاء .

ولكن الخطر الذى ظل كامناً يعمل فى كيان المجتمع الإسلامى ، هو فقدان هذا الميزان الحسّاس ، الذى كانت تنضبط على كفّتيه حسنات المرء وسيئاته ، والذى كان يعرف به الإنسان نفسه ، وأين مكانه فى المحسنين أو المسيئين . . لقد ذهب ذلك بوفاة الرسول ، وتُرِك الناس لأنفسهم ، وما انتفعوا به من صحبة الرسول وهديه .

إنها ـ على أية حال ـ تجربة جديدة للمجتمع الذى صحب الرسول وعاش معه . . ثم أصبح وقد صحب الحياة وحيداً ، فى غير صحبة الرسول !

فالمسلمون الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ، ونَصَحوا الله ولرسوله ، لم تَعدَمْهم تلك المرآة الصافية ، التى كانوا يرون فيها وجوههم على صورة واضحة محققة . . فزايلهم من أجل هذا ، ذلك الاطمئنان العميق الذى كانوا يعيشون فيه ، إذ كانوا بعينىْ من يراهم ، ويكشف الضرّ عنهم ، ويدفع السوء إن ألمّ بهم .

فهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد دخل عليه ـ بعد وفاة الرسول ـ قلق ملأ نفسه ، من أن يكون على غير الجادّة ، أو أن يكون عرض له عارض ، أو اندسّ إليه داء يغتال إيمانه ، وهو لا يدرى ! فكان يمضى إلى حذيفة بن اليمان ، ويقول له : ياحذيفة . . أنت كنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت تعرف المنافقين وتعهدهم ،على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظرْ مافىَّ من النفاق ، فعرفنى به ! ! فيقول له حذيفة : والله ياأمير المؤمنين لا أعلم فيك نفاقاً ؛ فيبكى حذيفة ، ويبكى عمر ، ولا يزالان يبكيان حتى يُغشى عليهما . »

وكذلك كان شأن كثير من صحابة رسول الله . . كانوا على خشية دائمة ،

وقلق متصل ، من أن يكون أحدهم قد مال ميزانه ، وتغيّر حاله ، دون أن يعلم من أمر نفسه شيئاً !

أما المنافقون ومن فى قلوبهم مرض ، فقد أمِنوا الرقيب الراصد ، الذى كان يكشف عن خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فجعلوا يغدون ويروحون بين المسلمين ، يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون فيهم الفرص ، ويبيّتون لهم الشرّ والعدوان .

ومع امتداد الزّمن ، ومع الدنيا العريضة التى أقبلت على المسلمين ، انفسح للناس مجال التنافس على المال والجاه والسلطان ، ودخلوا فى تجربة قاسية ، وفى صراع عنيف ، مع تلك الفتن التى فتحت عليهم أبوابها ، وأطلت من ورائها الأطماع والشهوات ، فى صور وأشكال ، من الإغراء الصارخ ، والتحدّى الملحّ العنيف ، الذى لايُدفع إلا بقلوب رسخ فيها الإيمان ، وبنفوس حملت عزماً أشبه بعزم الرسل والأنبياء .

وكانت معركة . !

وكان كرّ وفرّ . !

كانت معركة بين المقبلين على الدنيا ، المستجيبين لها ، المتطلعين إلى ما ألقت به إليهم من مال وسلطان ، وبين أولئك الذين ارتفعوا بأنفسهم عن هذا الأفق المحدود ، وأبوا أن ينزلوا عن تلك الآفاق الرحيبة العالية ، التى أطلعهم الرسول عليها ، فأشرفوا منها على عالم الحق والخير والنور !

فى خلافة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ لم تكن هذه المعركة قد وضحت معالمها ، واستبان وجه كل فريق فيها ، إذ لم تكن الحياة الجديدة التى سيلتقى بها المسلمون قد ألقت إليهم كل ماعندها . . وكان المسلمون فى شغل بالمعارك الدائرة فى جبهات متعددة . . فى الجزيرة العربية مع المرتدين ، وفى العراق مع الفرس ، وفى الشام مع الروم !

أمّا فى خلافة عمر ، فقد كان المسلمون فَرَغوا أو أوشكوا أن يفرُغوا من هذا كله ، ووقع لأيديهم ما كانت تفيض به العراق والشام ومصر من أموال كثيرة ، وخيرات وفيرة ، لاعهد للعرب بها .. وهنا تحولت بالناس الأحوال ، واختلطت عليهم الأمور ، شأن كل جديد يطلع عليهم ، ويغزو قلوبهم وعقولهم !

وقد لمح عمر هذه الهِزّة التى وقعت فى المجتمع الاسلامى ، ورأى بِظَهْر الغيب ما يستقبل المسلمين منها من بلايا ومحن . . فعالج من هذا الأمر ماوسعته قوته ، وحكمته ، وشدته على نفسه وأهله ، وقد أتى فى هذا الباب بماتعجز عنه الجيوش الكثيفة ، فى ميادين القتال !

وأنّى لرجل غير عمر بن الخطاب يستطيع أن يسدّ بيديه أبواب هذه الفتن المتدافعة تدافع السيل ، من كل وجه ، وفى كل اتجاه ! ؟

لقد وقف عمر وقوف الجبل الشامخ فى وجه العواصف العاتية ، فأخذ بحلاقيم الفتن ، وأمسك برقاب المفتونين ، فما كاد يفلت منه أحد ، على كثرة المتحفزين للخروج من هذا الحصار العنيف !

فلما أخلى عمر مكانه من هذه الدنيا ، وجاء عثمان — رضى الله عنهما — كان كثير من المسلمين قد لابسوا الحياة الجديدة ، وملئوا أيديهم منها ، وتربصوا بعمر ، وانتظروا أيامه الباقية ، فكان عَلَى عثمان — رضى الله عنه — أن يلقى هذه المشاعر المكظومة المزجرة ، وأن يجرد لها حملة من أمثال عمر ابن الخطاب — إن كان فى الناس من يشبه عمر بن الخطاب — ومانحسب أن هذا كان يمكن أن يصدّ هذا الزحف ، أو يوقف ذلك التيار ، الذى إن لم يجد منفذاً ينفذ منه؛ حطّم كل سدّ يقف فى وجهه ، وجرفه معه ! إنه طَوْرٌ من أطوار الحياة ، وحركة من حركات الزمن ، ما كان لقوة بشرية أن تقف لها

أو تعوّق سيرها ، أو تحوّل طريقها « سُنَّةَ الله التى قد خَلَتْ من قَبلُ ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »[1].

يقول ابن قتيبة ، فى كتابه « الإمامة والسياسة » :

« وكان عمر رجلا شديداً ، قد ضيق على قريش أنفاسها ، فلم يَنَلْ أحد معه من الدنيا شيئاً ، إعظاماً له وإجلالا ، وتأسياً به واقتداء !

« فلما وَليهم عثمان ، ولِىَ رجل ليّن !

« قال الحسن البصرى : « شهدت عثمان ، وهو يخطب ، وأنا يومئذ راهقت الحلُم ، فما رأيت قط ذكرًا ، ولا أنثى ، أصبحَ وجهاً ، ولا أحسن نُضرَة منه . . فسمعته يقول :

« أيها النّاس اغدوا على أغطياتــكم » . . فيأخذونها وافية .

« أيُها الناس اغدوا على كسوتــكم . . » فيغدون ، فيُجاء بالحلل ، فتقسم بينهم . . حتى والله سمعتْ أذناى : « يامعشر المسلمين ، اغدوا على السَّمْن والعسل » فيغدون ، فيقسم بينهم السمن والعسل !!

«ثم يقول ــ أى عثمان : «يامعشر المسلمين ..اغدوا على الطيب !» فيغدون ، فيقسم بينهم الطيب ، والمسك ، والعنبر ، وغيره ! !

« والعدْوان ــ والله منفِىّ ، والأعطيات دَارَّة ، والخير كثير .. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً .. مَن لقى فى أى البلدان فهو أخوه ، وأليفــه ، وناصره . فلم يزل المال متوافراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورِقًا ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف ! !

« ثم أنــكر الناس على عثمان أشياء .. أشرًا وبَطَرًا .

---

(١) سورة الفتح ٢٣ .

(٢) من كلام الحسن البصرى .

« قال ابن عمر : لقد عِيبتْ عليه ـ أى على عثمان ـ أشياء ، لوفعلها عمر ماعيبت عليه ! ! »[١] .

لقد تغير الناس ، بعد أن ذاقوا طعوم هذه الحياة الجديدة ، وبعد أن أسرف بعضهم على نفسه إسرافاً شديداً ، فجعل يقضم ويخضم ، حتى أصيب بالكِظّة والتخمة ، فكان يفكر ببطنه أكثر مما يفكر بعقله ، وكان حسابه لجسده أكثر من حسابه لروحه وقلبه !

وطلع عَلَى عثمان ـ رضى الله عنه ـ من هذه الحال ، التى لبست المسلمين ، مالم يكن يحتسب ، فهبت عليه من كل أفق ريح الفتن ، وانبعث له من بين تلك الجماعات من يمدّ إليه يده بالسيف ، فيريق دمه الطهور على كتاب الله ، وهو يرتل آياته ، فى مصحفه الذى ضمه إلى صدره !

وجاء علىّ ـ كرم الله وجهه ـ بعد عثمان ، فاستقبل هذه الفتنة ، وقد شبّ ضرامها ، واندلع لهيبها ، واجتمع الناس عليها : بين مذهول لايدرى ماذا يعمل؟ أو مقهور مستيئس ، يرى أنه أعجز من أن يُغنى فى هذا الموقف أىّ غَناء ! وبين مستَخِفٍّ مستهتَر ، أو متربّص متحفز .. ينتهز الفرصة ، ويترقب السانحة . !!

وقليلٌ أولئك الذين واجهوا الموقف ، وألقوا بأنفسهم فى هذا البحر اللجىّ ، لينقذوا السفينة الموشكة على الغرق !

وها هو ذا علىّ ـ كرم الله وجهه ـ يضع يده على تلك السفينة المضطربة المائجه ، ويعمل جاهداً على أن يدفع بها بعيداً عن متلاطم الأمواج ، وأن يسلك بها مسالك الأمن والسلامة !

وأرانا قد طوينا الأحداث طيًّا ، واختصرنا الطريق اختصاراً مُسْرِفاً ، إلى خلافة علىّ بن أبى طالب .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ٢٧

وفى الأحداث التى طويناها ، وفى الطريق الذى اختصرناه ، أشياء كثيرة لاغنى لنا عنها ، فى التعرف على موقف الإمام ، فى معالجة الفتنة ، وفى لقاء الأحداث والأهوال التى ، قُدِّر له أن يلقاها من اليوم الأول لخلافته !

وإذن فلا بأس من تفصيل ما أجملنا ، وبسط ما طوينا .

* * *

ابن أبى طالب بعد النبى :

لحق النبى بالرفيق الأعلى ، بعد أن بلّغ رسالة ربه ، تاركا المسلمين يقيمون مجتمعهم على الوجه الذى يرضّون ، وبين أيديهم كتاب الله ، وسنة رسوله ، وما كان لهم فيه من أسوة حسنة .

والذى لاشك فيه أنه صلى الله عليه وسلم لم يوصِ لأحدٍ بالخلافة من بعده ولم يعيّن شخصَ الخليفة الذى يقوم فى الناس مقامه ، بل جعل ذلك شأنا من شئون المسلمين ، يتولونه هم بأنفسهم ، ويُنفذونه بمشيئتهم ، على الوجه الذى يَرون أنه أقومُ لهم ، وأقرب إلى صلاح دينهم ودنياهم جميعاً !

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى الخلافة ، أو شخص الخليفة ، أمراً من أمر الدين ، وشأناً من شئون الرسالة ، لما تركه من غير بيان واضح ، وقول صريح ، يقع من المسلمين جميعاً موقع اليقين ، فلا يختلفون فيه ، ولا يتأولون له . . شأنهم فى ذلك كشأنهم مع مقررات الرسالة الإسلامية وأحكامها !

وهذا الذى كان من ترك الرسول لبيان الخلافة والخليفة ، هو ماتقضى به طبيعة الأشياء ، وتجعله أمراً لازماً ، لايقوم مقامه شىء آخر !

فلو أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أوصى بالخلافة ، ورسم

نظام الحكم الذى تقوم عليه ؛ لأعنَتَ المجتمع الإسلامى ، ولألزم المسلمين موقفاً واحداً فى الحياة ، لايتحولون عنه أبداً !

وكيف ؟ والحياة متطورة ، والمجتمعات الإنسانية خاضعة لهذا التطور ، مستجيبة له ، متفاعلة معه . . وإلا فهو الجمود والفناء !

فكان من الحكمة أن خَلّى الرسول بين الناس وبين الحياة ، يختارون لأنفسهم النظام السياسى أو الاجتماعى ، الذى يناسب ظروفهم ، وأحوالهم ، شأنهم فى هذا شأن مايتخيرون من ألوان الطعام ، وأشكال الأزياء ، وصور المنازل ، وتخطيط المدن ، وغير ذلك مما يعالجون من شئون الحياة ، فى كل زمان ومكان !

ثم لوسلّمنا أنه كان من الممكن فرض الخلافة شرعاً ، وتحديد صورتها ــ أفكان من الممكن التحكم فى اختيار شخص الخليفة ، وتعيين صفته ، والدلالة عليه بذاته ؟ وهبْ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوصى بالخلافة من بعده لأحد صحابته ، وتلقى المسلمون هذا الأمر بالطاعة والإذعان ، فلم يقع بينهم خلاف فى شأن هذا الخليفة ــ فمن الذى يختار الخليفة الذى يخلف هذا الذى اختاره النبىّ ؟ وهل يتلقى المسلمون هذا الاختيار بالرضا والتسليم كما تلقوه من النبى ؟

لقد اختار أبو بكر عمر من بعده ، والعهد بالنبوة قريب ، فما سلّم الناس له بهذا من أول الأمر ، بل راجعوه وعتبوا عليه ، حتى قام فيهم وخطبهم ، بما أرضى وأقنع ! ثم كان من سيرة عمر وسياسته الحازمة العادلة ، ما أكّد هذا الرضا ، ووثق هذا الاقتناع .

وقد كان من الممكن أن يسمّى الرسول عِدة أشخاص للخلافة من بعده .. فلان ، ثم فلان ، ثم فلان .. ولكن ذلك يوقع الناس فى فتنة ، إذ كان معنى هذا أن الخليفة الثانى لايموت مادام الأول حيًّا ، وأن الثالث لايموت إلا بعد

موت الثانى وهكذا .. إذ أن الأمر لايقع هنا إلاعلى الوجه الذى رسمه الرسول وبيّنه ، لأنه إنما ينطق بما يوحى إليه : « وما ينطق عن الهوى »

ثم ماذا بعد ذلك ؟

كيف يمكن اختيار سلسلة من الخلفاء لمئات أو ألوف السنين المقبلة ؟ وأين هم هؤلاء الذين يختارون ، وهم لايزالون فى أطواء الزمن البعيد ؟

أذلك مما تحتمله الحياة ، ويطمئن إليه الناس ؟

إنه أمر خارج عن سنن الطبيعة البشرية ، مصادم لما يجرى عليه الوجود الإنســانى !

وإذن فلا جَدوَي من أن يعيّن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ شخص الخليفة الأول ، ثم الثانى والثالث من صحابته .. فإن الأمر صائر بعد هذا إلى الموقف الذى تركهم فيه الرسول من غير أن يختار لهم .. فهم ـ إن عاجلا أو آجلا ـ مطالبون بأن يختاروا الرجل الذى يقيمونه عليهم ، ويَدينون له بالطاعة والولاء !

هذا ، ويرى ابن حزم ، غير هذا الرأى الذى رأيناه ، فى ترك النبى صلى الله عليه وسلم ، أمر الخلافة من بعده ، لاختيار المسلمين ، وتقديرهم .

يقول ابن حزم : « وكان فى تلك المرضَةِ ـ أى مرض الرسول الذى توفى فيه ـ قال لعائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها : لقد هممتُ أن أبعث إلى أبيك فأكتبَ كتاباً ، وأعهد عهداً ، لئلايتمنّى مُتَمَنٍّ ، أو يقول قائل ! ! ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ! ! »

ثم يعلق ابن حزم على هذا بقوله :

« فلم يكن ـ والله أعلم ـ الكتابُ الذى أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكتبه ، فلايُضَلُّ بعدَه ، إلا فى استخلاف أبى بكر .

« وقد ظهر مغبة ذلك ، وكاد الناس يهلكون فى الاختلاف فيمن يلى أمر المسلمين ، وفى الذى يلى مِن بعد مَن قام بعده ، وإلى زمن علىّ ، والأمر كذلك فيمن بعد علىّ !

ثم يقول : « وبالجملة ، فالكتاب كان رافعاً لهذا النزاع ، ولولم يكن فيه إلا الاستراحة من سفك الدماء ، فى أمر عثمان ومن بعده ! فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، فقد هلكت فى هذا طوائف ، وتمادى ضلالهم إلى اليوم[1] ! » .

ونعجب أشدّ العجب إذ يجىء من ابن حزم هذا الرأى ، وكيف ساغ لعقله الكبير ، ورأيه الحصيف أن يقبل هذا التصور الذى تصوّره ، فى شأن الكتاب الذى يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد همّ بكتابته ؟

أفيتصور — بحال — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب للمسلمين كتاباً يبيّن لهم فيه أسماء وأشخاص الخلفاء من بعده ، جيلا بعد جيل ؟ ثم أيتصور أن يكتب الرسول كتاباً لا يضل المسلمون بعده أبداً ؟ وهل عصم كتاب الله كثيرا من المسلمين من الفتنة والضلال ؟ إنما نشك كثيراً فى الخبر الذى يروى قصة هذا الكتاب !!

إن كتاب الله ، وسنة رسول الله — على ما فيهما من هدًى ونور — ليس فيهما سلطان قاهر يمسك بمن يستحبّ العمى عن الهدى ، وإلاّ لما ضلّ ضال ، ولا زاغ زائغ !! .

الامتحان الأول :

وإذن فقد كان مالا بدّ أن يكون !

فواجه المسلمون أول امتحان لهم ، بعد أن أخلى الرسول مكانه فيهم ، فكان عليهم أن يختاروا لأنفسهم أميراً يضبط أمورهم ، ويسوس حياتهم ، فذلك أمر تفرضه الحياة ، ويقتضيه نظام الاجتماع ، قبل أن تجىء به شريعة

(١) جوامع السيرة ، لابن حزم ص ٢٧٤ .

السماء .. فإن جاءت بشيء من هذا ، فإنما تجيء لا للدعوة إليه ، وإنما لتجلية وجهه ، ولكشف ماقد يتلبّس به من شر ، وبغى وعدوان !

فالطعام والشراب أمران لازمان للحياة ، لاتقوم الحياة فى الأحياء إلا بهما ، ولهذا لم تَدْعُ الشرائع السماوية الناسَ إلى أن يأكلوا ويشربوا ، وإنما دعتهم إلى أن يأكلوا حلالاً ، وأن يشربوا طيباً ، وألا يسرفوا ، أو يقتُروا .. وفى هذا يقول الله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . » وليس الأمر هنا بالأكل والشرب ، دعوةً إليهما ، وإنما الدعوة إلى ترك الإسراف فيما يأكل الناس وفيما يشربون !

وليس يَبْدُو أمرُ الخلافة أو غيرها من أنظمة الحكم — فى نظرنا — أن يكون كالطعام والشراب ، بالنسبة للمجتمع الإنسانى ، لايستقيم وجود الناس إلا به ، ولا تنتظم حياتهم إلا عليه .

وفى اليوم الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يُدفن ، اجتمع المسلمون ليقيموا عليهم أميراً ، يقود ركبَهم المتحرك فى الحياة .. إنهم لم يطيقوا الحياة ليوم أو بعض يوم ، من غير أن يكون لهم أمير ، هو منهم بمنزلة الرأس من الجسد !

وفى سقيفة بنى ساعدة ، اجتمع الأنصار ، لينظروا فى هذا الأمر ، وليرَوْا رأيهم فيمن يختارونه ، ليكون على رأس المسلمين ، بعد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، الذى دعاه ربّه إليه ، واختار له ماعنده .. إذ قدّر الأنصار أن الإسلام قد آوى إليهم ، وأن رسول الله قد أذن له الله بالهجرة إلى ديارهم ، ليتخذها موطناً له ، ومطلعاً لرسالته ! فهم إذن أولى الناس بهذا الفضل الذى ساقه الله إليهم .وأحق الناس بأن يخلُفوا رسول الله على الناس من بعده .

أما المهاجرون ، فلا نحسب أنهم كانوا ينظرون فى هذا الأمر قبل أن

يفرغوا من شأن الرسول ، ولكن اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لَفَتهم إلى مالهم من حق ، يريد الأنصار أن يذهبوا به . . فكان أن أسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، إلى هذا الاجتماع ، واستمعوا إلى مايقول الأنصار ، وأسمعوا الأنصار رأيهم فيما قالوا ، وكان بين الفريقين أخْذٌ وردٌّ ، ومجادلة ومصاولة ، حتى لقد كاد يقع الشرّ بينهما ، ولكن الله لطف بالمسلمين ، ففاءوا جميعاً إلى السِّلم والعافية ، وانتهى الاجتماع بالبيعة لأبى بكر بالخلافة ، وقد سلّم الأنصار له — عدا سعد بن عبادة — كما بايعه المهاجرون ، عدا بنى هاشم ، ونفر قليل معهم من قريش !

وإنه لابدّ من وقفةٍ هنا ، عند هذا الاجتماع الذى دعا إليه الأنصار فى لهفةٍ وعجَلٍ ، حيث ينظر كثير من الناس إلى اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة غداةَ وفاة الرسول ، نظرةَ حيرة ، وعجب ، ودهش . . إذ كيف يفرغ المسلمون لأنفسهم ، وكيف يسوغ لهم نظر فى أى شأن من شئونهم ، والنبى — صلوات الله وسلامه عليه — لايزال مسجًّى فى فراش الموت ، لم يُقْضَ بعدُ مايجب له من حق الميتِ على الحىّ ؟ فكيف والميت هو رسول الله ، الذى تعلّقت به حياة كل مسلم ، وانتظم بيده شمل المسلمين ؟

الأمر لايعدو أحد فرضين : فإما أن يكون مايحمل المسلمون للنبى من مشاعر الحبّ والولاء ، شيئاً على غير تلك الصفة التى يدعو إليها الدين ، حيث لايكمل إيمان المؤمن حتى يكون حبه لله ورسوله فوق كل حبّ ، وفوق كل من يحبُّ وما يحبّ . !

وإما أن تكون أخبار يوم السقيفة لم تقع على تلك الصورة ، التى نقلها التاريخ ، فلم يجتمع الأنصار غداة وفاة النبى . . بل كان اجتماعهم بعد أن مضى على ذلك الحدث أيام وأيام !

والقول بأن فى حبّ المسلمين ـ وخاصة الأنصار ـ للنبى ، شيئاً من الفتور ، أو الضعف ، هو عدوان صارخ على الحق ، وتحدٍّ جرىء للواقع ، وتطاول سفيه على المثل العليا ، فى أشرف منازلها ، وأكرم مواقعها . !

فهذا القول مردود ، يدفعه الواقع الماثل ، وتدحضه الشواهد الناطقة ! لايحتاج الأمر فى ذلك إلى شرح وبيان ، إذ كان أوضح من كل شرح ، وأجلى من كل بيان !

وكذلك الشأن فى يوم السقيفة ـ فقد تظاهرت الأخبار ، وتوالت الأدلّة على أنه وقع قبل أن يفرغ الناس من أمر النبىّ ، وقبل أن يدفن !

فما تأويل هذا ؟

أوَ حقّاً كان من الأنصار والمهاجرين ما كان فى هذا اليوم من حديث عن الخلافة ، ومن تنافس عليها ، وتنازع فيها . . والنبى حيث هو ، لايُشغَل به ويشيّعون مثواه إلى قبره ، إلا أهله الأدنَوْن ، وإلا أزواجه ، ومن كان فى خاصة خدمته ، ممن هو أشبه بأهله ! ؟

ونعم . . كان ذلك !

ولكن . . لاعن تقصير فى حقّ النبىّ ، ولا عن استخفاف بالنازلة التى نزلت بالمسلمين من هذا الحدَث العظيم ، وذلك الخطب الجسيم ! بل إن هذا الذى كان من المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة ، لدليل على أن وقع هذا المصاب على المسلمين كان فوق أن تحتمله النفوس ، وأكبر من أن تستمسك معه العزائم ! فلقد زُلزل المسلمون بهذه النازلة زلزالاً عظيما . وأشرف بهم المصاب على خطر داهم ، يتهدد هذا البنيان الذى أقامه الرسول ، ويكاد يفغر فاه لابتلاع هذا التراث العظيم ، الذى قضى الرسول حياته كلها فى السهر عليه ، والجهاد من أجله . . !

فإذا أُصيب المسلمون فى رسول الله ، وإذا رُزِءوا فى افتقاد شخصه من

بينهم ، فإن المصاب ليعظم ؛ وإن الرزء ليشتد إذا هم ضَيعوا ما أودع الرسول فى أيديهم من أمانات . وما ترك فيهم من خير . وخلّف لهم من تراث !

وإذاً فلم تكن هذه اللهفة ، وهذا البِدار ؛ إلا حرصاً على الرسالة النبوية . وإلا تضميداً لهذا الجرح الغائر الذى أصيبت به الرسالة.. بموت صاحبها !

وأمر آخر .

وهو هذا الشعور الذى كان يعيش فى كيان المسلمين والنبى مازال فى بيته ، وبين أهله ، لم يَغِبْ شخصه عنهم ، ولم يفارقهم الفراق البعيد بعد .. فإنه وإن يكن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد مات ، فإنه موته إلى تلك الساعة لم يقع فى شعور المسلمين موقع اليقين ، وإنْ قَبِلَتْه عقولهم ، ضائقة به ، كارهة له .

هذا الشعور ، قد أملى على المسلمين أن يجتمعوا على عجل ، وأن يبادروا الأمر وشخص الرسول فى أعينهم ،ليحملوا الراية بين يديه ، وليُشهدوه مايرى منهم من قيامهم بأمره ، الذى دعاهم إليه ، وندبهم لنصرته ، والجهاد فى سبيله .

وعن هذا الشعور كان سبقُ الأنصار إلى هذا الاجتماع ، إذ كانوا هم الذين تلقوْا رسالة السماء من النبىّ ، وجعلوا مغارسها فى ديارهم ، فحموْها بسيوفهم ، وفَدوها بأموالهم وأنفسهم . !

وإنه لعزيز عليهم ـ والأمر كذلك ـ أن تتعرض هذه المغارس لعارض يعرض لها ، أو آفة تحلّ بها بعد الرسول ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وأن تسقط راية الإسلام ، ثم لاترى الأعين من يقوم لها ، ويجمع المسلمين عليها .

وعلى هذا الشعور ، التقى المهاجرون مع الأنصار ، وحملوا الرّاية من يد الرسول قبل أن يغيب عنهم شخصه ! !

علىّ والخلافة :

لم يشهد علىّ ـ كرم الله وجهه ـ مجتمع السقيفة ، الذى كان بين الأنصار والمهاجرين ، والذى انتهى باختيار أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ خليفةً على

للمسلمين ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذ كان مشغولا بأمر الرسول ، هو وجماعة من بنى هاشم ، تولّوا غسله وتكفينه ، وإنزاله فى قبره .

ولو شهد علىّ اجتماع السقيفة لكان له فيه مقال ، ولربما أخذت الأمور فى هذا اليوم اتجاهاً آخر غير اتجاهها الذى سارت فيه !

ومن يدرى ؟

فلعله لو أن عليًا وبنى هاشم شهدوا هذا الاجتماع لوقع بينهم وبين المهاجرين نزاع ، فيمن هو أحق بهذا الأمر بعد النبىّ !

ولو وقع نزاع أو توقّفٌ فى هذه اللحظة الحرجة الحاسمة لما سلّم الأنصار بما سلّموا به للمهاجرين ، حين رأوهم جبهة واحدة ، وكلمة واحدة !

وهكذا أراد الله للمسلمين أن يلتقوا على كلمة سواء بعد وفاة الرسول ، وأن يَلْقَوْا المنافقين والمرتدين جبهة واحدة ، فَسُدَّت بذلك تلك الثُّلمة ، التى لولم تُحسم فى وقتها لكانت صدعاً مزلزلا للإسلام ، هيهات أن ينتظم بعدها شمل المسلمين .

لقد كان من لطف الله بالإسلام والمسلمين أن ظفر أبو بكر والمهاجرون بتسليم الأنصار لهم بالخلافة عن رسول الله ، وبهذا انحصر الخلاف ـ إن يكن ثمّة خلاف ـ بين المهاجرين .. وهذا الخلاف ، مهما يبلغ من الخطر ، أهون مما لوكان بين المهاجرين والأنصار .

لقد استقبل المهاجرون ـ الذين لم يشهدوا مجتمع السقيفة ـ بيعة أبى بكر بالرضا ، إذ انفتح للناس بتلك البيعة ، الطريقُ إلى الخلاص من الحيرة التى كانت قد غشيتهم ، والقلق الذى كان قد استبد بهم ، منذ علموا أن الرسول قد ترك مكانه بينهم .. واستبان لهم فى هذا التدبير وجه الحياة الجديدة ، التى سوف يصحبونها ، والتى كانت ملتفة فى ضباب كثيف من الحيرة والقلق والاضطراب ! يوم أن أخلى الرسول مكانه فيهم ،فُجاءة وعلى غير توقع وانتظار !

إنه لم يكن عند الناس يوم وفاة الرسول ، فَضْلة من عقل ، أو سعة من وقت ، ليفكروا أو يقدّروا .. فى كل عقل ، وفى كل قلب ، ماشغله ، واستبد به ، من وساوس وهموم . فما هم إلا أن رأوا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ يطلع عليهم فى هذه الحيرة المهلكة ، بأنه الأمير الذى ارتضاه الأنصار ووجوه المسلمين ، خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى رأوا فيه الأمل الذى يمسك بهم من هذا الضياع ، الذى استشعروه ، وأشرفوا عليه !

ونظر علىّ بن أبى طالب ، ومعه بنوهاشم ، إلى ميراثهم من النبىّ ، وإلى أنهم أحق الناس بالخلافة ـ إن كان ثمة خلافة ـ محتجّين بما احتج به أبو بكر والمهاجرون على الأنصار ، بأنهم أهل رسول الله ، وأولى الناس به !

فإذ قد سلّم الأنصار بهذه الحجة ، كانت القرابة من رسول الله ، كلما قربت واتصلت ، هى الفيصل الذى يُرجع إليه ، فى اختيار من يخلف الرسول على المسلمين !

يقول ابن قُتيبة :

« إن بنى هاشم ، اجتمعت عند بيعة الأنصار ، إلى علىّ بن أبى طالب ، ومعهم الزبير بن العوام ، رضى الله عنه ، وكانت أمه صفيةَ بنت عبد المطلب ، وإنما كان يعدّ نفسه من بنى هاشم ، وكان علىّ كرم وجهه يقول : مازال الزبير منّا ، حتى نشأ بنوه ، فصرفوه عنا !

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد (بن أبى وقاص) وعبد الرحمن بن عوف ، فكانوا فى المسجد الشريف مجتمعين . . فلما أقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة ، وقد بايع الناس أبا بكر ، قال لهم عمر : مالى أراكم مجتمعين حِلَقاً شتىّ ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايعه الأنصار ! فقام عثمان بن عفّان ومن معه من بنى أميّة ، فبايعوه ، وقام سعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، ومن معهما من بنى زهرة ، فبايعوه .

وأما علىّ ، والعباس ، ومن معهما من بنى هاشم ، فانصرفوا ، ومعهم الزبير بن العوام . .[١] »

ثم يقول ابن قتيبة :

«إن علياً — كرم الله وجهه — أُتِى به إلى أبى بكر ، وهو يقول : «أنا عبد الله ، وأخو رسوله » . فقيل له : بايعْ أبا بكر ، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم ، ولا أبايعكم ، وأنتم أولى بالبيعة لى ! ! أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهلَ البيت غصباً ؟ . . . ثم قال : «اللهَ اللهَ ، يامعشر المهاجرين ، لا تُخرجوا سلطان محمد فى العرب ، عن داره وقعر بيته ، إلى دوركم وقعور بيوتكم ، لا تدفعوا أهله ، عن مقامه فى الناس وحقه . . فوالله يامعشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأنا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ، مادام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسوله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . . والله إنه لفينا[٢] ، فلا تتبعوا الهوى ، فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا عن الحقّ بُعْدًا .

« فقال سعد بن بشير (الأنصارى) : لو كان هذا الكلام سمعتْه الأنصارُ منك ياعلىّ قبل بيعتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك اثنان . !

« وخرج علىّ — كرم الله وجهه — يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على دابّة ليلا ، فى مجالس الأنصار ، تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : يابنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أن زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبى بكر ماعدلنا به ! ! فيقول علىّ — كرم الله وجهه —:

---

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ١٠

(٢) فى رواية « إنه لفيئنا » .

«أفكنتُ أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أَدْفِنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة : « ماصنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبُهم وطالبهم ! »[١]

ويقول ابن أبي الحديد :

« وكان عليّ لايشك أن الأمر له ، وأنه لاينازعه فيه أحد من الناس ، ولهذا قال له عمه (العباس) : امدد يدك أبايعك ، فيقال : عمُّ رسول الله ، بايع ابنَ عمّ رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان ! فقال ياعمّ : وهل يطمع فيها طامع غيري ؟ قال : ستعلم ! فقال : إنى لا أحبّ هذا الأمر من وراء رِتاج[٢] ؛ وأحبّ أن أصحر به .. فسكت عنه ! » .

وروى ابن سعد في طبقاته ، عن جيش أسامة ، فقال : « فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتُدب في تلك الغزوة .. فيهم أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وأبوعبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص .. فتكلم قوم ، فقالوا : يُستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فغضب رسول الله ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ما قالة بلغتني عنكم في تأميري أسامة . . . ثم نزل ، فدخل بيته ، وذلك يوم السبت ، وتوفى يوم الاثنين »[٣]

وهذا يعنى أن وجوه الصحابة كانوا في جيش أسامة ، وأن علياً ـ وقد أمسكه الرسول إلى جانبه في مرضه هذا ـ كان الخليفة بلا منازع من المهاجرين ، لوحدث برسول الله ما كان يُنتظر حُدوثه ! ولكن حين اشتد المرض على

---

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ١٢ .

(٢) أى خفية ، والرتاج الباب المغلق .

(٣) الطبقات لابن سعد ، جزء ٢ ص ١٣٧ .

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ توقف جيش أسامة خارج المدينة ينتظر ماسيكون ! فكان من أمر يوم السقيفة ما كان !

وأيا كان الأمر ، فقد بايع عليّ أبا بكر ، وفاءت نفسه إلى شيء من الرضا أول الأمر ، ثم إلى الرضا كل الرضا بعد أن سار أبو بكر فى خلافته تلك السيرة الراشدة ، وقام فى المسلمين هذا المقام المحمود ، متأسياً برسول الله ، متبعاً هديه ، مقتفياً أثره ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

الامتحان الثانى :

ويتعرض الإمام عليّ لامتحان آخر .. بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

فهذا أبو بكر رضى الله عنه قد بويع له بالخلافة من عليّ ، ومن بنى هاشم جميعاً .. ! ولآل بيت النبيّ ، ولبنى هاشم رأى فيما ترك رسول الله ، ثم فى سهم ذوى القُربى من غَنائم المسلمين ، وذلك كما يقول الله تعالى : « واعلموا أنما غَنِمتم من شيء فأن لِلهِ خُمُسَه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » !

ومنطق الآية الكريمة يفيد أن هذا الخمس يقسم إلى خمسة أقسام : قسم لله ولرسوله ، وقسم لذى القربى ، وقسم لليتامى ، وقسم المساكين ، وقسم لابن السبيل .

وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الخمس كان فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم »[1] .

وروى عن ابن عباس ، غير هذا .. قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس ، فأربعة منها لمن قاتل عليها ، وخُمس واحد يقسم على أربعة : فربع لله

(١) الخراج ، لأبى يوسف ص ١٩ .

وللرسول ولذى القربى ، يعنى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فما كان لله وللرسول فيها فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً .. والربع الثانى لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين »[١].

فلما ولى أبو بكر الخلافة ، جعل هذا الخمس فى ثلاثه : اليتامى ، والمساكين وابن السبيل . . وأما ما كان لله وللرسول ولذى القربى ، فقد أسقطه بموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى عمر على هذا وكذلك عثمان ، وعلىّ !

وقد جرت مراجعات بين بنى هاشم وبين أبى بكر وعمر ، فى حظهم من هذا الخمس المفروض لهم فى خمس غنائم !

رُوى عن ابن عباس ، قال : كان عمر يعطينا من الخمس نحواً مما كان يُرى لنا[٢] ، فرغبنا عن ذلك ، وقلنا : « حق ذوى القربى خمس الخمس ! » فقال عمر : إنما جعل الله الخمس لأصناف سماها ، فأسعدهم بها أكثرهم عدداً ، وأشدهم فاقة » قال ابن عباس : فأخذ منا ناس ، وتركه ناس ! »[٣] .

ورُوى عن ابن عباس أيضاً ، قال : « عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوِّج من الخمس أيِّمنا[٤] ، ونقضى منه عن مغرمنا ، فأبينا إلا أن يسلِّم لنا ، وأبى ذلك علينا ! »[٥] .

وقد كان الإمام علىّ رضى الله عنه ، يرى أن خمس الخمس حقٌّ ذوى

---

(١) الأموال لأبى عبيدة ص ٣٢٥ .
(٢) أى على حسب ما كان يرى ويقدر ، حسب اجتهاده وتقديره .
(٣) الأموال لأبى عبيدة ص ٣٣٥ .
(٤) الأيم : الأرمل ، غير المتزوج ، والمغرم : الدين .
(٥) الخراج : لأبى يوسف ص ٢٠

القربى ، ولـكنه حين ولى الخلافة سار سيرة الخلفاء الثلاثة من قبله ، وكره أن يخالفهم ! .

وهـكذا انتهى الموقف بين بنى هاشم ، وبين أبى بـكر ، فى دعوى استحقاقهم لسهم أو سهمين فى خمس الغنائم !

أما فاطمة رضى الله عنها . فقد كان لها إلى جانب هذا قضية أخرى . . هى ميراثها مما ترك النبىّ صلى الله عليه وسلم . . فهى ابنته ، ولها ما للأبناء فيما ترك الآباء .

ولـكن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ يلقاها بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول فيه : « إنا لا نُورَث .. ما تركناه صدقة » .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أن فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنها ، أرسلت إلى أبى بكر ، تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما أفاء الله على رسوله ، وفاطمة حينئذ تطلب صَدَقة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، التى بالمدينة ، وفَدَكَ . وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث . . ما تركناه صدقة » إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول الله ؛ ولأعملنّ فيها بما عمل رسول الله . . فأبى أبو بكر أن يدفع إليهـا شيئاً .. فوجدت فاطمة على أبى بكر ، فهجرته ، ولم تـكلمه حتى توفيت » .

وحدّث ابن سعد فى طبقاته . . قال :

«جاءت فاطمة إلى أبى بكر تطلب ميراثها ، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه ، وجاء معهما علىّ بن أبى طالب ، فقال أبو بكر : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث . ما تركناه صدقة » وما كان النبى يعول

فعلىّ ، فقال علىّ :« وورث سليمان داود ! »[١] وقال زكريا : « يَرِثُنى ويرثُ من آل يعقوب »[٢] !! قال أبو بكر : هو هذا ، والله .. تعلم مثلَ ما أعلم ! فقال على : هذا كتاب الله ينطق !! فسكتوا ، وانصرفوا »[٣] .

ولا نريد أن نذهب بهذه القضية إلى أكثر من هذا ، بل نسكت كما سكتوا ، وننصرف عنها كما انصرفوا .

على أن الذى لا شك فيه عندنا أن أبا بكر — رضى الله عنه — لم يمنع فاطمة — رضى الله عنها — ميراثها إلا لهذا الحديث الذى سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى سمعه معه كثير من الصحابة ، ومنهم علىّ ، الذى يقول له أبو بكر : « هو هذا .. والله . تعلم مثل ما أعلم ! » .

فهذا الحديث لم يكن عند أبى بكر وحده ، ولكنه كان عنده ، وعند غيره من الصحابة ! .

وأما احتجاج علىّ على أبى بكر بما فى قوله تعالى : « وورث سليمان داود » وقوله سبحانه على لسان زكريا فى طلبه الولد : « يَرِثُنى ويرث من آل يعقوب » فإن فيه متأولاً فى الشىء الموروث : أهو ميراث مادىّ لما يترك النبى ، من مال ومتاع ؟ أم هو ميراث فى الخصائص العقلية والنفسية ، والجسدية؟

وأيا كان الأمر فإن هذا الموقف قد ترك فى نفوس بنى هاشم مرارة ، وألقى فى رُوعهم أنهم فى معرض إعنات وإرهاق ، لموقفهم من الخلافة ، وتوقفهم فى البيعة لأبى بكر ! !

---

(١) سورة النمل : ١٦ .

(٢) سورة مريم : ٢

(٣) انظر نهاية الأرب جزء ١٨ : ص ٣٩٧

وقد عملت ظروف كثيرة على الإمساك بهذا الشعور ، وتقويته ، فى كيان بنى هاشم .. من أوليائهم ، وأعدائهم جميعاً .

فأما أولياؤهم ، فقد قوّوا جبهتهم ، ووسعوا من دائرة السخط والألم .

وأما أعداؤهم ، ممن كانوا ينفسون عليهم النبوّة التى أطلعها الله فيهم ، وتخيرها منهم ، فإنهم أظهروا لهم مواساة الشامت ، وعزاء الحاسد !

والحق أن بنى هاشم — وقد خُذلوا فى ميراثهم الروحى من النبىّ أولاً ، فصرفت عنهم الخلافة ، ثم خذلوا فى ميراثهم المادىّ منه ثانياً ، فلم يأخذوا مما ترك النبى شيئاً ـ قد اهتز مكانهم فى قريش بخاصة ، وفى العرب بعامة ، ووقع لإحساس كثير من الناس أن ما كان ينتظر بنى هاشم فى ظل النبوة ، من مقام فى قريش وفى العرب، فوق مقامهم الذى كان لهم فى الجاهلية ـ ليس كما حسبوا وقدّروا، وأن النبوة لم تكسبهم شيئاً ، بل إن عليهم أن يحتملوا عداوة قريش وكيدها بعد النبىّ ، كما حملوا عداوتها وكيدها فى عهد النبى ! فهذا هو الميراث الذى سمحت لهم الأيام به ، والذى ذهب الإمام علىّ بأوفر نصيب منه ! .

وامتحان ثالث :

وتحضر أبا بكر — رضى عنه — الوفاة ، بعد سنتين وقليل ، من خلافته ، فيرى ألا يدع المسلمين من بعده ، يواجهون خلافاً وفرقة فى اختيار من يخلفه عليهم ، خاصة وقد استعلن النفاق ، وكثرت وساوس المنافقين وأهل السوء ، فأراد أن يسدّ المنافذ على هؤلاء المتربصين بالمسلمين الدوائر !

وكان أن وقع فى نفس أبى بكر أن يختار عمر ، ليكون الخليفةَ من بعده ، فجعل يحدّث بذلك من يأنس عنده الرأى والنصح ، فكان أكثر

ما يسمع فى عمر ، أنه خير كله؛ لولا شدّة فيه ، فيرضى أبو بكر بهذا ، ويطمئن إلى اختيار عمر ، ويرى أن هذه الشدة فى عمر ليست عن استعلاء وقهر وظلم ، وإنما هى شدة فى الحق ، قائمة بالعدل ، موزعة بالقسطاس ، حظه منها وحظ أهله أوفر الحظوظ وأعظمها !

خطب عمر فى الناس أول خلافته : فقال .

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ .

« ومَن قال ذلك ، فقد صدق ! فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدَه وخادمه ، وكان ممن لا يُبلغ صفتُه ، من اللين والرحمة ، وقد سماه الله بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : رءوف رحيم .. فكنت سيفاً مسلولاً . حتى يغمدنى . أو يدعنىفأمضى . حتى قُبض رسول الله وهو عنى راض، والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك.

« ثم ولى أبو بكر أمر المسلمين ، فكان ممن لا ينكرون دَعَتَه ، وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا ، حتى يغمدنى ، أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عنى راض . وأنا أسعدُ بذلك .

« ثم إنى وُلِّيت أمركم أيها الناس . واعلموا أن هذه الشدة قد أُضعِفت ! ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والفضل . فأنا ألْيَن لهم من بعضهم على بعض ! ».

هذه هى شدة عمر ، وقد عرفها أبو بكر ، وخبرها على هذا النحو ، الذى

يعيش فيه عمر مع شدته وغلظته .. شدة فى الحق ، وغلظة على أهل البغى والتعدّى !

وإذن فعلى بركة الله !

وأعلن أبو بكر فى الناس ، أنه اختار لهم ، فهل هم راضون باختياره ؟ :

ونعم . . . لقد سلّموا له الأمر . وأعطوه حق الاختيار لهم ، فما عرفوا فى أبى بكر إلا الخير ، فيما قال أو عمل ! !

خطب أبو بكر فى الناس ، حين اشتد عليه المرض ، فقال : « أيها الناس . . لقد حضرنى من قضاء الله ما ترون . وإنه لابد لكم من رجل ، يلى أمركم . ويصلّى بكم ، ويقاتل عدوّكم . . . فإن شئتم اجتمعتم . فائتمرتم ، ثم ولّيتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ، ووالله الذى لا إله إلا هو لا آلوكم فى نفسى خيراً . . فقالوا ياخليفة رسول الله . . أنت خيرنا وأعلمنا ! قال : سأجتهد رأيى ، وأختار لكم خيركم ، إن شاء الله .. ثم أرسل إلى عمر بن الخطاب. فقال : ياعمر . أحبك محبّ ، وأبغضك مبغض ، وقديما يحب الشر، ويُبغض الخير » فقال عمر : لاحاجة لى بها ، فقال أبو بكر : ولكن بها إليك حاجة . . والله ما حَبَوْتك بها .

« ثم قال له : خذ هذا الكتاب ، واخرج به إلى الناس ، وأخبرهم أنه عهدى ، وسَلْهم عن سمعهم وطاعتهم . . فخرج عمر بالكتاب ، وأعلمهم . فقالوا : سمعاً وطاعة ! ..

« فقال له رجل : مافى الكتاب ياأبا حفص ؟ .

قال : لا أدرى . . ولكنى أول من سمع وأطاع !

قال : لكنى والله أدرِى ما فيه . . . أمّرته عامَ أول . فأمّرك هذا العام !! [1] »

---

(١) الإمامة والسياسة .

لقد كان أبو بكر يخشى أمثال هذا اللسان السَّليط ، الذى إن حضر يوما كيوم السقيفة ، أوقد نار الفتنة ، وأثار عواصف الفُرقة . . فجنب المسلمين بهذا التدبير أن يتعرضوا لتجربة كتجربة هذا اليوم ، التى كانت فلتة ، وقى الله المسلمين ما كان يترصدهم من شر ، يومئذ !

وبايع الناس لعمر ، بعد أن قضى أبو بكر نحبه ، ولقى ربه .. وأعطى علىّ وبنو هاشم أيديَهم أبا بكر ، وبايعوه ، كما بايعه الناس ،على السمع والطاعة .

وببيعة عمر ازداد بُعْد بنى هاشم عن الخلافة ، وقويت جبهة الحاسدين لهم ، والناقمين عليهم ، وكان علىّ يحمل تبعة هذا الموقف كلها ، ويرى أن قريشاً تعمل فى إصرار وعزم على مساءته ، ومساءة بنى هاشم معه !.

وهنا تتحرك أطماع بنى أمية ، ويدخل عليهم شعور بأن الزمن معهم ، وأنّ بنى هاشم لن يكون لهم فى دولة الإسلام أكثر مما كان لهم فى الجاهلية! وإذن فالتنافس بينهم وبين بنى هاشم مازال قائماً ، على ما كان عليه الأمر بينهم قبل الإسلام !

ولكن عمر — رضى الله عنه — كان قوة قاهرة ، ويداً باطشة ، وحرباً قائمة فى وجه الجاهلية ، ومخلفاتها ، وآثارها . . فلم يدع لبنى أمية أن يتقدموا خطوة عن مكانهم الذى وضعهم فيه الإسلام ، بعد أن سعوْا إليه سعياً بطيئاً ، وبعد أن دخلوا فيه آخر الناس ! .

ولم ينس عمر قرابة بنى هاشم لرسول الله ، وما لهذه القرابة من حرمة ورعاية ، فجعل هذه القرابة مدخلاً إلى السبق فى كل حال ، وفى كل مقام !

فحين فرض عمر للناس أعطياَتهم فى بيت مال المسلمين ، جعل للقرابة

من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مدخلا إلى التقدم والفضل ، وفى رجحان موازين آل بيت رسول الله على من عداهم من الناس ، دون أن يكون فى ذلك جور على أحد ، أو انتقاص من فضل أحد .

فالناس — فى عهد عمر ، وفى سياسته — على منازلهم فى الإسلام . فآل بيت رسول الله فى المقام الأول ، لِمَا لهم برسول الله من هذه الرحِم الماسّة به ! .

وقد أكّد عمر هذا بما فرض للمسلمين فى بيت المال . .

بدأ بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ففرض لكل منهن اثنى عشر ألفاً ، وفرض للعبّاس — عم النبىّ — اثنى عشر ألفاً . . وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف . فقال : ياأبت . . لم زدته علىّ ألفاً ؟ قال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله من أبيك ، وكان أسامة أحبّ إلى رسول الله منك ! وفرض لكل من الحسن والحسين خمسة آلاف ، وألحقهما بأبيهما ، لمكانتهما من رسول الله ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، ألفين .

هذا من حيث التفاوت المادى ، الذى ينظر به الناس إلى الناس . . ولكن نظرة عمر امتدت إلى أبعد من هذا ، فإنه حين أجدب الناس فى عام الرمادة ، وحُبِس المطر عن جزيرة العرب ، استسقى عمر بالعباس عمّ النبى . . التماساً للبركة ، بهذه القرابة من رسول الله . . وقد صدقت فراسة عمر ، وصحّ ماوقع فى نفسه ، فاستجاب الله للمسلمين ، وغاثهم الغيث !

ثم حين طُعن عمر ، ووقع اختياره لأهل الشورى فى اختيار الخليفة من بعده ، أوصى أصحاب الشورى أن يحضرهم فيها الحسن بن علىّ ، وعبد الله بن عباس ، على ألا يكون لهما رأى فى الخلافة ، ولا نصيب منها . . ولكن

ليكون محضرهم مجلبة للبركة والخير ، كما يقول عمر ، مخاطبا أصحاب الشورى : « فإنّ لهما قرابة ، وأرجو أن يكون لكم بركة فى حضورهما ! »

وهكذا احتفظ عمر لبنى هاشم - مدة خلافته ، وإلى اللحظة الأخيرة من حياته - بمكانتهم التى ينبغى أن تكون لهم فى المسلمين ، بما لهم على الناس من فضل ، بقرابتهم من رسول الله ، وإضافتهم إليه !

وبهذه اليقظة ، والقوة والصرامة ، استطاع عمر أن يمسك الناس على منازلهم فى الإسلام ، وأن يجعل لبنى هاشم حساباً يعيشون به فى الناس ، وسلطاناً يعرفه الناس لهم .. إذ كانوا أقرب الناس نسباً إلى الإسلام ، وأولاهم به . . منهم كان النبى ، وفى بيوتهم كان بيتُه ، وكان مطلعُ رسالته . . فكل مجد للإسلام هو مجدهم ، وكل إعلاء لكلمة الإسلام هو إعلاء لهم !

وإذن فقد رضى علىّ وبنو هاشم عن عمر ، وحمدوا له سيرته تلك التى دفعت عن الإسلام عداوة الجاهلية وعدوانها.. وكاد علىّ وبنو هاشم ينسوْن أمر الخلافة ، ومالهم من نظر إليها ، ومطمع فيها !

فإنه لم يكد عمر يمضى فى خلافته ، ويشهد الناس آيات من روائع عدله ، وحزمه ، وحسن تدبيره ، واستقامة سياسته ، حتى تتفتح لحبة القلوب المغلقة ، وحتى يكون علىّ بن أبى طالب أشدّ الناس حبًّا لعمر ، وتسليما له بمكانه من الخلافة ، واستحقاقه لها .

الامتحان العسر :

عشر سنوات وبضعة أشهر قضاها عمر خليفة على المسلمين ، لم يستشعر أحد طولها ، ولم يتعجل أحد أيامها ، بل مرّت كأنها أيام معدودات ، نعِم المسلمون خلالَها بالأمن ، وذاقوا أثناءها حلاوة العدل ، ورأوا فيها سلطان الحقّ الذى وسع الأقوياء والضعفاء جميعاً !

ولكن ، وعلى حين غفلة ، يُطعن عمر بيد أثيمة غادرة . . ويقع المسلمون في هَرْج ومَرْج ، ويطلع عليهم يوم يذكرهم ببعض ما كانوا فيه يوم وفاة النبي !

وتحضر عمرَ الوفاة ، فيرى أن ينصح للمسلمين ، وأن يقدّم لهم ماعنده من رأى ، في اختيار الخليفة من بعده !

وعمر صاحب أوّليات ، يجيء بها ، غير مسبوق إليها ، تكون لمن بعده مثلا يُحتَذَى ، وسابقة يُنظر إليها ، وينتفع بها ، حين تبدو دواعيها ، وتجدّ أسبابها !

ولاشك أن عمر لم يستحدث أمر التفكير في الخليفة الذي يخلفه ، عندما طُعن ، وإنما فكّر في هذا الأمر كثيراً قبل هذا . . فلما وقع هذا الحدَث ، أجدَّ له عزماً قاطعاً ، وأحدث له رأياً عاجلاً . . فكان أن اختار ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن تُوفىّ الرسول وهو عنهم راض ، ليكون الخليفة واحداً منهم ، يختارونه هم ، اختيار مشورة ومناصحة !

وهؤلاء الستة هم : علىّ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفّان ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . . وكان طلحة غائباً .

ثم تحدّث عمر إلى من حضره من المهاجرين ، فقال : « يامعشر المهاجرين الأولين . . إني نظرت في الناس ، فلم أجد شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم . . تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فأعزمُ عليكم بالله ألا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ، فإن أشرتم بها إلى طلحة ، فهو لها أهل . . وليصلّ بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التي تشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالى لاينازعكم . . وأحضروا معكم شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، ويحضر معكم الحسن بن علىّ ،

وعبد الله بن عباس ، فإن لهما قرابة ، وأرجو لـكم البركة فى حضورهما ، وليس لهما من أمركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشاراً ، وليس له من الأمر شىء! قالوا يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً ، فاستخلفه ، فإنا راضون به ! قال حَسْبُ آل الخطاب تحمّل رجلٍ منهم الخلافة ! ليس له من الأمر شىء ! ثم قال : ياعبد الله . . إياك أن تتلبّس بها ! !

ثم قال : « إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه ! . . وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما ، وإن استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابنى عبد الله ، فلأى الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم ، فإن أبى الثلاثة ذلك فاضربوا أعناقهم . . فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة ، نستدل فيها برأيك ونقتدى به . فقال : والله مايمنعنى من أن أستخلفك ياسعد إلا شدتك وغلظتك مع أنك رجل حرب ! ومايمنعنى منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة[1] ! وما يمنعنى منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعنى من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وليها وضع خاتمه فى إصبع امرأته ! ومايمنعنى منك ياعثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعنى منك ياعلىّ إلاّ حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم ! »[2]

فى مجلس الشورى :

ثم بعد موت عمر اجتمع القوم ، جمعهم المقداد بن الأسود ، فى بيت عائشة بإذنها ، وجاء عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحصبهما

(١) نظر عمر إلى عبد الرحمن بن عوف فى غناه العريض ، وثروته الواسعة ، فقد كان أكثر المسلمين مالا .

(٢) الإمامة السياسية جزء ١ ص ٢٣ ،

سعد بن أبي وقاص ، وأقامهما ، وقال : « أتريدان أن تقولا : حضرنا وكنا ف أهل الشورى ؟ »

ثم تشاوروا ثلاثة أيام ، فلم يبُرموا فتيلا ، فلما كان ف اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف : أتدرون أىَّ يوم هذا ؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم ألآ تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم ! قالوا : أجل . قال : فإنى عارض عليكم !

قالوا : وما تعرض ؟

قال : أن تولّونى أمركم ، وأهب لكم نصيبى فيها ، وأختار لكم من أنفسكم !

قالوا : قد أعطيناك الذى سألت !

فلما سلّم القوم ، قال لهم عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

فجعل الزبير أمره إلى علىّ .

وجعل طلحة أمره إلى عثمان .

وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف .

« وخرج عبد الرحمن يتلقّى الناس فى أنقاب المدينة ، مُتلثما ، لا يعرفه أحد .. فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعاف الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم .

أما أهل الرأى ، فأتاهم مستشيراً ، وتلقىّ غيرهم سائلا .. يقول : مَن ترَى الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحداً يستشيره أو يسأله إلا ويقول عثمان!

ثم جمع أصحاب الشورى ، فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق : لئن بايعتك لتقيمنّ كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة صاحبيْك من قبلك ، فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك !

فلما تم له ذلك ، أخذ بيد عثمان ، فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لئن

بايعتك لتقيمنّ كتابَ الله وسنةَ رسوله ، وسنة صاحبيك ، وشرطَ عمر ألا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس ؟

فقال عثمان : نعم !

ثم أخذ بيد علىّ ، فقال له : أبايعك على شرط ألا تجعل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ؟

فقال على : مالك ولهذا إذا قطعتَها فى عنقى ؟ فإن علىّ الاجتهاد لأمة محمد ، حيث علمتُ القوةَ والأمانةَ استعنتُ بها ، كان فى بنى هاشم أو غيرهم !

قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطينى هذا الشرط !

قال علىّ : والله لا أعطيكه أبداً .

فتركه !

وخرج عبد الرحمن بن عوف إلى المسجد ، فجمع الناس ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان . . فلا تجعل ياعلىّ سبيلا إلى نفسك ، فإنه السيف لاغير ، ثم أخذ بيد عثمان ، فبايعه وبايع الناس جميعاً . »

ولابد من وقفة هنا ، عند هذا الاختيار ، وما وقع فى نفوس الناس منه ، منذ أُعلنوا به .

فانتقال الخلافة من شخص إلى شخص ، ومن بيت إلى بيت ، من شأنه أن يُحدث فى مشاعر الناس ، وفى أفكارهم ، شيئاً جديداً ، يتولد من نظرتهم إلى هذا الشخص ، وتقديرهم له ، وصلتهم النفسية ، أو النسبية به وبأهله !

لقد حدث شىء من هذا ، فى خلافة أبى بكر ، فرضى بخلافته أناس ، وسخط أناس .. وحدث شىء كهذا أو أكثر منه فى خلافة عمر ، فاطمأن إليه

قوم ، وخافه قوم .. ولكن سرعان مافاء الساخطون إلى الرضا ، وسكن الخائفون إلى الطمأنينة والأمن .. إذ كان عهد الناس قريباً بالنبوة ، وأمرهم لم يزل قائماً لحساب الدين وفى ظله ، أكثر من قيامه لحساب العصبية ، وفى ظلها !

أما فى خلافة عثمان ، فإن الأمر مختلف ! .

فأولا : كان الزمن قد تراخى قليلا بعهد النبوة ، فانطلقت النفوس على طبيعتها ، وتحركت فيها النزوات الكامنة ، والأطماع المكبوته ، التى كان الدين قد اعتقلها زمناً ، ووقف لها بالمرصاد !

وثانياً : كان اختيار الخليفة الأول أبى بكر من بيت تيم ، واختيار الخليفة الثانى عمر من بيت عدىّ ، وكلا البيتين لم يكونا من البيوت المتنافسة على زعامة قريش ـ كان هذا الاختيار توفيقاً من الله ، سواء فى اختيار الشخصين ، أو فى اختيار بيتيهما من بين بيوت قريش ، إذ كان ذلك إشارة دالّة على زوال حكم العصبية ، وإخماد جذوتها فى صدر الأمة العربية ، وأنه لاحساب لها فى المجتمع الإسلامى .

وثالثاً : حين وقع الاختيار على عثمان ـ رضى الله عنه ـ خليفةً للمسلمين ، وهو من بنى أمية ، تحركت العصبية التى كانت قائمة فى الجاهلية بين بنى أمية وبنى هاشم ، ووقع فى نفس بنى أمية أن الزمن قد عاد لينصفهم من بنى هاشم ، وليلحقهم بهم ، بعد أن قطعهم عن بنى هاشم ، وأيأسهم من منافستهم أن كان النبىّ منهم ، وكانت دعوة الإسلام محسوبة عليهم ، وكانت الدولة الجديدة منسوبة إليهم !

وهذا أبو سفيان زعيم البيت الأموى ، الذى أنزله الإسلام وأنزل بيته وأهله ، عما كان لهم فى الجاهلية من مكان السيادة والزعامة فى قريش ـ يشهد الخلافة تجىء إليهم فى شخص عثمان بن عفّان ، أحد رجال بنى أمية ، فتتحرك

فى نفسه من جديد نوازع تلك السيادة التى كان خليقاً بها أن تضمر وتموت .

إنه الآن يستشعر ريح حياة جديدة تهبّ على بنى أمية ، ويمد يده إلى أمل بازغ فى هذه الخلافة الجديدة ، يعيد إليه ، وإلى أهله ، ماسلبهم الإسلام من عزّة ومجد !

رابعاً : كان عثمان — رضى الله عنه — على ما طبعه الله عليه ، من رقة العاطفة ، ولين الجانب ، ودماثة الخلق — سخىّ اليد ، سمح النفس ، قريب الرضا ، بعيد الغضب ، يألف الناس ويألفونه .. وكان فيه إلى جانب هذا كلّه ، حياء حىّ ، يملك عليه أمره أن يلقى أحداً بما يسوؤه ، أو يحرجه ، أو يخزيه !

وكان لتلك الصفات الطيبة التى اشتمل عليها عثمان — رضى الله عنه — أثرين بارزين فى سياسته ، أثناء الخلافة ، وفى مجرى الأحداث التى وقعت فى خلافته ، وانتهت بقتله شهيداً بين يدى كتاب الله !

ويتجلّى أحد هذين الأثرين فى بنى أميـــة ، ويتجلّى الأثر الآخر فى الناس عامة .

فأولا : فى بنى أمية:

طمع بنو أمية فى رقة عثمان ولين جانبه ، وفى سخائه ورحمته بأهله خاصة ، وبالناس عامة ، فدخلوا عليه من كل باب ، وأحاطوا به من كل جانب ، وجاءوا إليه بكل سبب ، وقعدوا له بكل سبيل .. فـكان منهم كاتبه ، مروان ابن الحـكم بن العاص ، ابن عم عثمان ، وهو وزيره ، ومستشاره ، والباب الذى بين الخليفة وبين الناس ، يضيق ويتسع ، ويُغلق ويفتح ، حسب تقدير مروان وتدبيره !

ومروان بن الحـكم هذا ، كان هو وأبوه الحـكم ، طريدى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وقد عرفنا من قبل أن الحكم هذا كان جاراً لرسول الله فى مكة ، وكان من أشدّ الناس عليه ، وأكثرهم أذى له ، وقد أسلم بعد الفتح وكان النبي قد أهدر دمه ، ثم شفع فيه عثمان . وهاجر إلى المدينة ليكيد لرسول الله ، فأخرجه الرسول من المدينة ، وقال : « لا يساكنّى ولا ولده » فغرّبهم جميعاً إلى الطائف . . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّم عثمانُ فيه أبا بكر ، فأبى ، وقال : ما كنت لآوى طرداء رسول الله . . وكذلك كان موقف عمر حين سأله عثمان فيه ، وفى ولده !

فلما ولى عثمان الخلافة أدخلهم المدينة ، واتخذ مروانَ كاتباً له ، وقال : كنتُ كلّمت رسول الله فيهم ، وسألته ردّهم ، فوعدنى أن يأذن لهم ، فقبض قبل ذلك ، فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة . . وكان ذلك مما فتح للناس طريقاً للقول والشغب على عثمان . »[١]

ولكن الذى يُسأل عنه هنا هو : هل يعتبر وعد رسول الله بالإذن لهم إذناً واقعاً ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فلمَ لم ينفّذه أبو بكر ، وعمر ؟

إن ذلك — على كل حال — أعطى للناس مقالا أن يقولوا : إن عثمان قد نفع عمّه وأهله بسلطان الخلافة ، فرفع عنهم هذا الحظر ، وأخرجهم من تلك العزلة التى فرضها عليهم رسول الله ، والتى لم يرض الخليفتين السابقين أن يقبلا شفاعة عثمان فيهما .. ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل ولى عثمان عمّه هذا الطريد صدقات قضاعة ، وقد بلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له . . ثم هاهو ذا ابنه مروان يصبح وزير الخليفة ، ويده العاملة !

ثم من قبل مروان أو من بعده ، أبو سفيان ، وما دخل عليه من الشعور

---

(١) انظر ص : ٤٥ من هذا الكتاب ، فى الحديث عن مروان بن الحكم .

بأن عهداً جديداً ، طلع عليه بالآمال الواسعة ، بتولية عثمان الخلافة ، وما دخل على الناس من أحاسيس جديدة لبنى أمية ، وزعيمهم أبى سفيان !

ولا تلبث هذه الظاهرة أن تثمر ثمرتها ، وسرعان مايتحرك شبان بنى أمية إلى طلب الإمارة ، وتقلد السلطان ، وسرعان مايتخطون الحواجز التى كانت قائمة فى وجوههم ، حين لم تكن لهم سابقة فى الإسلام !

فهذا الوليد بن عقبة بن أبى معيط يصبح والياً على الكوفة ، التى يُعزَل عنها سعد بن أبى وقاص ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى الستة ، وفاتح العراق ، ومكوّف الكوفة ! !

والوليد ــ كما نعلم ، هو ابن عقبة بن أبى معيط ، الذى أهدر الرسول دمه ، وامر أن يضرب عنقه ، بعد أن وقع أسيراً يوم بدر ، فقال للرسول :

« يامحمد .. أأنا خاصة من دون قريش ؟

« قال : نعم !

« قال : فمن للصِّبية ؟

« قال : النار !

« فلذلك سُمّى بنو أبى مُعيط ، صِبية النار ! »

فهذا حكم قاطع من رسول الله على أبناء عقبة بن أبى معيط ، وعلى رأسهم الوليد بأنهم من أهل النار !

ومع هذا فالمسلمون يرَوْن الوليد أميراً على الكوفة ، يخلف الصحابىّ الجليل سعد بن أبى وقاص ، ويقيم للمسلمين صلاتهم ، ويتولى أمور دينهم ودنياهم جميعاً !

ثم لايلبث الوليد أن يُرِى الناسَ من أفعاله أنه صائر إلى المصير الذى

كشف عنه رسول الله ، فيشرب الخمر ، ويصلى بالناس وهو سكران ، وينتهى أمره بالشكاة ، إلى الخليفة ، فى شبه ثورة تتهدد الخلافة ، ويشهد الناس عليه بالسكر ، ويقام عليه الحدّ .. فيعزل عن الكوفة !

ويذكر الرواة أن الوليد حين جاء إلى الكوفة والياً عليها ، ودخل على سعد بن أبى وقاص ، قال له سعد . « والله ما أدرى . . أ كِسْتَ[1] بعدنا أم حَمُقْنا بعدك ؟ فقال : « لا تجزعنّ أبا إسحق ، فإنما هو الملك .. يتغدّاه قوم ، ويتعشاه آخرون .. فقال سعد : أراكم ستجعلونها ملكا ! ! فساء الناسَ ذلك وقالوا : بئسما تبدّلنا عثمان .. عزل أبا إسحاق ، الهيّن الليّن ، الحَبْرَ ، صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولى أخاه .. الفاسق ، الفاجر ، العاجز ، الأحمق ، الماجن ! »

والوليد هذا ، هو أخو عثمان بن عفان ، من أمه ، وأمهما أروى بنت كُريز بن ربيعة .

ويحدّث صاحب الأغانى ، فيكشف عن عاطفة الأخوة تلك ، وما كان لها من تأثير على قلب عثمان .. الرقيق الودود .. يقول صاحب الأغانى :

« لم يكن يجلس مع عثمان على سريره إلا العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن حرب ، والحكم بن العاص ، والوليد بن عقبة ! » .

فهؤلاء المحدقون بعثمان ، والمخالطون له ، والناظرون فى وجوه الناس معه ، ـ عدا العباس بن عبد المطلب ـ هم زعماء بنى أمية ، الذين لم يكن لأحد منهم مكان عند الخليفتين : أبى بكر وعمر ، إذ كانوا ولا حساب لهم فى موازين الإسلام ، فإذا رآهم الناس على غير تلك الحال عند عثمان ، ورأوا أنهم جلساء الخليفة ، وخلطاؤه ، وأصحاب الكلمة عنده ـ تعلق بهم الناس ، وأصبحوا مقصداً لأصحاب الحاجات !

---

(١) أى صرت كيساً . أى عاقلاً حكيما .

ثم يقول صاحب الأغانى :

« فأقبل الوليد يوماً فجلس ، ثم أقبل الحكم ، فلما رآه عثمان زَحَلَ [1] له عن مجلسه ، فلما قام الحكم ، قال الوليد ، والله يا أمير المؤمنين ، لقد تلجلج فى صدرى بيتان قلتهما حين رأيتك آثرتَ عمّك على ابن أمك .. فقال له عثمان إنه شيخ قريش ! ! فما هما البيتان اللذان قلتّهما ؟ قال . . قلت :

رأيتُ لعمِّ المرء زُلفى قرابةٍ دُوَينَ أخيه ، حادثاً لم يكن قِدْماً
فأمّلْتُ عمراً أن يشِبَّ وخالداً لكى يَدعُوانى يومَ مزحمةٍ عمّا

فرقّ له عثمان ، وقال : وليتك العراق (يعنى الكوفة) . ! !

وعمرو وخالد اللذان أشار إليهما الوليد فى شعره. هما ولدا عثمان رضى الله عنه .

ثانياً : فى جماعة المسلمين :

والأثر الثانى الذى كان بسبب لين عثمان ورقته ، هو ماوقع فى نفوس عامة المسلمين من مشاعر جديدة للخلافة والخليفة معاً .

فلقد استلان الناس جانب عثمان ، وطمعوا منه بما لم يطمعوا فيه من أبى بكر ، وعمر ، ولم يحتملوا من سلطان الخليفة ما كانوا يحتملون من أبى بكر وعمر .

وقد أدّى ذلك إلى أن تنادى الناس بالشكوى .. بالحق وبالباطل ، وكان من هذا أن انفتح للناس باب القول فى الخليفة . ثم كانت الفتنة التى أدت إلى قتله ، وإلى مابعدها من فتن وأحداث .. كما سنرى ذلك بعد قليل !

* * *

(١) زحل له : تحرك ، ليوسع له إلى جواره .

الباب الثانى
مع عثمان

عثمان وسياسته :

عرف الناس عثمان قبل الخلافة . فعرفوا فيه الإنسان السمح اللّين ، الحيىّ العفيف ، لايعنف بأحد ، ولا يَجْبَه أحدا بما يكره . . فلما ولى الخلافة استقبل الناسَ بالوجه الذى عرفوه منه . وعامل الناس بالخلق الذى كان يعاملهم به .
فلم يلبس للخلافة سلطان الحاكم القاهر ، ولم تطاوعه يده على أن يلقى الناس ولو بالدِّرّة التى كان يلقاهم بها عمر ، مع أن الناس فى عهده كانوا بحيث لايُصلح أمرهم غيرُ السيف ، أو مايشبه السيف !

كان عمر – رضى الله عنه – يقبض على الدولة الإسلامية بيد قوية لاتلين ، ويحاسب الناس حسابا دقيقاً ، لايتجاوز فيه عن إساءة مسيء ، أو انحراف منحرف ، لأنه كان يرى وجوها من الفتن مقبلة على الناس ، ويشهد صورا من الشهوات والمغريات ، تهجم على أهل الورع والتقوى ، فى تحد وإلحاح ، تريد أن تلفتهم عن دينهم وتفتنهم فيه !

من أجل هذا كان عمر فى سهر دائم ، ويقظة متصلة لحراسة المجتمع الإسلامى ، ومجتمع الصحابة بوجه خاص ، من هذا العدوّ الراصد المتربص . . فكان يفرض على ولاته وعماله حياة خشنة ، يشيع فيها الجوع والحرمان ، ويقلّ فيها الشبع والرّفة ، مع وفرة المال ، وكثرة الخيرات والنعم ! وكان يريهم من حياته القدوة فى التقشف والحرمان ، والإقامة على شظف العيش ، وخشونة المطعم والملبس !

روى المبرّد فى كتاب الـكامل . قال :

« قال الربيع بن زياد الحارثى ، كنت عاملاً لأبى موسى الأشعرى على البحرين ، فـكتب إليه عمر بن الخطاب ، يأمره بالقدوم عليه ، هو وعمّاله ، وأن يستخلفوا[1] جميعاً .

« قال:فلما قدمنا أتيتُ« يرْفأ »[2] فقلت : يايرفأ .. مسترشدٌ وابن سبيل!. أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى عماله فيها ؟ فأومأ إلىّ بالخشونة!:. فاتخذت خُفّين مطارَقَيْن، ولبست جُبة صوف ، ولُثتُ عمامتى على رأسى ! !

« فدخلنا على عمر . . فصفّنا بين يديه ، فصعّد فينا وصوّب ، فلم تأخذ عينُه أحداً غيرى ، فدعانى .

فقال : من أنت ؟

قلت : الربيع بن زياد الحارثى !

قال : مما تتولى من أعمالنا !

قلت . البحرين !

قال : كم ترتزق .

قلت : ألفاً !

قال : كثير ! فما تصنع به ؟

قلت : أتقوت منه شيئاً ، وأعود به على أقارب لى ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين .

قال : فلا بأس . . ارجع إلى موضعك .

---

(١) أى أنهم يقيمون من يخلفهم على أمر المسلمين الذين تحت أيديهم

(٢) يرفأ ، خادم عمر بن الخطاب

فرجعت إلى موضعى من الصفّ ، فصعّد فينا وصوّب ، فلم تقع عينُه إلا علىّ ، فدعانى ، فقال كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ! قال الآن ، حين استحكمتَ !

ثم دعا بالطعام ، وأصحابى حديثٌ عهدُهم بلين العيش ، وقد تجوّعت له ! فأتى بخبز وأكسار شعير ، فجعل أصحابى يعافون ذلك ، وجعلت آكل فأجيد ! فجعلت أنظر إليه يلحظنى من بينهم ! . . . ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى ! »[1]

وقد عاش الناس فى خلافة عمر ، على هذا الأسلوب من الحياة ، والمال يتدفق إليهم من كل صوب ، ولا يدرون ماذا يفعلون به ، ولا يعرفون الوجوه التى ينفقونه فيها . . وقليل منهم من حاول أن يستحدث له بهذا المال حياة أشبه بتلك الحياة التى رآها فى المواطن الجديدة التى دخلها الإسلام ، فوجد يدَ عمر القوية تمسك به ، وتَدعُّه دَعًّا ، وتخرجه فى عنف وقوة ؛ من هذا الوجه الذى انصرف إليه !

أما عثمان — رضى الله عنه — فقد رأى أن يرفع عن الناس هذا الحظر ، وأن يدعهم مع الحياة ، يلقونها ، بما فيهم من خير وشر ، غير مضيق عليهم أن يأكلوا الطيب ، ويلبسوا اللّين ، وينعَموا بما أفاء الله عليهم من مال ، وما وقع لأيديهم من مغانم !

وكأنه — رضى الله عنه — يَرى أن يُذيق الناس طعوم الحياة الجديدة التى مكّن الله فيها للمسلمين ، وأورثهم ما فيها من أموال ومتاع . وأن يُريهم — فيما ينعمون به — بعضَ الثواب العاجل للمجاهدين فى سبيل الله . فقد جعل الله إلى يد

---

(١) الكامل للمبرد . . الجزء الثالث ص ٨٩ .

المجاهدين أربعة أخماس مايغنمون من عدوّهم ، ولم يحتجز منهم إلا خمسَ هذه المغانم ، لتنفق فى وجوه البرّ والإحسان .. فهذه المغانم خالصة لهم ، ينفقونها فيما أحلّ الله لهم . « قل من حرّم زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيّبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا .. خالصةً يوم القيامة » .

ثم إنه من جهة أخرى ، كان ـ رضى الله عنه ـ يرى أن الحياة التى فرضها عمر . رضى الله عنه . على الناس ، لا يمكن أن تقبلها الحياة ، وأن يخضع لها الناس ، هكذا إلى غير نهاية !! .

إن تلك السنوات العشر التى عاشها الناس فى خلافة عمر على الأسلوب الذى أرادهم عليه ، إنما هى فترة استثنائية ، قضت بها ظروف ، وأعانت عليها أحوال .. إذ كان المسلمون مشتبكين فى حروب متصلة مع أكبر دولتين فى العالم يومذاك ، وهما الفرس والروم .. فلم يكن هناك ـ والأمر كذلك ـ مجال لكى يفرُغ أحد إلى نفسه ، أو ينظر فيما أفاء الله عليه من مغانم !

وإذن فالناس صائرون يوما إلى أن يلتقوا بتلك الحياة ، التى أقبلت عليهم ، ومدّت يديها لهم بالمال والسلطان ، ولن تستطيع قوة أن تحول بينهم وبينها ، ولن يقوى وازع من سلطان مادى أو روحى ، أن يعزلهم عن تلك الحياة ، وعن التلبّس بها ، والتنافس فيها !

الصحابة وسياسة عثمان :

وإذن فهو شىء جديد هذا الذى رآه الصحابة فى عهد عثمان ، لم يعهدوه فى حياة الرسول ، ولم يروه فى عهد أبى بكر وعمر . !

لقد رأى الصحابة فى خلافة عثمان قُصوراً تقام فى الجزيرة العربية ، ويجلب إليها الأثاث والرياش ، وتحشد فيها الجوارى والقِيان ، ويساق إليها الترف

والنعيم ، فى شتّى ألوانه ، ومختلف صوره فأنكروا ذلك أيما إنكار ، وعدّوه بِدعاً فى الدين ، وخَرْقاً لسياج الإسلام !

ثم ترامت إلى أسماعهم أخبار الأمصار ، وما يتقلب فيه الولاة من ألوان الحياة ، وما يحوزون من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ومن آلاف الجوارى والغلمان . . فهالهم الأمر ، وأفزعهم المصير الذى صار إليه أمر المسلمين .

وأكثر من هذا . . فقد رأى الصحابة بعضاً من صحابة رسول الله يأخذ حظه من هذا الحياة الجديدة ، فيبتنى القصور ، ويعمرها بالجوارى والإماء ، وتتدفق بين يديه الأموال بلا توقف ولا حساب .. فيعظم الخطب فى أعينهم ، ويقع اليأس فى قلوبهم !

وتتجمع كل هذه الصور ، وتكثر فيها الأحاديث ، وتدور حولها الآراء .. وينظر الناس من خلالها إلى عثمان رضى الله عنه ، وكأنه هو الذى خلقها وصوّرها ، وحمل الناس عليها ! !

وعثمان ـ رضى الله عنه ـ مظلوم ، لا يدَ له فى هذا ، ولا سلطان له عليه فى دفعه !

وتلك أول سحابة تنعقد فى سماء الخلافة الإسلامية وتُلقى على الخليفة بظلها الأسود الثقيل !

ولاة عثمان :

وأخذ ولاة عثمان بحظهم كاملا من هذه الحياة الجديدة ، بل لقد أفرطوا فى هذا وأسرفوا ، حتى جاوزوا الحدود ، وجاروا على حرمات الدين !

وولاة عثمان ـ كما عرفنا ـ شبان مغامرون طامحون ، من شباب بنى أمية ،

الذين اعتقلهم الإسلام فى محيط ضيق ، وأنزلهم فى أعقاب الناس ، حيث تأخر سعيهم إليه ، ودخولهم فيه !

وقد أنكر الناس على عثمان ـ رضى الله عنه ـ إقامة هؤلاء الشبان من بنى أمية ولاة على الأمصار ، بعد أن عزل عنها ولاتها من صحابة رسول الله ، وأهل السابقة والبلاء فى الإسلام !

ولم يكن هؤلاء الشبان ممن يصلحون للقيام على شئون المسلمين ، فى هذا الوقت الذى لا تزال فيه ريح النبوة ، ومشاهد الرسول قائمة ، ولا تزال فيه بقية صالحة من صحابة الرسول باقية ، ينظر إليها الناس ، فيرون فيها مخايل النبوة ، ويجدون منها سَمْتَ النبىّ وهديه !

لقد كان هؤلاء الشبان ممن دخلوا فى الإسلام ، حين أرغمتهم الظروف على الدخول فيه ، حيث لم يكن ثمة من سبيل إلا الإسلام أو القتل !

كما أن هؤلاء الشبان كانوا أبناء رءوس الكفر والمحادّة لله ولرسوله ، والكيد للإسلام والمسلمين . . ومن أسلم منهم ، فقد أسلم بلسانه ، ولم يخالط الإيمان قلبه .

ومن هؤلاء الأمراء :

١ – الوليد بن عقبة

وقد ذكرنا بعضاً من أخباره وأخبار أبيه ، عقبة بن أبى مُعَيط ، وعرفنا كيف عَرَف الوليد الطريقَ إلى قلب عثمان ـ رضى الله عنه ـ وأنه استغلّ أخوّته له من أمه ، فكان أحدَ الأربعة أو الخمسة الذين يجلسون على سرير عثمان ، وأنه مازال يَفْتِلُ لعثمان حتى رقّ له ، وولاه الكوفة ، وعزل عنها سعد بن أبى وقاص !

ولا شك أن الناس استقبلوا هذا الأمر بالغرابة والاستنكار ، لعزل سعد بن أبى وقاص ، وتولية الوليد بن عقبة !

ولا شك أيضاً أن عيوناً كثيرة ، من أهل الكوفة وغيرها ، جعلت تحدّق فى الوليد ، وتقلب النظر فيه ، لعلها ترى منه ذلك الرجل الذى يقيمه الخليفة مقام سعد بن أبى وقاص ، ويؤثره عليه بولاية هذا المصر !

فكان الوليد بهذا موضعَ بحث ونظر ، يتتبع الناس حركاته وسكناته ، ويرصدون أقواله وأفعاله ، ويتوقعون زلاّته وعثراته !

ولو أن الوليد — والأمر كذلك — كان سليما فى سياسته ، مُعافًى فى دينه ، لما ترك الناس له أديماً صحيحاً .. لأنهم أداروا إليه أبصاراً محقرة لشأنه ، واستقبلوه بقلوب مبغضة له ، لا ترجو منه خيراً ، ولا تتوقع من جهته صلاحا أو إصلاحاً ! .

فكيف والوليد لم يكن يتوقّى الشبهات ، ولم يكن يوقّر الحرمات ، أو يتحرج منها .. لرقّة دينه ، وصغر أمر الإسلام فى نفسه !

كان عبد الله مسعود — رضى الله عنه — على بيت مال الكوفة ، حين جاء الوليد والياً عليها ، فاستقرض من بيت المال مالاً ، فأقرضه ابن مسعود إياه ، وقد كان الولاة يفعلون ذلك ، ثم يردّون مااقترضوه ! .

فلما طالبه ابن مسعود بما اقترضه ، مرة ومرة ، كتب إلى عثمان يشكو ابن مسعود . وإلحاحه فى طلب ما اقترض من بيت المال .. فكتب عثمان إلى ابن مسعود : «إنما أنت خازن لنا ... فلا تتعرض للوليد . فيما أخذ من المال».

فطرح ابن مسعود مفتاح بيت المال . وقال : كنت أظن أنى خازن للمسلمين ، فأمّا إذ كنت خازناً لكم ، فلا حاجة لى فى ذلك ! » .

وقد أقام ابن مسعود فى الكوفة بعد هذا ، يتحدث إليه الناس ، ويتحدث هو إليهم ، بما كان بينه وبين الوليد ، ثم ما كان بينه وبين عثمان !

وكان من هذا أن أنكر الناس على عثمان هذا الموقف ، وأكثروا من القول فيه ، وفى الوليد !

فكتب الوليد بذلك إلى عثمان .. وقال له : «إنه يعيبك ويطعن عليك» ! فكتب عثمان إلى الوليد . يأمره بإشخاص ابن مسعود إلى المدينة . . فاجتمع أهل الكوفة إلى ابن مسعود ، وأرادوا أن يمنعوه ، وقالوا له : أقمْ ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه . . فقال : « إن له عليّ حقّ الطاعة ، ولا أحبّ أن أكون أول من فتح باب الفتن» .

ثم خرج ابن مسعود من الكوفة ، وشيعه الناس فى حفاوة عظيمة .

فلما قدم المدينة ، دخل المسجد ، وعثمان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه عثمان قال : ألاَ إنّه قدمت عليكم دُوَيْبَّةُ سوء . من يمشى على طعامه ، يقيء ويسلح».

فقال ابن مسعود : لست كذلك ! ولكنى صاحب رسول الله يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان [1] » .

وسمعت عائشة هذا القول من عثمان ، فنادت وهى فى حجرتها : « أىْ عثمان .. أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟ » .

---

(١) يعرض ابن مسعود فى هذا القول بعثمان ، حيث لم يشهد بدراً ، ولا بيعة الرضوان . وقد تخلف عن بدر بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمريض زوجه رقية بنت رسول الله . ولم يشهد بيعة الرضوان إذ بعثه الرسول إلى قريش يبلغها أمر الرسول فيما جاء به إلى مكة ، وأنه جاء معتمراً لا محارباً .

فقال لها عثمان : « اسكتى ! »

ثم أمر عثمان بابن مسعود فأُخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وضَرَب به عبد الله بن زَمْعَة الأرض ، فدقّ ضلعه !.

فقال علىّ : ياعثمان .. أتفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بِقَوْل الوليد بن عقبة ؟

فقال عثمان : ما بِقَوْل الوليد فعلتُ هذا، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكندىّ إلى الكوفة ، فقال له ابن مسعود : إن دم عثمان حلال !

فقال علىّ : أحَلْتَ على زبيد .. على غير ثقة ! ؟

وقام علىّ بأمر ابن مسعود ، حتى أتى به منزله . .

وأقام ابن مسعود بالمدينة ، لا يأذن له عثمان فى الخروج منها إلى ناحية من النواحى .. وأراد الغزو بعد أن برىء ، فلم يأذن له . . . وقال له مروان ابن الحكم : إن ابن مسعود أفسد عليك العراق ، أفتريد أن يفسد عليك الشام ؟ فلم يبرح المدينة حتى توفّى قبل مقتل عثمان بسنتين .

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذى مات فيه ، أتاه عثمان عائداً ، فقال :

ما تشتكى ؟

قال : ذنوبى!

قال : فما تشتهى ؟

قال : رحمة ربى !

قال : ألا أدعو لكِ طبيباً ؟

قال : الطبيب أمرضنى !

قال : أفلا آمر بعطائك ؟

قال : منعتنيه وأنا محتاج إليه ، وتعطينيه ، وأنا مستغن عنه ؟

قال : يكون لولدك !

قال : رزقهم على الله !

قال : استغفر لى أبا عبد الرحمن !

قال : أسأل الله أن يأخذ لى منك بحقّى !

وأوصى ابن مسعود أن يصلّى عليه عمّار بن ياسر ، وألا يصلّى عليه عثمان، فدفن بالبقيع ، وعثمان لا يعلم ، فلما علم غضب ، وقال : سبقتمونى به ! فقال عمار : إنه أوصى ألا تُصلّ عليه!! [1] » .

هذا ، وقد أخذ أهل الكوفة على الوليد أموراً كثيرة . . منها : شرب الخمر ، والصلاة بالناس وهو سكران ، وصداقته المتصلة بأبى زبيد الشاعر النصرانى ، الذى اتخذه صفياً له ونديماً على الشراب ، ووهبه داراً لعقيل ابن أبى طالب ، كانت على باب مسجد الكوفة ، وأجرى عليه وظيفة خمر وخنازيرا !

وطبيعى أن ما نسب إلى الوليد قد بُنى على أصل ، ولكن لعل هذا الأصل هو شىء قليل إلى ما أضيف إليه ، وضخّم من حجمه ، وشوّه من صورته ! .

---

(١) انظر : أنساب الأشراف للبلاذرى جزء ٥ ص ٣٦ وما بعدها . وابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) جزء أول .

وأيًا ما كان الأمر ، فقد فتح الوليد على عثمان بابًا من أبواب الفتنة ، فكثُرَ في الكوفة الهرج والمرج ، وتعالت الأصوات بالسخط والشكوى ، وأقبلت وفود الكوفة إلى المدينة ، تذيع في الناس هذه الصور المنكرة عن الوليد ، حتى لقد هاجت النفوس ، وأقبل الصحابة على عثمان ، يحدثونه بما يسمعونه عن الوليد ، ويطلبون إليه رأيه فيما يقول الناس عنه ! وسنرى بعد قليل ما كان في أمر الوليد ، وحدّه في شرب الخمر !

٢ – عبد الله بن أبي السرح

هو أخو عثمان من الرضاعة .

ولاّه عثمان مصر ، بعد عزل عمرو بن العاص عنها .

وقد عرفنا أن عبد الله هذا، كان ممن كتبوا الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدّ مشركا ، وعاد إلى مكة ـ قبل الفتح ـ واجتمع إلى قريش ، يحدثهم الكذبَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : إني كنت أصرّف محمداً كيف أشاء ! .. كان يُملي عليّ « عزيز حكيم » فأقول : أو « عليم حكيم » فيقول : نعم .. كلٌّ صواب !

وفي عبد الله هذا نزل قوله تعالى : « ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذبا ، أو قال أُوحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن وقال سأُنزِل مثلَ ما أنزل الله..[1] »

فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن جنح إلى الكعبة وألقى السلاح فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، غير عدوّ الله ابن أبي السرح » .

---

(١) سورة الأنعام : ٩٣ .

وقد شفع له عثمان عند رسول الله ، وجاء به إليه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ، ثم قال لعثمان : نعم ! فلما انصرف عثمان ، قال النبي لأصحابه : «ماصَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » فقالوا : هَلاّ أومأت إلينا ؟ فقال : « إن النبيّ لا ينبغى أن يكون له خائنة أعين » .

هذا هو بعض تاريخ عبد الله بن أبى السرح فى الإسلام . . كيدٌ لله ولرسوله ، وافتراء على الله وعلى رسوله ، وقد دمغه القرآن بهذا الوصف : « افترى على الله كذبا » ثم حكم عليه الرسول حكما لازما : أنه عدو الله ! إنه حكم لا ينقض أبداً .

فلما ولاه عثمان مصر سنة ٢٥ هـ وخلع عنها عمرو بن العاص ، تلقاه المصريون وقد سبقه إليهم هذا الذى عرفه الإسلام والمسلمون عنه ، فكان ذلك باعثاً من بواعث التشويش عليه ، والزراية له ، وردّ كل حسن وقبيح منه!

وقد تربص المسلمون به ، وانتظروا له العثرات والزلات !

وكان أن شُغل المصريون بفتح أفريقية ، فسار بهم إليها وافتتحها ، فأعطاه عثمان خمسَ غنائم الغزوة الأولى .. فكان ذلك مما هيج النفوسَ على عثمان ، وأفسح للقائلين مجال القول فيه ، ثم الثورة عليه ! .

ومن هنا كانت مصر أولى الأمصار التى أطلت منها رءوس الفتنة ، وتجمعت فيها جموع الثورة على الخلافة والخليفة .

وسنرى ما كان بين الصحابة وأهل مصر ، وبين عثمان فى أمر ابن أبى السرح

٣ — مروان بن الحكم

ابن عم عثمان رضى الله عنه .

وأبوه الحكم بن العاص ، لَعينُ رسول الله وطريده ..

وقد استأثر مروان عند عثمان بثلاثة : فكان صاحب سره ، والموجّه لسياسته ، والمشير عليه فى كل أموره .

وسنرى ما كان من مروان ، مما هيج الخواطر على عثمان ، وأوقع الجفوة بينه وبين الصحابة .. رضوان الله عليهم .

فى مواجهة العاصفة

مصر ، والكوفة ، والمدينة . .

تلك هى المواطن الثلاثة ، التى هبّت منها على عثمان رضى الله عنه ، الأعاصير التى واجه فيها مصيره ، المقدور له . فقتل شهيداً ، وسال دمه الزكىّ الطهور ، على المصحف الشريف ، وهو يتلو كتاب الله ، ويرتّل آياته .

أما مصر .. فإن عبدالله بن أبى السّرح هو الذى أفسد ما بين أهلها وبين الخليفة ، بما قصصنا عليك ، وما نقصّ من أحداث .

وأما الكوفة .. فالوليد بن عقبة هو الذى هيج الناس فيها عليه ، وعلى الخليفة الذى أقامه والياً عليها ، ولم يأخذ على يده بما كان منه ! .

وأما المدينة .. فإن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقبل عليهم الثائرون من هذين المِصريْن ، وحدثوهم عن الأحداث التى نجمت فيهم ، وسألوهم العون عند الخليفة ، على إصلاح ما فسد ، وسنرى كيف تجمعت هذه هذه التيارات ، وكيف تلاقت عند باب عثمان ، حتى حطمته ، ودفعت بالثائرين بين يديه . فتناولوه بأيديهم ، وبسيوفهم ، حتى قضى نحبه !

مصر وثورتها وثوارها :

روى البلاذرى فى أنساب الأشراف ، أن محمد بن أبى حذيفة[1] . ومحمد

---

(١) هو محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشى ، العبشمى . ولد بالحبشة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستشهد أبوه أبو حذيفة ،باليمامة ، فضمه عثمان إليه ورباه ، وفى خلافة عثمان طلب الإمارة فلم يره عثمان أهلا لها ، إذ كان مستهتراً ، ماجناً .. فخرج إلى مصر ، وجعل يؤلب الناس على عثمان .

ابن أبي بكر ، حين أكثر الناس فى أمر عثمان ، قَدِما مصر ، وعليها عبد الله ابن أبي سرح ، ووافقا بمصر محمد بن طلحة بن عبيد الله . وهو مع عبد الله ابن سعد .

وشهد ابن أبي حذيفة صلاة الصبح فى صبيحة الليلة التى قدم فيها ، ففاتته الصلاة ، فجهر بالقراءة ، فسمع ابن سرح قراءته ، فأمر إذا صلّى أن يُؤتَى به .. فلما رآه قال له :

ماجاء بك إلى بلدى ؟

قال : جئت غازيا ؟ .

قال : ومن معك ؟

قال : محمد بن أبي بكر

فقال : والله ماجئتما إلا لتفسدا الناس .

وأمر بهما فسجنا ، فأرسلا إلى محمد بن طلحة ، يسألانه أن يكلم ابن أبي سرح فيهما ، لئلا يمنعهما من الغزو ، فأطلقهما .

وغزا ابن أبي السرح إفريقية ، فأعدّ لهما سفينة مفردة ، لئـلا يفسدا عليه الناس ، فمرض ابن أبي بكر ، فتخلّف وتخلّف معه ابن أبي حذيفة . . ثم خرجا فى جماعة من الناس ، فما رجعا من غزوتهما إلا وقد أوغرا الناس على عثمان . .»[1] .

وقال الطبرى : « خرج محمد بن أبي حذيفة . ومحمد بن أبي بكر ، عامَ خرج عبد الله بن سعد ، فأظهرا عيب عثمان ، وما غيّر ، وما خالف به أبا بكر

---

(١) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٥٠ .

وعمر . وأن دم عثمان حلال ، ويقولان : استعمل عبدَ الله بن سعد .. رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ، ونزل القرآن بكفره حين قال : « سأنزل مثل ما أنزل الله » .. وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وأدخلهم .. « فأفسدا أهل تلك الغزوة ، وعابا عثمان أشد العيب » . .

ثم يقول : « ومحمد بن أبي حذيفة يقول للرجل : أما والله ، لقد تركنا خَلْفَنا الجهاد حقاً ! فيقول الرجل : وأيّ جهاد ؟ فيقول : « عثمان بن عفان .. فعل كذا وكذا !! » حتى أفسد الناس ، فقدموا بلدهم — أى مصر — وقد أفسدهم ، وأظهروا من القول مالم يكونوا ينطقون به ! [1] » .

ويقول ابن قتيبة : « ذكروا أن أهل مصر ، جاءوا — إلى المدينة — يشكون ابن أبي سرح ، عاملهم ، فكتب إليه عثمان كتابا يهدده فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل مانهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه به من قِبَل عثمان من أهل مصر ، حتى قتله ! .

« فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل ، فنزلوا المسجد — مسجد رسول الله — وشكوا إلى أصحاب رسول الله فى مواقيت الصلاة ، ماصنع بهم ابن أبي سرح .. فقام طلحة فتكلم بكلام شديد ، وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ، وسألوك عزل هذا الرجل فأنصفهم من عاملك ! .

« ودخل عليه عليّ ، وكان متكلمَ القوم ، فقال له : إنما يسألونك رجلاً مكان رجل ، وقد ادّعَوْا قِبَلَه دماً ، فاعزله عنهم ، واقضِ بينهم ، فإن وجب لهم عليه حق ، فأنصفهم منه ...!

---

(١) تاريخ الطبرى الجزء الخامس

فقال : اختاروا رجلاً أوليه عليهم . فقالوا : استعمل محمد بن أبي بكر ، فـكتب عهده ، وولاه ، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ، ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر !

« فخرج محمد ومن معه ، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة ، إذا هم بغلام أسود على بعير ، يخبط البعير ، كأنه رجل يَطلب ، أو يُطلب ، فقال له أصحاب محمد : ماقصتك ؟ وما شأنك ؟ كأنك طالب ، أو هارب ! فقال

أنا غلام أمير المؤمنين !! (كذا ؟) .

وجهني إلى عامل مصر !! (كذا ؟) .

فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا !

قال : ليس هذا أريد !!

فأُخبر محمد : بأمره ، فبعث في طلب رجلاً ، فجاء به إليه .

فقال له : غلام من أنت ؟

وأقبل مرة يقول : أنا غلام مروان .. ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين! حتى عرفه رجل أنه لعثمان !

فقال له محمد : إلى من أرسلك ؟ :

قال : إلى عامل مصر ؟

قال : بماذا ؟

قال : برسالة :

قال : أما معك كتاب ؟

قال : لا .

ففتشوه ، فلم يجدوا معه كتابا !

وكانت معه إداوة ، قد يبست ، فيها شيء يتقلقل ، فحركوه ليخرج ، فلم يخرج ، فشقوا إداوته، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح. فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ، ثم فضّ الكتاب بمحضر منهم فقرأه فإذا فيه :

« إذا أتاك محمد بن أبي بكر ، وفلان ، وفلان ، فاقتلهم ، وأبطل ، كتابهم ، وقَرّ على عملك ، حتى يأتيك رأيي !! » .

فلما رأوا الكتاب ، فزعوا منه ، ورجعوا إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه ، ودفعه إلى رجل منهم ، ثم قدموا المدينة ، فجمعوا طلحة والزبير ، وعلياً ، وسعدا ، ومن كان من أصحاب رسول الله ، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم . وأخبرهم بقصة الغلام ، وأقرأهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حَنِق على عثمان ، وقام أصحاب النبيّ فلحقوا بمنازلهم ، وحَصرَ الناس عثمان ، وأحاطوا به ، ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر »[1] .

إنها فتنة تحركها أيد خفيّة ، وتلقى فى النار الخامدة وقوداً ، تنفخ فيه بخبث ودهاء !

وقصة الغلام — إن صحت — كانت دليلا على براءة عثمان ، وعلى تلك النوايا السيئة ، التي كانت تدبّر الشر ، وتبيت السوء . وتفسد ما بين المسلمين !

وعثمان – فوق أنه أبعد من أن ينقضّ عهداً – يأبى عليه دينه أن يبيح دم مسلم ، وقد آثر – رضى الله عنه – أن يلقى الله شهيداً ، وأن ينظر إلى قاتليه

(١) الإمام والسياسة ، جزء ١ ص ٣٦، ٣٧

بعينيه ، دون أن يسمح لأحد بالدفاع عنه ، وإراقة قطرة من دماء المسلمين من أجله .

فكيف يطلب إلى ابن أبي السَّرح أن يقتل محمد بن أبي بكر وفلاناً وفلانا .. من المسلمين ؟

ثم هذا الغلام ، الذى يعترض ركب محمد بن أبي بكر ، ويتحكك بالناس ، وكأنه يريد أن يقول لهم : إن فى الأمر شيئاً ! وإنى أحمل سرًّا خطيرا ، عليكم أن تكشفوه ، وتعرفوه ! ألا يدلّ بفعلاته تلك على أنه موعز إليه بما فعل ، وأنه مطلوب منه أن يلعب تلك اللعبة ، حتى يُعرف أمره ، ويُعلم السرّ الذى بين يديه .. فيوقع الناس فى فتنة ، يحدث من ورائها ماقد حدث ؟

وهذا الأسلوب من الكيد ، والإفساد ، والمكر بالأعداء ـ قد كان معروفاً فى ذلك الحين ، على تلك الصورة التى رأيناها هنا ، فى قصة هذا الغلام . !

وكان لمعاوية بن أبي سفيان تدبير هكذا التدبير ، للإيقاع بين أعدائه :

يقول المبردّ ، فى كتابه الكامل : « وحُدِّثت أن معاوية كان إذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد للإسلام ، احتال فأهدى إليه ، وكاتَبَه ، حتى يغرى به ملك الروم !

« فكانت رسله ـ أى رسل معاوية ـ تأتيه ، فتخبره بأن هناك بطريقاً يؤذى الرسل ، ويطعن عليهم ، ويسىء عشرتهم ، فقال معاوية : أيُّ مافى عمل الإسلام أحبّ إليه ؟

فقيل له : الخِفاف الُحمر ، ودُهن البان !

فألطفه بهما ، حتى عُرفت رسله باعتياده .

ثم كتب (معاوية) كتاباً إليه ، كأنه جواب كتاب منه ! ، يقول له فيه : إنه وثق بما وعده من نصره ، وخذلانه ملك الروم ! وأمر الرسول بأن يتعرض للروم ، حتى يضعوا يدهم على الكتاب ! !

«فلما ذهبت رسل معاوية فى أوقاتها ثم رجعت إليه ، قال : ماحَدَثَ هناك؟ قالوا : فلان البطريق ، رأيناه مقتولا مصلوباً ! فقال : وأنا أبوعبد الرحمن!!»[1]

فهذا التدبير الذى يقال إن معاوية قد اصطنعه مع البطريق حين أرسل إليه بكتاب كأنه جواب على كتاب منه ، وأمر حامل الكتاب بأن يحتال ، لالكى يصل الكتاب إلى البطريق ، بل لكى يقع فى يد رجال ملك الروم ، وكأنه إنما غُلب على أمره ، وأنه انكشف منه السرّ الذى كان معه ـ نقول إن هذا التدبير هو من هذا التدبير نفسه ، الذى اتخذ فى شأن الكتاب المرسل إلى عامل مصر ، مقصوداً به أن يقع ليد محمد بن أبى بكر ومن معه !

ولا نقول إن معاوية هو صاحب هذا التدبير . . وإنما الذى يمكن أن نقوله هنا ، هو أن الذين دبّروا هذا الكيد فى أيام عثمان كانوا بطانة لمعاوية ، وأنهم هم الذين أشاروا على معاوية فى شأن البطريق ، بأن يسلك معه هذا المسلك الذى عرفوه ، وعرفوا آثاره . مع عثمان ومحمد بن أبى بكر !

وقد أفاد معاوية من مثل هذا الكيد فى إفساد مابين علىّ ـ كرم الله وجهه ـ وبين أهل العزم والنجدة من أصحابه .

كان قيس بن سعد الأنصارى ، من الأركان القوية، التى يستند إليها الإمام علىّ ، فى دفع الفتن الثائرة عليه . . وقد ولاه علىّ « مصر » ، وكان معاوية

---

(١) الكامل للمبرد جزء ١ ص ٣٠٧ .

يحرص على أن يستميل إليه قيسَ بن سعد هذا ، لِما يعلم من مكانته فى الأنصار ، ولما اشتملت عليه نفسه من عظمة ، قلّ أن تجتمع فى الرجال .. وقد استنفد معاوية فى ذلك جهده ، فلم يبلغ من قيس شيئاً ، بل كان فى كل مرة يَجْبَه معاوية ، ويردّه ردّاً مرّاً قاسياً .

فكتب كتاباً ، نسبه إلى قيس ، موجها إلى معاوية .. يقول له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. للأمير معاوية بن أبى سفيان .. من قيس بن سعد ، سلام عليك .. فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلهَ إلاّ هو .. .

« أما بعد ، فقد كان قتل عثمان حَدَثاً فى الإسلام عظيما ، وقد نظرتُ لنفسى ودينى ، فلم أر أنه يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً ، محرماً ، بَرّاً تقيًا .. فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .. ألاَ وإنى قد ألقيت إليكم بالسَّلَم ، وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان ، إمام الهدى المظلوم .. فعوّلْ علىّ فيما أحببت من الأموال والرجال ، أعجله إليك إن شاء الله ، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته ! »[1]

وقد فعل هذا الكتاب المدسوس فعلَه ، إذ كان من التدبير أن يقع الكتاب ليد علىّ ، ليعلم منه خروج قيس عن طاعته ، وولائه لمعاوية .. وبهذا استطاع معاوية أن يكيد لقيس ، وأن يفسد مابينه وبينَ علىّ !

ومرة أخرى نقول إن الكتاب الذى وقع فى يد محمد بن أبى بكر مدسوس على عثمان ، وأن الأسلوب الذى جاء عليه ، كان معروفاً لدى معاوية ، ومستشارى معاوية .

وإذن ، فإن الذى كتب هذا الكتاب ، وحمّله هذا العبد ، وبعث به وراء

---

(١) الطبرى جزء : ٥ ص ٢٢٩ .

محمد بن أبى بكر ، إنما يقصد بهذا الكتاب محمد بن أبى بكر ومن كان معه ، حتى لا يستقيم الأمر الذى كان فى طريق الاستقامة والسلام ، وحتى لا تسكن تلك الفتنة التى عمل عثمان والصحابة على إسكاتها !

وندع أهل مصر ، وما أجلبوا على عثمان . . وننظر إلى إصبع أخرى من أصابع تلك الفتنة ، التى تعمل فى أكثر من ميدان ، حتى إذا فسد تدبير فى ناحية؛ لم يسكن الشر ، ولم تخمد النار !

ثورة الكوفة وثوارها :

قال البلاذرى : « لما شاع فعل عثمان ، وسارت به الركبان ، كان أولَ من دعا إلى خلعه ، والبيعة لعلىّ ، عمرُو بن زرارة بن قيس بن عمرو بن عداء النخعى ، وكميل بن زياد بن نَهِيك بن هيثم النخعى ، ثم أحد بنى صهبان . . فقام عمرو بن زرارة فقال :

« أيها . . الناس إن عثمان ترك الحق وهو يعرفه ، وقد أغرى بصلحائكم ، يولّى عليهم شراركم !» .

فمضى خالد بن عرفطة بن أبرهة بن سنان ، حليف بنى زهرة ، إلى الوليد ، فأخبره بقول عمرو بن زرارة ، واجتماع الناس إليه ، فركب الوليد نحوهم ، فقيل له : إن الأمر أشدّ من ذلك ، والقوم مجتمعون ، فاتق الله ، ولا تسعّر الفتنة !

ثم كتب الوليد إلى عثمان ، بما كان من ابن زرارة ، فكتب إليه عثمان : إن ابن زرارة أعرابى جِلف ، فسيّره إلى الشام ، فسيّره . . فقال قيس بن سَلَمة — من كندة . . يومئذ :

أقسم بالله ربَّ البيت مجتهدًا ... أرجو الثوابَ له سرًّا وإعلانا

لأخلعَنَّ أبا وهب وصاحبَه كهفَ الضلالة عثمانَ بن عفانا»[1]

ونترك الكوفة وأهلها يموجون ويضطربون .. فقد اطمأن الذين أثاروا تلك الفتن إلى أنها قد استيقظت، ولن تنام، حتى تبلغ غايتها!

المدينة، وصحابة الرسول :

كانت المدينة — كما قلنا — ملتقى الشاكين، والمشاغبين، من الأمصار، وكان الصحابة رضوان الله عليهم، محطّ رحال هؤلاء الوافدين، يسمعون ما يقولون، ويتعرفون إلى ما يشكون، ويَلْقَى بعضهم بعضاً، فإذا الوجوم، والحسرة، والحيرة!

ويلتقى بعضهم بالخليفة، فيُلقِى إليه بما سمع من أنباء الأمصار، وما يجرى فيها من أحداث، وما تعجّ به مدينة الرسول من ثوار الأمصار الذين تواعدوا على الالتقاء فى مدينة الرسول، فى موسم حج هذا العام الذى حُصر فيه عثمان، ولم يستطع أن يحجّ بالناس، وطلب إلى ابن عباس أن يقوم مقامه، وأن يقيم للناس حجّهم!

الثورة والثائرون :

تجمع الساخطون على ولاة عثمان، والناقمون على تلك السياسة التى مكّنت لبنى أميّة من الاستيلاء على الناس، والاستئثار بالسلطان، والعمل على الانحراف بالخلافة إلى نظام أشبه بنظام الملك، الذى لا سلطان فيه لغير القوة والقهر!

ويتحدث المؤرخون عن مواقف كثيرة للصحابة، وقفوها من عثمان،

---

(١) أنساب الأشراف : الجزء الخامس .

ومن تلك الأحداث التى أقلقهم ظهورها فى المجتمع الإسلامى ، الذى كان لذلك العهد نقياً من كل شائبة ، صافياً من كل كدر ، تظهر على صفحته صغائر الذنوب ، وهنات الانحرافات ، حادّة ، صاخبة ، منكرة !

ولو تأخر الزمن قليلاً بمثل هذه الأحداث التى فزع لها الناس فى خلافة عثمان والتى أنكروها عليه ، وهاج هياجهم لها ، لما التفت إليها أحد ، بل لكانت — فى نظر الناس حينئذ — فى عداد الصالحات الطيبات من الأعمال!

وعلى أىّ فإن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لم يستطيعوا أن يعزلوا أنفسهم عن هذه الأحداث ، فشاركوا فى العمل على إطفاء هذه الفتن المائجة ، وتسكين تلك النفوس الثائرة ، وسلكوا فى هذا مسالك وطرقاً . . مجتمعين ، ومنفردين . . ولكن الذين كانوا يحركون الأحداث ، ويصرّفون وجوهها ، عرفوا كيف يفسدون كل تدبير ، يحول بينهم وبين مايريدون .. فسارت الأمور إلى غايتها، ووقع ما كان الناس يشفقون منه ، ويخشون على الإسلام والمسلمين مغبته .

روى الطبرى فى تاريخه .. قال :

« لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب مَن بالمدينة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى مَن بالآفاق منهم ، وكانوا قد افترقوا فى الثغور : « إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا فى سبيل الله عزّوجل ، تطلبون دين محمد . فإن دين محمد أفسده مَن خلفكم ، وتركه . . فهلمّوا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم . . »

ويقول البلاذرى :

« لما كانت سنة أربع وثلاثين كتب بعض أصحاب رسول الله إلى بعض يتشاكون سيرة عثمان وتغييره . وتبديله . وما الناس فيه من عمّاله ، ويكثرون عليه ، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدُموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عن عثمان . ولا ينكر

ما يقال فيه ، إلا زيدَ بن ثابت . وأبا أسيد الساعدى . وكعب بن مالك بن أبى كعب من بنى سلمة من الأنصار . وحسان بن ثابت[1] .

« فاجتمع المهاجرون ، وغيرهم إلى علىّ ، فسألوه أن يكلّم عثمان ، ويعظه ، فأتاه ، فقال له :

« إن الناس ورائى ، قد كلمونى فى أمرك ، والله ما أدرى ما أقول لك ! ما أعرِّفك شيئاً تجهله ، ولا أدلّك على أمر لا تعرفه ، وإنك لتعلم ما نعلم . وما سبقناك إلى شىء فنخبرَك عنه ، ولقد صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعتَ ورأيتَ مثل ما سمعنا ورأينا ، وما ابن أبى قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق ، ولأنت أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رِحماً ، لأنك نلتَ من صهره مالم ينالا ! .. فاللهَ اللهَ فى نفسك ، فإنك لا تُبصر من عَمًى ، ولا تعلَّم من جهل !

« فقال عثمان : والله لو كنتَ مكانى ماعنّفتك ، ولا أسلمتك ، ولاعتبتُ عليك أن وصلتَ رِحمًا ، وسددتَ خلّه ، وآويت ضائعاً ، ووليت من كان عمر يوليه !

« نشدتُك الله .. ألم يولّ عمرُ المغيرةَ بن شعبة ، وليس هناك ؟[2]

« قال : نعم .

« قال : فلم تلوموننى أن وليتُ ابن عامر فى رَحِمِه وقرابته ؟

« قال علىّ : سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب ، كان كلما ولّى والياً يطأ على

---

(١) وهؤلاء جميعاً من الأنصار .

(٢) يريد أن المغيرة بن شعبة ليس بالصحيح وأنه لاخير فيه .

صِماخِه[1] إن بلغه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية » وأنت لاتفعل . . ضعفت ، ورققت على أقربائك !

« قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً !

« فقال علىّ : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولـكن الفضل فى غيرهم .

« قال : ألم يولّ عمر معاوية ؟

« فقال على : إن معاوية كان أشدّ خوفاً وطاعةً لعمر مِن يَرْفَاً »[2] ، وهو الآن يبتزّ الأمور دونك ، ويقطعها بغير علمك ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، ويبلغك ، فلا تغيّر !!

ثم خرج ــ علىّ ــ وخرج عثمان بعده ، فصعد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن لـكل شىء آفة ، ولـكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذا الدّين ، وعاهة هذه الملّة ، قومٌ عيّابون ، طعانون ، يُرونـكم ما تحبّون ، ويسرّون لـكم ماتـكرهون ، مثل النعام يتبعون أول ناعق ، أحبّ مواردهم إليهم البعيد . . أمّا والله معشر المهاجرين والأنصار ، لقد عبتم علىّ أشياء ، ونقمتم أموراً ، قد أقررتم لابن الخطاب مثلها ، ولـكنه وقَمكُم ، وقمعكم ، ولم يجترىء أحد يملأ بصره منه ، ولا يشير بطرفه إليه . . أمّا والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً ، وأقرب ناصراً ، وأجدر !! ثم قال : أتفقدون من حقوقكم شيئاً ؟ فمالى لا أفعل فى الفضل ما أريد ؟ فلم كنت إماماً إذن ؟ »[3]

---

(١) الصماخ : عظمة الأذن ، وهو كناية عن أنه يضع خده على الأرض ، أى يذله ويهينه إن انحرف .

(٢) يرفأ : غلام عمر .

(٣) أنساب الأشراف : جزء ٢ ص ٦٧ والإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٢٧

لقد عَرَض الخليفة نفسه للناس ، وواجههم بما عنده ، لما ينكرون عليه ، وأرام أنه لم يأت منكراً ، وأن ما عابوه عليه لم يكن ليعاب على عمر لوفعله ، وأنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم استلانوه وطمعوا فى لينه وحيائه ، ولكنه وقد صار الأمر به وبهم إلى هذا المصير ، فإنه سيلقاهم بالشدة والعنف ، وإنه لقادر على أن يشتد ويعنف !

ولكن عثمان ـ رضى الله عنه ـ لايستطيع أن يخرج عن طبيعته من اللين والسماحة .. فهو على ماطبعه الله ، وعلى ماعرفه الناس .. سمح سهل ، رقيق .. إن اشتد فى حال ، غلبته طبيعته ، فياسر ، وسمح فى أغلب الأحيان !

إن العاصفة تنطلق فى موجات مجنونة متدافعة ، وعثمان ـ رضى الله عنه ـ يلقاها بنفْس هادئة ، ويحاول أن يدفعها بيد لينة . . وهيهات !

روى ابن سعد فى طبقاته : أن المصريين الذين حصروا عثمان كانوا ستمائة ، على رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندى وعمرو بن الحمِق الخزاعى .. والذين قدموا من الكوفة كانوا مئتين : على رأسهم الأشتر النخعى .. والذين جاءوا من البصرة كانوا مئة ، وعلى رأسهم حكيم بن جبلة العبدى .

ثم يقول بن سعد فى وصف هؤلاء الثائرين :

« كانوا يداً واحدة فى الشر . وكان حثالة من الناس قد ضَوَوْا إليهم ، قد مَرِجت[1] عهودهم وأماناتهم !!

« وكان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، الذين خذلوه ، كرهوا هذه الفتنة ، وظنوا أن الأمر لايبلغ قتله ، فندموا على ماصنعوا فى أمره .

---

(١) فى الأصل مزجت ، وهو تصحيف ، ومرجت بمعنى ضعفت ، ووهنت .

« ولعمرى ، لوقاموا ، أو قام بعضهم ، لحثا فى وجوههم التراب ، لانصرفوا خاسرين !! »[1]

وهذا وصف دقيق للمشاعر التى كانت متلبسة بالناس فى هذه الفتنة . . مجانَبَةٌ للفتنة ، وذهولٌ عن الأحداث التى ستنجم عنها !! فلما وقعت الواقعة ، لم يكن من الممكن مراجعة الموقف ، وتصحيح أوضاعه .

وحدّث البلاذرى ، فقال :

« التقى أهل الأمصار الثلاثة : الكوفة ، والبصرة ، ومصر ، فى المسجد الحرام ، قبل مقتل عثمان بعام ، وكان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهدى ، ورئيس أهل البصرة المثنىّ بن المخرمة العبدى ، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى .. فتذاكروا سيرة عثمان ، وتبديله ، وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه ، وعاهد الله عليه ، وقالوا : لايسعنا الرضا بهذا ، فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره ، فيكون رسولَ من شهد مكة ، من أهل الخلاف على عثمان ، إلى مَن كان على رأيهم مِن أهل بلده ، وأن يوافُوا عثمان فى العام المقبل فى داره ، فيستعتبوه ، فإن أَعْتَبَ وإلا رأوْا رأيهم فيه .. ففعلوا ذلك !! »[2]

وفى الموعد الذى تواعدوه ، تحركت ركبان الأمصار الثلاثة .

فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عُدَيس البلوى فى خمسمائة ، وخرج معهم محمد بن أبى بكر ، وبقى محمد بن حذيفة ، وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان ذلك فى شهر رجب .

وخرج عبد الله بن أبى السرح إلى عثمان فى آثار القوم ، وكان قد كتب

---

(١) الطبقات : ٣ / ٣٥٥ .

(٢) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٥٩

إلى عثمان يستأذن فى الخروج ، فأذن له ، فقدم ابن أبى السرح حتى إذا كان بأيلة بلغه أن المصريين قد حصروا عثمان ، فأراد الرجوع إلى مصر ، فعلم أن محمد ابن حذيفة قد استولى على الإمرة فيها ، فأقام بفلسطين ، حتى قُتل عثمان رضى الله عنه .

يقول الطبرى : وكان أهل مصر الذين ساروا إلى عثمان ستمائة رجل ، على أربعة ألوية ، لها رءوس أربعة ، مع كل رجل لواء . وكان جماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وكان من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى عبد الرحمن بن عديس التجيبى . .

« فلما كان القوم بأطراف المدينة بعثوا إلى عثمان بكتاب . . جاء فيه :

« أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . . فاللهَ اللهَ ، ثم اللهَ . . فإنك على دنيا ، فاستتمّ معها آخرة . . واعلم أنا والله ، لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وإننا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرّحة ، أو ضلالة مجلّحة مبلّجة [1] !

فهذه مقالتنا لك ، وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك والسلام » .

لقد صار أمر الخلافة والخليفة إلى هؤلاء القوم الذى أجلبوا على المدينة ، وأحاطوا بها ، وبأهلها ، وفيهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآل بيته .

ولم يكن فى المدينة جيش لحمايتها ، وحماية الخليفة . . إذ لم يكن من همّ المسلمين يومئذ أن يتقى بعضهم بأس بعض ، ولا كان من تدبير الخلافة أن تعد قوة لحمايتها من المتطاولين عليها ، فذلك أمر لم يكن فى حسبان أحد أو تقديره ، وما وقع فى نفوس المسلمين يومذاك أن يكون جهادهم فى سبيل غير سبيل الله ، وأن تسلّ سيوفهم فى وجه غير وجوه الكافرين والملحدين .

---

(١) مجلحة : أى واضحة مكشوفة ، مبلجة : أى واضحة صريحة .

لهذا فقد وقعت المدينة وأهلها فى قبضة أولئك الذين دفعت بهم الأمصار إلى مدينة الرسول ، يحاكمون الخليفة إليهم . ويقررون مصيره بأيديهم !

قال البلاذرى :

« وأتى المغيرة بن شعبة[1] عثمان ، فقال له : دعنى آتى القوم — أى الذين أجلبوا من مصر — فأنظر ماذا يريدون ؟ فمضى نحوهم ، فلما دنا منهم صاحوا به :

يا أعور .. وراءك ! يافاجر .. وراءك ! يافاسق .. وراءك ! !

فرجع !

ودعا عثمان عمرو بن العاص ، فقال له : ائت القوم ، فادعُهم إلى كتاب الله والعُتبَى مما ساءهم !

فلما دنا منهم سلّم : فقالوا . لا سلّم الله عليك ..! ارجع ياعدوّ الله ! ارجع يا ابن النابغة ، فلست عندنا بأمين ولا مأمون !

فقال له ابن عمر : ليس لهم إلا علىّ بن أبى طالب .

فبعث عثمان إلى علىّ . . فلما أتاه ، قال له :

ياأبا الحسن : ائت القوم فادعهم إلى كتاب الله ، وسُنّة نبيّه .

قال : نعم ، إن أعطيتنى عهدَ الله وميثاقه على أنك تفى لهم ما أضمنه عنك!

قال : نعم .

---

(١) كان المغيرة بن شعبة من دهاة العرب ، وكان يطمع بدهائه هذا أن يكون والياً على مصر من الأمصار ، كعمرو بن العاص وغيره ، وقد ولاه عمر البصرة وعزله عنها حين شهدوا عليه بالزنا ! وقد كان فيمن اعتزل الفتنة بعد البيعة لعلى ، انتظاراً لما تأتى به الأيام ! .

فأخذ عليه عليّ عهدَ الله وميثاقَه ، على أوكد ما يكون وأغلظه ، وخرج إلى القوم . فقالوا : وراءك ! .

قال : لا ، بل أمامى . تُعطَوْن كتابَ الله . وتُعتبون من كلّ ماسخطتم.

فعرض عليهم ما بذل .

فقالوا: أتضمن ذلك عنه؟

قال : نعم .

قالوا : رضينا . وأقبل أشرافهم ووجوههم مع عليّ ، حتى دخلوا على عثمان وعاتبوه فأعتبهم من كل شىء !

فقالوا اكتبْ بهذا كتابا.

فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبدالله ، عثمان ، أمير المؤمنين ، لمن نَقَم عليه من المؤمنين والمسلمين ، أن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيّه .. يُعطَى المحروم ، ويُؤمّن الخائف ، ويردّ المنفيّ ، ولا يُجمّر فى البعوث ويوفّر الفيء .. وعلى ابن أبى طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين،على عثمان ، بالوفاء بما فى الكتاب !

وشهد على الكتاب : الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد ابن مالك بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت . وسهل ابن حنيف، وأبوأيوب خالد بن زيد ، وكُتب فى ذى القعدة سنة خمس وثلاثين .. وأخذ كل قوم كتابا ، فانصرفوا [1] » .

ونسأل : هل كان عثمان رضى الله عنه يعمل بغير مافى كتاب الله وما فى

(١) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ١١١ .

سنة رسوله ؟ حتى يجدّد للقوم عهداً بذلك ، يستأنف به ما انقطع من سيرة الخليفتين السابقين ؟

إننا نشك فى هذا الكتاب ، وما نراه إلا إحدى الوثائق المزورة ، التى أريد بها إقامةُ الأدلة على انحراف عثمان وإدانته !

ثم يمضى البلاذرى فيذكر ما كان فى هذا المجلس . . يقول :

« ثم قال علىّ بن أبى طالب لعثمان : اخرجْ فتكلمْ كلاماً يسمعُه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على مافى قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك . فلا آمن ركباً آخرين . يقدمون من الكوفة . فتقول : ياعلىّ اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ، ولا أسمع عذراً . ويقدُم ركب آخرون من البصرة . فتقول : ياعلىّ : اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتنى قطعت رحمك ، واستخففت بحقك !

«فخرج عثمان . فخطب الخطبة التى نزع فيها . وأعطى من نفسه التوبة . قال :

«أما بعد .. أيها الناس . فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله . وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكنى منّتْنى نفسى، وكَذَبتْنى، وضلَّ عنى رشدى! وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى فى الهلكة ، إنْ تمادى فى الجور كان أبعدَ من الطريق . وأنا أول من اتعظ.. استغفر الله مما فعلت ، وأتوب إليه ، فمثلى نزع وتاب !

« فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فلْيُرونى رأيهم . فوالله لئن ردّنى الحق عبداً لأستنّنّ بسنة العبد ، ولأذلن ذل العبد ، ولأكونن كالمرقوق . إن مُلِك صبر ، وإن عُتِق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه ... »

قال : فرقّ له القوم يومئذ ، وبكى من بكى منهم ، وقام إليه سعد بن زيد

فقال يأمير المؤمنين ، ليس بواصلٍ لك من ليس معك .. الله الله في نفسك فأتمم على ماقلت .

فلما نزل عثمان .. وجد في منزله مروان ، وسعيداً ، ونفراً من بني أمية ، لم يكونوا شهدوا الخطبة ، فلما جلس ، قال مروان : يأمير المؤمنين . أتكلم أم أصمت ؟

فقالت نائلة بنت الفرافصة ، امرأة عثمان : لا بل اصمت ، فإنهم والله قاتلوه ، ومؤثموه .. إنه قال مقالة ، لا ينبغي له أن ينزع عنها . . فأقبل عليها مروان فقال : ما أنتِ وذاك ! فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ !! فقالت له : مهلا يامروان عن ذكر الآباء ، تخبر عن أبي وهو غائب ، تكذب عليه ، وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه ، أما والله لولا أنه عمه [1] ، وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه مالن أكذب عليه ..!

فأعرض عنها مروان ، ثم قال : يا أمير المؤمنين .. أتكلم أم أصمت ؟ قال : بل تكلم ! فقال مروان :

« بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنتُ أولَ من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلتَ ماقلت حين بلغ الحزام الطُّبْيَيْن ، وخلَّف السيل الزُّبى ، وحين أعطى الخطَّة الذليلةَ الذليلُ ، والله لإقامةٌ على خطيئة تستغفر الله منها ؛ أجمل من توبة تُخوَّف عليها ! وإنك إن شئتَ تقربت بالتوبة ، ولم تُقرر بالخطيئة ، وقد اجتمع عليك مثل الجبال من الناس !

قال عثمان : فاخرجْ إليهم فكلمهم ، فإني أستحيي أن أكلمهم !

فخرج مروان إلى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : « ماشأنكم ؟ قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه ! كل إنسان آخذ بأذن صاحبه ..

---

(١) أي هو عم عثمان .

جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنّا ! أما والله لئن رُمتمونا ليمرّنّ عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غِبّ رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن مغلوبون على ما فى أيدينا !

قال : فرجع الناس ، وخرج بعضهم حتى أتى عليًّا ، فأخبره الخبر ، فجاء علىّ مغضباً حتى دخل على عثمان ، فقال :

«أما رضيتَ من مروان ، ولا رضى منك إلا بتحرّفك عن دينك ، وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة ، يُقاد حيث يسار به ، والله ما مروان بذى رأى فى دينه ، ولا نفسه ، وأيم الله إنّى لأراه سيوردك ثم لا يُصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك .. أذهبَ شرفَك ، وغلبك على أمرك ! »[1]

والتلفيق ظاهر فى هذا الخبر فى أكثر من موضع منه .. فما كان عثمان ليذلّ للناس إلى هذا الحدّ الذى يكاد يكون رياء وملقاً ! وما كان ليشهد على نفسه بما شهد عليها به ، وأنه أتى ما أتى عن علمٍ وتثبت ، لا عن غفلة وسوء تقدير !

ثم كيف لمروان أن يلقى ثورة عارمة ، بهذا التحدّى ، وبهذا الصدّ العنيف والزّجر الزاجر ، ثم لا يفتك الناس به ، ولا يوردونه موارد الردى ؟

إن هذا الخبر إن يكن عن واقع وقع ، فإنه قد حُرّف فيه الكَلِمُ عن مواضعه ، ليأخذ وجهاً آخر ، أريد به التشنيع على الخليفة ، وإلقاء تبعة الأحداث كلها على عاتقه !

وهذا الخبر يرويه شيخ المؤرخين الطبرى ، فيتلقّاه الناس منه ، بالقبول ، والتسليم ، ويعدونه وثيقة محررة ، من وثائق هذه القضية !

---

(١) أنساب الأشراف جزء ٥ .

أخرج الطبرى بسنده إلى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، يذكر مروان بن الحكم .. قال :

« قَبحَ الله مروان .. خرج عثمان إلى الناس ، فأعطاهم الرضا ، وبكى على المنبر ، وبكى الناس ، حتى نظرتُ إلى لحية عثمان مُخْضَلّة من الدموع ، وهو يقول : اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم إنى أتوب إليك ، اللهم إنى أتوب إليك والله لئن ردّنى الحق إلى أن أكون عبدا قِنّا لأرضينّ به .. إذا دخلتُ منزلى فادخلوا علىّ .. فو الله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأُنَحّينّ مروان وذويه ! !

« قال:فلما دخل[1] أمر البابَ ففتح ، ودخل بيته ، ودخل عليه مروان ، فلم يزل يَفْتله فى الذّروة والغارب ، حتى فَتَلَه عن رأيه ، وأزاله عما كان يريد ، فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ماخرج ، استحياء من الناس !

« وخرج مروان إلى الناس فقال : شاهت الوجوه إلاّ من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأمير المؤمنين إليكم حاجة بأحد منكم يرسل إليه ، وإلا قرّ فى بيته .

«قال عبد الرحمن : فجئت إلى علىّ ، فأجده بين القبر والمنبر ، عنده عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، وهما يقولان : صنع مروان بالناس ، وصنع !

قال : فأقبل علىّ علىٌّ ، فقال : أحضرتَ خطبة عثمان ؟ قلت : نعم ؟ قال : أفحضرتَ مقالة مروان للناس ؟ قلت : نعم !

«قال علىّ : عياذَ الله يا المسلمين . . إنى إن قعدت فى بيتى قال لى تركتنى وقرابتى وحقى ؟ وإنى إن تكلمت فجاء مايريد ، يلعب به مروان ، فصار سيقةً له ، يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن ، وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم !

---

(١) أى عثمان .

«قال عبد الرحمن بن الأسود : فلم يَزُل[1] حتى جاء رسول عثمان .. ائتنى ! فقال عليّ بصوت مرتفــع عال مغضَب : قل له ، ما أنا بداخل عليك ولا عائداً »[2] .

ولا ندرى كيف يُقسم عثمان للناس على أنه مُنَحٍّ عنه مروان وذويه ، ثم لا يَبَرّ بهذا القسم ، أو تقف فى وجهه أية قوة تثنيه عن الوفاء بهذا القسم العظيم ؟

حقًّا إنّ عثمان رضى الله عنه قد كبرت سنه ، وضعفت قواه ، فقد كان ـ رضوان الله عليه ـ يومئذ قد شارف الثمانين . . ولـكنّ ذلك إن جعل عثمان يفتر عن أى شىء ، ويغفل عن أى شىء ، فلن يفتر أو يغفل عن قَسَم ، ملأ فمه ذكر الله فيه ، وأشهد الله والناس عليه !

عليّ بن أبى طالب ، وهذه الأحداث :

كان عليّ بن أبى طالب جبهة بارزة فى هذه الأحداث ، وقد رأينا كيف أنه كان يغدو ويروح بين الثوار وبين عثمان . . يريد أن يجمعهم جميعاً على كلمة سواء ، وأن يقطع ما بين الثائرين وبين الخليفة من شقاق وخصام !

وإذا كان لنا أن نشكّ فى الأخبار التى روت هذه الأحداث ، فإننا لا نسقطها جملة ، وإلا لما بقى فى يدنا شىء ننظر فيه ، ونعوّل عليه . . وإنما موقفنا من هذه الروايات هو الحذر والحيطة ، من الأخذ بكل ما جاء فيها .. وحسبنا أن نستشفّ منها بعض الملامح التى تشير إلى خط سير الأحداث ، وتدل على اتجاهها إلى حيث انتهت بمقتل الخليفة ، وذلك هو الحدَث المحقق ، الذى لا شك فيه بين تلك الأحداث كلها !

---

(١) أى لم يترك مكانه .

(٢) الطبرى : جزء ٥ ص ١١٢ .

هذه واحدة !

وأخرى . . هى أن بنى أمية ، كانوا ينظرون إلى علىّ وإلى بنى هاشم خلالَ تلك الأحداث ، نظر شك وارتياب ، بل واتهام !

ولا شك أنهم ألقوا إلى عثمان ، رضى الله عنه ، ببعض ما فى صدورهم من علىّ ، وصوّروا له الأمور على غير ما هى عليه ، فاختلط عليه الرأى فى علىّ . . يُدنيه ويبعده ، ويسمع له ويصدّ عنه ، ويستنصحه ويتهمه !

وعلىّ — كرم الله وجهه — فى حيرة من أمره مع الخليفة . . لا يدرى أيُقبل أم يُدبر ؟ وأيدفع أم يمسك ؟ إنه لا يسلم من اللوم على أى حال يكون ، ولا ينجو من الاتهام فى أى موقف يقفه !

أخرج الطبرىّ بسنده إلى عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس قال : « قد كان علىّ والله له — أى لعثمان — صاحبَ صِدْقٍ ، حتى أوْغر نفسَ علىّ عليه . . جعل مروان ، وسعيد ، وذووهما يحملونه على علىّ ، فيتحمل ، ويقولون : لو شاء ما كلمك أحد ! » وذلك أن علياً كان يكلمه ، وينصحه ، ويغلظ عليه فى المنطق فى مروان وذويه ، فيقولون لعثمان : هكذا يستقبلك ؟ وأنت إمامه وسِلفُه [1] ، وابن عمّه ، وابن عمته ؟ فما ظنك بما غاب عنك منه ؟ فلم يزالوا بعلىّ حتى أجمع ألا يقوم دونه . » [2]

ويحدث الطبرى فى موضع آخر فيقول : إن عثمان صعد يوم الجمعة المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقام رجل فقال : أقم كتاب الله ، فقال عثمان : اجلس فجلس ، حتى قام ثلاثاً ، فأمر به عثمان فجلس ، فتحاثوْا بالحصباء ، حتى ما تُرى السماء ، وسقط عن المنبر ، وحُمل ، فأُدخل داره مغشياً عليه ، فخرج رجل من

---

(١) تسالف الرجلان تزوج كل منهما أخت زوجة الآخر .

(٢) الطبرى جزء ٤ ص ١٣٩ .

حجاب عثمان ، ومعه مصحف فى يده وهو ينادى : « إن الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله » .

ودخل علىّ بن أبى طالب على عثمان وهو مغشىّ عليه ، وبنوأميّة حوله ، فقال : مالك ياأمير المؤمنين ؟ فأقبلت بنوأمية بمنطق واحد فقالوا : ياعلىّ ، أهلكتنا ، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين ! ! أما والله لئن بلَغْتَ الذى تريد ، لنُمِرّنّ عليك الدنيا ، فقام على مغضباً »[1]

وأخرج الطبرى فى حديث آخر ، قال : كتب أهل مصر بالمدينة إلى عثمان ، يدعونه إلى التوبة ، ويحتجّون له ، ويقسمون بالله لايمسكون عنه أبداً، أو يعطيَهم مايلزمهم من حق الله ، فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته ، فقال لهم : قد صنع القوم ما رأيتم فما المخرج ؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى علىّ ابن أبى طالب ، فيطلب إليه أن يردّهم عنه ، ويعطيهم مايرضيهم ، ليطاولهم حتى يأتيه أمداده !

«فقال : إن القوم لن يقبلوا التعليل ، وهم محمّلىّ عهداً ، وقد كان منى فى قَدْمتهم الأولى ما كان ، فتى أعطهم ذلك يسألونى الوفاء به !!

«فقال مروان بن الحكم : يا أمير المؤمنين.. مقاربتهم حتى تقوى،أ مَثلُ من مكاثرتهم على القرب ، فأعطهمْ ماسألوك وطاولهم ماطاولوك ، فإنما هم بغَوْا عليك فلا عهد لهم !

فأرسل إلى علىّ ، فدعاه ، فلما جاءه قال :

«يا أبا حسن ، إنه قد كان من الناس ماقد رأيت ، وكان منى ماقد علمت ، ولست آمنهم على قتلى، فارددهم عنّى، فإن لهم الله عزّوجل أن أُعتِبَهم[2] من كل

---

(١) الطبرى جزء ٤ ص ١١٣ .

(٢) أعتبه : أرضاه ، وأزال ماعتب عليه منه .

ما يكرهون ، وأن أعطيَهم من نفسى ومن غيرى ، وإن كان فى ذلك سفك دمى ! !

«فقال له على : الناس إلى عدلك أحوجُ منهم إلى قتلك . . وإنى لأرى القوم لا يرضَوْن إلا بالرضا ، وقد كنتَ أعطيتَهم فى قدمتهم الأولى عهدا من الله لترجِعَنّ عن جميع ما نقموا ، فرددتُهم عنك، ثم لم تفِ لهم بشىء من ذلك ! فلا تغرّنىّ هذه المرة من شىء ، فإنى معطيهم عليك الحق .

«قال : نعم ، فأعطهم ، فو الله لأفينّ لهم .

«فخرج علىّ إلى الناس فقال : أيها الناس . . إنكم إنما طلبتم الحق ، فقد أُعطيتموه . . إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ، ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه ، ووكّدوا عليه !

«قال الناس : قد قبلنا ، فاستوثقْ منه لنا ، فإنا والله لا نرضى بقولٍ دون فعل !

فقال لهم علىّ : ذلك لكم . . ثم دخل عليه فأخبره الخبر .

«فقال عثمان : اضربْ بينى وبينهم أجلا ، يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على ردّ مايكرهون فى يوم واحد .

قال علىّ : ماحضر بالمدينة فلا أجَلَ فيه ، وما غاب فأجَلُه وصولُ أمرك .

قال : نعم ، أجّلنى فى ما بالمدينة ثلاثة أيام .

قال علىّ : نعم !

«فخرج إلى الناس ، فأخبرهم بذلك ، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً ، أجّله فيه ثلاثاً ، على أن يردّ كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه ، ثم أخذ عليه فى الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، من عهد وميثاق ، وأشهد عليه

ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار ، فكفّ المسلمون عنه ، ورجعوا ، إلى أن يفى لهم بما أعطاهم من نفسه !

«فجعل يتأهب للقتال ، ويستعد بالسلاح ، وكان قد اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخمس !

فلما مضت الأيام الثلاثة ، وهو على حاله لم يغير شيئاً مما كرهوه ، ولم يعزل عاملاً ، ثار به الناس ، وخرج عمرو بن حزم الأنصارى حتى أتى المصريين وهم بذى خُشُب ، فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة .. فأرسلوا إلى عثمان من يقول له :

ألم نفارقك على أنك تائب من أحداثك ، وراجع عما كرهنا منك ؟ وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه ؟

قال بلى ، أنا على ذلك !

قالوا : فما هذا الكتاب الذى وجدنا مع رسولك ، وكُتب به إلى عاملك ؟[1]

قال : ما فعلتُ ، ولا لى علم بما تقولون !

قالوا : بريدك على جملك ، وكتاب كاتبك عليه خاتمك !

قال : أما الجمل فمسروق ، وقد يشبه الخطُّ الخطَّ ، وأما الخاتم فقد انتقش عليه !

قالوا : فإنا لا نعجل عليك ، وإن كنا قد اتهمناك .. اعزل عنا عمالك الفساق ، واستعمل علينا من لا يتّهم على دمائنا وأموالنا ، واردد علينا مظالمنا !

---

(١) هذا كتاب آخر غير الكتاب الذى يقال إنه بعث به على أثر توليته محمد ابن أبى بكر على مصر . وفى هذا الكتاب أمر من الخليفة عثمان إلى عامله بمصر أن يضرب رقاب عدة من رؤساء المصريين .

قال : ما أرانى إذن فى شىء ! إن كنت أستعمل من هَوِيتم ، وأعزل من كرهتم .. الأمر إذن لـكم ! ! ؟

قالوا : والله لتفعلَنَّ ، أو لتعزَلَنَّ ، أو لتُقتَلنّ ، فانظر لنفسك أو دَعْ . . فأبى عليهم ، وقال : لم أكن لأخلع سربالا سَرْبلنى الله . »[1]

لقد أدارت الأحداث رءوس الناس ، فلا يدرى أحد ماذا يأخذ أو يدع فى هذه العاصفة الهوجاء ! وإذا ساغ لأحد أن يعطى هذه الأحداث ظهره ، ويُصمّ عنها أذنه ، ويمسك فيها يده ولسانه ، فلن يسوغ ذلك لأصحاب رسول الله ، الذين أقاموا هذا الدين ، وآثروه على أنفسهم وأهليهم ، بالبذل والفداء .

وعلىّ كرم الله وجهه هو مركز الدائرة ، وقطب الرّحى فى هذا الموقف المتأزم ، ترتفع إليه العيون من كل صوب ، وتدور حوله الأحاديث فى كل مدار . .

فإذا تحرك ، قالوا : لِمَ تحرك ؟ وإلى أين يريد ؟

وإذا سكن ، قالوا : لم سكن ؟ وماذا وراء سكونه ؟

وإذا التقى بعثمان اتهمه الثائرون !

وإذا تحدث إلى الثائرين اتهمه أشـــياع عثمان ، وأفسدوا ما بينه وبين عثمان !

لقد كان عثمان محصوراً ، يضيّق عليه الثائرون الدائرة يوماً بعد يوم ، وكان علىّ فى حصار أشد من حصار عثمان ، يزداد مع الأيام إحكاماً وضيقاً!! يخذله لسانه إن تـكلم ، وتتخاذل قدماه ، إن أراد أن يتقدم أو يتأخر .

وإذا كان كل صحابى قد حمل نصيباً من هذا الهمّ الثقيل ، فإن نصيب

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١١٢ .

الإمام عليّ كان فى تلك المحنة أكبر نصيب وأفدحه .. وكذلك كان بنو هاشم جميعاً ! بل إن الأمر تجاوزهم إلى من كان مضافا إليهم ، ومعدودا منهم ، كعمار ابن ياسر ، الذى أوذى فى تلك المحنة أذى شديداً ، ثم مازالت الأحداث تدفع به ، حتى قتل شهيداً فى معركة صفّين !

يحدث ابن قتيبة .. فيقول :

« ذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سُنة صاحبيه ، وما كان من هِبَتِه خُمسَ إفريقية لمروان ، وفيه حق الله ورسوله ، وذوى القربى واليتامى والمساكين. وما كان من تطاوله فى البنيان ، حتى عدُّوا سبع دور بناها فى المدينة ، داراً لنائلة (زوجه) وداراً لعائشة (ابنته) وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصورَ بذى خُشُب ، وعمارة الأموال بها ، من الخمس الواجب لله ولرسوله ، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه ، من بنى أُمية ، وهم أحداث وأغليمة لاصحبة ، لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة ، إذ صلّي بهم الصبح وهو أمير عليها ، سكران . أربع ركعات ، ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم صلاة زدتكم ! ! وتعطيله إقامة الحدّ عليه . . وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والأنصار ، لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم ، واستغنى برايه عن رأيهم . . وما كان من الحِمَى ، الذى حَمَى حول المدينة ...

قال : « ثم تعاهد القوم ليدفعُنّ الكتاب فى يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر ، والمقداد بن الأسود [1] وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان ، والكتاب فى يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار ، حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان ، فاستأذن عليه

---

(١) وفى رواية البلاذرى أن طلحة والزبير كانا بين من شهدوا هذا الكتاب .

فأذن فى يوم شاتٍ ، فدخل عليه ، وعنده مروان بن الحكم ، وأهله من بنى أمية ، فدفع إليه الكتاب فقرأه ، فقال له :

أنت كتبت هذا الكتاب ؟

قال : نعم !

قال : ومن كان معك ؟

قال : كان معى نفر تفرقوا فَرَقاً منك !

قال : من هم ؟

قال : لا أخبرك بهم !

قال : فلم : اجترأت علىّ من بينهم ؟

فقال مروان : يا أمير المؤمنين : « إن هذا العبد الأسود (يعنى عمارا) قد جرّأ عليك الناس ، وإنك إن قتلته ، نَكّلتَ به مَن وراءه !

قال عثمان : اضربوه !!

فضربوه ، وضربه عثمان معهم .. حتى فتقوا بطنه . فغُشِىَ عليه ، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار !!

فأمرت به أم سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأُدخل منزلها .![1] »

وفى رواية البلاذرى ، أن عثمان حين قرأ الكتاب : قال لعمار :

أعلىّ تُقدم من بينهم ؟

قال عمار : إنى أنصحهم لك .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٤١

فقالى : كذبتَ يابن سميّة !

فقال : أنا والله ابن سميّة ، وابن ياسر !

فأمر غلمانه ، فمدّوا بيديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه وهما فى الخفّين على مذاكيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفاً كبيراً ، فغشى عليه![1] » .

وليس هذا أول موقف يقفه عمار من تلك الأحـداث ، ومن مراجعة الخليفة ، فيما يرى مراجعته منها .

فمن ذلك ، أنه حين بلغ عثمانَ موتُ أبى ذرّ بالربذة ، قال : رحمه الله ، فقال عمار : نعم فرحمه الله من كل أنفسنا ! ! فنهره عثمان وشتمه ، وأمر به فدُفع فى قفاه ، وقال الحقْ بمكانه[2] .. فلما تهيأ للخروج ، جاءت بنو مخزوم إلى علىّ : فسألوه أن يكلم عثمان فيه .

فقال له علىّ :

يا عثمان : اتق الله ، فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك فى تسييرك (يعنى أبا ذر) .. ثم أنت الآن تريد أن تنفى نظيره ! !

وجرى بينهما كلام ، حتى قال عثمان : أنت أحق بالنفى منه ! !

فقال على : رُم ذلك إن شئت !

واجتمع المهاجرون فقالوا : كلما كلمك رجل سيّرته ، ونفيته ؟ فإن هذا شىء لايسوغ ! فكفّ عن عمار[3] .

---

(١) الأنساب جزء ٥ ص ٤٩

(٢) يريد أن ينفى حيث نفى أبو ذر بالربذة .

(٣) الأنساب . جزء ٥ ص ٥٤

وكان فى بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه فى ذلك ، فكلموه بكلام شديد ، حتى أغضبوه ، فخطب فقال :

« لنأخذَنّ من هذا الفىء ، وإن رَغِمَت أنوف أقوام !! فقال له علىّ : إذن تُمنَع من ذلك ، ويُحال بينك وبينه ! !

وقال عمار ابن ياسر : أشهد الله أنى أنى أول راغم من ذلك !

فقال له عثمان : أعلىّ ياابن المَتْكَاء تجترىء ؟ (١) خذوه ! فأُخذ ، ودخل عثمان ، ودعا به ، فضربه حتى غُشِى عليه ، ثم أُخرج فحُمل حتى أُتى به منزل أم سلمة ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يصلّ الظهر والعصر ، والمغرب ، فلما أفاق توضأ وصلى ، وقال : الحمد لله .. ليس هذا أول يوم أوذينا فيه فى الله ! . .

وبلغ عائشة ما صُنع بِعمّار ، فغضبت ، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثوبا من ثيابه ، ونعلا من نعاله ، ثم قالت :

« ما أسرع ما تركتم سنّة نبيكم ، وهذا شَعره ، وثوبه ، ونعله لم يبلَ بعد ! !

فغضب عثمان غضباً شديداً ، حتى ما درى ما يقول ، فالْتجّ المسجد ، وقال الناس : سبحان الله ! سبحان الله ! !

وكان عمرو بن العاص واجداً على عثمان لعزله إياه عن مصر ، وتوليته إياها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فجعل يكثر التعجب والتسبيح !! »

---

(١) المتكاء : العظيمة البطن .

وكان لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها صوتُها المسموع فى تلك الأحداث . فقد كانت لمكانتها فى المسلمين ، ومنزلتها عند رسول الله ، وعند صاحبيه أبى بكر وعمر ــ بحيث لا يكاد يحزب الناسَ أمر إلا سعَوْا إليها ، وطلبوا عندها الرأى والنصح !

فلما وقعت تلك الفتنة ، كان لها رأيها فى كل حدث ، وجوابها فى كل مسألة . !

ذكر اليعقوبى فى تاريخه ، أنه بينما كان عثمان يخطب ، إذ دلّت عائشة قميص رسول الله ، ونادت : « يامعشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يَبْلَ ، وقد أبلى عثمان سنّته » ! فقال عثمان : « ربّ اصرف عنى كيدهن ، إن كيدهن عظيم »[1] .

وقال ابن أعثم : « ولما رأت أم المؤمنين اتفاق الناس على قتل عثمان قالت له :

« أى عثمان . خصصت بيت مال المسلمين لنفسك ، وأطلقت أيدى بنى أمية على أموال المسلمين : ووليتهم البلاد ، وتركت أمة محمد فى ضيق وعسر.. قطع الله عنك بركات السماء ، وحرمك خيرات الأرض ، ولولا أنك تصلى الخمس لنحروك كما تُنحر الإبل ! ! » .

فقرأ عليها عثمان[2] : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين[3] » :

---

(١) تاريخ اليعقوبى جزء ٢ ص ١٧٥

(٢) التحريم : آية ١٠ .

(٣) تاريخ ابن أعثم . ص ١٥٥

لقد فسد الأمر بين عثمان وبين عائشة، وكان ذلك من الأسباب القوية التى جرأت الناس على عثمان، وأغرت به من كان يوقّر الخليفة، ويخشى سلطانه!

وهناك قولة أطلقتها أم المؤمنين فى عثمان، فى موقف من مواقفها الثائرة معه .. فقالت: «اقتلوا نَعْثَلاً، فقد كفر!![1]» قالتها كلمةً عابرة .. جرت على لسانها، غير قاصدة أن تصيب بها من عثمان مقتلا ..!

ولكن ما إن تلقتها الأسماع حتى كان لها دوىّ ملأ المدينة وما حولها، ثم فاض حتى بلغ الأمصار. ثم اشتد الحصار على عثمان، وبان للناس أنه قد فُرِغ من أمره، فتهيأت عائشة للحج، ووقع فى شعور الناس أنها خرجت لتخلىّ بينهم وبين عثمان. ليروْا رأيهم فيه!

وحين رأى عثمان ذلك بعث مروان بالحكم، وعبد الرحمن بن عتّاب ابن أسيد، فقالا لها: «لو أقمتِ! فلعلّ الله يدفع بك عن هذا الرجل!..

فقالت عائشة: قد قَرَنتُ ركائبى، وأوجبتُ الحج على نفسى، ووالله لاأفعل!

فنهض مروان وصاحبه، وهو يقول:

وحرّق قيسٌ علىّ البلاد فلما أن اضطرمت أحجما

فقالت عائشة: يامروان .. ألعلك ترى أنى فى شك من صاحبك؟ ووالله لوددت أنه فى غِرارة من غرائرى هذه، وأنى طُوّقت حَمْله حتى ألقيه فى البحر!

وكان ابن عباس أميراً على الحج، فالتقت به عائشة فى بعض الطريق، فقالت له: يابن عباس .. إياك أن تردّ عن هذا الطاغية، وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ، وقد

---

(١) نعثل: يهودى بالمدينة، شبهت عثمان به!!
والنعثل فى اللغة: الشيخ الأحمر، أو الذكر من الضباع!!

رأيتَ طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . . فإن يَلِ يسرْ بسيرة ابن عمه أبى بكر !

قال ابن عباس : يا أمّه .. لو حدث بالرجل حدث ما فزِع الناس إلا إلى صاحبنا (يعنى عليا) !!

فقالت : إيهاً عنك .. إنى لست أريد مكابرتك ، ولا مجادلتك .[1] »

وموقف أم المؤمنين عائشة — كما تحدّث به الأخبار — فيما كان منها نحو عثمان ، يلقى عليها الجانب الأكبر فى قتل الخليفة ، واستباحة دمه !

ولكنا لا نقبل هذه الأخبار كلها ، ولا نسلّم بها جميعاً ، كما أننا لا نردها كلها ، ولا نشجبها جميعها ، وإنما نأخذ منها شاهداً على أن السيدة عائشة لم تكن من المدافعين عن عثمان ، أو الراضين عنه ، وخاصة فى تلك الأيام الأخيرة من خلافته !

الحصار والقتل :

نحن الآن فى الأيام الأخيرة من خلافة عثمان . .

المدينة ثورة مشتعلة ... فى كل بيت ، وفى كل مجتمع ، وفى كل نفس !

وصحابة رسول الله ، من المهاجرين والأنصار ، لا يجمعهم رأى ، ولا يجتمع لهم شمل . قد فرقت بينهم هذه الأمواج المادرة من زحوف مصر والكوفة !

فهذا الاشتر النخعى يقدُم بألف رجل من أهل الكوفة .

وهذا محمد بن أبى حذيفة يجىء ومعه أربعمائة رجل من مصر .

فتضاف هذه الأعداد إلى تلك الجموع التى أجلب بها الثائرون من قبل، فى دفَعاتٍ متتابعة !

---

(١) الطبرى جزء ١ ص ١٤٠

وتلاقت هذه الجموع عند بيت عثمان ، وسدّت الطرق والمسالك إليه ، لا يستطيع أحدٌ أن يدخل إليه أو يخرج !

وكان طلحة بن عبيدالله قد استولى على بيت المال ، ووضع مفاتيحه فى يده ! فاجتمع إليه الناس ، والتفوا حوله !

قالوا : ولما رأى عثمان ، استيلاء طلحة على بيوت الأموال واشتداد الحصار عليه ، بعث عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب بهـذا البيت إلى علىّ:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرآكلى وإلا فأدركنى ولما أمزّقِ

وكان علىّ عند حصر عثمان ، قد استأذن فى الخروج إلى خيبر ، فأذن له! فلما جاء كتاب عثمان قدم المدينة ، والناس مجتمعون عند طلحة ، وكان ممن له فيه أثر[1] ، فلما التقى علىّ بعثمان ، قال له عثمان :

أما بعد ، فإن لى حقّ الإسلام . وحق الإخاء ، والقرابة . والصهر ، ولو لم يكن من ذلك شىء ، وكنا فى الجاهلية ، لكان عاراً على بنى عبدمناف أن ينتزع أخو بنى تيم — يعنى طلحة — أمرهم !! » .

فقال له على : سيأتيك الخبر . . !

ثم خرج إلى المسجد ، فرأى أسامة ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى رِجَاس[2] من الناس فقال له :

ياطلحة .. ماهذا الأمر الذى وقعتَ فيه !

فقال : ياأبا الحسن .. بعد ماسّ الحزام الطبيين ! !

---

(١) أى إن طلحة كان له أثر فى تهييج الناس على عثمان .

(٢) رجاس : أى مليئة بالناس ، يكثر فيها صياحهم

فانصرف علىّ ، ولم يَحرِ إليه شيئاً ، حتى أتى إلى بيت المال . . فقال : افتحوا هذا الباب،فلم يعثر على المفاتيح، فقال : اكسروه ، فكسروا باب بيت المال ، فقال : أخرجوا المال ، فجعل يعطى الناس ، فبلغ الذين فى دار طلحة ماصنع علىّ ، فجعلوا يتسللون إليه ، حتى تُرك طلحة وحده . وبلغ عثمان الخبر ، فسُرَّ بذلك . . ثم أقبل طلحة يمشى عائداً إلى دار عثمان ، فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين . . أستغفر الله ، وأتوب إليه . . أردت أمراً فحال الله بينى وبينه . . فقال عثمان : إنك والله ماجئت تائباً ، ولكنك جئت مغلوباً . . الله حسيبك ! ! »

وروى الطبرى ، قال : فحصروه أربعين ليلة ، وطلحة يصلّى بالناس . »[1]

وروى البلاذرى ، أنه لم يكن أحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أشدّ على عثمان من طلحة »[2]

وقال : كان الزبير وطلحة قد استوليا على الأمر ، ومنع طلحة عثمان أن يدخل عليه الماء العذب ، فأرسل علىّ إلى طلحة ، وهو فى أرض له على ميل من المدينة : أن دع الرجل يشرب من مائه ، ومن بئره ، ولا تقتلوه من العطش ، فأبى ! »[3]

وقال : مرّ مجمّع بن جارية الأنصارى بطلحة بن عبيد الله ، فقال طلحة : يامجمّع : مافعل صاحبك ؟

قال : أظنكم والله قاتليه !

---

(١) الطبرى جزء ٢ ص ١١٧ .

(٢) الأنساب جزء ٨ ص ٨١ .

(٣) الأنساب جزء ٨ ص ٩١ .

فقال طلحة : إن قُتل ، فلامَلَك مقرّب ، ولا نبيّ مرسل! »[١]

وروى الطبرى ، عن عبد الله بن عباس ابن أبى ربيعة قال : دخلت على عثمان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم أخذ بيدى ، فأسمعنى كلام مَن على بابه ، فإذا منهم من يقول : ماتنتظرون به ؟ ومنهم من يقول : انظروا عسى أن يراجع! فبينا أنا وهو واقفان ، إذ مرّ طلحة بن عبيد الله ، فوقف فقال : أين ابن عديس[٢] ؟

فقيل : هاهوذا .

قال : فجاءه ابن عديس ، فناجاه بشىء ، ثم رجع ابن عديس ، فقال لأصحابه : لاتتركوا أحدًا يدخل على هذا الرجل أو يخرج من عنده . . فقال عثمان : « اللهم اكفنى طلحة بن عبيد الله ، فإنه حمل علىّ هؤلاء ، وألبّهم ، والله إنى لأرجو أن يكون منها صفراً ، وأن يسفك دمه . . إنه انتهك منى مالا يحلّ له . » [٣]

وذكروا أن عثمان لما مُنع الماء صعد على القصر ، واستوى فى أعلاه ، ثم نادى : أين طلحة ؟ فأتاه ، فقال : ياطلحة .. أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودى ، لايسقى أحداً من الناس قطرة منها إلا بثمن . . فاشتريتُها بأربعين ألفاً ، فجعلت رِشائى فيها كرشاء رجل من المسلمين . . لم أستأثر عليهم ؟ قال : نعم !

قال : فهل تعلم أن أحداً يُمنع أن يشرب منها اليوم غيرى ؟ لم ذلك ؟

---

(١) الأنساب جزء ٥ ص ٧٤ .

(٢) ابن عديس هو أحد رؤساء الثائرين على عثمان وكان على رأس جماعة من المصريين . وقد شارك فى حصار عثمان ، وفى قتله .

(٣) الطبرى : جزء ٥ ص ١٢٤ .

قال : لأنك بدّلت ، وغيرت !

قال . فهل تعلم أن رسول الله قال : من اشترى هذا البيت وزاده فى المسجد فله به الجنة ، فاشتريته بعشرين ألفاً وأدخلته المسجد ؟

قال طلحة : نعم !

قال : فهل تعلم اليوم أحداً يُمنع فيه من الصلاة غيرى ؟

قال : لا !

قال : لم ؟

قال : لأنك غيرّت وبدلت !

ثم انصرف عثمان ، وأرسل إلى علىّ ، يخبره أنه مُنع من الماء ، ويستغيث به ، فبعث إليه علىّ ثلاث قرب ، مملوءة ماء .. فما كادت تصل إليه !

فقال طلحة لعلىّ : ما أنت وهذا ؟ وكان بينهما فى ذلك كلام شديد »[1]

وجاءت الأخبار للذين أحاطوا ببيت عثمان ، أن معاوية بعث من الشام يزيدَ بن أسيد فى أربعة آلاف فارس من أهل الشام ، للدفاع عن عثمان .. وكان مع عثمان فى الدار نحو مائة رجل ينصرونه ، منهم مروان بن الحكم ، وعبد الله ابن الزبير ، والحسن بن على ، وعبد الله بن سلام ، وأبوهريرة .

فلما سمع القوم إقبال أهل الشام ، قاموا فألهبوا النار بباب عثمان ، فلما نظر أهل الدار إلى النار ، نصبوا للقتال ، وتهيئوا ، فكَرِه ذلك عثمان ، وقال : لا أريد أن تهراق فىّ مِحجمة دم ! وقال لجميع من فى الدار : أنتم فى حِلّ من بيعتى ، لاأحب أن يُقتل فىّ أحد !

---

(١) الإمامة والسياسة : جزء ٢ ص ٣٨

وكان فى القوم عبد الله بن عمر ، فقال يا أمير المؤمنين ، مع من تأمرنى أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك ؟ قال : عليك بلزوم الجماعة ، قال : فإن كانت الجماعة هى التى تَغلب عليك ؟

قال : عليك بلزوم الجماعة حيث كانت !

ثم دخل عليه الحسن بن علىّ ، فقال : مُرْنى بما شئت ، فإنى طوع يديك ! فقال له : ارجع يا ابن أخى ، اجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره !

ثم دخل عليه أبو هريرة متقلداً سيفه ، فقال : طاب الضِّراب يا أمير المؤمنين ! قد قتلوا منا رجلا ، وقد ألهبوا النار ! فقال عثمان : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا ألقيت سيفك .. قال أبو هريرة : فألقيته فلا أدرى من أخذه !

ثم دخل عليه المغيرة بن شعبة فقال : يا أمير المؤمنين .. إن هؤلاء قد اجتمعوا عليك ، فإن أحببت فالحقْ بمكة ، وإن أحببت أن نخرِق لك باباً من الدار فتلحق بالشام ، ففيها معاوية وأنصارك من أهل الشام ، وإن أبيت فاخرج ونخرج ونحاكم القوم إلى الله تعالى !

فقال عثمان : أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يُلحد بمكة رجل من قريش ، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن ، فلن أكون ذلك الرجل إن شـــاء الله ! ! وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام، فإن المدينة دار هجرتى ، وجوار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا حاجة لى فى الخروج من دار هجرتى . . وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى كتاب الله ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بإهراق الدم . . ثم قال : إنى رأيت أبا بكر وعمر أتيانى الليلة فقالا لى : صمْ ، فإنك مفطر عندنا الليلة ، وإنى أصبحت صائماً . . وإنى أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إلاّ خرج من الدار سالماً !

فقالوا : إنا إن خرجنا لم نأمن على أنفسنا منهم . فأذنْ لنا . فنكونَ فى موضع من الدار . !

قالوا : وبعث علىّ بابنيه الحسن والحسين . وقال لهما : اذهبا بسيفكما ، حتى تقوما على باب عثمان ، ولا تَدَعَا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه على كُره ، وبعث طلحة ابنه على كُره كذلك ، وبعث عِدّة من أصحاب النبى أبناءهم ، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان ، ويسألونه أن يُخرج مروان ! فأشرف عليهم عثمان من القصر فقال .

« يامعشر المسلمين : أذكركم الله .. ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلب دار بنى فلان ، ليوسع بها المسلمين فى مسجدهم ، فاشتريتها من خالص مالى ، وأنتم اليوم تمنعوننى أن أصلّى فيه ؟ أذكركم الله يامعشر المسلمين : ألستم تعلمون أن بئر رومة كانت تباع القربة منها بدرهم فاشتريتها من خالص مالى ، فجعلت رشائى كرشاء واحد من المسلمين ، وأنتم تمنعوننى من مائها ، حتى أننى ما أفطر إلا على ماء البحر ؟ .

«ألستم تعلمون أنكم نقمتم علىّ أشياء ، فاستغفرت الله . وتبت إليه منها ؟ وتزعمون أنى غيّرت وبدلت ، فابعثوا عَلَىّ شاهدين مسلمين .. وإلا فأحلف بالله الذى لا إله إلا هو ، ما كتبت الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا اطلعت عليه . « وياقومِ لا يجرمنَّكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قومَ نوح أو قوم هودٍ أو قوم صالح ! » .

« ياقوم . . لا تقتلونى ، فإنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا : وشبّك بين أصابعه . .

« ياقوم .. إن الله رضى لكم السمع والطاعة ، وحذّركم المعصية والفرقة ، فاقبلوا نصيحة الله ، واحذروا عقابه . .

ثم قال : « وإنى أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم يدعوننى إلى كتاب الله تعالى والحق ، فلما عُرض عليهم الحق رغبوا عنه ، وتركوه .. وطال عليهم عمرى ، واستعجلوا القَدَر بى ، وقد كانوا كتبوا إليهم أنهم قد رضوا بالذى أعطيتهم ، ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئاً ! وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود وترك المظالم ، وردّها إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، وقالوا : يُؤمّر عمرو بن العاص ، وعبد الله بن قيس ، ومثلهما من ذوى القوة والأمانة ، وكلٌّ فعلت .. فلم يرضوا ، وحالوا بينى وبين المسجد ، فابتزّوا ماقدروا عليه بالمدينة..وهم يخيروننى بين إحدى ثلاث : إمّا القَوَد بكلّ رَجُلٍ أصبتُ خطأ أو عمداً ، وإما أن أعتزل عن الأمر ، فيؤمروا أحداً ، وإما أن يرسلوا إلَى مَن طاعهم من الجنود وأهل الأمصار ، فأرسلوا إليكم : فأتيتم لتبتزوننى مِن الذى جعل الله لى عليكم من السمع والطاعة ، فسمعتم منهم ، وأطعتموهم ، والطاعة لى عليكم دونهم .. فقلت لهم : أما إقادة من نفسى ، فقد كان قبلى خلفاء ، ومن يتولّى السلطانَ يخطئ ويصيب ، فلم يستقد منهم أحد ، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نفسى .

وأما أن أتبرأ من الأمر ، فإن يصلبوننى أحب إلىّ مِن أن أتبرأ من جُنّة الله تعالى وخلافته ، بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى : ياعثمان إن الله تعالى سيقمصك قميصاً بعدى ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقانى .. »[1]

لم يكن ليدوم الأمر على تلك الحال طويلا .. فلقد دارت الأحداث دورتها ، وبلغت غايتها ، فإما أن تتحطمّ أو تُحطّم !

فالنار مشتعلة بباب عثمان .. لايستطيع أحد أن يدخل أو يخرج !

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ، جزء ١ ص ٤٣ ، ٤٤ .

وقائدو الفتنة يغدون ويروحون ، بين الناس ، يُلقون إليهم بالوعد وبالوعيد ، ويشدّونهم شداً إلى ميدان المعركة !

والمحصورون فى الدار قد استيأسوا من أن يدفعوا هذا الخطر المحدق بهم ، والمطل عليهم من كل جانب ، يتوقعون الانفجار الهائل بين لحظة وأخرى !

ووسط هذا الاضطراب السائد ، تتعالى الصيحات من كل مكان ، تحمل إلى من فى الدار نذر التهديد والوعيد ، وتنطلق السهام ، بلا حساب ؛ تعلن بدء المعركة ، ونهاية الصراع .

وقد أصيب الحسن بن على بسهم طائش من تلك السهام المنطلقة ، فشجّه وخضب وجهه بالدم . وخُضب محمد بن طلحة من سهم كذلك ، وشُجّ قنبر ، مولى علىّ .

إذن ، فالأمر جدّ ، لاهزل فيه .

لقد أريقت الدماء . . وأصبح الطريق إلى دم الخليفة مفتوحاً ، ليس بين الثائرين وبينه حائل . !

ذكروا أن محمد بن أبى بكر — وكان على رأس الثائرين — حين رأى ما أصاب الحسن بن علىّ ، أخذ بيد رجلين ، وقال لهما : إن جاء بنو هاشم ، ورأوا الدماء على وجه الحسن كشفوا الناس عن عثمان ، وبطل ما تريدون ! ولكن قوموا فنتسوّر عليه ، ونقتله من غير أن يعلم أحد !

فتسوّر هو وصاحباه من دار رجل من الأنصار ، حتى دخلوا على عثمان ، وما يعلم أحد ممن كان معه ، لأن كل من فى الدار كانوا فوق البيت ، ولم يكن معه إلا امرأته !

فدخل عليه محمد بن أبى بكر فصرعه ، وقعد على صدره ، وأخذ بلحيته ،

وقال : يانعثل ، ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك بن عامر بن أبى سرح !

فقال له عثمان : لو رآنى أبوك رضى الله عنه لبكانى ، ولساءه مكانك منى !

فتراخت يده عنه ، وقام عنه وخرج !

ودعا عثمان بوضوء فتوضأ ، وأخذ مصحفاً فوضعه فى حجره ، ليتحرّم به !

ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بِمِشْقَص[1] فى يده فوجأ به منكبه ، مما يلى الترقوة ، فأدماه ، ونضح الدم على ذلك المصحف .

وجاء آخر فضربه برجله !

وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه ، فغشى عليه .

ومحمد بن أبى بكر ، لم يدخل مع هؤلاء .

فتصايح نساؤه ، ورُشَّ الماء على وجهه فأفاق !

فدخل محمد بن أبى بكر ، وقد أفاق ، فقال له : أى نعثل .. غيّرت ، وبدّلت ، وفعلت !

ثم دخل رجل من أهل مصر ، فأخذ بلحيته ، فنتف منها خصلة ، وسلّ سيفه ، وقال : افرجوا لى ، فملاه بالسيف ، فتلقاه عثمان بيده ، فقطعها ، فقال عثمان : أما والله إنها أول يد خطّت المفصّل ، وكتبت القرآن !

ثم دخل رجل أزرق قصير مجدّر ، ومعه جُرُزٌ[2] من حديد ، فمشى إليه ، فقال : على أية ملة أنت يانعثل ؟

فقال : لست بنعثل ، ولكنى عثمان بن عفّان ، وأنا على ملة إبراهيم ، حنيفا وما كان من المشركين !

قال : كذبت ! وضربه بالجرز على صدغه الأيسر ، فغسله بالدم ، وخرّ على وجهه ، وحالت نائلة بنت الفراصة بينه وبينه ، وكان جسيمة ، وألقت

---

(١) المشقص : نصل عريض . (٢) الجرز . عمود من حديد .

بنت شيبة نفسها عليه . ودخل عليه رجل من أهل مصر ، ومعه سيف مُصْلت فقال والله لأقطعن أنفه ، فعالج امرأته عنه ، فكشف عنها درعها ، فلما لم يصل إليه ، أدخل السيف بين قرطها ومنكبها ، فضربت على السيف فقطع أناملها .

ثم دخل آخر معه سيف ، فقال : أفرجوا لى ، فوضع ذُباب السيف فى بطن عثمان ، فأمسكت نائلة السيف فحزّ أصابعها ، ومضى السيف فى بطن عثمان فقتله !

فخرجت امرأته وهى تصيح ، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا ! »[1]

لقد قتل الخليفة ، عثمان بن عفّان ، ولكن لا على تلك الصورة التى يرويها المؤرخون .. فما كان عثمان فى كبر سنه وضعفه ليصبر على هذه الضربات المتتابعة، ولتلك السيوف ، يُضرب بها مرة ومرة حتى تزهق روحه !

والشىء الأقرب إلى التصور فى هذا الموقف ، هو أن أكثر من واحد دخلوا عليه ، وضربوه ضربة رجل واحد ، فقتلوه !

أما أن تدور المعركة على تلك الصورة التى صورها المؤرخون ، فهو أمر بعيد عن التصور .. إذ كيف لا يخف من فى الدار لنجدة الخليفة ، خلال هذا الصراع الذى طال أمده ، بين واحد يضربه بمشقص ، ثم يمضى ، ويجىء آخر فيمسك بلحيته ، وينزع منها شيئاً ثم يمضى ، ويجىء ثالث فيضربه بسيف يقطع يده ثم يمضى ، ويجىء رابع ، وخامس ، وسادس .. وهكذا .. ألاَ أحد ممن فى الدار يتنبه لهذا ، أو ينبّه إليه ؟

ولعل أقرب الروايات إلى الواقع مارواه البلاذرى ، من أن محمد بن أبى بكر تسوّر على عثمان الدار هو ورجلان معه ، ثم قال لهما : إذا أنا ضبطته ، فاوجآه ،

---

(١) انظر الإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٤٣ — ٤٤

حتى تقتلاه ، فدخل محمد بن أبي بكر ، فأخذ بلحيته ، فقال عثمان : لو رآك أبوك لساءه مكانك مني ، فتراخت يده ، ودخل الرجلان ، فوجآه حتى قتلاه[١] .

ويقول ابن أبي الحديد : إن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهام !

وقال أيضاً : إنه لما امتنع على الذين حصروه ، الدخولَ من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار ، فأصعدهم إلى سطحها ، وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه »[٢]

وروى الطبرى : أنهم دخلوا من دار عمرو بن حزم ، فناوشوهم شيئاً من مناوشة ، ثم خرج سودان بن حمران وهو يقول : أين طلحة بن عبيد الله ؟ قد قتلنا ابن عفان !! »[٣]

قالوا : وبلغ الخبر علياً ، وطلحة ، والزبير ، وسعدا ، ومن كان بالمدينة ، فخرجوا ، ، وقد ذهبت عقولهم ، فدخلوا عليه واسترجعوا ، وأكبّوا عليه يبكون ، ويُعوِلون ، حتى غشى على عليّ ، ثم أفاق ، فقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ورفع يده ، فضرب الحسن والحسين ، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ، وخرج عليّ وقد سُلب عقله ، لا يدرى مايستقبل من أمر !!

فقال طلحة : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين ؟

---

(١) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٦٩ .
(٢) شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة جزء ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) انظر الطبرى جزء ٥ ص ١٢٢ .

فقال : ياطلحة .. يقتل أمير المؤمنين ، ولم نقِمْ عليه بينة ولا حجة ؟

فقال طلحة : لودفع مروان لم يقتل !

فقال على : لودفع مروان قتل ـ أى مروان ـ قبل أن تقوم عليه حكومة !

فخرج علىّ ، فأتى منزله ، وأغلق الباب .

وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان ، وأخذه المصحف ليتحرم به ، وما صنع محمد بن أبى بكر . . وأرسلت بقميص عثمان مضرجا بالدم ، وبالخصلة التى نتفها محمد بن أبى بكر من لحيته ، فعقدت الشعر فى زر القميص ، ثم دعت النعمان بن بشير الأنصارى ، فبعثته إلى معاوية ، ومضى بالقميص حتى أتى يزيد بن أسيد ، مُمِدًّا لعثمان ، بعثه معاوية فى أربعة آلاف ، فأخبرهم بقتل عثمان ، فانصرفوا إلى الشام »[1]

هذا الدم المراق :

حرصنا فيما سبق على أن ننقل ماحدّث به المؤرخون من تلك الأحداث ، التى انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، محصوراً فى بيته ، متحرماً بكتاب الله فى حجره !

وقد قلنا رأينا فى تلك الأخبار ، وفى مبلغ تصويرها للواقع ، وأنها ليست حجة موثقة ، ولا دليلا قاطعاً ، حتى يُطمأن إليها ، ويؤخذ بكل مافيها . ! وأنها ـ على مابها ـ لايمكن الاستغناء عنها ، إذ لم يكن ثمة لسان غيرها ، ينطق عن تلك الفترة الغابرة ، ويحدّث عن أخبارها !

ومن جهة أخرى . . فإنه بالنظر الفاحص فى هذه الأخبار ، يمكن أن يُستدَلّ على ماوراءها ، مما هو أقرب إلى الواقع ، وأدنى إلى الحق . !

(١) الإمامة والسياسة جزء واحد ص ٤٤ — ٤٥

إن هناك جريمة قتل .. لاشك فى هذا . . والقتيل هو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ورأس المجتمع الإسلامى .. وهناك دم مراق .. لاشك فى هذا أيضاً !

والدم دم عثمان بن عفّان .. رضى الله عنه !

ولو قُتل أمير المؤمنين خِلسة وغدراً كما قتل عمر من قبله ، وكما قتل علىّ من بعده ، لما اضطرب المسلمون هذا الاضطراب ، ولما وقعوا فى الفتنة من بعده ، ولما فتح عليهم الطلب بدم عثمان . وقتل قاتله ، هذا الباب الواسع من الخلاف ، ولما دفع بهم إلى ميادين القتال ، فذهب ذلك بمئات الألوف من أرواح المسلمين !

من قتل عثمان ؟

تقول روايات المؤرخين : إنّه محمد بن أبى بكر ، وجماعة معه !

وقيل إن قاتله هو رومان بن سرحان .. رجل أزرق قصير .. من أصبح ، طعنه بخنجر !

وقيل جبلة من الأيهم ، وقيل الأسود التجيبى ، وقيل يسار بن عياض !

هذه أسماء مَن يسمّون ممن قتلوا عثمان ، أو اشتركوا فى قتله !

وليس فى تلك الروايات رواية واحدة تقول إن قاتله هو فلان ، قولا قاطعاً جازماً !

« سأل علىّ ـ كرم الله وجهه ـ نائلة امرأة عثمان ، رضى الله عنه :

« من قتل عثمان ؟

فقالت : لا أدرى .. دخل عليه رجال لا أعرفهم، إلاّ أن أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن أبى بكر ، فدعا علىّ محمد بن أبى بكر ، فسأله عما ذكرت

امرأة عثمان ، فقال صدقَتْ ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لى أبى ، فقمت عنه ، وأنا تائب إلى الله .. والله ماقتلته ، ولا أمسكته .

فقالت : صدق ! »[1]

وقد أورد صاحب الكامل بيتين منسوبين إلى الوليد بن عقبة ، يشير فيهما إلى قاتل عثمان .. يقول :

ألاَ إن خيرَ الناس بعـــد ثلاثة[2] قتيل التُّجُوبىِّ الذى جاء من مصر

ومالى لا أبـكى ، وتبــــــكى أقاربِى

وقــد حُجِبت عنّا فضول[3] أبى عمرو[4]

وقد يكون هذا الشعر منحولا على الوليد بن عقبة ، ولـكن ناحله لم يكن يعنيه أن يذكر اسم القاتل بقدر ما كان يعنيه إظهار هذا الشعور الذى كان قد خلقه قتل عثمان فى بنى أمية ، وحرمانهم من صلاته وعطاياه !

ويذكر صاحب الـكامل شعراً آخر للوليد بن عقبة ، يتّهم فيه بنى هاشم بأنهم هم الذين قتلوا عثمان أو أعانوا على قتله .. يقول الوليد :

بنى هاشم ردّوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحلّ منـــاهبه

بنى هاشم ، كيف الهوادة بيننا وعنــد علىّ درعُه ونجائبُه ؟

همُ قتلوه كى يكونوا مــكانه كما غَدَرت يوماً بكسرى مرازبُه

---

(١) انظر الإمامة والسياسة .

(٢) يريد بالثلاثة النبى صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر ، وعمر .

(٣) الفضول : العطايا ، واحدها فضل ، وأبو عمرو هو عثمان رضى الله عنه ، كنى بابنه عمرو

(٤) الـكامل للمبرد جزء ٢ ص ٣٣ .

ويعلق المبرد على هذا الشعر بقوله : « وهذا قول باطل ! »[1]

وهذه التهمة على بطلانها ، تحدث عن شعور كان قائماً فى الناس ، وفى بنى أمية خاصة ، بأن دم عثمان عند من استفاد من هذا الدم ، وهم بنو هاشم ، حيث بويع لعلىّ بالخلافة !!

إنه لا يمكن ضبط هؤلاء القتلة ، ولا التعرف عليهم ، وسط هذه النار المتضرمة ، وهذا الدخان المنعقد فى سماء المجتمع الإسلامى كله يومذاك !

ولو فُرض أنه عُرف وجه القاتل أو القتلة . . أفكان القصاص منه أو منهم بالذى يُرضى أولياء الدّم ؟ وهل إذا أرضى ذلك أولياء الدم أكان يرضى الحق والعدل ؟

إن قتلة عثمان ليسوا هم وحدهم الذين باشروا قتله بأيديهم ، بل إن هناك الذين حاصروا الخليفة ومكّنوا للقاتلين من قتله ، وشلّوا حركة مناصريه والمدافعين عنه ، وسدّوا عليه منافذ الخروج إلى أى وجه أو ملجأ ! .

وهؤلاء المحاصرون ألوف كثيرة . . تجمعت من مصر ، والعراق ، ومن أهل المدينة ، وأعراب البادية ! .

فكيف يكون القصاص من هذه الجموع الكثيرة الزاخرة . . وقد ذهبت فى كل وجه بعد أن وقعت الواقعة ، وقُتل الخليفة ؟ .

ثم هناك آخرون ، يرى الناس أنهم كانوا شركاء فى هذا الدم المراق . . إما بتحريضهم ، وإما بتخذيلهم ، وإما بسكوتهم الدالّ على الرضا بما يجرى حول بيت عثمان ! .

---

(١) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ٣٣ .

كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمرو بن العاص ، وقد سأله عن قتلة عثمان :

« إنك تسألنى : مَنْ قَتَل عثمان ؟ وإنى أخبرك .. إنه قتل بسيف سلّته عائشة ، وصقله طلحة ، وسمّه بن أبى طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا دفعْنا عنه ! . ولكن عثمان غيّر وتغيّر ، وأحسن وأساء ، فإن كنا قد أحسنّا فقد أحسنّا ، وإن كنا أسأنا فنستغفر الله[1] » .

إن كلمة سعد هذه تلخّص مرويات التاريخ كلها فى هذا الأمر ، وتضع كل من اشتركوا فى دم عثمان فى المكان الذى وقفوه من تلك الفتنة ، وتحملهم نصيبهم من دم الخليفة ، كلٌّ حسب ما كان منه ! .

عائشة — ارضى الله عنها — قد قالت فى عثمان قولاً ، أباحت به دمه .. « اقتلوا نعثلا » وكان قولها هذا هو الذى سلّ السيف الذى رفعه الثائرون فى وجه عثمان ، بعد أن كان مغمداً ! .

وطلحة — رضى الله — كان قوة للثائرين يجتمعون إليه ، ويلوذون به .. فكان بعمله هذا أشبه بالصّيقل الذى أعطى هذا السيف فِعله فى القتل ! .

وعلىّ بن أبى طالب — كرم الله وجهه — جعل للثائرين سلطاناً على عثمان ، حين عتب عليه فى أكثر من أمرٍ ، وحين بدا منه اليأس من إصلاح ما بين الخليفة وبين الثائرين ! .

والزبير — رضى الله عنه — كان صمته ، أبلغ من إشارته .. إذ دلّ ذلك على الرضا بهذا الموقف ، الذى يقفه الثائرون من عثمان ! .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٤٨ .

وكذلك كان الشأن فى موقف الصحابة وغيرهم ممن وقفوا هذا الموقف السلبى.. فذلك معناه أنهم تركوا عثمان لمصيره.. ولو أنهم شاءوا أن يدفعوا عنه لدفعوا ! .

وإذن فالمسلمون جميعاً شركاء فى دم عثمان . .

الذين تولّوا قتله بأيديهم . .

والذين كانوا وراء القتلة من الثائرين والمحاصِرين .

والذين وقفوا فى الجانب الآخر ، ساكتين ، وصامتين ! .

وهكذا يتوزع دم الخليفة على المجتمع الإسلامى كلّه ! .

بقى عثمان رضى الله عنه ، وبطانته من بنى أميه ! .

أفلا شىء عليهم من هذا الدم المُرَاق ؟ .

وإنصافاً للحق ، إن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد جعل للثائرين عليه سبيلاً إلى الثورة ، إن لم تكن على تلك الصورة ، فلا أقل من أن يكون للناس عتب عليه ، وقول فيه ! بما أفسح لبنى أمية من نفسه ، وبما سَخَا عليهم من يده ، وبما سمح لهم من سلطانه . . فساسوا الناس سياسة ، خرجوا بها عما عهد المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر ، من أمانة وعدل وإحسان .

لقد كان لبنى أمية دور كبير فى هذه الأحداث التى أهاجت الأمصار على الخليفة ، وأتاحت للسفهاء ، والمنافقين ، فرصة ، لتحريك الفتن ، وإثارة الشغَب .

وإنه لو لم تُحِط بعثمان حاشية كحاشيته تلك ، التى كان لها من سلطان الخليفة سلطَان ، أغراها بإحياء النزعات الجاهلية ـ لولا ذلك لـكانت خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ امتداداً طبيعياً لخلافة صاحبيه أبى بكر ، وعمر ،

فما هو ـ رضى الله عنه ـ أقلُّ من صاحبيه حبًّا للخير ، وإيثاراً للعدل ، وحرصاً على حياطة الشريعة ، والتزام أحكامها ! .

ولكن هكذا قُدر لعثمان أن يُبتلى بأهله ، وأن يُبتلى مع ذلك بحبّه القوىّ لأهله . . ثم يُبتلى ثالثاً ، بزمان غير زمان أبى بكر وعمر ، وبقومٍ غير قوم أبى بكر وعمر . . ثم يُبتلى رابعاً ، بطول خلافته على المسلمين ، مع شيخوخةٍ وضعف . . وكل هذه آفات ، قد عملت مجتمعة ومتفرقة ، على فتح ثغرات من الجفاء ، بين الخليفة وبين المسلمين ، ومن تلك الثغرات نفذت سهام المتربصين بالإسلام وبالمسلمين الدوائر . . فكانت الفتنة ، وكان ما وراء تلك الفتنة ! ! .

وإذا أردنا أن نعتذر لعثمان ـ رضى الله عنه ـ فيما ثار له الثائرون ، وعتب عليه فيه العاتبون ، فإنا نجد وجه العذر فى القول بأنه كان مغلوباً على أمره ، وأن قومه قد تواكبوا عليه ، وأحاطوا به ، وحاصروه أشد من هذا الحصار الذى أقامه عليه الثائرون ، فلم يستطع ـ والحال كذلك ـ أن يطلق يده من هذا القيد ، وأى يحرر إرادته من هذا الحجر المضروب عليه . . وإذن فالخليفة واقع تحت هذا الإكراه الخفىّ !

وإذن ، فإن اللائمة ، تقع ـ ديانةً ـ على من أكرهوه !

يتحدث ابن خلدون عن الشروط الواجبة فى الخليفة ، كى يكون صالحاً للمنصب ، فيُجمل هذه الشروط فى : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس . . والنسب القرشى !

ثم يورد ابن خلدون شرحاً للأسباب الداعية لكل شرط من هذه الشروط ، والأثر المرتب عند فقدان أى شرط منها .

فإذا جاء عند شرط سلامة الحواس ، قال :

« وأما سلامة الحواس من النقص والعطلة ، كالجنون ، والعمى ، والصمم ، والخرس ، وما يؤثر فقدُه من الأعضاء فى العمل . . . فتشترط السلامة منها كلها . . .

ثم يقول : « ويلحق بفقدان الأعضاء المنعُ من التصرف . .وهو ضربان : ضرب يلحق بهذه فى اشتراط السلامة منه شرطَ وجوب ، وهو القهر والعجز عن التصرف جملة ، كالأسر وشبهه . . وضرب لايلحق بهذه ، وهو الحجر ، باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ، ولا مشاقة !

فينتقل النظر فى حال هذا المستولِى ، فإن جرى على حكم الدين والعدل ، وحميد السياسة ، جاز إقراره ، وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته ، حتى ينفذ فعل الخليفة[١] » .

والحال التى كان فيها عثمان ـ رضى الله عنه ـ أشبه بتلك الحال التى يتحدث عنها ابن خلدون ، فقد كان الخليفة ـ كما قلنا ـ واقعا تحت سلطان هذا الإكراه الأدبىّ ، الحقيقى ، الذى فرضه عليه مروان بن الحكم ، وأهله ، وذوى قرابته من الأمويين !

ولو أن حاشية الخليفة ، سارت سيرة عدل ، وإحسان ، وأخذت بأحكام الشريعة ، والتزمتها فى كل ماتُورد أو تُصدر أمور . لما التوى الناس على الخليفة ، ولما التفتو كثيراً إلى بطانته ، ولكن القوم ساروا سيرة جائرة منحرفة . مستظلين بظل الخليفة ، متحدثين باسمه ، آخذين الأمور بسلطانه !

فكان لابد ـ والأمر كذلك ـ من أن يستنصر المسلمون ـ كما يقول ابن خلدون ـ بمن يقبض يد هؤلاء المتسلطين على عثمان من بنى أمية ، حتى يُنفذ الخليفة رأيَه وفعلَه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٢

وقد أبى عثمان — رضى الله عنه — أن يُسلّم مروان ، أو يبعده عنه . . فكان أن تلقى الطعنة التى كانت مصوبة إلى مروان ، وأمثال مروان !

إن الخليفة رضى الله عنه ، قُتل مظلوماً .. هذا مالا شك فيه !

فما فعل الخليفة أمراً يستحق به ، قَتْلَه و إباحة دمه !

يقول المحبّ الطبرى فى الدفاع عن عثمان رضى الله عنه :

« ومَن شهد له النبى صلى الله عليه وسلم أنه على الحق ، وأنه يُقتل ظلماً ، وأمر باتّباعه — كيف يتطرق إلى الوهم أنه على باطل ؟

« ثم قد ورد فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبره — أى عثمان — أن الله يقمّصه بقميص ، وأن المنافقين يريدونه على خلعه ، وأمره ألا يخلعه ، وأكد عليه الأمر ألا يخلعه .. وفى بعض الطرق — أى طرق الحديث — أنه توعده على خلعه ، وأمره بالصبر — فامتثل أمره ، وصبر على ما ابتُلى به .

« وهـذا من أدل دليل ، على أنه كان على الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضّلاَل ؟ فمن خالفه يكون على الباطل .

« كيف لا ، وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم من أرادوا خلعه بالنفاق ؟ فعلم — بالضرورة — أن كل مارُوى عنه ، مما يوجب الطعن عليه ، دائر بين مفترًى عليه ومختلق ، وبين محمول — على تقدير صحته — على أحسن التأويلات ليكون معه — أى مع هذا التأويل — على الحق .. تصديقاً لخبر النبوة المقطوع بصـدقه !

« هذا مع ماعلم من سابقته ، وكثرة إنفاقه فى سبيل الله ، وشرف منزلته بالصهر الثابت له فى ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فكيف يُتَوهّم فيه شىء مما ادعاه أهل الأهواء والبدع ؟

ثم يقول :

« ولم يتحقق فيما أتاه عثمان معصية ، بل له من المحامل الجلية الظاهرة ، مايمنع من اعتقاد الحرمة ، بل الكراهة .. غاية ما فى الباب أنه ترك الأولى وهو الأفضل اللائق به ، مما كان عليه الشيخان ، ولعله اعتقد أن مالا يشبه الأفضل ، هو الأفضل فى زمانه وعصره ، فلكل عصر حكم !

ثم يقول :

« وعلى الجملة ، فالذى يجب اعتقاده ، ولا يحلّ خلافه ، أن شيئاً مما لابسه عثمان لم يخرج فيه عن الحق ، ولا عن الهدى .. تصديقاً لشهادة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وإن كان فى شىء من ذلك له هوًى فيه ، فهو هوًى بهدًى من الله عزّ وجل ، وقد وسّع الله تعالى فى ذلك ، فشهد له قوله تعالى : «ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله » فدلّ على أن ثَمّ هوًى بهدًى من الله ! وهوى عثمان منه ، بدليل شهادة النبى صلى الله عليه وسلم ، بأنه على الهدى ، وأنه على الحق ، وأنه مظلوم ، وأمر باتباعه »(١)

ولكن أيذهب دم الخليفة هكذا هدراً مضاعاً ؟

لقد ذهب فعلا !

فما قُتل قَتَلَة عثمان ، الذين تولوّا طعنه بالمشاقص ، وضربه بالسيوف .

ولكن قُتل مِن وراء قتله عشرات الألوف !

فنى هذا الجوّ العاصف ، والاضطراب الملتهب ، استطاع قتلة عثمان ، ومَن وراء القتلة أن يندسوا فى مزدحم الثائرين ، وأن يختفوا فى أمواج الثورة ، التى أخذت تتراجع وتسكن !

---

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة جزء ٢ ص ٢٠٠ .

ومن جهة أخرى . . مَن كان يتولّى القصاص من القتلة ، على فرض التعرف عليهم ، وليس المسلمين حكومة قائمة ؟

إنه لابد — والأمر كذلك — أن يُرجأ القصاص حتى يبايع المسلمون للخليفة الجديد ، الذى إليه مردّ النظر فى هذا الدم المراق ، والقصاص له !

وقد بايع المسلمون لعلىّ بن أبى طالب ، كرم الله وجهه .. وكان دم عثمان أول مشكلة واجهها .. وقضى خلافته كلها ، دون أن تحلّ هذه المشكلة ، بل كان حلّها فى طعنة غادرة ، من يد آثمة ، اغتالت الخليفة ، وأراقت دمه !

وسنرى تفصيل ذلك فى المباحث التالية !

* * *

الباب الثالث

علىّ والخلافة

من يخلف عثمان ؟ :

منذ بدأ الناس يتحدثون فى أمر عثمان ، ويعرضون لسياسته ، وسياسة عماله - وقع عند كثير منهم التفكيرُ فى الخليفة الجديد الذى يخلف عثمان ! ونظر بعضهم إلى وراء ماتتمخض عنه تلك الأحداث التى شُغل بها المسلمون .

كان هناك لاشك أناس لم تشغلهم الأحداث الجارية ؛ عن أن يشاركوا فى التدبير لما وراء هذه الأحداث . . وكان منهم من فكر فى انتزاع الأمر من عثمان أولاً ، فعمل على الإفادة من ملابسات الظروف الجارية ، فعمق مجرى الأحداث ، ووسع دائرتها ، وأمدّ النار المتأججة بالوقود ، حتى لا تخمد أو تفتر !

وكان منهم من رأى الأحداث متدفقة متدافعة ، وأنها لابد منتهية بزحزحة عثمان عن مكانه ، فسبق الأحداث ، وأخذ لنفسه - مقدماً - المكانَ الذى قَدَّر أن الأيام ستضعه فيه[1] .

بل إنا لنذهب إلى أكثر من هذا ، فنقول : إن أمر عثمان قد بات مفروغاً منه ، عند أكثر الصحابة - رضوان الله عليهم - منذ بدأت الأحداث

---

(١) وذلك كما فعل طلحة حين استولى على بيت المال ، فهومقدمه لتولى الخلافة .

تتحرك ، وأخذت تطرق باب عثمان طرقا خفيفاً أولَ الأمر ، ثم جعلت تطرقه طرقاً عنيفاً ملحًّا عند مابلغ الأمر غايته

كان كثير من الصحابة يحاولون جاهدين دفع هذه الفتنة ، وهم فى الوقت نفسه يرون أنه لاقِبَلَ لهم بدفعها ، وأن مابين المسلمين وبين عثمان قد أصبح بحيث لايمكن إصلاحه ، وأن الناس لايرضون من عثمان إلا بخلعه أوقتله !

ومع هذا ، فهم يريدون أن يَعذِروا لأنفسهم ، وأن يُبرئوا ذمتهم ، فى النصح للمسلمين ، فى هذه الفتنة .

وإذن ، فقد كان فى الوقت فسحة للتفكير فى الخليفة الجديد ، الذى يخلف عثمان !

كان هناك من أصحاب الشورى : علىّ ، وسعد ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف !

أما عبد الرحمن بن عوف . . رضى الله عنه ـ فقد سبق إلى ربه قبل أن يقتل عثمان[1] ، فلم يشهد مابعد هذه المحنة ، ولم يشارك فيما جدّ من بلاء ، وإن كان قد رأى الأحداث التى جرت فى أخريات عثمان ، وكان له على ذلك عتاب ومراجعة معه .

علىّ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد . . هم إذن المنظور إليهم من الناس ، للخلافة بعد عثمان ، لأنهم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، وبقية أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فى واحد منهم .

على أنّ حصر الخلافة فى هؤلاء الأربعة ـ علىّ ، وطلحة ، والزبير ،وسعد ـ لم يكن أمراً مقضياً ، وحكما لازماً .

---

(١) مات عبد الرحمن سنة احدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ، وقتل عثمان سنة خمس وثلاثين .

فقد كان للخليفة عثمان أن يختطّ خطة لاختيار الخليفة من بعده . كأن يسمّى للخلافة شخصاً بعينه ، كما فعل أبو بكر فى اختيار عمر ، أو يسمّى لها عدداً أقل أو أكثر ، على نحو مافعل عمر ، أو يتخذ أسلوباً آخر غير هذا وذاك !

ولكن عثمان ـ رضى الله عنه ـ كان فى حال لا تسمح له بأن يقول فى الخلافة من بعده قولاً ، يستمع له الناس ويأخذون به ، إذ كيف يكون هذا والناس ينازعونه الأمر الذى فى يده ، ويحاولون أن يخرجوه منه ؟

وكان يمكن أيضاً أن يكون لبنى أمية مطمع فى الخلافة بعد عثمان ، وأن يقدّموا واحداً منهم ليبايع له الناس ، بعد أن فتح لهم عثمان الطريق إلى السلطان ، بعد أن كان مغلقاً دونهم !

ولكن لم يكن الظرف مواتياً ، لكى يكون لبنى أمية مكان فى الخلافة الجديدة . !

ذلك أنهم كانوا يوم مقتل عثمان موضعَ سخط الناس ونقمتهم ، إذ بسببهم كانت هذه الفتنة ، وكان قتل الخليفة . !

ثم إن الخليفة الذى ثار عليه الناس وقتلوه ، هو من بنى أمية ، وهو الوجه المشرق منهم ، الذى أخذ لهم بسابقة فى الإسلام ، وبحظ عظيم من الجهاد فى سبيل الله ، وبهذا اختاره المسلمون ـ عن رِضًى ـ خليفةً لرسول الله عليهم . . فلا يكون من المستساغ أن ينزع الناس خيرَ بنى أمية ، من الخلافة ، ثم يكون لهم تفكير فى أحد من بنى أمية من بعده ، ليقيموه مقامه .

وعلى هذا فإنه لم يعد ثمة محيص عن الاتجاه إلى هؤلاء الأربعة من أصحاب الشورى ، ليختار المسلمون واحداً منهم ، للخلافة ، بعد أن قتل عثمان ، وأصبح المسلمون بلا أمير عليهم !

فلقد كان هؤلاء الأربعة إلى يوم مقتل عثمان ، على ماتركهم عمر ، من رِضًى

المسلمين عنهم ، والتسليم لهم بالخلافة ، دون أن ينازعهم أحــد ، أو يشاركهم أحد !

ثم إنه فى هذا الجوّ المضطرب العاصف ، الذى خلقه مقتل عثمان ، لم يكن لأحدٍ أن يُحدِث حَدَثاً جديداً ، أو يفتح على النّاس باباً آخر من أبواب الخلاف والفتنة ، وحسب الناس ماهم فيه من بلاء ، لايدرون ما الله صانع بهم فيه !

وعلىّ ــ كرم الله وجهه ــ هو أول من رآه الناس ملاذاً يلوذون به ، من هذا البلاء الذى نزل بهم ، فانثالوا إليه من كل صوب ، كما ينثال الجيش المنهزم، يرى وجها انفتح له من وجوه النجاة ، وقد ركبه العدوّ ، ورهقه !

البيعة لعــلىّ :

يقول علىّ بن أبى طالب ، فى إحدى خطبه ، بعد أن ولى الخلافة ، ووقع الخلاف بينه وبين أصحاب الجمل ، والخوارج ، ومعاوية :

« فما راعنى إلا والناس كعُرف الضبع[1] إلىّ ، ينثالون علىّ من كل جانب ، حتى لقد وُطىء الحسنان ، وشُقّ عطفاى !! مجتمعين حولى كربيضة الغنم[2] ، فلمـا نهضت بالأمر نـكثتْ طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون . »[3]

إن أمرًا كهذا لابد أن يحدث ، بعد أن أصبح الناس بلا إمام ، وبعد أن عمّت الفوضى ، وصار الأمر إلى تلك الجماعات الواردة على المدينة ، والخارجة على السلطان !

---

(١) المعروف عن عرف الضبع كثافة شعره ، وهو يريد بها كثافة الناس .

(٢) الربيضة الجماعة ، وشبههم بالغنم لما هم فيه من ضعف وتخاذل فى هذه المحنة

(٣) نهج البلاغه : ص ١٨ .

روى البلاذرى ماحدث يوم البيعة ، فقال :

« وخرج علىّ فأتى منزله .. وجاء الناس كلهم يُهْرَعون إلى علىّ .. أصحاب النبىّ وغيرهم ، وهم يقولون : « إن أمير المؤمنين علىّ » حتى دخلوا داره ، فقالوا له : نبايعك ، فمدّ يدك ، فإنه لابد من أمير !

«فقال علىّ : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلى أهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر ، فهو خليفة . . فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً ، فقالوا : مانرى أحداً أحقّ بهذا الأمر منك »[1]

ويقول الطبرى : « فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن هذا الرجل (يعنى عثمان) قد قُتل ، ولابد للناس من إمام ، ولانجد اليوم أحقّ بهذا الأمر منك ، لا أقدمَ سابقة ، ولا أقربَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لاتفعلوا !! فإنى أكون وزيرًا ، خير من أكون أميراً ، فقالوا : لا : ، والله مانحن بفاعلين حتى نبايعك ، قال ففى المسجد ! فإن بيعتى لاتكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضى المسلمين ! »[2]

وفى رواية أخرى يقول الطبرى :

« اجتمع المهاجرون والأنصار .. فيهم طلحة ، والزبير ..

فأتوا علياً .. فقالوا : ياأبا الحسن ، هلم نبايعك !

فقال : لاحاجة لى فى أمركم ! أنا معكم ، مَن اخترتم فقد رضيت .. فاختاروا

فقالوا : والله مانختار غيرك !

---

(١) أنساب الأشراف جزء : ٥ ص ١٨ .

(٢) الطبرى جزء : ٥ ص ١٥٢ .

قال: مَن؟

قالوا علياً !

قال : تجتمع الشورى وتنظر !

فقالا : اخرج فبايع .

فامتنع عليهم . فجاءوا به يلببونه .. فبايعه بلسانه ، ومنعه يده ! .

قال أبو ثور : كنت فيمن حاصر عثمان... فكنتُ آخذ سلاحى وأضعه، وعليّ ينظر إلىّ ، لا يأمرنى ، ولا ينهانى . . فلما كانت البيعة له خرجت فى أثره ، والناس حوله يبايعونه ، فدخل حائطاً من حيطان بنى مازن ، فألجأوه إلى نخلة . وحالوا بينى وبينه ، فنظرت إليهم ، وقد أخذتْ أيدى الناس ذراعه تختلف أيديهم على يده ، ثم أقبل إلى المسجد الشريف ، وكان أول من صعد المنبر طلحة ، فبايعه بيده ، وكانت أصابعه شلّاء ؛ فتطيّر منها علىّ ، فقال : ما أخلقها أن تنكث ، ثم بايعه الزبير ، وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم جميعاً [1] »

هذا مجمل ما يروى من أخبار البيعة لعلىّ . . بعد مقتل عثمان . . وكلها تشير إلى أن الناس كانوا فى عجلة من أمرهم ، حتى يسدّوا أبواب هذه الفتن ، التى إن لم يعاجلوها بهذا التدبير دخل عليهم منها مالا قِبَل لهم به ، من وجوه البلاء !

وقد تردّد علىّ أول الأمر ، وحُق له أن يقف هذا الموقف ، فإن الأمر خطير ، والعبء فادح ثقيل ، ولكن الأحداث تجرى فى جنون عاصف ،

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص٤٦

وأمر المسلمين فى معرض الضياع والتلف ، وكل لحظة تمر تُدْنى الناس من هذا المصير المشئوم الذى تنطلق نحوه العاصفة !

وإذن فهى المخاطرة والمجازفة ، للقاء هذا الموقف ، واحتمال تبعاته .

وإنه لا يقوم لهذا الأمر إلا أولو العزم من الرجال ، وإلا من اعتادوا ملاقاة الأهوال ، ومصادمة الشدائد !

إنها معركة من تلك المعارك التى يتقرر فيها مصير الإسلام !

ولم يكن لعلىّ كرم الله وجهه،أن يتلبث أو يحجم عن خوض هذه المعركة ، غير ناظر إلى مايكابده فيها من محن ، وما يصيبه من ضر ، ولو ذهب ذلك بنفسه ، وقضى على حياته ، فما عمل الإمام ـ رضى الله عنه ـ حسابا لوجوده ولا لحياته ، مع وجود الإسلام وحياة الإسلام !.

وقد يبدو للناظر فى ظاهر هذا الموقف ،أن الإمام ـ كرم الله وجهه ـ كان قد فرغ فيما بينه وبين نفسه من التفكير فى الخلافة ! وأنه لم يكن يرى لها أحداً غيره بعد عثمان ، ولهذا فقد تلقى البيعة من الناس وكأنها أمر مقرر مفروغ منه .!

وربما كان الأمر يقع على هذا الوجه ، لو أن عثمان أخلى مكانه على صورة غير تلك الصورة ، التى اضطرب لها المجتمع الإسلامى كله . . ولكن الموقف يختلف أشد الاختلاف بهذا الحدث الخطير ، الذى يُلقى على عاتق الخليفة الجديد مسئوليات جسيمة ، ويحمله تبعات الأحداث الماضية ، التى لم يكن له يد فيها ، ولا سلطان عليها !

لقد قدّر علىّ كرم الله وجهه ، هذا الموقف ، ووزنه وزنا دقيقاً ، وعرف التبعات التى سيحملها ، وأنها تبعات لا تدع له سبيلا إلى لحظة من الاستقرار

والعدوء ... ولكنه محمول على أن يركب هذا المركب الوعر ، وأن يُلقى بنفسه في هذا البحر اللجىّ المتلاطم ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من هذا الجيش المنهزم !

يقول الإمام في إحدى خطبه ، بعد أن تداعت عليه الفتن ، وماجت به الأحداث :

«أمَا والذى فَلَقَ الحبَة ، وبرأ النَّسَمة ، لولا حضور الحاضر[1] ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كِظّة ظالم ، ولا سَغَب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها[2]» .

وقد رأينا من قبل ، كيف أن المسلمين قد توا كبوا عليه ، وألزموه البيعة ، وخوّفوه عاقبة الأمر إذا هو لم يقم له ، ويجمع الناس تحت راية الخلافة ، قبل أن يذهب بهم الخلاف كل مذهب ! فلم ينبهوه إلى شيء غفل عنه ، وعما وراءه من أحداث !

حين استعلن الخلاف بين علىّ والمشاقّين له . وحين لم يبق سبيل إلا السيف للفصل في هذا الخلاف ، أقبل الحسن بن علىّ يعاتب أباه ، ويذكر له ما كان بينهما من حديث ومراجعة في الخلافة بعد عثمان . يقول الحسن لأبيه :

أما والله . كنت أمرتك[3] فعصيتنى !

فقال له على : وما أمرتنى به فعصيتك ؟

قال : أمرتك أن تركب رواحلك ، فتلحق بمكة ،فلا تُتّهم به (أى بقتل

---

(١) أى ماحضر من أحداث ، وقع من اضطراب .

(٢) يقصد الخلافة وتخليه عنها .

(٣) الأمر هنا معناه النصح ، وإبداء الرأى . قال أحد بنى هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

عثمان) ولا تحلّ شيئاً من أمره ، فعصيتنى ! وأمرتك حين دُعيتَ إلى البيعة ألا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة فعصيتنى !

« وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير ألا تكرههما على البيعة ، وتُخلىّ بينهما وبين وجهيهما ، وتدع الناس يتشاورون عاماً كاملاً ، فوالله لو تشاوروا عاماً ، ما زُويت عنك ، ولا وجدوا منك بداً . . وأنا آمرك اليوم أن تُقيلهما بيعتهما ، وترد إلى الناس أمرهم ، فإن رفضوك رفضتهم ، وإن قبلوك قبلتهم ، فإنى والله قد رأيت الغدر فى رءوسهم ، وفى وجوههم النكث والكراهية !

فقال له على : أنا إذن مثلك[1] ! ! لا والله يابنىّ . . ولكن أقاتل بمن أطاعنى من عصانى ، وأيم الله يابنىّ مازلتُ مبغيا علىّ منذ هلك جَدّك . !

فقال له الحسن : وأيم الله يا أبت ليظهرَنّ عليك معاوية ، لأنه « مَن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا » ؟

فقال علىّ : يابنى ، وما علينا من ظلمه ؟ والله ماظلمناه ، ولا أمرنا ، ولا نصرنا عليه . ولا كتبت إلى أحداً فيه سواداً فى بياض ، وإنك لتعلم أن أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره .

فقال الحسن : دع عنك هذا ، والله إنى لا أظن ، بل لا أشك أن مابالمدينة عاتق ، ولا عذراء ، ولا صبى ، إلا وعليه كِفْل من دمه ! !

إن علياً كان يعلم – يوم مدّ يدَه للبيعة . ماهو مقبل عليه ، وأنه لو كان يريد السلامة لنفسه ، والعافية فى أمره ، لكان على الرأى الذى رآه ابنه

(١) أى أطلب السلامة لنفسى ولدينى ، غير ناظر إلى سلامة الناس فى أنفسهم ودينهم

الحسن ، ولكنه يأبى أن يقف هذا الموقف السلبي، من أخطار تحدق بالمسلمين، وتفغر فاها ، لتأكل الأخضر واليابس .

روى الشريف الرضى أن الإمام عليّ رضى الله عنه ، حين تزاحم الناس عليه ، بعد ماقتل عثمان يريدونه على البيعة . خطب فيهم . فكان مما قال :

« دعونى ، والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم اصغ إلى قول القائل وعَتْب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلّى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منى أميراً » .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده تعليقاً على مافى كلمات الامام على هذه من إشارات ودلالات : « وذلك أن الأطماع كانت قد تنبهت فى كثير من الناس على عهد عثمان رضى عنه ، بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء ، فلا يسهل عليهم فيما بعد أن يكونوا فى مساواة مع غيرهم ، فلو تناولهم العدل انفتلوا منه ، وطلبوا طائشة الفتنة ، طمعا فى نيل رغباتهم ، وأولئك هم أغلب الرؤساء فى القوم ، فإن أقرهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز فقد أتى ظلما وخالف شرعاً . والناقمون على عثمان ، قائمون على المطالبة بالنَّصَفَة ، إن لم ينالوها تحرشوا للفتنة ! ! فأين المحجة للوصول إلى الحق على أمن من الفتن ؟ وقد كان بعد بيعته ما تفرس به قبلها ![1] »

المتخلفون عن البيعة :

قالوا : وتخلف عن بيعة عليّ : عبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ،

(١) نهج البلاغة جزء ١ ص ٨٨ (شرح الإمام الشيخ محمد عبده)

وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وسعد بن أبى وقاص .

«قال ابن إسحق : إن عثمان لما قتل ، بويع علىّ بيعة عامة فى مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وبايع له أهل البصرة ، وبايع له بالمدينة طلحة والزبير .

«وقال أبو عمر : واجتمع على بيعة علىّ المهاجرون والأنصار ، وتخلّف عن بيعته نفر ، فلم يكرههم ، وسئل عنهم فقال : « أولئك قوم قعدوا عن الحق ، ولم يقوموا مع الباطل ! »[1].

وقالوا : جاء عمار بن ياسر ، والأشتر ، إلى علىّ ، فقال عمار :

« يا أمير المؤمنين . . قد بايعك الناس كافة إلا هؤلاء النفر . . فلو دعوتهم إلى البيعة ، كى لا يتخلفوا فى ذلك عن المهاجرين والأنصار !! .

فقال : ياعمار . . لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا ! .

فقال الأشتر . إن هؤلاء ، وإن كانوا سبقوا بعضنا إلى رسول الله ، غير أن هذا الأمر يجب أن يُجمعوا عليه ، ويَرغبوا فيه ! .

(يريد الأشتر ألا يجعل لهؤلاء المتخلفين عن البيعة حقاً فى التخلف ، والانفراد برأى فى الخلافة ، بما لهم من سابقة فى الإسلام ، فإن أمر الخلافة ينبغى أن ينزل المسلمون جميعاً على حكم سواء فيه) .

فقال على : يا مالك (يعنى الأشتر) : إنى أعرف بالناس منك . . دع هؤلاء يعملوا برأيهم ! .

---

(١) الرياض النضرة جزء ٢ ص ٣٢٤ .

فجاء « سعد » إلى عليّ ، وقال : يا أمير المؤمنين . . لا ريب لى فى أنك أحق الناس بالخلافة ، وأنك أمين على الدين والدنيا ، غير أنه سينازعك على هذا الأمر أناس ، فلو رغبتَ فى بيعتى لك ، أعطنى سيفاً له لسان، يقول لى : خذ هذا ، ودعْ هذا ! !

فقال عليّ : أترى أحداً خالف القرآن ، فى القول أو العمل ؟ لقد بايعنى المهاجرون والأنصار ، على أن أعمل فيهم بكتاب الله، وسنّة نبيه ، فإن رغبتَ بايعت ، وإلا جلست فى دارك ، فإنى لست مكرهك عليه[1] ! » .

ويقول ابن قتيبة :

وذكروا أن عمار بن ياسر ، قام إلى علىّ ، فقال : ياأمير المؤمنين ائذن لى أن آتى عبد الله بن عمر ، فأكلّمه ، لعلّه يخفّ معنا فى الأمر ، فقال على : نعم !

فأتاه . . فقال ياأبا عبد الرحمن . . إنه قد بايع عليًا المهاجرون والأنصار ، ومن إن فضلناه عليك لم يُسْخطك ، وإن فضلناك عليه لم يُرضك . . وقد أنكرتَ السيف فى أهل الصلاة ، وقد علمت أن على القاتل القتل ، وعلى المُحصَن الرجم . . . وأن عليًا لم يقتل أحداً من أهل الصلاة ، فيلزمه حكم القاتل ! ! .

فقال ابن عمر : ياأبا اليقظان . . إن أبى جمع أهل الشورى ، الذين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض ، فكان أحقهم بها علىّ . . غير أنه جاء أمر فيه السيف ، ولا أعرفه . . ولكن والله ما أحبّ أن لى الدنيا وما عليها وأنى أظهرت أو أضمرت عداوة على ! .

فانصرف عنه فأخبر علياً بقوله ! .

فقال على : لو أتيت محمد بن مسلمة الأنصار !! .

---

(١) تاريخ ابن اعثم ص ١٦٣ ، نقلا عن أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٢٠ .

فأتاه عمار ، فقال له محمد :

«مرحباً بك أبا القيظان ،على فُرقةِ ما بيني وبينك[1]!! والله لولا ما فى يدى من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لبايعت علياً[2]، ولو أن الناس كلّهم عليه لكنت معه ! ولكنّه ياعمار كان من النبىّ أمر ذهب فيه الرأى ! .

فقال عمار : كيف ؟ .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتَ المسلمين يقتتلون ، أو إذا رأيت أهل الصلاة ![3].

فقال عمار : فإن كان قال لك إذا رأيتَ المسلمين ، فوالله لا ترى مسلمَيْن يقتتلان بسيفيهما أبداً ، وإن كان قال لك أهل الصلاة ، فمن سمع معك ؟ إنما أنت أحد الشاهدين ! أفتريد من رسول الله قولاً بعد قوله فى حجة الوداع : «دماؤكم وأموالكم حرام، إلا يَحدَث ! ؟» فتقول يا محمد : لا نقاتل المحدِثين ؟ .

قال : حسبك ، يا أبا اليقظان ! » .

كان محمد بن مسلمة قد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً فيما ينبغى أن يأخذ به نفسه ، حين يكون بين المسلمين قتال ، وهو اعتزال المتقاتلين ، ولكنه غاب عنه الوصف الذى عليه أولئك الذين يتقاتلون ، وهل وصفهم الرسول بأنهم مسلمون ، أو أهل صلاة ! ؟

---

(١) كان عمار من المناخين فى الدعوة لعلى ، وكان محمد بن مسلمة من المتوقفين فى البيعة له . . فأمرهما مختلف ! .

(٢) يشير إلى أن فى يده قولا من رسول الله عليه وسلم ، وأن هذا القول هو الذى جعله يقف من بيعة على هذا الموقف .

(٣) جواب الشرط هنا محذوف . . ومفهومه اعتزال الأمر ، والتوقف عن الدخول فيه ، وقد شك محمد بن مسلمة فيما سمع من الرسول ، وهل قال له : إذا رأيت المسلمين ، أو قال : إذا رأيت أهل الصلاة .

وقد فرّق عمار بين الوصفين . . فإن كان الرسول قال فى وصفهم أنهم مسلمون .. فذلك مالا يكون، لأن المسلم لا يقاتل المسلم ، وهو على تلك الصفة ! إلا إذا اشتمل أحدهما على النفاق ، فكان مسلماً فى ظاهره ، منافقاً فى باطنه !

أمّا إن كان الرسول قد وصف المتقاتلين بأنهم أهل الصلاة .. فهذا مايشك عمار فى قبوله عن رسول الله بشهادة محمد بن مسلمة ، إلا أن يكون معه شاهد آخر ! وذلك أن أهل الصلاة قد يكون منهم المنافقون وهم يقيمون الصلاة . ! ومحمد بن مسلمة قد شكّ فيما سمع من الرسول ، فلا يُدفع هـــذا الشك إلا بشاهد آخر .

وعلى أىّ ، فإن محمد بن مسلمة لم يتحول عن رأيه ، وظل متمسكا بموقف الحياد من هذه الفتنة !

ثم يقول ابن قتيبة :

« ثم أتى ـ عمار ـ سعدَ بن أبى وقاص ، فكلمه ، فأظهر الكلامَ القبيح !

فانصرف عمار إلى علىّ .

فقال له علىّ : دع هؤلاء الرهط .

« أما ابن عمر فضعيف !

« وأما سعد .. فحسود !

« وذنبى إلى محمد بن مَسْلمة ، أنى قتلتُ أخاه يوم خيبر . . مرحباً اليهودى ! »[1]

أما أسامة بن زيد ، فقد جاء إلى علىّ يقول له : « والله لو أدخلت يدك فى

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

فم ثنتين لأدخلتُ يدى معها، ولكنك قد سمعت ماقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قتلتُ ذلك الرجل ، الذى شهد أن لا إلهَ إلا الله ! »

وحديث هذا الرجل الذى قتله أسامة ، أنه كان كافراً ، وكان يحارب المسلمين ، مع جماعة من الكفار .

يقول أسامة : « فلما أدركتهُ أنا ورجل من الأنصار ، وشهرنا عليه السلاح ، قال : « أشهد أن لا إلهَ إلا الله » فلم ننزع عنه حتى قتلناه . . !

فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه خبره ، فقال : ياأسامة . . من لك بلا إلهَ إلا الله ؟ فقلت يارسول الله ، قالها تعوُّذًا من القتل ! فقال : من لك ياأسامة بلا إلهَ إلا الله ؟

« فوالذى بعثه بالحق .. مازال يرددها حتى وددت أن مامضى من إسلامى لم يكن ، وأنى أسلمت يومئذ ! .. فقلت : أُعطِى الله عهداً لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله !! »[1]

فهذا هو الحاجز الذى يحجز أسامة عن البيعة لعلىّ ، وهو يعلم أنه لوبايع عليًا لوجب عليه أن يقاتل معه الخارجين عليه من المسلمين .. ولولا ذلك لما تردد أسامة فى أن يتبع عليًا حيث يكون ، ثقةً منه بدينه ، وعدله !

ولا شك أن هؤلاء النفر الذين تخلفوا عن بيعة علىّ ، ليسوا هم كل من تخلف من المهاجرين والأنصار ، ولكنهم كانوا الرءوس البارزة فيمن تخلّف .

وسنرى بعد قليل . . كيف اجتمع إلى عائشة ، وطلحة والزبير ، أعداد غير قليلة من المهاجرين والأنصار ، وفيهم بعض الصحابة ، فكانوا جيشاً محاربًا لعلىّ ، يريد انتزاع الخلافة منه !

---

(١) أسد الغابة ، فى معرفة الصحابة : ١ — ٨٨ .

عائشة وموقفها من البيعة :

كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى مكة ، حين قتل عثمان . . تترقب ماتتكشف عنه الأحداث الجارية فى المدينة ، وتتوقع النهاية السريعة للمعركة الدائرة هناك !

وقد رأينا أن خروجها من المدينة ، كان أشبه بإعلان الحرب الصريحة على عثمان ، وأنها لم تستجب لدعوة من دعوها أن تظل بالمدينة ، إلى جوار الخليفة ، لتمسك عنه بعض الثورة القائمة عليه ، فردتهم ردًّا عنيفاً ، كشفت به عن رأيها فى عثمان ، وما تنتظر له !

وفى طريقها إلى الحج استمعنا إلى حديثها مع ابن عباس ، ورأيها فيمن يَخْلُفُ عثمان ، وأنها كانت لا ترى غير طلحة أحداً أولى به من هذا الأمر ، وقد واجهها ابن عباس برأيه ، وأن الناس لايعدلون بعلىّ أحداً ، إن نزل بعثمان قضاؤه ! عزلاً ، أو موتاً ، أو قتلا !

وبينما أم المؤمنين بمكة تتأهب للعودة ، بعد أن قضت مناسك الحج ، ورَدَت الأخبار بمقتل الخليفة ، فأسرعت نحو المدينة ، ليكون لها رأيها فى الخليفة الجديد ، أو بمعنى أصرح لتكون برأيها ، وتدبيرها ، وسلطانها عوناً لمرشحها للخلافة ، ابن عمها طلحة بن عبيد الله !

ولو أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أدركت البيعة قبل أن تتم لعلىّ ، لكان هناك صدام عنيف ، بين علىّ وطلحة ، ولشهد المسلمون فُرقة وانقساماً ، ربّما كان لهم منه يوم كيوم الجمل ! أو ربما عجّل بيوم الجمل فجعل ميدانه المدينة !

ولكن الأمر كان قد مضى ، وتمت البيعة لعلىّ ، وأم المؤمنين فى الطريق ، لم تدخل المدينة بعد . !

وكان طلحة قد تقدم للبيعة ، واتجه بعض الناس إليه ، حين تردد عليّ فى قبول الخلافة . . فلما رأى عليّ ما كان من طلحة مدّ يده إلى المبايعين ، فمال إليه الناس ، وعدلوا عن طلحة.. ثم حملوا طلحة على أن يبايع ، فبايع . . وتمت البيعة لعليّ فى اليوم الثامن من مقتل عثمان ![1]

روى الطبرى : أنه قدم على أمير المؤمنين ، وهى بمكة ، رجل يقال له الأخضر .

فقالت : ماصنع الناس ؟

فقال : قَتَلَ عثمانُ المصريين !

فقالت : إنا لله ، وإنا إليه راجعون .. أيقتُلُ قوماً جاءوا يطلبون الحق ، وينكرون الظلم ؟ ؟ لا نرضى بهذا !

ثم قدم آخر . .

فقالت : ماصنع الناس ؟

قال : قَتَلَ المصريون عثمان ؟

قالت : العجب ! الأخضر زعم أن المقتول هو القاتل !! فكان يضرب به المثل ، فيقال : « أكذب من أخضر ! »[2]

وروى البلاذرى أنه حين بلغها قتل عثمان وهى بمكة أمرت بقبتها فضربت فى المسجد الحرام ، وقالت : إنى أرى عثمان سيشأم قومه ، كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر ! »[3] .

---

(١) انظر الرياض النضرة فى مناقب العشرة

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ١٦٦ .

(٣) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٩١ .

قالوا : ثم أقبلت مسرعة إلى المدينة ، وهى لاتشك فى أن طلحة صاحب هذا الأمر ، وكانت تقول : بعُدًا النعثل وسُحقاً ! إيهِ ذا الإصبع ! إيه أبا شبل! إيه ابنَ عمّ . . لله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفئاً ، لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يبايع .. حُثوا الإبل ودعدعوها [1] !! »

قالوا : ولما انتهت إلى سَرَف [2] فى طريقها إلى المدينة ، لقيها عبيد بن أم كلاب ، فقالت له : مَهْيَم (أى ما عندك ؟)

قال : قتلوا عثمان . . ثم مكثوا ثمانيا !

قالت : ثم صنعوا ماذا ؟

قال : أخذها أهل المدينة بالإجماع ، فجازت بهم إلى خير مجاز . . اجتمعوا إلى علىّ بن أبى طالب !

فقالت : والله ليت أن هذه انطبقت على هذه ، إن تمّ الأمر لصاحبك .. ! ويحك انظر ماتقول !

قال : هو ماقلتُ لك يا أمير المؤمنين !

فولولت !

فقال لها : ما شأنك يا أم المؤمنين ؟ والله لا أعرف بين لابَتَيْها [3] أحداً أولى بها منه ، ولا أحق . ! ولا أرى له نظيراً فى جميع حالاته . . فلماذا تكرهين منه ! ؟

فقالت : قُتل عثمان والله مظلوماً ! وأنا طالبة بدمه !

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١١٨ .

(٢) سرف على مسيرة ليلة من مكة .

(٣) لابتيها : مفرده لابة ، واللابة الحرة ، ولابتا المدينة : حرتان يكتنفانها .

فقال لها عبيد : إن أول من طعن عليه ،وأطمع الناس فيه ، لأنت ! ولقد قلتِ : اقتلوا نعثلاً فقد كفرَ !

فقالت : قد والله قلتُ ، وقال الناس ، وآخِر قولى خير من أوله ! !

فقال عبيد : عذر والله ضعيف يا أم المؤمنين .. ثم قال :

فمنك البـــداء ، ومنك الغِيَرْ ومنك الرياح ، ومنك المطر

وأنت أمرتِ بقتـــل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر !

فهبْنا أطعناك فى قتـــله وقاتـله عندنا من أمر !

ولم يَسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر

وقد بايع النـــاسَ ذاتُدْرَا يزيل الشَبا ، ويقيم الصَعَر[1]

ويلبس للحـــرب أثوابها وما مَن وفَى مثلُ من غدَرْ

قالوا : فرجعت إلى مكة ، فنزلت على باب المسجد ، فقصدت الحِجر ، فتسترت ، واجتمع إليها الناس ،فقالت :

«يأيها الناس : إن عثمان قُتل مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه !!

وكانت تقول : يامعشر قريش : إن عثمان قد قتل ، قتله علىّ بن أبى طالب ، والله لليلة من عثمان خير من علىّ الدهرَ كلّه !! »[2]

كان صوت عائشة ــ رضى الله عنها ــ أولّ صوت أعلن المعارضة لعلىّ ،

(١) ذا تدرأ : ذا قوة ومنعة ، والشبا : الكبر ، والعلو ، والصعر : ميل الخد تيهاً وعجباً .

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ١٧٢ ، الإمامة السياسة ١ ص ٥٣ ، أنساب الأشراف جزء ٥ ص ٩١ .

وألقى عليه تبعة قتل عثمان ! ومن وراء هذا الصوت جاءت أصوات أخرى ، تعارض ، وتتهم ، وتتحدّى !

قالوا : إن مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة ، جاءوا إلى علىّ ، فقال الوليد ، ـ وكان لسانَ القوم ـ : ياهذا ، إنك قد وَتَرْتنا . . أمّا أنا فقد قتلتَ أبى صبراً يوم بدر . . وأما سعيد ، فقد قتلتَ أباه يوم بدر ، وكان أبوه نور قريش ، وأما مروان فقد شتمتَ أباه ، وعبتَ على عثمان ، حين ضمّه إليه ، وإنا نبايعك على أن تضع عنا ما أصبنا ، وتعفو لنا عما فى أيدينا ، وتقتل قَتَلَه صاحبنا !

فقال علىّ :

« أما ماذكرتَ من وَتْرى إياكم ، فالحقُّ وتركم ، وأما وضعى عنكم عما فى أيديكم ، مما كان للمسلمين ، فالعدل يسعكم ، وأما قتلى قتلة عثمان ، فلو لزمنى قتلهم اليوم لزمنى قتالهم غداً . . ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله ، وسنة نبيه ، فمن ضاق الحق عليه ، فالباطل عليه أضيق . . وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم !! » .

فقال مروان : بل نبايعك ، ونقيم معك ، فترى ، ونرى! »[1]

* * *

بدأت الخلافات الخفية تظهر ، وتعلن عن نفسها فى صور شتى . . !

فعائشة رضى الله عنها تعود أدراجها إلى مكة . . وتأبى أن تدخل المدينة والخلافة فيها لعلىّ ! وبنو أمية المقيمون بالمدينة يبايعون ، ويتربصون ! وقيل إن بعضهم ـ كمروان بن الحكم ـ هرب من المدينة منطلقاً إلى مكة ، عندالبيعة ، فلم يكشف عن دخيلة نفسه !

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٢٠ نقلا عن اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٥ .

يقول ابن قتيبة : وذكروا أن مروان بن الحكم ، لما بويع علىّ ، هرب من المدينة ، فلحق بعائشة فى مكة ، فقالت له عائشة : ماوراءك ؟ قال مروان : غُلبنا على أنفسنا ! فقال له رجل من أهل مكة : إياك وعليًّا ، فقد طلبك ! فَفرَّ من بين يديه . . فقال مروان : لم ؟ فوالله مايجد إلىّ سبلاً . . أما هو فقد علمتُ أنه لايأخذنى بظن ، ولا ينَصِبُ علىّ إلا اليقين . . وأيمُ الله ما أبالى إذا قصر علىّ سيفه ماطال علىّ من لسانه ! فقال الرجل : إذا طال عليك لسانه طال سيفه ! قال مروان : كلا : إن اللسان أدب ، والسيف حُكم ! »[1]

وطلحة والزبير . . يتهيآن للخروج من المدينة ليلحقا بعائشة فى مكة ، ويقرران موقفهما من علىّ !

ومعاوية بن أبى سفيان . . يعتصم بالشام ، فى جنده وسلطانه ، يأبى أن يبايع لعلىّ ، إلا إذا دفع إليه بقتله عثمان !

ودم عثمان هو ذريعة الخلاف على علىّ ، والحجة التى يقيمها عليه من شاقوه ، ونصبوا له الحرب والقتال !

علىّ ودم عثمان :

كان أول عمل ينتظر الناس أن يتولاه الخليفةُ الجديد ، هو النظر فى دم عثمان ، والقصاص له ، ممن قتلوه ، أو كان لهم يد فى قتله !

ولم يغب عن علىّ هذا الأمر . . ولكن هناك حوائل كثيرة ، تقوم فى وجه الخليفة ، إن هو أراد أن يحكم فى دم عثمان ، وأن يضع يده على الجُنَاة ، ويقيم الحدّ عليهم .

وقد أشرنا من قبل إلى شىء من هذا ، وقلنا ، إن قتلة عثمان ، لم يكونوا

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ٢ ص ٥٤ .

عدداً محصوراً ، بل كانوا ألوفاً كثيرة ، تضمهم ثورة عارمة ، وتشتمل عليهم فتنة شاملة .. وإن الذين باشروا جريمة القتل لم يكونوا إلا أسنّة الحراب التى غرزها الثائرون فى صدر الخليفة الشهيد !

ثم إنه لو أراد علىّ أن يقيم الحدّ على القتلة المباشرين ، لكان من العسير أن نضبطهم ، أو يحصرهم ، ولو حصرهم لما استطاعت يده أن تطولهم ، إذ قد تفرقوا فى وجوه الأرض ، وألقوا بأنفسهم فى جموع الثائرين !

ذلك هو موقف علىّ من قتلة عثمان .. موقف لا يبصر فيه شيئاً .. ولا يقدر معه على شىء !

وقد اشتد إلحاح المطالبين بدم عثمان ، وكثر صياحهم فى وجه علىّ .. ثم تحولت المطالبة بدم عثمان ، إلى اتهام علىّ بالتواطؤ على قتل عثمان ، والتحريض عليه ! !

ولو انتظر الناس بالخليفة ، حتى تسكن العاصفة ، ويفىء الناس إلى شىء من الطمأنينة والاستقرار ، ولو أسلم الولاة ،والزعماء ، والقادة أمرهم إلى الخليفة الجديد ، وأعطوه الولاء والطاعة من غير خلاف . لكان ذلك معيناً لعلىّ على ضبط أمور الخلافة ، والتمكن من سلطانها ، فينفذ رأيه وأمره ، فيما يرى ويأمر !

أمّا والحال كذلك .. فمن يسمع للخليفة أو يجيب ! ؟

إن المطالبة بالقصاص لدم عثمان فى هذا الوقت ، هو تكليف بمحال ، ومطالبة بمستحيل !

وقد تحدّث علىّ – كرم الله وجهه – إلى الناس فى هذا ، وكشف لهم عن واقع الحال .. يقول وقد قال له بعض الصحابة : هلا عاقبتَ قوماً ممن أجلب على عثمان ؟ :

« يا إخوتاه .. إنى لستُ أجهل ماتعلمون ! .

« ولكن كيف لى بقوة ، والقوم المُجلَبون ، على حدّ شوكتهم . يملكوننا ، ولا نملكهم ! ؟

« وها هم أولاء قد ثارت معهم عِبْدانكم ، والتفّت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم ، يسومونكم ! !

« وهل ترون موضعاً لقدرة على شىء تريدونه ؟

« هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة [1] !

ثم يقول:

« إن الناس من هذا الأمر ، إذا حُرّك ، على أمور :

فرقة : ترى ما ترون !

وفرقة : ترى مالا ترون !

وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك !

فاصبروا ، حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتُؤخَذ الحقوقُ مُسمَحة !

فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم من أمرى !

ولا تفعلوا فَعْلةً تضعضع قوة ، وتُسقط مُنّة ، وتورث وهناً وذلة !

وسأمسك الأمر ما استمسك !

وإذا لم أجد بُدًّا ، فآخر الدواء الكىّ ! [2] »

---

(١) أى عوناً ومدداً فإذا أخذ هؤلاء جاء غيرهم ..

(٢) نهج البلاغة ص ١٦٧ .

ذلك هو حقيقة الموقف ، صوّره الإمام أروع تصوير ، وكشفه أوضح كشف ..

ولكن الناس فى فتنة عمياء جهول .. لا ترجع إلى عقل ، ولا تقوم على منطق !

يقول القعقاع بن عمرو ـ صاحب رسول الله ـ وقد أرسله علىّ إلى أصحاب الجمل بالبصرة . . فلما اجتمع بعائشة ، وطلحة ، والزبير ، وجادلهم فى أمرهم ، وأعطوه ما عندهم ـ سألته السيدة عائشة :

فأنت تقول ماذا ؟

قال : إن هذا أمر دواؤه التسكين ، واجتماع الشمل .. حتى إذا صلُح الأمر ، وهدأت الثائرة ، وأمِن الناس ، واطمأن بعضهم إلى بعض ، نظرنا فى أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة !

ثم قال :

«وإنى لأقول هذا ، وماأراه يتم ، حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء ! فقد انتثر أمرها ، وألمت بها الملمات ، وتعرضت لبلاء عظيم[1] ! » .

إن فى النفوس شيئاً تريد أن تبلغه ، وقد وجدت فى دم عثمان متعلقاً تتعلق به ، فى الخروج على علىّ ، وإلقاء دم عثمان كله عليه !

وقد رأينا ـ فيما سبق مما رواه المؤرخون ـ أن أقل ما يوصف به موقف علىّ من عثمان أنه كواحد من المهاجرين ، من صحابة رسول الله . . أنكر ما أنكروا على عثمان ، ونصح له كما نصحوا ، ثم تخلّى عنه كما تخلوا ثم ندم وأسف ، كما ندموا وأسِفوا !

---

(١) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين جزء ٢ ص ٤٢

وقد كان فى الصحابة من ألّب على عثمان ، وكان فى الثائرين عليه !

وكان فى الصحابة من أعان عثمان ، ووقف إلى جانبه .

وكان فى الصحابة من توقف ، فلم يدفع عنه ، ولم يُعن عليه ! ومن هذه الطائفة كان علىّ .

فلما أصبح علىّ خليفةً على المسلمين ، تعلّق به دم عثمان . ! فلما انتظر بالقصاص حتى تهدأ الثورة ، وتسكن النفوس ، وتتضح له الرؤية ، ويملأ يده من سلطان الخلافة ــ لم يكن فى ذلك مقنع أو رضى ، لمن نزعوا إلى خلاف الخليفة ، وطلبوا المعاذير للخروج عليه ، ونصب الحرب له ! .

ولو أن علياً ــ كرم الله وجهه ــ لم يكن الخليفة بعد عثمان ، لما وقع فى نفس أحد ، من بنى أمية أو غيرهم ، أن لعلىّ شأناً فى أمر عثمان . . !

قال ابن سيرين : ما علمتُ أن علياً اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس[1] !» .

وإذن فهى « الخلافة » التى ينظر إليها الناظرون من خلال دم عثمان ! وليس دم عثمان ــ على الحقيقة ــ هو الذى أثار هذا الخلاف الحاد بين المسلمين وأوقع الحرب بينهم ، وذهب بعشرات الألوف من الأرواح !

ولو كان دم عثمان هو الذى حرك الثائرين على علىّ ، لكان معاوية بعد أن حارب عليًا تحت راية قميص عثمان ، وبعد أن استولى على الحكم والسلطان؛ قد بادر بالقصاص من القتلة ، وشفى ما بنفسه ، بالثأر ممن وتروه بابن عمّه !

ولكن معاوية لم يفكر فى هذا ، ولم يلتفت إليه .. وكأن عثمان لم يقتل !

---

(١) العقد الفريد جزء ٤ ص ٣٠٥

يقول صاحب العقد الفريد :

« قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة [(١)] ، فدخل بيتَ عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان ، وبكت ، ونادت أباها : واعثماناه .. تحرض بذلك معاوية على الطلب بدمه ، والقصاص من قاتليه !

«فقال معاوية : ياابنة أخى .. إن الناس أعطونا طاعة ، وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، وأظهروا لنا ذلاً تحت حقد ! ومع كل إنسان سيفه ، ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون الدائرة أم لنا ؟

« ولأن تكونى ابنةَ عم أمير المؤمنين ، خيرٌ من أن تكونى امرأة من عُرْض الناس!! [(٢)] ».

وهكذا يسوِّى معاوية الحساب فى دم عثمان ! حتى ابنة الخليفة يقودها إلى الرضا ، عن مقتل أبيها ، وترك المطالبة بدمه ، مادامت الخلافة قد عادت إلى قومها بنى أمية ، وإنه لا ضير عليها أن تكون ابنة عمّ الخليفة ، بعد أن كانت بنت الخليفة !!

على الخلافة إذن يختلف القوم ، ومن أجلها يقتتلون .. أما دم عثمان فلم يكن إلا ذريعة يتذرع بها إلى هذا الصراع ، الذى لا بد أن يتكىء إلى سبب ، ولم يكن ثمة من سبب أقوى من المطالبة بدم الخليفة الشهيد !

وأكثر من هذا ...

---

(١) سمى عام الجماعة لأن الحسن بن على رضى الله عنه عقد صلحاً مع معاوية ، وبايع له بالخلافة ، على أن يكون هو الخليفة من بعده .

(٢) العقد الفريد جزء ٣ ص ١٢٦

فإنه لم يكن الطلب بدم عثمان مجرد دعوة إلى القصاص من قتلته . ولـكن كان دعوة إلى « الثأر » له !! والقصاص شيء ، والثأر شيء آخر ! !

القصاص .. عن قضاء ، يُرَدّ الأمر فيه إلى حكم الله ، وإلى شريعة الله !!

والثأر .. عن انتقام يُحتكم فيه إلى عصبية الجاهلية ، وشريعة الجاهلية[1]

وقد جرت كلمة «الثأر» لدم عثمان منذ الأيام الأولى لخلافة عليّ !

الثأر .. مِن من ؟

مِنَ الخليفة . . وممن انضوى إلى الخليفة !

وإذن فهى الحرب !

وقد كانت الحرب فعلا !

وسنرى كيف : استشرى هذا الشر ، وكيف مزّق وحدة المسلمين ، وفرّق كلمتهم ! وكان حصاده أنهاراً من الدماء أُريقت ، وعشراتِ الألوف من الأرواح أزهقت ، وفِرقاً كبيرة من المسلمين ، شَرَدت وضلّت !

* * *

(١) وصف الإمام على تلك الحال فى كلمته التى رويناها منذ قليل ، وفيها يقول : «هذا الأمر أمر جاهلية » .

بين عليّ وعائشة

خلاف قديم :

ليس الذى كان بين أم المؤمنين عائشة ، وبين أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب من خلاف ، أمراً طارئاً ، نجم عن اختيار علىّ للخلافة ، دون طلحة ، الذى كانت ترشّحه لها أم المؤمنين ، وتتوقعها له !

وإنما لهذا الخلاف دوافع كثيرة ، ازداد بها مع الأيام اتساعاً وعمقاً !

وقد كان ابن أبى الحديد طلب إلى شيخه أبى يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعانى ، أن يكشف له عن سرّ هذا الخلاف ،الذى كان بين علىّ وعائشة . ! وقد جاء حديث الشيخ فى هذا ، دقيقاً ، واضحاً ، واقعياً .. ولهذا رأينا أن ننقله هنا . . لنأخذ منه الجواب على هذا السؤال : لماذا قادت السيدة عائشة معركة الجمل ، ضدّ علىّ ؟

يقول ابن أبى الحديد ، على لسان شيخه أبى يعقوب :

« أول بدء الضِّغن كان بينها (أى السيدة عائشة) وبين فاطمة !

« وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عقيب موت خديجة ، فأقامها مقامها . .

«وفاطمة هى ابنة خديجة ! ومن المعلوم أن ابنة الرجل ، إذا ماتت أمها ، وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَر وشنآن . . وهذا لابدّ منه ، لأن الزوجة تَنفَسُ عليها ميلَ الأب ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة ، كالضرّة لأمها ، بل هى ضرّة على الحقيقة ، وإن كانت الأم ميتة !

ولأنا لو قدّرنا الأم حيّة ، لـكانت العداوة مضطرمة مستمرة ، فإذا كانت قد ماتت ، ورثت ابنتها تلك العداوة . .

«ثم اتفق أن رسول الله ، مال إليها وأحبّها ، فازداد ماعند فاطمة بحسب زيادة ميله !

«وأكرم رسول الله فاطمة إكراماً عظيما ، أكثر مما كان الناس يظنونه ، وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم ، حتى خرج بها عن حب الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاص والعام مراراً ، لامرة واحدة ، فى مقامات مختلفة، لا فى مقام واحد : إنها سيدة نساء العالمين ، وإنها عديلة مريم بنت عمران . . وأنها إذا مرت فى الموقف نادى منادٍ من جهة العرش : يا أهل الموقف .. غُضّوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد[1] .. وهذا من الأحاديث الصحيحة ، وليس من الأحاديث المستضعفة . . وأن إنكاحه علياً إياها ما كان إلا بعد ما أنكحه الله إياها ، بشهادة الملائكة . . وكم قال : يؤذينى مايؤذيها ، ويغضبنى مايغضبها ، وإنها بُضعة منى . . يريبنى ما يريبها !

فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة ، حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل .. والنفوس البشرية تَغبِط على مادون هذا ، فكيف هذا ؟

«ثم حصل عند بعلها ـ أعنى علياً ـ ماهو حاصل عندها . . فإن النساء كثيراً مايحصّلن الأحقاد فى قلوب الرجال . لاسيما وهن محدّثات الليل ، كما قيل فى المثل !

« وكانت ـ أى فاطمة ـ تكثر الشكوى من عائشة ، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها ، فينقلن إليها كلمات عائشة . . ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة !!

---

(١) لم يقل الرسول ذلك إلا عن أمر ربه ، وما ينطق عن الهوى

وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها ، كانت عائشة تشكو إلى أبيها .. فحصل في نفس أبي بكر أثر ما !

« ثم تزايد تقريظ الرسول لعليّ ، وتقريبه ، واختصاصه ، فأحدث ذلك حسداً له ، وغبطة في نفس أبي بكر ، وهو أبوها ، وفي نفس طلحة ، وهو ابن عمها ، وهي تجلس إليهما ، وتسمع كلامهما ، وهما يجلسان إليها ويحادثانها .. فأعدى إليها منهما ، كما أعدتهما .. ولست أبرىء علياً من مثل ذلك !!

« ثم كان بينها — أي عائشة — وبين عليّ في حياة الرسول ، أحوال وأقوال ، كلها تقتضي تهييج ما في النفوس .. اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة ، بنين وبنات ، ولم تلد هي ولداً ، وأن رسول الله كان يقيم ابني فاطمة مقام بنيه ، ويسمّى الواحد منهما : ابني ، ويقول: ادعوا إليّ ابني ، وما فعل ابني ؟

« فما ظنك بالزوجة ، إذا حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يتبنى بني ابنته من غيرها ، ويحنو عليهم حنوّ الوالد المشفق ؟ هل تكون محبة لأولئك البنين ولأمّهم ولأبيهم ، أم مبغضة ؟ وهل تودّ بقاء ذلك واستمراره أم زواله وانقضاءه ؟ ..

« وولد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إبراهيم من مارية ، فأظهر عليّ بذلك سروراً كثيراً ، وكان يتعصب لمارية ، ويقوم بأمرها عند رسول الله .

« وجرت لمارية نكبة فبرأها عليّ منها ، وكشف بطلانها ، وكشف الله على يده ، وكان ذلك كشفاً محساً بالبصر ، لا يتهيأ للمنافقين أن يقولوا فيه ![1]

---

(١) وملخص هذه الواقعة أن مارية كان قد صحبت معها من مصر عبداً بعثه معها المقوقس إلى النبي ، وكان يلازمها ، ويكثر من الدخول عليها ، وقد شك النبي فيما بينه وبين مارية ، فكان علي هو الذي جلى هذا الشك حين رأى العبد مجبوباً !

وكل ذلك مما يوغر صدر عائشة عليه ، ويؤكد مافى نفسها منه ! . . .

« وكانَ يبْلُغه — أى علىّ — وفاطمة ، عنها ، كل مايكرهانه ، منذ مات رسول الله ، إلى أن توفيت فاطمة ، وهما صابران على مضض ، ورمض . !

«واستظهرت — عائشة — بولاية أبيها،واستطالت،وعظم شأنها،وانخزل علىّ وفاطمة ، وخُذلا ، وقهرا .. وأخذت فَدَك .. وخرجت فاطمة تجادل فى ذلك مراراً ، فلم تظفر بشىء .. وفى ذلك تبلغها النساء الداخلات والخارجات عن عائشة كل كلام يسوءها ، ويبلّغْنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك ، إلا أنه شتان مابين الفريقين..هذه غالبة ، وتلك مغلوبة ، وهذه آمرة وتلك مأمورة .. وظهر التشفى والشماتة ، ولا شىء أعظم مرارة ومشقة من تشفّى العدوّ ! ! . .

« ثم بايع علىّ أباها ، فسُرّت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة ، وبطلان منازعة الخصم ، ماقد نقله الناقلون ، فأكثروا ..

«واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها ، وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلى ، والأحقاد تذيب الحجارة .. وكلما طال الزمن على علىّ تضاعف همومه وغمومه ، وباح بما فى نفسه ، إلى أن قتل عثمان ! وقد كانت عائشة أشد الناس عليه (أى على عثمان) تأليباً وتحريضاً .. فقالت : أبعده الله !

«وأمّلت أن تكون الخلافة فى طلحة ، فتعود الإمْرة تيمية ، كما كانت أولا . . فعدل الناس عنه إلى علىّ بن أبى طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت وقالت :

«واعثماناه .. قُتل عثمان مظلوماً !

«وثار مافى الأنفس ، حتى تولدمن ذلك؛ يومُ الجمل وما بعده !

يقول ابن أبى الحديد تعليقاً على كلام شيخه : هذه خلاصة كلام الشيخ أبى يعقوب ، ولم يكن يتشيع ! !

ونقول : إن من أسباب البغضة التى انطوت عليها نفس السيدة عائشة لعلى ، ما كان فى حديث الإفك ، وما قيل من أن عليًا قال للنبى صلى الله عليه وسلم وقد سأله الرأى فيما يقول الناس : « النساء غيرها كثير » . فإذا صحّ هذا ؛ كان للسيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن تجفوَ عليًا ، وأن تحمل فى نفسها موجدة عليه !

وقد كشف الإمام علىّ ــ رضى الله عنه ــ فى أكثر من موقف ، وفى أكثر من خطبة ، عمّا فى قلب عائشة له من بغضة .. يقول فى بعض خطبه : « أما فلانة [1] ، فقد أدركها ضعف فى النساء ، وضغن غلا فى صدرها كمرجل القَيْن ، ولو دُعيت لتنال من غيرى ما أتت إلىّ لم تفعل ، ولها بعد ذلك حرمتها الأولى ، والحساب على الله ، والله يعفو عمن يشاء ، ويعذب من يشاء » [2]

ولا نرى أن مثل هذه الأمور مستبعدة أن تقع حيث وقعت ، فى نفوس طيبة طاهرة ، وأن تجرى بين تلك الصفوة الكريمة المتخيّرة من المسلمين ، فى عهد النبوة . فتلك هى الطبيعة البشرية ، التى من شأنها أن تسخط وترضى ، وتكره وتحب ! .

وإذن فلا نتشكك كثيراً فيما نُقل إلينا من أنباء هذا الصراع ، الذى كان فى تلك الفترة ، بين صحابة رسول الله ، فهو طبيعة ملازمة للحياة البشرية ، ناجم عن اختلاف فى النظر إلى الأمور ، وفى تقدير مُحصِّلِ الخير منها ، وفى الموازنة بين حساب النفس ، وحساب الجماعة من هذا الخير ! .

---

(١) يقصد السيدة عائشة ، وقد شاء له دينه وأدبه ألا يصرح باسمها فى مقام الاتهام ، لما لها من حق الأمومة ، ولمكانتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) نهج البلاغة ، شرح ابن أبى الحديد جزء ٢ ص ٤٦٥ ، وكنز العمال جزء ٩ ص ٢١٥ .

طلحـة والزبير :

ذكروا أن طلحة والزبير أتيا عليًا ، بعد فراغ البيعة ، فقالا : هل تدرى علامَ بايعْناك يا أمير المؤمنين ؟ . قال علىّ : نعم ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ! فقالا : لا ، ولـكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر . . ! قال علىّ : لا ، ولـكنكـما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز ، والأَوَد ! »[1].

وروى اليعقوبى فى تاريخه ، قال : « أتاه طلحة والزبير ، فقالا : إنه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة ، فأشرِكْنا فى أمرك ! فقال : أنتما شريكاى فى القوة ، وعوناى على العُجز والأود[2] ».

لم يرض طلحة والزبير بهذا الموقف من علىّ ، وأظهرا الخلاف له ، والقول فيه .. فكان طلحة يقول : ما اللوم إلا علينا .. كنا ثلاثة من أهل الشورى[3] ، كرهه أحدنا ، وبايعناه ، وأعطيناه ما فى أيدينا ، ومنعنا ما فى يده ! .

« قالوا : واستشار على ابن عباس ، وكان قد استوزره ، فقال له : بلغك قول هذين الرجلين ؟ قال : نعم! قال فما ترى ؟ قال : أرى أنهما أحبّا الولاية .. فولّ البصرة الزبير ، وولّ طلحة الـكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك ، من الوليد وابن عامر ، من عثمان ! » .

« فقال علىّ : ويحك ! ! إن العراقين بهما الرجال ، ومتى تملّـكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقَوِيَا على القوىّ

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة جزء ١ ص ٥١ .

(٢) اليعقوبى ص ١٢ .

(٣) هم : طلحة والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وقد اعتزل سعد ، فلم يبايع .

بالسلطان ، ولو كنتُ مستعملا أحداً لضَرّه ، ونفعه ، لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لـكان لى فيهما رأى ! » .

تُرى لو كان معاوية مكان علىّ فى هذا الموقف أكان يجعل طلحة والزبير يُفلتان من يده ، ويخرجان عن طاعته وسلطانه ، فلا يملـكهما بالإمارة ، ولا يشدّهما إليه بالولاية ؟ لقد اصطاد معاوية بتدبيره المغيرة بن شعبة ، وحوله من موقفه الحيادى الذى وقفه بعد مقتل، عثمان إلى موقف العدوان على علىّ ، والتطاول عليه بالسبّ واللعن . كما فعل ذلك أيضا بعمرو بن العاص، وزياد بن أبيه ، وغير هؤلاء من الصحابة والتابعين . !

إنها السياسة ، وهى الحرب . . يقاتل فيها المقاتلون بكل سلاح ، وينشدون النصر بكل وسيلة ؟ .

ولـكنّ الإمام علىّ كرم الله وجهه ، يقيم أمره فى الحرب والسلم ، ومع الأعداء والأولياء ، على ميزانٍ واحد،لا يختلف أبداً . . وهو ميزان الحق ، والعدل ، ولو كان فى ذلك الهزيمة والهلـكة ! .

* * *

مضت أربعة أشهر من خلافة علىّ ، وأم المؤمنين عائشة فى مكة ، تقول فى علىّ ، وتسمع فيه ، فاجتمع حولها المنابذون لعلىّ ، من بنى أمية وغيرهم ! .

ثم استدعت إليها طلحة والزبير ، فجاءا إلى علىّ فقالا : إنا نريد العُمرة ، فأذنْ لنا فى الخروج ! فقال علىّ لبعض أصحابه : « والله ما أرادا العمرة ، لـكنهما أرادا الغَدْرة ، » فأذن لهما فى الخروج ، فخرجا من المدينة ، والتحقا بأم المؤمنين ! .

التدبير للحرب :

فى مكة تجمعت القوى المتألبة على الخليفة،وقد علم القوم أن عليًّا استنفر الناس لحرب معاوية فى الشام ، بعد أن أبى البيعة ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون ،

فأداروا أمرهم ، وجعلوا يُعدّون العدّة لملاقاة علىّ وقتاله ، ليكونا جبهة مع معاوية فى محاربته !

أخرج الطبرى من الزهرى ، قال : « ثم ظهرا — يعنى طلحة والزبير — إلى مكة — بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ، وابن عامر[1] بها يجرّ الدنيا وقدم يعلى ابن أمية[2] معه، بمال كثير ... فاجتمعوا فى بيت عائشة ، فأداروا الرأى .. فقالوا : نسير إلى علىّ فنقاتله ! .

«فقال بعضهم : ليس لكم طاقة بأهل المدينة ، ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة ، ولطلحة بالكوفة شيعة وهوًى ، وللزبير بالبصرة هوًى ومعونة ! .

فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة . . فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإبلاً ، فخرجوا فى سبعمائة رجل من أهل المدينة والكوفة ، ولحقهم الناس ، حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل، وأعان يعلى بن أمية، الزبيرَ بأربعمائة ألف ، وحَمَلَ سبعين رجلا من قريش ، وحمل عائشة على جمل يقال له « عسكر » أخذه بثمانين دينارا[3] » .

ويقول ابن قتيبة : « لما اجتمع طلحة والزبير ، ودووها ، مع عائشة ، وأجمعوا على المسير من مكة ، أتاهم عبد الله بن عامر ، فدعاهم إلى البصرة ، ووعدهم الرجال والأموال .. فقال سعيد بن العاص لطلحة والزبير : إن عبدالله ابن عامر يدعوكما إلى البصرة ، وقد فرّ من أهلها فرار العبد الآبق ،

---

(١) هو عبد الله بن عامر ، ابن خال عثمان ، وكان والياً على البصرة ، وقد عزله عنها أهلها فى خلافة عثمان .

(٢) يعلى بن منبه بن أمية كان عاملا لعثمان على اليمن .

(٣) الطبرى .. جزء ٥ ص ٦٠ .

وهم فى طاعة عثمان ! ! ويريد أن يقاتل بهم علياً ، وهم فى طاعة علىّ ؟ وخرج من عندهم أميراً ، ويعود إليهم طريداً ! وقد وعدكم الرجال والأموال . . فأما الأموال فعنده ، وأما الرجال فلا رجل !

« فقال مروان بن الحكم : أيها الشيخان ، مايمنعكما أن تدعُوَا الناس إلى بيعة مثل بيعة علىّ ، فإن أجابوكما ، عارضتماه ببيعة كبيعته ، وإن لم يجيبوا عرفتم مالكم فى أنفس الناس ؟

«فقال طلحة : يمنعنا أن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم ننقضها ؟

«وقال الزبير : ويمنعنا ، تثاقُلُنا عن نصرة عثمان ، وخِفّتنا إلى بيعة علىّ !

فقال الوليد بن عقبة : إن كنتما أسأتما فقد أحسنتما ، وإن كنتما أخطأتما ، فقد أصبتما ، وأنتما اليوم خيرٌ منكما أمس !

« فقال مروان : أما أنا فهَوَاىَ الشام . وهوا كما البصرة ، وأنا معكم ، وإن كانت الملكة ! (١)

ابن عمر :

«فلما استقام أمر القوم ، واجتمعت كلمتهم على المسير ، قال طلحة الزبير : إنه ليس شىء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخَص لعبد الله ابن عمر !

فأتياه ، فقالا :

«يا أبا عبد الرحمن .. إن أمّنا عائشة ، قد خفّت لهذا الأمر ، رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا . . فإن لك بها أسوة . . فإن بايَعنَا الناسُ فأنت أحقُّ بها !!

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٢ .

«فقال ابن عمر : أيها الشيخان.. أتريدان أن تخرجانى من بيتى ، ثم تُلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟

«إن الناس إنما يُخْدَعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عِياناً، فى عافية أنا لها ! فانصرفا عنه ..

ثم غـدا مروان إلى طلحة والزبير ، فقال لهما : عاودا ابن عمر ، فلعله يثيب !!

فعاوداه .. فتكلم طلحة ، فقال :

يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرُبَّ حَقٍّ ضيّعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ! .. إن عليًّا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له .. وإنا نرى أن نردّها شورى ! فإن سِرْتَ معنا ، ومع أم المؤمنين ، صلُحت الأمور ، وإلا فهى الهَلَكة !!

«فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقًّا ففضلا ضَيعتُ ، وإن يكن باطلا ، فشرٌّ منه نجوت ! .. واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما .. المدينةُ خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف . ولن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه !!

«وأما الشورى فقد والله كانت .. فقُدِّم وأُخرتما ، ولن يردّها إلا أولئك الذين حكموا فيها .. فاكفيانى أنفسكما !

فانصرفا .»[1]

ولما تهيأ القوم للمسير ، اختلفوا فى الوِجهة التى يأخذونها ..

---

(١) الإمامة والسياسة .. جزء ١ ص ٦٢ .

فقال الزبير : الشام .. بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية ، وهو ابن عم الرجل – يعنى عثمان – ومتى نجتمع يولّنا عليه .. !

وقال عبد الله بن عامر : البصرة .. فإن غلبتم عليًّا فلكم الشام ، وإن غلبكم علىّ كان معاوية لكم جُنّة ! وهذه كُتُب أهل البصرة إلىّ !

وقال يعلى بن منبه – وكان داهيا – أيها الشيخان .. قدّرا قبل أن ترحلا ! إن معاوية قد سبقكم إلى الشام ، وفيها الجماعة ، وأنتم تَقدمُون عليه غداً فى فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم .. أرأيتم إن دفعكم عن الشام ، أو قال لكم أجعلها شورى ؟ ما أنتم صانعون؟ أتقاتلونه؟ أم تجعلونها شورى فتخرجان منها ؟ وأقبح من ذلك .. أن تأتيا رجلا فى يديه أمر قد سبقكم إليه ، وتريدا أن تخرجاه منه ؟

فقال القوم : فإلى أين ؟

قال : إلى البصرة !

ماذا فى البصرة ؟

سأل الزبير ، عبدَ الله بن عامر – وكان والياً على البصرة لعثمان ثم عزله أهلها عنها – :

من رجال البصرة ؟

قال : ثلاثة .. كلهم سيّد مطاع ..

كعب بن سوْر .. فى اليمن .

والمنذر بن ربيعة .. فى ربيعة .

والأحنف بن قيس .. فى مضر .

فكتب طلحة والزبير إلى كلٍّ من هؤلاء الرؤساء الثلاثة كتاباً ، يدعونه فيه إلى نُصرتهم ، والوقوف معهم .. كتبا إلى كعب بن سور :

« أما بعد .. فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنتَ غضبت لعثمان من الأذى ، فاغضبْ له من القتل والسلام ! »

فكان جوابه إليهما :

« أما بعد .. فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والطعن باللسان ، فجاء أمر الطعن فيه بالسيف .. فان يك عثمان قُتل ظالماً فما لكما وله ؟ وإن كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به .. وإن كان أمره أشكل على مَن شهده ، فهو على من غاب عنه أشكل ! »

وكتبا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعد ، فإنك وافد عمر ، وسيد مضر ، وحليم أهل العراق ، وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن قادمون عليك ، والعِيان أشفى لك من الخبر .. والسلام ! » .

فأجابهما الأحنف :

« أما بعد ، فإنه لم يأتنا من قِبلكم أمر لانشك فيه إلا قتلَ عثمان ، وأنتم قادمون علينا ، فإن يكن فى العيان فَضْل ، نظرنا فيه ونظرتم ، وإلا يكن فيه فضل ، فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة .. والسلام . »

وكتبا إلى المنذر بن ربيعة :

« أما بعد ، فان أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيداً فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصَلّى من السابق ، يقال : كاد أو لحق .. وقد قتَل عثمانَ من أنت خيرٌ منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام ! »

فأجابهما :

«أما بعد ، فإنه لم يُلحقنى بأهل الخير ، إلا أن أكون خيراً من أهل الشرّ ! وإنما أوجب حقَّ عثمان اليوم حقه أمس . . وقد كان بين أظهركم نخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأى ؟ »[1]

هذا ما كان عند أهل البصرة لأصحاب الجمل . شك وارتياب ، فى الأشخاص والمواقف ، وتوجّس واتهام ، للأقوال والأفعال !!

ومع هذا ، فقد ركب القوم طريقهم إلى البصرة ، وحثّوا المطىّ إليها ، وأصبح الناس وإذا بأصحاب الجمل على مشارف المدينة !

أحداث فى الطريق :

ومنذ أخذ القوم وجهتهم إلى البصرة ، كانت تطلع فى الطريق أحداث مقلقة ، كَسَرتْ من حدّتهم وحدتهم، فما شارفوا البصرة إلا وقد حمل كلٌّ منهم فى نفسه همّاً يطرقه ، أو خاطراً يؤرقه ، أو وَسواساً يقيمه بين اليقين والشك ، ويردّده بين الإقدام والإحجام . . فى الطريق ، تلقت أم المؤمنين عائشة ، من أم المؤمنين ، أم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ كتاباً تقول فيه : « ياعائشة .. إنك سُدَّة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أمته . . حجابك مضروب على حرمته ، وقد جَمَع القرآنُ ذيلك فَلا تَنْدَحِيه ، وسكّن عقيراك فلا تصحريهما ، اللهَ من وراء هذه الأمة .. قد علم رسول الله مكانك ، لوأراد أن يعهد إليك !

« ما كنتِ قائلةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف الفلوات ، ناصَّةً قلوصَك ، قعوداً من منهل إلى منهل ؟

« إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تُعرَضين !

---

(١) الإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٦٢ .

« ولو أُمرتُ بدخول الفردوس ، لاستحيَيْت أن ألق محمَّداً هاتكة حجاباً جعله الله علىّ . . »

وقد كان لمقال أم المؤمنين أم سلمة صدًى في نفس أم المؤمنين عائشة ، إذ توقفت عن الطلب بثأر عثمان ، ولكنها لم تعدل عن مسيرها ، فهى سائرة كى تصلح بين علىّ ومعاوية ، وكى ترأب هذا الصدْع الذى دبّ فى بناء المسلمين من هذا الخلاف !

وبهذا أجابت السيدةُ عائشة ، السيدةَ أمّ سلمة ، فكتبت إليها تقول :

« ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، وليس مسيرى على ماتظنين ، ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين !! »[1]

ولكن أحاديث الطريق ، وأحداثها رجعت بالسيدة عائشة إلى موقفها الأول ! !

إن طلحة والزبير قد خرجا لأمر ، ولن يرجعا إلا إذا قضيا منه مأربهما ، أو لقيا مصرعهما . . وقد خرجا مع أم المؤمنين على هذه النيّة .. خلْع علىّ عن الخلافة ، أو القتال . .

ولم يكن من الهيّن عليهما ـ والأمر كذلك ـ أن تعدل بهما عن هذا الطريق ، وقد جمعا الناس لهذا ، وأعلنا فيهم القصد الذى يقصدان !

ومرة أخرى ، يطلع على أم المؤمنين من وراء الغيب ، داع يدعوها إلى أن تلْوى عنان جملها إلى المدينة ، وتترك هذا المركب الوعر الذى ركبته ، وتسكن إلى بيتها . فى جوار الرسول !

---

(١) العقد الفريد جزء : ٣ ص ٦٩ ، والإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٥٧

روى الطبرى وابن قتيبة أن القوم إذ كانوا ببعض الطريق إلى البصرة سمعت السيدة عائشة نباح كلاب . .

فقالت : أيُّ ماء هذا ؟

فقالوا : الحوأب !

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .. إنى لَهِيَه ! وما أُرانى إلا راجعة !

قالوا : ولم ؟

قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحدا كنَّ قد نبحتها كلابُ الحوأب .. وإياك أن تكونى أنت ياحميراء » .

فقال لها محمد بن طلحة : تقدمى رحمك الله ، ودعى هذا القول ، وأتاها ببينة زور من الأعراب . »[1]

وأتى عبدُ الله بن الزبير ، فحلف لها بالله : لقد خلَّفتِه أولَ الليل !

ومضت أم المؤمنين متكرهة ، وفى صدرها وَسواس ، وفى نفسها ضيق وبَرَم !

وفى الطريق أيضاً :

أذّن مروان للصلاة ، حين فصل من مكة .. ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير ، فقال : على أيكما أُسلِّم بالإمرة ، وأؤذن بالصلاة ؟

فقال عبد الله بن الزبير : على أبى عبد الله !

وقال محمد بن طلحة : على أبى طلحة !

وسمعت عائشة ـ رضى الله عنها ـ هذا الخلاف .. فأرسلت إلى مروان ،

---

(١) الطبرى جز : ٥ ص ١٧٨ والإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٤ ٦

فقالت : مالك ؟ أتريد أن تفرّق أمرنا ؟ ليصلّ ابن أختي .. فكان يصلّي بهم عبد الله بن الزبير ، حتى قدموا البصرة !

فكان معاذ بن عبيد الله يقول : والله لوظفرنا لافتتنّا .. ماخلّي الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلّي طلحة بين الزبير والأمر !! »

ومن أحداث الطريق كذلك ..

لما نزل طلحة والزبير وعائشة ، بأوطاس من أرض خيبر ، أقبل إليهم سعيد بن العاص[1] عَلَى نجيب ، فأشرف على الناس ، ومعه المغيرة بن شعبة ، فنزل ، وتوكأ على فرس له سوداء ، فأتى عائشة ، فقال لها : أين تريدين يا أم المؤمنين ؟

قالت : أريد البصرة !

قال : وما تصنعين بالبصرة ؟

قالت : أطلب بدم عثمان !

قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك !

ثم أقبل على مروان .. فقال : وأنت أين تريد أيضاً ؟

قال : البصرة !

قال : وما تصنع بها ؟

قال : أطلب قتلة عثمان !

قال . فهؤلاء قتلة عثمان معك ! إن هذين الرجلين ـ طلحة والزبير ـ قتلا عثمان ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غُلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة ! !

---

(١) كان سعيد بن العاص عاملا لعثمان على الكوفة بعد أن عزل عنها الوليد ابن عقبة ، فلما قتل عثمان ، عزل ولم يشهد الجمل ولا صفين .

ثم قال المغيرة بن شعبة : أيها الناس .. إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم ، فارجعوا بها خير لـكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان ، فرؤساكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نَقَمتم على عليّ شيئاً ، فبينوا ما نقمتم عليه .. أنشدكم الله . فِتنَتَيْن فى عام واحد ؟؟ فأبَوا إلا أن يعضوا بالناس ! !

فلحق سعيد بن العاص باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف .. فلم يشهدا شيئاً من حروب الجمل ولاصفين »[1]

ولو أن شيئاً كان صارفاً أصحاب الجمل عند مسيرهم هذا ، لصرفتهم تلك الأحداث التى طلعت عليهم من أول الطريق ، ثم صحبتهم ، مرحلة مرحلة ، حتى بلغوا مشارف البصرة ! ولـكنه القضاء ، ومصارع الرجال !

أصحاب الجمل .. فى البصرة :

كانت البصرة قد أعلنت بيعتهـا لعلىّ — كرم الله وجهه — وأعطته ولاءها ، ونصرها ..

وكان على البصرة ، عثمانُ بن حنيف ، الأنصارى ، صاحب رسول الله ، وقد آخى الرسول بين أخيه سهل بن حنيف ، وبين علىّ بن أبى طالب !

وحين علم عثمان بن حنيف أن القوم شارفوا البصرة ، دعا عمران بن حصين ، صاحب رسول الله ، وأبا الأسود الدؤلى ، وطلب إليهما أن يلقيا القوم ، وأن يَعْذِرا إليهما ، لعلّ الله يكشف عن المسلمين غواشىَ هذا البلاء !

فلما انتهيا إلى القوم ناديا : ياطلحة ، فأجابهما ..

---

(١) الإمامة والسياسة جزء : ١ ص ٦٣ .

فتـكلم أبو الأسود الدؤلى ، فقال : يا أبا محمد . . إنـكم قتلتم عثمان غير مُؤامِرين لنا فى قتله ، وبايعتم علياً غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قُتل،ولم نغضب لعلى إذ بويع ، فأردتم خلع علىّ ، ونحن على الأمر الأول ! فعليـكم المخرج مما دخلتم فيه !!

ثم تـكلم عمران ، فقال : يا طلحة . . إنـكم قتلتم عثمان ، ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ، ثم بايعتم علياً وبايعنا من بايعتم ، فإن كان قتل عثمان صواباً ، فَسيْركم لماذا ؟ وإن كان خطأ فحظـكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأوفى! »

فقال طلحة : ياهذان . . إن صاحبكم لايرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ، والله ليُسفـكنّ دمُه ! !

فقال أبو الأسود : ياعمران .. أمّاهذا ، فقد صرح أنه إنما غضب للمُلك !

ثم أتيا الزبير . . فقالا : يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلحة ! فقال الزبير : إن طلحة وإياى كروح فى جسدين ، وإنه والله ياهذان ، قدكان منّا فى عثمان فَلَتَات ، احتجنا فيها إلى المعـاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرناه ؛ نصرناه !

ثم أتيا عائشة ، فقالا : ياأم المؤمنين .. ماهذا المسير ؟أمعك من رسول الله به عهد ؟

قالت : قُتل عثمان مظلوما .. غضبنا لـكم من السوط والعصا ، ولانغضب لعثمان من القتل ! ؟

فقال أبو الأسود : وما أنتِ من عصانا ، وسيفنا ، وسوطنا ؟ وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أَمَرك أن تَقَرّى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ! ؟

فقالت : وهل أحدٌ يقاتلنى ؟

قال : أمَا والله لتقاتَلِنّ قتالا أهونَه الشديد ! »[1]

لم يكن القوم على رأى سواء فيما جاءوا له .. يلقوْن الناس بمعاذير شتى.. يقولون مرة : إنهم جاءوا للثأر بدم عثمان . . ومرة : إنهم جاءوا للاستعداء على علىّ ؛ أن استأمر على الناس دون مشورة من أصحاب الشورى !

وقد كان لأهل البصرة حجة ظاهرة على أصحاب الجمل ! فهم لم يدخلوا من أمر عثمان فى شىء ، ولم يكن لهم من أمر علىّ شىء !

روى الطبرى عن نصر بن مزاحم ، قال : أقبل جارية بن قدامة السعدى ، على عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أم المؤمنين ، والله لَقَتْلُ عثمان بن عفّان أهونُ من خروجك على هذا الجمل الملعون ، عرضةً للسلاح ! إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك ، وأبحت حرمتك . . إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك.. إن كنتِ أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس ! »[2] .

قالوا : وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة ، فقال له: حدّثنى عن قتلة عثمان ! قال : نعم . . دم عثمان على ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعنى عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعنى طلحة) وثلث على علىّ ابن أبى طالب !

فضحك الجهنى ، ولحق بعلىّ بن أبى طالب !

قالوا : وبلغ طلحة قول ابنه محمد ، وكان محمد من عُبَّاد الناس ، فقال له : يامحمد أتزعم عنّا قولك إنى قاتل عثمان ؟ كذلك تشهد على أبيك ؟ كن

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ص ٦٤ والبيان والتبيين للجاحظ جزء١ ص٢٠٩

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ١٧٦ .

كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه .. كفَّ عن قولك ، وإلا فارجع ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة !
فقال محمد : ماقلت إلا حقا ! ولن أعود ! »[1]

محنة أهل البصرة :

تقدمت أم المؤمنين رَكْبَ أصحاب الجمل ، فدخلت البصرة ، يحفّ الناس بها ، وهى على جملها « عسكر » .. وقد خرج أهل البصرة ، يشهدون هذا الحَدَث العظيم !

عائشة .. زوج رسول الله ، والحبيبة ابنة الحبيب أبى بكر ، تطلع عليهم من بيت الرسول ؟ إنها هوَى كل قلب ، وأمنية كل نفس ، أن ترى أثراً من آثار الرسول ، وتعرف حالا من أحواله !

وهذه عائشة .. أثر حيّ من آثار النبيّ .. يرى فيها النّاس بعضّ النبى ، ويجدون منها ريح النبوّة !

« ذكروا : أنه لما نزلت عائشة البصرة .. اصطف لها الناس فى الطريق .. يقولون : يا أم المؤمنين .. ما الذى أخرجك من بيتك ؟ فلما أكثروا عليها ، تكلمت بلسان طلق ، وكانت من أبلغ الناس ، فحمدت الله ، وأثنت عليه ، ثم قالت : أيها الناس .. والله مابلغ من ذنب عثمان أن يُستحلّ دمه ، ولقد قتل مظلوماً .. غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولانغضب لعثمان من القتل ؟ وإن من الرأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان ، فيُقتَلوا به ، ثم يردّ هذا الأمر شورى ، على ماجعله عمر بن الخطاب .. ولا يدخل فيهم من شَرِكَ فى دم عثمان ! »[2]

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٦ .

(٢) الطبرى جزء : ٥ ص١٧٨ .

إن أصحاب الشورى الذين تشير إليهم أم المؤمنين هم علىّ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ا وهى تدعو إلى أن تنحلّ بيعة علىّ ، ويعود الأمر شورى بين هؤلاء الأربعة الباقين من أصحاب الشورى ، على ألا يدخل فيهم من شَرِكَ فى دم عثمان !

ومفهوم هذا أن يخرج علىّ من بين هؤلاء ، فلا يكون خليفة ، ولا يكون له رأى فى الخليفة ! فإن طلحة والزبير ـ على هذا القول ـ لم يشاركا فى دم عثمان ، لأنهم إنما جاءا ليطالبا بدمه ، وليقتلوا قتلته !! وسعد بن أبى وقاص كان قد اعتزل الفتنة ، فلم يكن له شأن فى أمر عثمان أو علىّ . ا

« وقالوا : إنه حين سمع الناس كلام أم المؤمنين ، اختلفوا عليها . . فمن قائل يقول : صدقت ، وآخر يقول : كذبت ! فلم يبرح الناس يقولون ذلك حتى ضرب بعضهم وجوه بعض !!

« قالوا : وبينما القوم فى تلك الحال ، أتاهم رجل من أشراف البصرة ، بكتاب كان كتبه طلحة فى التأليب على قتل عثمان . فقال لطلحة : هل تعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم !

«قال : فما ردُّك على ما كنتَ عليه ؟ .. كنت أمس تكتب إلينا ، تؤلّبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ؟ وقد زعمتما أن علياً دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله ، إذ كنتما أسنَّ منه ، فأبيتما إلا أن تقدماه ، لقرابته وسابقته ، فبايعتماه ، فكيف تنكثان بيعتكما بعد الذى عرض عليكما ؟

«قال طلحة : دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل ، ولو فعل أَبى ذلك المهاجرون والأنصار ! وخِفنا أن نردَّ بيعته فنُقتل ، فبايعناه كارهين !

قال : فما بدا لـكما فى عثمان ؟

قالا : ذَكَرْنَا ماكان من طعننا عليه ، وخِذْلاَننا إياه ، فلم نجد من ذلك مخرجاً إلا الطلب بدمه !!

قال : ما تأمرانى به ؟

قالا : بايِعْنا على قتال علىّ ، ونقض بيعته !

قال : أرأيتما إن أتانا بعدَكُما مَن يدعونا إلى ماتدعوان إليه .. مانصنع ؟

قالا : لاتبايعه .

قال : ما أنصفتما .. أتأمرانى أن أقاتل علياً ، وأنقض بيعته ، وهى فى أعناقـكما ، وتنهيانى عن بيعة من لابيعة له عليكما ؟ أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئتما بايعنا كما بيسار أيدينا !!

قالوا : ثم تفرق الناس ..

فرقة مع عثمان بن حنيف .. أمير البصرة .

وفرقة مع طلحة والزبير .. »[1]

وروى الطبرى أن عثمان بن حنيف ، عامل البصرة ، تقدم إلى أصحاب الجمل ، حين دخلوا المدينة ، فقال لهم :

مانقمتم على صاحبكم ـ يعنى علياً ؟

فقالوا : لم نره أولى بها ـ أى الخلافة ـ منا ، وقد صنع ماصنع !

فقال لهم : إن الرّجل أمّرنى ، فأكتبُ إليه ، فأعلمه ماجئتم له ، على أن أصلّى بالناس حتى يأتينا كتابه .. فوافقوا على ذلك .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٩ .

قال : ثم لم يلبثوا إلا يومين ، حتى وثبوا عليه ، فقاتلوه ، وظهروا عليه ، ثم أرادوا قتله ، فخافوا غضب الأنصار له ، فنالوه فى شعره ، وفى جسده![1] . »

ويقول ابن قتيبة : إنه لما اختلف القوم ، اصطلحوا على أن لعثمان ابن حُنَيف دارَ الإمارة ، ومسجدها وبيت المال ، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا ، حتى يقدم علىّ . . فإن اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وإن يتفرقوا يلحقْ كل قوم بأهوائهم . . عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيّه ، وأشهدوا شهوداً من الفريقين جميعاً !

« فانصرف عثمان ، فدخل دار الإمارة ، وأمر أصحابه أن يلحقوا بمنازلهم ، ويضعوا سلاحهم .. وافترق الناس ، وكتموا ما بأنفسهم ، غير بنى عبد القيس ، فإنهم أظهروا نصرة علىّ ، وكان حكيم بن جبل رئيسهم ، فقال لهم :

« يامعشر عبد القيس : إن عثمان بن حنيف ، دمه مضمون ، وأمانته مؤدّاة ، وايم الله لو لم يكن علىّ أميراً لمنعناه ، لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف وله الولاية والجوار ؟ فاشخصوا بأنصاركم ، وجاهدوا العدوّ ، فإما أن تموتوا كراما ، أو تعيشوا أحراراً . .

« ومكث عثمان بن حنيف فى الدار أياماً .. ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف الليل فى جماعة معهم ، فى ليلة مظلمة سوداء مطيرة ، وعثمان نائم ، فقتلوا أربعين رجلاً من الحرس ، فخرج عثمان بن حنيف ، فشدّ عليه مروان فأسره ، وقتل أصحابه ، فأخذه مروان ، فنتف لحيته ، ورأسه ، وحاجبيه[2] .

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٧٨ .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ص ٧٠ .

قال اليعقوبي : « وانتهبوا بيت المـال ، وأخذوا ما فيه ، فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير ،وجذب كل منهما صاحبه، حتى فات وقت الصلاة ، وصاح الناس : الصلاةَ الصلاةَ . . ياأصحاب محمد ، فقالت عائشة : يصلّى بالنّاس محمد بن طلحة يوماً ، وعبد الله بن الزبير يوماً ! » .

قال المسعودى : وقتلوا سبعين رجلاً من الحرس ، غير من جُرح ، وخمسون من السبعين ضربت أعناقهم صبراً بعد الأسر ! » .

مسيرة علىّ :

وخرج علىّ من المدينة ، بعد أربعة أشهر من خلافته ، وبعد أن أعذر إلى معاوية بالـكتب والرسل ، يدعوه إلى البيعة له ، فلم يقبل ، وأبى عليه إلا أن يردّ الأمر شورى فى المسلمين ، وإلاّ أن يقتل قتلة عثمان ! .

وخرج مع علىّ تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار ، من أهل السبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم بشر كثير من أخلاط الناس ! وولّى على المدينة قُثَم بن عباس ! وأمره أن يُشخص إليه من أحبّ الشخوص ، ولا يحمل أحداً على ما يكره . . نخفّ الناس إلى علىّ ، ومضى معه مِن ولده ، الحسن والحسين ومحمد .

وفى رواية ، أن علياً أمّر على المدينة عثمان بن حُنيف الأنصارى ، وأنه خطب فى الناس ، خطبة قال فيها : « . . . وإنى بُليت بأربعة : .

أدهى الناس ، وأسخاهم . . طلحة !

وأشجع الناس . . الزبير !

وأطوع الناس فى الناس . . عائشة !

وأسرع الناس إلى فتنة . . يعلى بن أمية !

«والله ما أنكروا علىّ منكراً ، ولا استأثرتُ بمال ، ولا مِلتُ بهوى . . وإنهم ليطلبون حقاً تركوه ، ودماً سفكوه . . . وما تبعة عثمان إلاّ عندهم ، وإنهم لهم الفئة الباغية ، بايعونى ونكثوا بيعتى ، وما استأنَوْا[1] بى ، حتى يعرفوا جوْرى من عدلى[2]!! » .

« فلما كان علىّ ببعض الطريق ، أتاه كتاب من أخيه عَقيل بن أبى طالب . . جاء فيه :

« أما بعد يا أخى . . كَلأكَ الله ، والله جائرك من كل سوء ، وعاصمك من كل مكروه ، على كل حال .

« إنى خرجت معتمراً ، فلقيت عائشة ، ومعها طلحة والزبير ، وذووهما ، وهم متوجهون إلى البصرة ، وقد أظهروا الخلاف ، ونكثوا البيعة ، وركبوا عليك قتل عثمان ، وتبِعهم على ذلك كثير من الناس ، من طَغامهم وأوباشهم !

« ثم مرّ عبد الله بن أبى سرح ، فى نحو أربعين راكباً من أبناء الطلقاء ، من بنى أمية . . فقلت لهم وعرفت المنكر فى وجوههم : أبمعاوية تلحقون ؟ عداوة والله إنها منكم ظاهرة ، غيرة مستنكرة ، تريدون بها إطفاء نور الله ، وتغيير أمر الله ! فأسمعنى القوم ، وأسمعتهم ! !

« ثم قدمت مكة ، فسمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس ، أغار على الحيرة واليمامة ، فأصاب ما شاء من أموالها ، ثم انكفأ راجعاً إلى الشام ! !

« فأفٍّ لحياة فى زمن جرّأ عليك الضحّاك ! ! وما الضحّاك إلا فقع

---

(١) أى ما انتظروا .

(٢) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٢٦٨ .

بقرقرة[1] ! فظننت حين بلغنى ذلك أنّ أنصارك خذلوك . . فاكتبْ إلىّ يابن أمى برأيك وأمرك ، فإن كنتَ الموتَ تريد ، تحمّلتُ إليك بنى أخيك ، وولد أبيك ، فعشنا ما عشت، ومتنا معك إذا متّ . . فوالله ما أحبّ أن أبقى بعدك ، فوالله الأعزّ الأجل إن عيشا أعيشه بعدك فى الدنيا لغير هنىء ولا مرىء ، ولا نجيع ، والسلام . .

فكتب إليه الإمام ، كرم الله وجهه ، كتاباً جاء فيه :

« أما بعد يا أخى . . فكَلأَك الله كلاءة من يخشاه . . إنه حميد مجيد !

قدم علىّ عبد الرحمن الأزدى بكتابك ، تذكر فيه أنك لقيت ابن أبى سرح ، فى أربعين من أبناء الطلقاء من بنى أمية ، متوجهين إلى المغرب . وابن أبى سرح يا أخى طالما كاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدّ عن كتابه ، وسنته ، وبغاها عِوَجا .

« فدعْ ابن أبى سرح وقريشاً وتركاضهم فى الضلال . . فإن قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل اليوم . . وجهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، ونصبوا لى الحرب ، وجدُّوا فى إطفاء نور الله . . اللهمّ فاجزِ قريشاً عنى بِفعالها . . قد قطعت رحمى ، وظاهرت علىّ ، وسلبتنى سلطان ابن عمى ، وسلمتْ ذلك لمن ليس فى قرابتى ، وحقى فى الإسلام ، وسابقتى ، التى لا يدّعى مثلها مدّعٍ إلاّ أن يدّعى مالا أعرفه . . والحمد لله على ذلك كثيراً . . .

« وأمّا ما سألتَ أن أكتب إليك فيه برأيى ، فإن رأيى جهادُ المحِقّين حتى ألقى الله . . لا يزيدنى كثرة من حولى عزة ، ولا تفرّقهم عنى وحشة . .

---

(١) القفع : البيضاء الرخوة من الكمأة . . ويضرب بها المثل فى الضعف ، فيقال : أضعف من قفع بقرقرة ! ! .

لأنى مُحِقّ ، والله مع المحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كلّه بعد الموت ، لمن عقل ، ودعا إلى الحقّ ! .

« وأما ما عرضت من مسيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك ، فلا حاجة لى فى ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فوالله ماأحبّ أن تهلكوا معى إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بنى سليم :

فإن تسأليني كيف صبرى فإننى صبور على ريب الزمان صليبُ
عزيزٌ علىّ أن أرى بكآبةٍ فيشمتَ واشٍ أو يُساء حبيبُ ! »[1]

وقدم عثمان بن حنيف على علىّ وهو بالربذة ، فقال يا أمير المؤمنين : بعثتنى ذا لحية وجئتك أمرد ![2] فقال له : أصبتَ أجرًا وخيراً .

ولما نزل علىّ قريباً من الكوفة ، بعث عمارَ بن ياسر ، ومحمدَ بن أبى بكر إلى أبى موسى الأشعرى . وكان والياً لعثمان على الكوفة ، فلما قدما عليه ، قاما ، فدعوا الناس إلى نصرة علىّ ، فلما أمسوْا دخل ناس من أهل الكوفة على أبى موسى ، فقالوا : ما ترى ؟ . أنخرج مع هذين الرجلين إلى صاحبهما ؟ .

فقال أبو موسى : أما سبيل الآخرة ، ففى أن تلزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فالخروج مع من أتاكم !! فأطاعوه . . وتباطأ الناس على علىّ ! .

وبلغ عمارا ومحمدًا ما أشار أبو موسى على أولئك الرهط به . . فأتياه ، فأغلظا له فى القول .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٥٥/٥٦ .

(٢) كان أصحاب الجمل قد مثلوا به ، فنتفوا شعر رأسه ولحيته ، وآذوه أذى شديداً .

فقال أبو موسى : إن بيعة عثمان فى عنقى ، وعنق صاحبكم ، ولئن أردنا القتال ما لنا إلى قتال أحد من سبيل ، حتى نفرغ من قَتَلة عثمان ! .

ثم خرج أبو موسى ، فصعد المنبر ، ثم قال :

« أيها الناس : إن أصحاب رسول الله ، الذين صحبوه فى المواطن ، أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه[1] . وإن لكم علىّ حقاً أن أؤديه لكم . . إن هذه الفتنة . . النائم فيها خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم فيها خير من الساعى ، والساعى خير من الراكب ، فاغمدوا سيوفكم حتى تنجلى هذه الفتنة ! .

فقام عمار . . فقال :

« أيها الناس . . إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين ، ولعمرى ما صدق فيما قال ، ومارضى الله من عباده بما ذكر . . قال الله عز وجل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فآءت فأصْلِحوا بينهما بالعدل وأقسطوا » وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنة ويكونَ الدين كله لله » . فلم يرض لعباده بما ذكر أبو موسى ، من أن يجلسوا فى بيوتهم ، ويخلّوا بين الناس ، فيسفك بعضهم دماء بعض ! ! فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين ، واسمعوا من حججهم ، وانظروا مَن أولى بالنصرة فاتبعوه ، فإن أصلح الله أمرهم رجعتم مأجورين ، وقد قضيتم حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية ، فقاتلتموها ، حتى تفىء إلى أمر الله ، كما أمركم ، وافترض عليكم . . »

---

(١) كان أبو موسى من صحابة رسول الله . . فهو هنا يلفت القوم إلى تلك الصحبة .

فلما انصرفا إلى عليّ من عند أبي موسى ، وأخبراه بما كان منه بعث إليه الحسنَ بن عليّ ، وعبدَ الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، وكتب معهم إلى أهل الكوفة :

« أما بعد ، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه ، كمن عاينه .

« إن الناس طعنوا على عثمان ، فكنتُ رجلاً من المهاجرين ، أُقِلُّ عتْبة ! وأُكْثِر استعتابه . . وكان هذان الرجلان ــ طلحة والزبير ــ أهون سيرهما فيه اللَّهجة والوجيف[1] ، وكان من عائشة فيه قول على غضب[2] . . فانتحى له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غيرا مستكرَهين ، وهما أول من بايعني على ما بويع عَليه مَن قبلي ، ثم استأذنا إلى العُمرة ، فأذنت لهما فنقضا العهد ، ونصبا الحرب ، وأخرجا أم المؤمنين من بيتها ، ليتخذاها فتنة ، وقد سارا إلى البصرة اختيارًا لأهلها . . !

« ولعمري ما إياي تجيبون ، وما تجيبون إلا لله ! .

« ولقد بعثت ابني الحسن ، وابن عمّي عبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، فكونوا عند ظننا ، والله المستعان . . . »

فسار إليهم الحسن ومن معه ، وقدموا إلى أبي موسى ، فدعوه إلى نصرة عليّ . . فبايعهم .

ثم صعد أبو موسى المنبر ، وقام الحسن أسفل منه فدعاهم أبو موسى إلى نُصرة عليّ ، لقرابته من رسول الله ، وسابقته ، وبيعة طلحة والزبير إياه ، ونكثهما عهده ! وقرأ عليهم كتاب عليّ .

---

(١) اللهجة والوجيف : ضربان من السير السريع ، العنيف .

(٢) ما أحسن اعتذار الإمام عن قول السيدة عائشة في عثمان : « اقتلوا نعثلا » !

فقام شريح بن هانىء فقال : لقد أردنا أن نركب إلى المدينة ، حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به فى بيوتنـا ، فلا تخالفوا عن دعوته ، والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه ، سمعاً وطاعة .

ثم قام الحسن بن علىّ فقال :

« أيها الناس .. إنه كان من مسير أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين ، لأنكم جبهة الأنصار ، ورءوس العرب ، وقد كان من نقض طلحة والزبير بعد بيعتهما ، وخروجهما بعائشة ، مابلغكم . وأيم الله لولم ينصره منكم أحد ، لرجوت فيمن أقبل من المهاجرين والأنصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم . . »

ثم قال قام عمار بن ياسر فقال : يا أهل الكوفة . . إن كان غاب عنكم أنباؤنا ، فقد انتهت إليكم أمورنا . . إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله ؛ إلى الناس ، ولا ينكرون ذلك ، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجّيهم ، فبه أحيا الله من أحيا ، وأمات من أمات ، وإن طلحة والزبير كانا أول من طعن ، وآخر من أمر ، وكانا أول من بايعا عليا ، فلما أخطأهما ما أمّلاه نكثا بيعتهما ، من غير حدث ، وهذا ابن بنت رسول الله ، الحسن ، عرفتموه ، وقد جاءكم يستنفركم ، وقد أظلكم علىّ فى المهاجرين ، والبدريين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان . . فانصروا الله ينصركم . . »

ثم قام قيس فقال :

« أيها الناس . . إن الأمر لوْ استُقبل به أهلُ الشورى كان علىّ أحقّ بها ، وكان قتال من أبَى ذلك حلالاً ، فكيف والحجة على طلحة والزبير ، وقد بايعاه رغبة ، وخالفاه حسداً ، وجاءكم المهاجرون والأنصار . ؟ » .

وهكذا استقام أمر علىّ عند أهل الكوفة ، بعد أن تجلّت لهم الأمور ،

وانكشف لهم ما غُمَّ عليهم، وأن عليًا لم يكن إلا واحداً من المهاجرين ، أقلَّ لومه ، وأكثر عتابه . . فهكذا تواترت الأخبار بهذا الموقف الذى وقفه علىّ من عثمان .

أما البيعة . . فقد تلقاها علىّ من الناس على كره منه ، وكان طلحة والزبير أول من بايع ، حتى لقد قام من يد طلحة شاهد يشهد عليه بالبيعة . . ذلك أنه ، رضى الله عنه ، كان قد أصيب يوم أحد فى يده ، فقطعت بعض أصابع يده اليمنى ، فلما تلقى علىّ البيعة كانت أول يد مُدّت إليه يد طلحة . . فكان ذلك داعية للتشاؤم ، عند بعض المتوسمين ، ممن شهدوا البيعة !

روى الطبرى : أن حبيب بن ذؤيب نظر إلى طلحة حين بايع ، فقال : « أول من بدأ بالبيعة يد شلاء . . لا يتم هذا الأمر[1] ! » .

وروى البلاذرى . . « فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً ، فقالوا ما نرى أحداً أحق بهذا الأمر منك . . . فلما رأى علىّ ذلك صعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه فبايعه طلحة بيده ، وكانت شَلاّء ، فتطيّر منها علىّ ، وقال : « ما أخلقه أن ينكث[2] » .

فهذا شاهد يجىء من وراء القول بالبيعة ، ويدل على صدق هذا القول ، وينفى محاميل الكذب عن هذا الخبر !! وليس كتاب علىّ وحده هو الّذى جمع أهل الكوفة على نصرته . . فقد كان الصدق الذى وقع فى آذانهم وقلوبهم من كلماته ، يؤازره الصدق الذى رأته أعينهم فى وجه الحسن ورفيقيه : عبد الله بن عباس وعمار بن ياسر ! فكان ذلك سكناً للنفوس القلقة ، وطمأنينة للقلوب المضطربة ! .

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٥٣ .

(٢) أنساب الأشراف : جزء ٥ ص ٧٠ .

وأقبل عَلَى عليّ من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، ورجل ! .

عن أبى الطفيل قال : قال عليّ : « يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، ورجل » . . فقعدت على نجفة ذى قار ، فأحصيتهم ، فما زادوا رجلاً ، ولا نقصوا رجلا[1] ! » .

وجهاً لوجه :

استقام لعليّ أمر أهل الكوفة ، واستولى أصحاب الجمل على البصرة . .

وأخذ كل فريق يُعِدّ العُدّة ليوم الفصل ! .

وهو يوم يُطلّ على المسلمين بوجه كالح أغبر ، لم يعرفوه من قبل ، بل ولم يكن فى تقدير أحد منهم يومئذ أن يرى يوماً كهذا اليوم المشئوم ! ! .

صحابة رسول الله . . يقاتل بعضهم بعضا ! .؟

وأمّ من أمهات المؤمنين . . حبيبة الرسول ، وابنة الصديق أبى بكر . . تقود معركة يضرب فيها المسلمون بعضهم رقاب بعض ! ؟

إنها فتنة ، شدّت الناس شدًّا لا فكاك لهم منه ، إلى مصير مفزع مهول ! .

والعجب أن الناس ، يتحركون فى ثقل ، وفى تخاذل ، إلى ميدان المعركة ، ويودّ أحدهم لو يُنتزع انتزاعاً من موقفه الذى هو فيه ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق !! فنى ذلك وحده الشفاء لنفسه مما يعالج من بلاء وحيرة ! .

العجب أن يكون هذا هو أمر الناس — ونعنى بالناس قادة المعركة فى الفريقين — ثم تقع الواقعة ، وكأنها العاصفة دارت بهم ، فجمعت بعضهم

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٩٩ .

إلى بعض ، وضربت بعضهم ببعض ، دون أن يعرف أحد كيفَ ضَرب أو كيف ضُرب ، حتى إذا سكنت العاصفة ، كان سكونها على بحر من الدماء ، وعلى ما يملأ وجه الأرض من جثث وأشلاء ! .

هكذا الفتن تموج بالناس أمواجُها ، فلا يدرى أحد من أمر نفسه شيئاً .. إن سَلِمَ لايدرى كيف سلم ، وإن هلك فلا يدرى أحد على أى وجه هلك ! .

فاللّهم إنا نعوذ بك من شرّ الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ! .

روى الطبرى عن جَوْن بن قتادة ، قال :

كنت مع الزبير ، فجاء فارس ، فقال :

السلام عليك أيها الأمير ! — وكانوا يسلّمون عليه بالإمارة !

قال : وعليك السلام ! .

قال : هؤلاء القوم قد أتوك ، فلقِيتُ عماراً ، فقلتُ له ، وقال لى[1] !

فقال الزبير : إنه ليس فيهم ! .

فقال : بلى .. إنه لفيهم ! .

قال : والله ، ما جعله الله فيهم ! .

فقال : والله ، لقد جعله الله فيهم ! .

قال : والله ما جعله الله فيهم !

فلما رأى الرجلَ يخالفه ، قال لبعض أهله : اركب ، فانظر : أحقٌّ ما يقول ؟ فركب مع الرجل ، فانطلقا حتى وقفا فى جانب الخيل قليلا ، ثم رجعا إلينا ، فقال الزبير لصاحبه :

ما عندك ؟ .

قال : صدق الرجل ! .

---

(١) كان ذلك حين خرج على بمن معه من الكوفة يريد البصرة .

قال الزبير : يا جَدْعَ أنفاه ! ويا قطع ظَهْراه !!

يقول جون بن قتادة : ثم أخذه إفْـكل[1] ، فجعل السلاح ينتفض !!.

فقال جون : ثـكلتنى أمّى . . هذا الذى كنتُ أريد أن أموت أو أعيش معه ؟ والذى نفسى بيده ، ما أَخَذَ هذا ما أرى إلا لشىء قد سمعه أو رآه من النبىّ صلّى الله عليه وسلم[2] ! » .

وحقيقة هذا الأمر ، أن الزبير فزع فزعاً شديداً ، وكرب واضطرب ، حين علم أن عمار بن ياسر مقبل مع علىّ فى طريقه إلى الحرب ! .

وعمار بن ياسر ، حيث يكون ، هو عَلَم على أهل البغى . . لقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : « إنما تقتلك الفئة الباغية » .

وإذن فهو حين يشهد الحرب مع علىّ لن يكون فى الفئة الباغية ، وإنما يقاتل الفئة الباغية ، التى ربما قتلته فى هذا القتال ، وإذن فالذى يكون فى الجبهة المقاتلة للجبهة التى فيها عمار هو فى جبهة باغية ، أو بمعرض أن تـكون باغية !

من أجل هذا كرب الزبير ، واضطرب . . وانـكشفت له طاقة من نور فى هـذا الظلام المطبق ، فرأى موقفه ، وتبيّن حاله . . وبان له أنه فى الفئة الباغية ! .

ومن أجل هذا استقبل الزبيرُ عليًّا وجيشه ، فى انـكسار وفتور ، ثم لم يلبث أن ترك ميدان القتال ، وألقى السلاح . . فراراً بدينه ، لا خوفاً من القتال والقتل . . فما عرف ابن صفية الفِرار إلا فى تلك الحال !!

---

(١) الإفـكل ، حال فيها رعشة واضطراب .

(٢) الطبرى : جزء ٥ ص ٢٠٥ .

وموقفٌ لطلحة شبيا بموقف الزّبير هُنا . . كان فى حال تمتاده فيه أحوال ، وتطرقه هموم ووساوس !

أخرج الطبرى ، عن علقمة بن الوقاص الليثى قال : « لما خرج طلحة والزبير وعائشة ، رأيت طلحة ، وأحبّ المجالس إليه أخلاها ، وهو ضارب بلحيته على زَوْره ! .

فقلت : يا أبا محمد .. أرى أحبّ المجالس إليك أخلاها ، وأنت ضارب بلحيتك على زورك ! إن كرهت شيئاً فاجلس ! .

فقال لى : يا علقمة بن وقاص .. بينا نحن يدٌ واحدة على من سوانا ، إذ صرنا جبلين من حديد ، يطلب بعضنا بعضًا . . إنه كان منّى فى عثمان شىء ، ليست توبتى إلا أن يُسفك دمى فى طلب دمه[1] !! » .

إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء النخبة المتخيرة من الناس ، تُغلب على أمرها ، فى بعض المواقف ، ويخذلها رأيها وبصرها ، وتركبها حَيْرة محيّرة ، فلا تدرى أية وجهة تتجه ، ولا أى مسلك تسلك !

ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده ، وامتحان امتحنهم به ، وما نحسب القتلى الذى سقطوا فى هذا البلاء إلافى عداد الشهداء ، كمن يموتون بوباء من الأوبئة الجائحة !

يقول الزبير ـ رضى الله عنه ـ عشية الاستعداد للمعركة : « إن هذه لهى الفتنة التى كُنّا نُحدّث عنها ! !

فيسأله سائل : أتسميها فتنة ، وتقاتل فيها ؟

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ١٨٣ .

فيقول له : ويحك . . ! إننــا نُبصر ولا نُبصر . . ! ما كان أمر قط إلا عرفتُ موضع قدمى فيه ، غير هذا الأمر . . فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! ! [١]

إن الزبير — رضى الله عنه — يعلم أنها فتنة ، ويقاتل فيها ! . . إنه لا يملك الفتنة ، ولـكنها تملـكه .. إنها قَدَر غالب لا مردَّ له . . !

وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول ، والصفوة المتخيّرة من صحابته ، فـكيف بعامة الناس ؟ وكيف بمن انقاد للفريقين ؟

إن كثيراً من الناس لم ينظر إلى هذا الخصام وإلى دوافعه ، بل نظر إلى قادة الخصام أنفسهم ، وما لهم فى نفسه من حساب وتقدير ، فمال إلى هذا أو ذاك ، حسب هذا الحساب وذلك التقدير ، دون أن يسأل نفسه : ما واقع الأمر ؟ ولم هذا الخلاف ؟ وما السبيل إلى تسويته ؟

ولو أن الناسَ أخذوا مواقفهم عن تقدير ذاتى الموقف لما كان منهم هذا الاندفاع الشديد إلى المعركة ، ولما كان منهم هذا الاستخفاف بدمائهم وأرواحهم فى ميدان القتال !

ولـكن — كما قلنا — كان أكثر أنصار الفريقين ينظرون إلى وجوه الصحابة ، وإلى مواقع أيديهم وما يشيرون به !

نهض الحارث بن حوط الليثى ، إلى علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وهو على المنبر ، فقال : أتظن أنّا نظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال ؟!

فقال علىّ : ياحار [٢] .. إنه ملبوس عليك !! إن الحق لا يُعرف بالرجال ،

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ٢٨٣ .
(٢) أى حارث ، على الترخيم بالنداء .

فاعرف الحق ، تعرفْ أهله ! »[1] ومن أين للناس أن يعرفوا الحق في هذه الفتنة ؟

إن الناس في عَمًى من ظلام هذا الفتنة المتكاثف ، ولم يكن لهم إلاّ أن يضعوا أيديهم في أي يد تمتد إليهم ، فكيف إذا كانت تلك اليد يداً كيد السيدة عائشة ، أو يد طلحة والزبير ، أو يد عليّ ؟

ومن هنا ـ ولكثرة هذه الأيدى ، وضغطها على المختلفين من أصحاب رسول الله ـ غُلب الصحابة رضوان الله عليهم على أمرهم ، وعجزوا عن أن يردّوا السّهم الذى انطلق من القوس !

يقول الزبير ـ رضى الله عنه ـ وقد رأى الغوغاء تحرّش بين النّاس ، وتفتح بينهم طرقا إلى الالتحام والقتال .. يقول : « ما كنت أرى أن مثل ماجئنا له ، يكون فيه قتال ! ! »[2]

ولو أنه خُلّى بين الصحابة ، وبين هذا الخلاف ، لعالجوه بغير الحرب ، ولأعطوا الرضا من أنفسهم .. ولكن كان ما كان ، ووقع مالم يكن في الحسبان !

علىّ يعدز أصحاب الجمل :

تهيأ القوم للقتال ، فكان صاحبَ الحرب في أصحاب الجمل الزبير ، وعَلَى الخيل طلحة ، وعلى الرجّالة عبد الله بن الزبير ، وعلى القلب محمد بن طلحة ، وعلى المقدمة مروان ، وعلى رجال الميمنة عبد الرحمن بن عبادة ، وعلى الميسرة هلال بن وكيع !

فلما علم علىّ بأمر القوم عبأ الناس للقتال ، فجعل على المقدمة عبد الله بن

(١) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٣٦ .

(٢) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٤٤ .

عباس ، وعلى السّاقة هنداً المرادى ، وعلى الخيل عمار بن ياسر ، وعلى الرّجالة محمد بن أبى بكر . .

وبعث علىّ إلى طلحة والزبير كتاباً ، جاء فيه :

« أما بعد ، فقد علمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى ، وإنكما لمن أراد وبايع ، وإن العامة لم تبايعنى لسلطان خاص . . فإن كنتما بايعتمانى كارهين ، فقد جعلتما لى عليكما السبيل ، بإظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية ، وإن كنتما بايعتمانى طائعين ، فارجعا إلى الله من قريب !

« إنك يازبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريُّه . . وإنك ياطلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه ، كان أوسع عليكما من خروجكما منه ، بعد إقراركما به !

« وقد زعمتما أنى قتلتُ عثمان ، فبينى وبينكما فيه ، بعضُ من تخلّف عنى وعنكما من أهل المدينة !

« وزعمتما أنى آويتَ قتلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان ، فليدخلوا فى طاعتى ، ثم يخاصموا إلىّ قتلة أبيهم ! . . »

فكان جواب طلحة والزبير إلى علىّ :

« . . إنك سرتَ مسيراً له مابعده ، ولستَ راجعاً وفى نفسك منه حاجة ، فامض لأمرك . . أما أنت فلست راضياً دون دخولنا فى طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبداً ، فاقض ما أنت قاض ! ! »

وكتب إلى عائشة ، رضى الله عنها :

« أما بعد ، فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ! مابال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس ! ؟

« تطلبين بدم عثمان ؟ ولعمرى لمن عرّضك للبلاء ، وحملك على المعصية ، أعظم إليكِ ذنباً من قتلة عثمان .. وما غضبتِ حتى أغضبت ، وما هِجْتِ حتى هيّجت ، فاتق الله ، وارجعى إلى بيتك ! »

فأجابته هذا الجواب الموجز الحاسم :

« جَلّ الأمر عن العتاب ! »[1]

قالوا : ولما تريث القوم بعد أن جرت بينهم الكتب والرسل ، أتى زمعة ابن الأسود إلى طلحة والزبير ، فقال لهما :

« إن عليًّا قد أكثر إليكما الرسل ، كأنه طمع فيكما ، وأطمعتما فى أنفسكما ! فاتقيا الله إن كنتما بايعتماه طائعيْن ، واتقيا الله علينا ، وعلى أنفسكما ، فان اللبن فى الضَّرع ، ومتى يحلب لايرجع ! وإن كنتما بايعتماه مكرهيْن ، فاخرقا هذا الوطب[2] ، وادفعا هذا اللبن ، فما أغنانا عن هذه الكتب والرسل ! ! »

ولكن عليًّا لم يعجّل بالحرب ، بل أراد المبالغة فى الإعذار ، فأرسل ابنَ عباس إلى الزبير ، وقال له : لاتَلْقَيَنّ طلحة ، فإنك إن تَلْقَهُ تجده كالثور عاقصًا قرنه ، يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن القَ الزبير ، فإنه ألْين عريكة ، فقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عَدَا مما بَدَا ؟ »[3]

قال ابن عباس : قلت الكلمة للزبير ، فلم يزدنى على أن قال : قل له : «إنا مع الخوف الشديد لنطمع ! » وقال لى ابنه عبد الله : قل له : بيننا وبينك دم خليفة ، ووصية خليفة ، واجتماع اثنين وانفراد واحد ، ومشاورة العامة !»

---

(١) السياسة والإمامة جزء : ١ ص ١٧ .

(٢) الوطب : وعاء من أدم يوضع فيه اللبن .

(٣) نهج البلاغة جزء : ١ ص ٧٢ .

قال ابن عباس : فعلمت أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ، فرجعت إلى عليّ فأخبرته !

ثم أرسل عليّ عبدَ الله بن عباس ، وزيد بن صوحان ، إلى عائشة ، وقال لهما : اذهبا إلى عائشة ، وقولا لها : إن الله أمرك أن تقَرّى فى بيتك ، وألا تخرجى منه ، وإنك لتعلمين ذلك، غير أن جماعة قد أغرَوْك ، فخرجت من بيتك ، فوقع الناس – لا تفاقك معهم – فى البلاء والعناء ، وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحومى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى ، ولم تطفئى هذه الثائرة ، فإنها سوف تعقب القتال ، ويقتل فيها كثير ! ! فاتقى الله يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ، ويعفو ، وإياك أن يدفعك حبّ عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر يعقبه النار ! .

فجاءا إلى عائشة ، وبلّغا رسالة عليّ إليها ، فقالت : إنى لا أردّ على ابن أبى طالب ، لأنى لا أبلغُهُ فى الحِجاج . . فرجعا إليه وأخبراه بما قالت ! .

ولما يئس عليّ من مراجعة القوم ، وبان له ألا مفرّ من الحرب ، قام فى أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس : إنى راقبت هؤلاء ، القوم كى يرعَوَوْا أو يرجعوا ، وعزّفتهم بغيهم فلم يستجيبوا ، وقد بعثوا إلىّ : أن ابرزْ للطعان ، واصبر للجلاد ، وإنما تمنّيك نفسك الأمانى الباطلة ، وتَمِدُّك الغرور ! .

« ألا هَبِلَتْهم الهَبُول ! ! لقد كنتُ ما أهدَّد بالحرب ، ولا أرهب بالضَّرب ، ولقد أنصف القارة من راماها[1] ! فليُرعِدوا وليبرقوا ، فقد رأونى قديماً ، وعرفوا نكابتى ! فكيف رأونى ؟ .

---

(١) هذا مثل يضرب ، لمن يضع الأمر موضعه ، والقارة من بنى الهون بن خزيمة ابن مدركة ، وكانوا مشهورين بالرمى بالسهام .

« أنا أبو الحسن ، الذى فللتُ حدَّ المشركين ، وفرقت جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدوّى اليوم ، وإنى على ما وعدنى ربّ من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمرى ، وفى غير شبهة من دينى . . ثم مدّ يده بالدعاء وقال :

« اللهم إن طلحة نكث بيعتى ، وألّب عَلَى عثمان ، حتى قتله ، ثم عضهنى[1] ورمانى . . اللهم فلا تمهله .. اللهم إن طلحة قطع رحمى ، ونكث بيعتى ، وظاهر علىّ عدوّى ، فاكفنيه اليوم بما شئت ... » .

الحرب :

خرج طلحة والزبير وعائشة بمن اجتمع إليهم من أهل البصرة وغيرها ، ليلقوا عليًّا وَمن معه ، وكانت عائشة رضى الله عنها ـ على جمل عليه هودج ، ضُرب عليه صفائح الحديد ! .

فلما تواقفُوا للقتال أمر علىٌّ منادياً ينادى فى أصحابه :

« لا يرمينَّ أحدٌ سهماً ولا حجراً ، ولا يطعنَنّ برمح ، حتى أُعذِرَ القوم ، فأتخذَ عليهم الحجة البالغة .

فكلم علىّ طلحة والزبير قبل القتال ، فقال لهما :

«استحلفا عائشة بحق الله ، وبحق رسوله ، على أربع خصال أن تَصْدُق فيها : هل تعلم رجلاً من قريش ، أولى منى بالله ورسوله ، وإسلامى قبل كافة الناس أجمعين ، وكفايتى رسولَ الله كفارَ العرب بسيفى ورمحى ؟ وعلى براءتى من دم عثمان ؟ وعلى أنى لم أكن أستكره أحداً على بيعة ؟ وعلى أنى كنت أحسنَ قولاً فى عثمان منكما ؟ .

فأجابه طلحة جواباً غليظاً ، ورقّ له الزبير ! !

---

(١) أى اتهمنى به ظلماً وبهتاناً .

ثم رجع عليّ إلى أصحابه ، فقالوا يا أمير المؤمنين . . بم كلمتَ الرجلين ؟ فقال على : إن شأنهما لمختلف . . أما الزبير فقاده الأحاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابنى بالباطل ، واقيته باليقين فلقينى بالشك ، فوالله مانفعه حقه ، ولا ضرّنى باطله ، وهو مقتول غداً فى الرعيل الأول ! .

ثم خرج عليّ على بغلة رسول الله «الشهباء» بين الصفين ، وهو حاسر . . فقال أين الزبير ؟ فخرج إليه شاكا سلاحه ، فقيل لعائشة . . فقالت : واحَرْباه بأسماء![1] ، فقيل لها إن علياً حاسر ، فاطمأنت . . واعتنق كل واحد منهما صاحبه . . فقال له على :

ويحك يازبير ! ما الذى أخرجك ؟ .

قال : دم عثمان !

قال : قاتل الله أولانا بدم عثمان ! أنشدك الله يازبير ، هل تعلم أنك مررت بى ، وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متكىء على يدك ، فسلّم عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك إليّ ، ثم قال لك : يازبير ، إنك تقاتل علياً وأنت له ظالم ؟ .

قال : اللهم نعم !

قال على : فعلام تقاتلنى ؟ .

قال الزبير : نسيتُها ! والله ولو ذكَرتُها ماخرجت إليك ، ولا قاتلتك ! » .

فانصرف عليّ إلى أصحابه ، فقالوا : ياأمير المؤمنين . . سرتَ إلى رجل فى سلاحه ، وأنت حاسر ؟ قال على : أتدرون من الرجل ؟ . . ذلك الزبير بن صفية ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أما إنه قد أعطى عهداً لايقاتلكم . .

---

(١) أسماء هى بنت أبى بكر ، وهى اخت عائشه ، وزوج الزبير ، وقول السيدة عائشة : « واحرباه بأسماء » يعنى أنها توقعت قتل الزبير وفجيعة أسماء فيه ! .

إنى ذكرت له حديثًا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : لو ذكرتُه ما أتيتك ! فقالوا الحمد لله ياأمير المؤمنين ، ما كنّا نخشى فى هذه الحرب غيره ، ولا نتقى سواه . . . فإذ قد كفاناه الله فلا نَعُدّ مَنْ سواه إلّا صرعى المودج ! »[1].

هذا ركن من أركان أصحاب الجمل قد ذهب ، ومع هذا ظلّ القوم على موقفهم ، وإن يكن قد دخل عليهم موقف الزبير بشىء غير قليل من الهمّ والقلق !

قالوا : إن الزبير بعد أن التقى بعلىّ دخل على عائشة ، فقال : يا أمّاه . . ما شهدتُ موطنا قط ، فى الشرك ، ولا فى الإسلام ، إلا ولى فيه رأى وبصيرة ، غير هذا الموطن ، فإنه لارأى لى فيه ، ولا بصيرة ! وإنى لعلى باطل ! فقالت : يا أبا عبد الله ، خِفتَ سيوف بنى عبد المطلب ؟ قال : أما والله إن سيوف بنى عبد المطلب طوال حداد ، يحملها فتية أنجاد !

ثم قال لابنه عبد الله عليك بحربك ! أما أنا فراجع إلى بيتى ! فقال له ابنه عبد الله : الآن حين التقت حلقتا البِطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا نغسل رءوسنا منها !

فقال الزبير : لاتعدّ هذا منى جبنًا ! فو الله مافرِقت[2] أبدًا فى جاهلية ولا إسلام ؟ قال : فما يردّك ؟ قال : يردّنى ما إن علمتَه كسرك ! .. فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير !

مقتل الزبير :

اعتزل الزبير الحرب ، وفى نفسه براكين ثائرة ، ترمى بزفرات الألم والحسرة ، من هذا الموقف الذى يقفه المسلمون ، فى ميدان التفاخر والقتال !

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٣

(٢) الفرق بفتحتين : الخوف .

فهو وإن يكن قد رجع عن هذا الأمر الذى دخل فيه ، فإنه لم يرجع من قريب ، بل مضى فيه ، حتى بلغ به غايته ، وإلا بعد أن انطلق السهم من قوسه ، وليس إلى ردّه من سبيل !

ثم هو يعلم أنه يحمل قدراً كبيراً من تبعـات هذه الحرب ، التى شهد طلائعها ، ورأى أول حصادها من الدماء والأشلاء ، وقدّر المصير المشئوم الذى ينتظر المسلمين من ورائها ـ ولذا ركبه من هذا الموقف همٌّ ثقيل ، آدَهُ حمله ، وأفزعه النظر إليه !

وقد أخذ الزبير طريقه إلى مدينة الرسول ، عائذاً من هذا الـكرب الذى اشتمل عليه ، لاجئاً إلى حمى رسول الله ، ملتمساً الشفاء لهذا الجرح الغائر الذى أصاب موطن الطمأنينة من قلبه !

وفى أول مراحل الطريق لقيه عمرو بن جُرموز ، فقال له :

يا أبا عبد الله . . أحييت حرباً ، ظالماً أو مظلوماً ، ثم تنصرف ؟ أتائب أنت أم عاجز ؟ فسكت عنه !

ثم عاوده ، فقال له: يا أبا عبدالله.. حدثنى عن خصال خمس أسألك عنها !

فقال : هات !

قال : خَذْلُك عثمان . . وبيعتُك عليًّا . . وإخراجُك أمَّ المؤمنين . . وصَلاتك خلفَ ابنك ، ورجوعُك عن الحرب ؟

قال : نعم أخبرك ..

أما خَذْلى عثمان ، فأمرٌ قدّم لله فيه الخطيئه ، وأخّر التوبة !

وأما بيعتى عليًّا . . فوالله ما وجدتُ من ذلك بُدًّا . . حيث بايعه المهاجرون والأنصار ، وخشيتُ القتل !

وأمّا إخراجنا أمّنا عائشة ، فأردنا أمراً وأراد الله غيره !

وأما صلاتى خلف ابنى ، فإنما قدمته عائشة ، أم المؤمنين ، ولم يكن لى دون صاحبى أمر !

وأما رجوعى عن الحرب ، فظُنَّ بى ماشئت غيرَ الجبن !

ولم يكن فى هذه الأجوبة مقنع لابن جُرْموز ، فقال يحدث نفسه : والهفاه على ابن صفية !! أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ قتلنى الله إن لم أقتله !

ثم أخذ ابن جُرموز يدبّر لقتل الزبير ، ويحتـــال لذلك ، فقال له كالناصح الشفيق .

إن دون أهلك فَيافٍ ، فخذ نجيبى هذا ، وخلّ فرسك ، ودرعك ، فإنهما شاهدتان عليك بما تـكره !

فقال الزبير : أنظر فى ذلك ليلتى !

ثم ألحّ عليه فى فرسه ودرعه ، حتى أخذهما منه !

وإنما أراد ابنُ جرموز بهذا التدبير أن يلقى الزبير حاسراً ، لِمَا علم من بأسه !

ثم أتى ابن جرموز الأحنفَ بن قيس ، فأعلمه بمكان ابن الزبير عنده !

فقال له الأحنف : اقتله ، قتله الله مخادعاً !!

وأتى الزبيرَ رجلٌ من كلب ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافةَ الله ، ولـكنه كره أن يخالف الأحنف ، وقد ندم الأحنف على خَذْلِه علياً ، ولعله يتقرب بك إليه ، وقد أخذ درعك وفرسك ، وهذا تصديقُ ماقلتُ ، فبِتْ عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نَوْمة ، فإنك إن فتّهم لم يطلبوك . فتهاون بقوله ، ثم بداله ، فقال : ما ترى

يا أخا كلب !؟ قال : أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك ، فتأخذهما ، فإن أحداً لايقدم عليك وأنت فارس ، أبداً !

فأصبح الزبير غادياً ، وسار معه ابن جرموز ، وقد كفر[1] على الدرع ، فلما انتهى إلى وادى السِّباع ، استغفله ، فطعنه ، ثم رجع برأسه وسَلَبِهِ إلى قومه ! !

فقال له رجل من قومه : يا ابن جُرمُوز ، فضحتَ والله اليمنَ بأسرها . . قتلت الزبير ، رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحواريّه ، والله لوقتلتَه فى حرب لعزّ ذلك علينا ، ولمسّنا عارك ، فكيف فى جِوارك وذمّتك ؟ والله ليزيدنّك علىّ أن يبشرك بالنار ! !

قال ابن جرموز : والله ماقتلته إلاّ له ، والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قريشاً ، وإن قتله علىّ لهيّن ! »[2]

هذا ما يرويه ابن قتيبة فى مقتل الزبير ، ومنه نرى أن ابن جرموز هو الذى تولّى وحده قتل الزبير غَدْراً ، وباء بهذا الفعل الآثم ، وحمل وزره ، وأن قومه استقبلوا هذا الفعل منه بالإنـكار ، وأنذروه سوء العاقبة ، ومايلقاه من علىّ ، الذى ظن أنه فى هذا الذى صنعه بالزبير سيلقى منه رضًى وكرامة . ولن يجد من علىّ إلا ما يكره !

وفى رواية المسعودى : أن الزبير مضى منصرفاً حتى أتى وادى السباع ، والأحنف بن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم ، فأتاه آت ، فقال : هذا الزبير ماراً ! فقال : ما أصنع بالزبير ، وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس ، يقتل بعضهم بعضاً ، وهو مارّ إلى منزله سالماً ؟

---

(١) أى لبس درعا ولبس عليه ثوبا حتى لايظهر .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٦ .

« فلحقه نفرٌ من بنى تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير إلى الصلاة ، فقال : أتؤمّنى أم أؤمّك ؟ فأمّه الزبير ، فقتله عمرو بن جرموز فى الصلاة .. فجاء بسيفه إلى علىّ ، فقال : والله ما كان ابن صفية جباناً ، ولا لئيما ، ولكنه الحيْن ، ومصارع السوء .. ثم أخذ سيفه ، وهزّه ، وقال : سيف طالما جلّى به الكُربَ عن وجه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم !

فقال ابن جرموز : الجائزةَ يا أمير المؤمنين ؟

فقال : أمَا إنى سمعت رسول الله يقول : قاتل ابن صفية فى النار .

فخرج ابن جرموز خائباً !

وفى هذه الرواية نجد ابن جرموز ، يخرج فى جماعة من قومه ليلحقوا بالزبير ، وليقتلوه ، ولكن ابن جرموز يسبقهم إليه ، فيقتله فى الصلاة . ثم يجىء إلى علىّ بسيفه ، ويطلب منه الجائزة ، فيبشره بالنار ، فينصرف غاضباً .

وهذه الرواية تضع قاتل الزبير بين يدى علىّ ، كرم الله وجهه ـ ثم يتركه يمضى ، دون أن يقتصّ منه ، لهذا الدم الذى أراقه غدراً ، فى غير حرب !

وليس علىّ هو الذى يقبل الضيم على دينه ، بجميع مافى هذه الدنيا من جاه وسلطان ! وليس علىّ ـ كرم الله وجهه ـ هو الذى يطلب الغلب على خصومه بالختل والغدْر ، ولو كان فى معرض الهزيمة المحققة ، والموت الراصد !

فكيف يهدر دمَ الزبير ابن العوام ، ابن عمته ، وحوارىّ الرسول ؟

إن ما بينهما من خلاف ، هو خلاف عن رأى واجتهاد ، فإذا خرج بهما هذا الخلاف إلى ميدان القتال ، فهى الحرب ، وليس الغدر ، والختل والغيلة!!

وإذن فإن الأرجح عندنا ، مارواه ابن قتيبة ، من أن ابن جرموز قتل الزبير غدراً ، ثم رجع برأسه وسَلَبه إلى قومه ، وأنهم حين واجهوه باللوم

والتعنيف ، وكشفوا له عما ينتظره من علىّ إذا ظفر به ، أخفى وجهه فى تيارات هذه الفتنة وأمواجها . فلما كانت فتنة الخوارج كان فى جبهة الخارجين ، وقد قتله علىّ يوم النهرَوَان .. وهكذا أراق علىّ دمه . وكأنّه قصاص لدم الزبير !!

وإن تحول ابن جرموز ، مِن مقاتل مع علىّ ، ومن قاتل لفارس فرسان أصحاب الجمل ، إلى جبهة الخارجين عليه ، والمقاتلين له ـ هذا التحول فيه دلالة قوية على أنه نَجَم عن شعور بالخوف من علىّ ، وبالكراهية له . . معاً . . خوفٌ من أن يظفر به علىّ فيقتله ، وكراهيةٌ إذ فاته ما كان يرجو من جزاء طيب ، على هذه المغامرة ، التى غامر فيها بنفسه ، ليقتل أشجع الفرسان !

ولعل فى رواية ابن سعد فى طبقاته ما يؤيد هذا الذى ذهبنا إليه ، من أن الذى تولى قتل الزبير لم يكن واحداً معروفاً ، أو جماعة معروفة ، وإنما تكاثر عليه جماعة فقتلوه ، ثم أخذ أحدهم سَلَبه ، وجاء به إلى علىّ ! ولهذا لم يكن القصاص متعينا .. يقول ابن سعد :

« ركب الزبير ـ وهو منصرف من حرب الجمل ـ فأصابه أخو بنى تميم بوادى السباع . . .

« قالوا : خرج الزبير بن العوام يوم الجمل ، وهو يوم الخميس ، لعشر ليال خلوْن من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين بعد القتال ، على فرس له ، يقال له ذو الخمار ، منطلقاً ، يريد الرجوع إلى المدينة ، فلقيه رجل من بنى تميم ، يقال له النَّعِر بن زمام المجاشعى، بسفَوان[1] ، فقال له: ياحوارىّ رسول الله .. إلىّ إلىّ! فأنت فى ذمتى ، لا يصل إليك أحدٌ من الناس . . فأقبل معه ، وأقبل رجل من بنى تميم آخر إلى الأحنف بن قيس ، فقال له فيما بينه وبينه : هذا الزبير فى وادى السباع ! فرفع الأحنف صوته ، وقال: ما أصنع ؟ وما تأمرونى إن كان

(١) سفوان : بفتح السين والفاء : عين بالبصرة (قاموس) .

الزبير لفّ بين غارّين[1] من المسلمين قتل أحدهما الآخر ، ثم هو يريد اللّحاق بأهله !؟ .

فسمعه عمير[2] بن جرموز التميمي ، وفضالة بن حابس التميمي ، ونُفيع أو نفيل بن حابس التميمي ، فركبوا أفراسهم في طلبه ، فلحقوه ، فحمل عليه ابن جرموز فطعنه طعنة خفيفة ، فحمل عليه الزبير ، فلما ظن أن الزبير قاتله ، دعا : يا فضالة ، يا نفيع ، ثم قال : اللهَ اللهَ يا زبير ! فـكفّ عنه ، ثم سار فحمل عليه القوم جميعاً فقتلوه، رحمه الله ! فطعنه ابن جرموز طعنة أثبتته فوقع ، فاعتوروه ، وأخذوا سيفه، وأخذ ابن جرموز رأسه ، فحمله حتى أتى به وبسيفه عليًّا ، فأخذه عليّ وقال : سيف والله طالما جلّى به عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الـكَرْبَ ، ولـكن الحيْن ، ومصارع السوء ... » .

وقالت زوجُه ، عاتـكة بنت زيد بن عمر بن نفيل ، ترَثيه :

غَدَر بن جرموز بفارس بَهْمَةٍ ... يومَ اللقاء ، وكان غَيْرَ مُعَرّدِ
يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً ، رعِش الجنان ولا اليد
شُلّتْ يمينكُ إنْ قتلتَ لَمسلما ... وجبت عليك عقوبة المتعمدِ[3]

مقتل طلحـة :

يكاد يجمع المؤرخون على أن قاتل طلحة هو مروان بن الحـكم ،

---

(١) الغـار . الغافل ، والغارون : الغافلون

(٢) هكذا « عمير »! والروايات كلها على أنه عمرو ، وهناك شعر يروى في رثاء الزبير ، وفي التنديد بقاتله « عمرو » ذكره الجاحظ في رسائله ، كما ذكره ابن سعد في طبقاته ، ولا يستقيم وزن الشعر بعمير .

(٣) الطبقات لابن سعد : ٣/١١٢ .

وكان فى أصحاب الجمل مع طلحة ، وأنه انتهز غفلة طلحة ، فرماه بسهم ، وقال لا أطلب ثأر عثمان بعد اليوم ! ! إن دم عثمان عند هذا .. هو كان من أشدّ الناس عليه !

روى ابن سعد فى طبقاته ، قال : « كان مروان مع طلحة فى الخيل ، فرأى فُرجة فى درع طلحة ، فقتله ! » .

وروى ابن حجر ، فى الإصابه ، قال: لمّا اشتبكت الحرب ، قال مروان : وقد أمكنته فرصة فى طلحة : لا أطالب بثأرى بعد اليوم ، ثم رماه بسهم ، فأصاب ركبته ، فمارقأ[1] الدم حتى مات .. » ثم قال « لا يختلف العلماء الثقات فى أن مروان قَتَل طلحة يومئذ ، وكان فى حزبه ! » .

وفى مروج الذهب للمسعودى : أن مروان قال حين رأى طلحة : ما أبالى رَمَيتُ هاهنا أم هاهنا ، فرماه فى أكحله[2] ، فقتله ! » .

وروى ابن سعد : أن طلحة حين أصابه السهم ، عجب أن يصاب بهذا السهم الشارد ، فقال : « والله ما بلغت إلينا سهامهم ! » .

وفى تاريخ ابن أعثم : أن مروان قال لغلامه : إنى لأعجب من طلحة .. فإنه لم يكن أشدّ منه على عثمان ، فقد كان يحرض أعداءه ، ويسعى حثيثاً فى إراقة دمه ، واليوم جاء يطلب ثأره ؟ أريد أن أرميه ، وأريح المسلمين من شرّه ! ! فلو تقدمتَ ، وحجبتنى كى لا أرى ، فيُعلم أنى رميتُه ، فأنت حر ! ففعل !

«فأخرج مروان سهماً مسموماً من كنانته ، فرماه فشكّ قدمه إلى ركابه !

---

(١) رقأ الدم : سكن ، وانقطع .

(٢) الأكحل : عرق . فى اليد ، أو عرق الحياة (قاموس)

فلما أصيب طلحة ، قال لغلامه : خذنى ! فقال الغلام : لا أرى هاهنا ظلا ! فقال طلحة : سبحان الله ! لا أرى فى قريش اليومَ أضيعَ منّى دماً ، ولا أدرى من رمانى ، « وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً » .

وفى شرح نهج البلاغة : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكاناً ينزله ، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب علىّ : أنا طلحة ! من يجيرنى ؟ يكررها !

وكان الحسن البصرى إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان فى جوار عريض !

ويَروِى ابن عبد ربه ، والذهبى ، وابن عبد البر : أن طلحة كان أول قتيل[1] !

ولكن ابن قتيبة ، يروى غير هذا ، ويذكر أن طلحة قُتل بعد التحام القتال ، وفى اليوم السابع من المعركة .. ولا خلاف فى أن قاتله هو مروان ابن الحكم . .

التحام القتال :

يقول ابن قتيبة :

« ذكروا أن عليًّا نادى طلحة بعد انصراف الزبير ، فقال له : يا أبا محمد ماجاء بك ؟ قال : أطلب دم عثمان !

قال علىّ : قتَل الله مَن قتَله . !

قال طلحة : نخلّ بيننا وبين من قتل عثمان ! . . واعتزل الأمر ، فنجعله شورى بين المسلمين ، فإن رضُوا بِك دخلتُ فيمادخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك كنتَ رجلا من المسلمين !

---

(١) انظر فى هذا كتاب : أحاديث أم المؤمنين عائشة .

قال عليّ : ألم تبايعنى يا أبا محمد . . طائعاً ، غير مُكرَه ؟ فما كنتُ لأترك بيعتى !

قال طلحة : بايعتك والسيف على عنق !

قال : ألم تعلم أنى ما أكرهت أحداً على البيعة ؟ ولو كنتُ مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً ، وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة . . أبوا البيعة ، واعتزلوا فتركتهم !

قال طلحة : كنا فى الشورى ستّة ، فمات اثنان[1] ، وقد كرهناك ، ونحن ثلاثة[2] .

قال عليّ : إنما لكما ألا ترضيا قبل الرضا ، وقبل البيعة . . وأما الآن فليس لكما غير مارضيتما به . إلاّ أن تخرجا مما بويعت عليه بحَدَث ، فإن كنتُ أحدثت حَدَثا فسمّوه لى . . إنكم أخرجتم أمكم عائشة ، وتركتم نساءكم ، فهذا أعظم الحدَث منكم . . أرضِيَ رسول الله أن تهتكوا ستراً ضربه الله عليها ، وتخرجا هامنه ؟

فقال طلحة : إنما جاءت للإصلاح .

قال عليّ : هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوَج ! أيها الشيخ . . اقبل النصح ، وارض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنار !![3] .

* * *

إنه لم يَعُد مجال للكلام بعد هذا ، وليس إلا السيف ، يقول الكلمة الحاسمة !

وقد كان !

---

(١) الاثنان هما : عثمان وعبد الرحمن بن عوف .

(٢) الثلاثة هم : طلحة ، والزبير ، وسعد .

(٣) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٦ .

فخرج عليّ ، وقد تعمم بعمامة سوداء ، لابساً درع رسول الله ، راكباً بغلة كانت لرسول الله ، ثم قال : أين ابنى محمداً ؟ فقال : ها أنذا ! فقال : أىَ بنىّ .. خذ الراية ! فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها ، فأخذها منهما ، وكان يؤخرهما شفقةً عليهما !

وخرجت أم المؤمنين راكبة الجمل الذى اشتراه لها يعلى بن أمية ، وكان اسمه عسكر ، وكان الجمل هو لواء أهل البصرة ، لم يكن لواء غيره !

وتضعضع الناس حين سمعوا علياً تحرك ! !

فبينما كذلك سمعوا صوتاً .. فقال على : ما هذا ؟ فقيل : عائشة تلعن قتلة عثمان !

فقال علىّ ورفع بصره إلى السماء : لعن الله قتلة عثمان فى السهل والجبل .

وعبأ علىّ الناس أثلاثاً ، فجعل مضر قلب العسكر ، واليمن ميمنته ، وربيعة ميسرته .

وعُبِّىء أهل البصرة مثل ذلك .. مضر فى القلب ، وفى الميمنة اليمن ، وفى الميسرة ربيعة .

وتناجز القوم ، والتحم القتال ، عنيفاً مريراً .. فمالت جبهة علىّ ، وتراجع أصحابُه . . .

وأين علىّ ؟

إنه لن يهزم جيش ، وعلىّ هو قائده !

لقد كان أمير المؤمنين — كرم الله وجهه — إلى هذه اللحظة ، يشهد الحرب ، ولا يباشرها . إنه فى معركة ضارية ، متضرمة فى كيانه . . ! !

وإنه لفى ذهولٍ لما يرى بعينيه ، مما لايكاد يصدقه !

إخوة يريق بعضهم دم بعض ! !

وإخوان فى الله ، ألّف بينهم الإسلام ، وجمعهم الولاء لله ولرسوله . . وكتائب أعدّها الرسول وعبأها لنشر دين الله وإعلاء كلمته .

ثم هكذا تُغمِد سيوفها فى صدورها ، وتهدم بنيانها بأيديها . وتطفىء نور الله بأفواهها ؟

لقد كان علىّ فى شغل بهذا عن كل شيء . وفى ذهول عن أى شيء ! !

عن حَيّة بن جُهين ، قال :

« نظرت إلى علىّ ، يخفق نُعاساً . فقلت له : تا الله ما رأيتُ كاليوم قط ! إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هُزمت ميمنتك وميسرتك ، وأنت تخفق نعاساً ؟

قال : فانتبه فرفع يديه ، وقال :

« اللهم إنك تعلم أنى ما كتبتُ فى عثمان سواداً فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ، ألّبا ، وأجلبا علىّ الناس .. اللهم أوْلانا بدم عثمان فخذه اليوم !

ثم تقدم . . فنظر إلى أصحابه يُهزمون ، ويقتلون . . فلما رأى ذلك صاح بابنه محمد ، ومعه الراية : أن اقتحمْ ، فأبطأ وثبت . فأتى علىّ من خلفه ، فضربه بين كتفيه ، وأخذ الراية منه ، ثم حمل ، فدخل عسكرهم ، وإن الميمنتين والميسرتين تضطربان ، فى إحداهما عمار بن ياسر ، وفى الأخرى عبد الله بن عباس ، ومحمد بن أبى بكر ..

فشقّ علىّ فى عسكر القوم ، يطعن ويقتل . . ثم خرج وهو يقول : الماء . الماء . فأتاه رجل بإداوة فيها عسل . . فقال : هاتِ . . فحسا منه حسوة ، ثم قال : إن عسلك لطائفىّ !! قال الرجل : لعجباً منك والله يا أمير المؤمنين لمعرفتك الطائفىّ من غيره ، فى هذا اليوم ، وقد بلغت القلوب الحناجر ! ! فقال له علىّ :

إنه والله يا ابن أخى ، ماملأ صدرَ عمّك شىء قط ، ولا هابه شىء ! »[1]

وروى الطبرى : عن محمد بن الحنفية ، قال : « دفع إلىّ أبى الراية يوم الجمل ، وقال : تقدم ، فتقدمت ، حتى لم أجد متقدَّماً إلا على رمح !! فتناول الرايةَ من يدى متناوِلٌ لا أدرى من هو ، فنظرت ، فإذا أبى بين يدىّ .. »[2]

وفى رواية ابن قتيبة : أنه قال لمحمد وقد أعاد إليه الراية : « هكذا فاصنع !! فتقدم محمد بالراية ومعه الأنصار ، حتى انتهى إلى الجمل والهودج ، وهزم مايليه !

واقتتل الناس ذلك اليوم قتالا شديداً ، حتى كانت الواقعة ، والضرب على الركب .. وحمل الأشتر النخعى وهو يريد عائشة ، فلقيه عبد الله بن الزبير ، فضربه الأشتر ، واعتنقه عبد الله فصرعه، وقعد على صدره ، ثم نادى عبد الله : « اقتلونى ومالـكا ! » فلم يدر الناس مَن مالك ، فانفلت الأشتر منه !

و « مالك » هو اسم الأشتر ، ويروى أن ابن الزبير كان يقول حين اعتنق الأشتَر وصرعه :

اقتلونى ومالــــكا واقتلوا مالكا معى !

وروى الطبرى عن ابن الزبير قال : مشيت يوم الجمل ، وبى سبع وثلاثون جراحة ، من ضربة وطعنة ، وما رأيت مثل يوم الجمل قط ، لم ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود ، وما يأخذ بخِطام الجمل أحد إلا قُتل ، فجئت فأخذت الخطام .

« فقالت عائشة : من أنت ؟

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٨ .

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ٢٠٧ .

قلت : عبد الله الزبير .

قالت : واثُكل أسماء !

« ومرّ بي الأشتر ، فعرفته ، فعانقته ، فسقطنا جميعاً ، وناديت :

« اقتلوني ومالكا ! »

« فجاءنا ناس منا ومنهم ، فقاتلوا عنا حتى تحاجزنا ، وضاع الخطام ! »

وفي رواية أخرى للطبري أيضاً : عن علقمة قال :

«قلتُ للأشتر : كنتَ كارهاً لقتل عثمان رضي الله عنه ، فما أخرجك بالبصرة ؟

« قال : إن هؤلاء بايعوه ، ثم نكثوا ، وكان ابن الزبير هو الذي أكره عائشةَ على الخروج، فكنت أدعو الله عزوجل أن ألقاه ، فلقيني كَفّةً لـكَفّة[1] فما رضيت بشدّة ساعدي ، حتى قمت في الركاب ، فضربته على رأسه فصرعته .

قلنا : فهو القائل : اقتلوني ومالكا ؟

قال : لا ، ماتركته وفي نفسي منه شيء . . ذاك عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد . . لقيني فاختلفنا ضربتين ، فصرعني ، وصرعته ، فجعل يقول :

« اقتلوني ومالكا »

« ولا يعلمون مَن مالك ، ولو علموا لقتلوني !

وفي رواية أخرى للطبري : « فجُرح بن الزبير ، فألقى نفسه في الجرحى ، فاستُخرج ، فبَرأ » .

وفي رواية العقد الفريد عن ابن الزبير قال : ثم جرّ ـ أي الأشتر ـ برجلي، فألقاني بالخندق ، وقال : لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع فيك عضو إلى آخر ! » .

(١) أي كفاحا .

الزبير ، وطلحة . رأسا هذا الأمر ، قد قتلا !

وعبد الله بن الزبير .. مثخَن بالجراح ، أقرب للموت منه للحياة !

ومحمد بن طلحة .. غارق فى بحار المعركة .. لايدرى أحد أحىّ هو أو ميت !

إن محمد بن طلحة كان متكرّهاً للحرب ، متأثماً من خوض غمار هذه الفتنة ، ولو خُلّى ورأيه لاعتزل الأمر كلّه ، كما فعل ابن عمر !

ولكنّ طلحة ـ رضى الله عنه ـ كان يدفع ابنه محمداً دفعاً إلى أن يكون معه حيث يكون ، ويشده شدًّا إليه ، ويريه المثَلَ فى متابعة الابن لأبيه ، بما كان من عبد الله بن الزبير وولائه لأبيه ، وطاعته له ، ومتابعته إياه فى كل خطوة يخطوها فى هذا الموقف !

وقد ذكرنا من قبل موقفاً كان بين طلحة وابنه محمداً ، حين سئل محمد عن قتلة عثمان ، فشهد على أبيه بأن عليه ثلث التبعة فى دم الخليفة المقتول ، وأن طلحة حين علم برأيه هذا ، لامه لوماً شديداً ، وقال له : « يامحمد ! عنّا قولك إنى قاتل عثمان ! كذلك تشهد على أبيك ؟ كن كعبد الله بن الزبير . فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه .. كفّ عن قولك ، وإلا فارجع ، فإن نُصْرتك نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة » فقال محمد : ماقلتُ إلا حقّا ، ولن أعود ! » !

ولكن الأمر مختلف أشدّ الاختلاف .. بين طلحة وابنه محمد من جهة ، وبين الزبير وابنه عبد الله من جهة أخرى ..

كان طلحة ثورة عاصفة على علىّ .. لايثنيه شىء فى طريقه إلى النيْل من علىّ ، حتى يُزيله عن مكانه ، من الخلافة .. على حين كان ابنه محمد متحرجاً متكرهاً لهذا الموقف الذى يقفه أبوه .. وكان الزبير متوقفاً متردداً فى هذه

الأحداث ، على حين كان ابنه عبد الله مندفعاً متحمساً ، يدفع والده بكلتا يديه إلى مساندة طلحة وشدّ أزره !

إنه لولا طلحة لما كان محمد بن طلحة فى أصحاب الجمل ، ولا فى المقاتلين فى تلك الموقعة !

وإنه لولا عبد الله بن الزبير لـكان موقف الزبير غير هذا الموقف الذى جمعه إلى طلحة !

وإنه لولا عبد الله لما كانت أم المؤمنين عائشة ركبت هذا المركب الوعْر !

كانت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — تحبّ عبد الله بن الزبير ، حبّ الابن ، إذ كانت حُرمت الوَلَد ، فوجدت فيه حين ولدته أختها أسماء ، ولداً يغذّى عاطفة الأمومة ، ويسدّ بعض هذا الفراغ من قلبها ، فتعلقت به ، وأنزلته منزلة الابن منها .

قال هشام بن عروة : ماسمعتُ أم المؤمنين ، عائشة ، تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، وقد أعطت للذى بشّرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدت شكراً لله تعالى .. ولما اعتلّت دخل عليها بنو أختها وفيهم عبد الله ، فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه ، فأَبِهتْ لبكائه ، فبكت ، ثم قالت : « ما أحقنى منك يابُنىّ ما أرى ! فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوىّ أحداً أنزل عندى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها ! »[٢]

وقد نشأ عبد الله على كُره بنى هاشم ، حتى استطاع أن يغيّر أباه على علىّ .. وحتى لقد كان علىّ يقول : « مازال الزبير رجلا منا أهلَ البيت حتى نشأ ابنه

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٦٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة .. جزء ٤ ص ٣٨٤ .

المشئوم ، عبد الله . »[1]

قَاتَلَ عبد الله بن الزبير فى معركة الجمل ، حتى أثخنته الجراح ، وأفلت من يده خِطام الجمل !

أما محمد بن طلحة ، فلا يدرى أحد أين هو فى هذا القتال ، ولا كيف كان بلاؤه فيه ، ولكنه وجد قتيلا فى قتلى المعركة !

رُوى أن علىّ بن أبى طالب مرّ بالقتلى بعد انتهاء المعركة ، فرأى محمد بن طلحة صريعاً فى القتلى ، وكان يسمّى السجّاد لِمَا بين عينيه من أثر السجود ، فقال : « رحمك الله يامحمد . . لقد كنت فى العبادة مجتهداً ، آناء الليل قوّاماً ، وفى الحرَور صواماً .. ثم نظر إلى من حوله ، فقال : هذا رجل قتله بِرّ أبيه! »[2]

الراية المشئومَة :

لم يكن لأصحاب الجمل ، بعد اعتزال الزبير ، ومقتل طلحة ، ومحمد بن طلحة ، وإصابة ابن الزبير — لم يكن لهم دعوة يقاتلون عليها ، أو رأى يقومون له !

لقد قُتل الرجلان اللذان كان ينازعان عليًّا الخلافة . . وسكنت النوازع التى كانت تدفع بالمختلفين إلى هذا الخلاف .

فليس دم عثمان — كما قلنا — هو الذى حمل طلحة والزبير على أن يخرجا من بيعة علىّ ، ويجمعا الجموع للثورة عليه ، والمناداة بخلعه ، أو قتاله .. فما كان هذا الدم إلاّ راية يجتمع المجتمعون عليها ، ويقاتلون تحتها !

كان خلع علىّ ، وإعادة الأمر شورى ، هو الشرط البارز فى كل موقف

---

(١) انظر أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٩٥ .

(٢) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٨٠ .

« فقالت : ولم ؟ لاأبالك !

« فقال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنّة .. ونجعلك أكبر التشنيع على عليّ ؟ [1] » .. إن قتلها ليس تشنيعاً على عليّ وحده ، ولكنه تشنيع على المسلمين والإسلام جميعاً !

إن هذا الموقف الذى اتخذته أم المؤمنين من عثمان أولاً ، ومن عليّ ثانياً ، لم يكن مطلوباً منها ، بل ولا مقبولاً !

فإنه ما كان لها — لكى تصلح بين المسلمين — أن تعرض نفسها لبعض ماتعرضت له ، ولا أن تكون جبهة من جبهات الخلاف بين المسلمين !

إنها أمّ المسلمين جميعاً ، فإما أن تصلح بالحسنى ، وهى فى سترها ، وفى مقامها وتصوّنها ، وإما أن تدَع .. والأمر لله وحده !

ولقد كان لها فى فاطمة بنت محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنها ، المثلُ فيما ينبغى أن يكون منها ، حين تحملها الظروف على موقف تواجه به الناس !

ففى الخلاف الذى كان بين زوجها عليّ ، وبين أبى بكر حين بويع له بالخلافة كانت — رضى الله عنها — من رأى عليّ فى أحقيته بالبيعة . . فلم يحملها ذلك على أن تدعو الناس إليها ، وتضمهم إلى جبهتها ، ولو فعلت لوجدت من المسلمين استجابة عامة أو شبه عامة .. إذ هى البقية الباقية من رسول الله ، وهى ميراث النبيّ للمسلمين جميعاً . !

ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا ، ولم تزد على أن سألت بعض الأنصار أن ينصروا عليًّا ، وأن يأخذوا له بحقّه فيبايعوه . . فلما قالوا لها : لقد سبقتْ منا بيعة لأبى بكر .. سكتت ، وسكنت !

---

(١) الكامل للمبرد جزء ٢ ص ١٨٦ .

وفى خلافها مع أبى بكر ، على ميراثها من النبىّ ، لم يكن بينها وبينه أكثر من سؤال وجواب ، ثم عتبٌ وعتاب .. ولم تزد !

وأغلقت بيتها إلى أن لحقت بربّها !

وفاطمة ، رضى الله عنها .. ليست أمًّا من أمّهات المؤمنين .. وإن تكن بنتَ النبىّ ، صلوات الله وسلامه عليه !

ندع هذا .. !

فقد اشتطّ بنا الطريق إلى أكثر مما ينبغى ! وجرى القلم إلى أبعد مما نريد !

ونقول إن خلوّ ميدان المعركة من أصحابها : طلحة ، والزبير ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير — كان جديراً به أن ينُهى هذه الحرب الدائرة ، وأن يحمل أم المؤمنين — رضى الله عنها — علَى أن تدعو الناس إلى إلقاء السلاح ، والمسالمة .. فإنه ليس وراء هذه الحرب شىء تنتظره ، إلا أن يكون قتـلَ علىّ ، ولا شىء بعده !

فلو أنها انتصرت اليوم فى هذه الحرب ، وقُتل علىّ ، فلن يبايع الناس لعبد الله ابن الزبير ، إذ مازال واحدٌ من أصحاب الشورى حيًّا ، وهو سعد بن أبى وقاص الذى لا يمكن أن يختلف الناس عليه ، بعد أن ذهب أصحاب الشورى جميعاً !

وإذن ، فالحرب بعد الآن ، ليست المطالبة بدم عثمان .. بعد أن ارتوت الأرض بأنهار الدماء ! وهى ليست فى سبيل الخلافة .. فإن انتزاعها من يد علىّ ، على أية صورة ، لا يجعلها فى يد ابن الزبير ، ولا فى يد أحد من أصحاب الجمل ، بل إن رجلها هو هذا الرجل الذى اعتزل الفتنة من أولها .. سعد بن أبى وقاص !

وماذا نقول ؟

للصلح ، وبين يدىْ كل دعوة للسلْم ، وكان دم عثمان يُذكر فيما يذكر من شروط ، وقد يُنسى فى كثير من الأحيان فلا يَلتفت إليه أحد !

والسيدة عائشة رضى الله عنها . . كان سخطها على عليّ ، وبغضها له هو المحرك الأول لموقفها منه ، ولثورتها عليه !

ولولا أنها كانت تحمل لعلىّ هذه الكراهية لما ألقت بنفسها فى هذا الموقف الذى لم يكن من شأن امرأة أن تقفه .. ديانةً ، أو عصبية !

فما عَرف العرب امرأة تقود معركة كتلك المعركة .. وتدبّر لها ، وتتولى توجيه سيرها ، ورسم خطوطها .. والرجال كثير ، والأبطال لم يذهبوا بعد !

وما عُرف فى الإسلام مكان للنساء فى ميدان القتال ، ولا صوت مسموع لهن فى شئون الحرب ، وما استنصر الإسلام فى أحرج أوقاته ، وفى قلّة أعداد أتباعه — ما استنصر بالنساء ، ولا دعاهن للجهاد ، فرضاً أو ندباً .. بل لقد كره لهن أن يشهدن مواقف الحرب ، وأن يتعرضن لما يتعرض له الرجال فيها ، من كشف عورات ، وتمزيق أشلاء !

فكيف بأزواج الرسول ، وأمهات المؤمنين ؟

لقد رفع الإسلام قدرهن فوق النساء جميعاً ، وأوجب لهنّ على المسلمين حرمة الأمهات ، وإعزازهن ، وبِرّهنّ ! وضرب عليهن حجاباً أشبه بالحرس القائم عليهن ، لدفع كل آفة ، وردّ كل شائبة، تحوم حول هذا الحمى الطهور .

وفى هذا يقول الله تعالى : « يانساء النبيّ . . لستُنّ كأحدٍ من الناس . . إن اتقَيتُنّ فلا تخضَعْنَ بالقول ، فيطمعَ الذى فى قلبه مرض ، وقُلْن قولاً معروفاً ، وَقَرْنَ فى بيوتكنّ ، ولا تبرّجْنَ تبرّجَ الجاهليّة الأولى . . وأقِمْنَ الصلاة ، وآتينَ الزكاة ، وأطِعْنَ اللهَ ورسوله .. إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكمُ

الرجْسَ ، أهل البيت ويُطَهِّرَكم تطهيرا »[1]

ولأمّ المؤمنين عائشة المكانُ الأول من هذا الأمر السماوى ، لمكانتها الخاصة من رسول الله ، ولما لها فى قلوب المؤمنين ـ من أجل تلك المكانة ـ من إعزاز وإكرام !

فكيف ـ والأمر كذلك ـ يطالبها الإسلام ، أو يحملها موقف من مواقف المسلمين ، أن تخرج هذا المخرج ، وأن تركب هذا المركب ، وأن تتعرض لسهام المعركة ، وسيوفها ، وحرابها . . ؟ ؟

لقد كان من المحتمل كثيراً أن يصيبها ما أصاب الألوف التى كانت تقاتل حولها ، وتتلقى الموت دونها . . كان يمكن أن تكون زوج رسول الله ، وأم المؤمنين ، فى القتلى !

وكان يمكن أكثر من ذلك .. أن تتمزّق أشلاؤها وتتناثر أعضاؤها !

فأى شناعة ، بل وأى هول بعد هذا ؟

ولقد جُرحت أم المؤمنين فعلا ، فأصابها سهم طائش !

وكانت بمعرض القتل فى كل لحظة من لحظات هذه الحرب ، وفى كل ساعة من ساعاتها !

بل ربّما وقع ذلك فى نفس بعض الناس يومذاك ، وانتظر تلك الساعة التى تنكشف عن أم المؤمنين قتيلا بين القتلى !

روى المبرّد فى كتابه « الكامل » هذا الخبر :

« قال عمرو بن العاص ، لعائشة رحمها الله : لَوَددتُ أنك كنتِ قُتلت يوم الجمل ! !

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣

وقال الطبرى : ونادى علىّ : أن اعقروا الجمل ، فإنه إن عُقِر تفرّقوا . . فضربه رجل ، فسقط ، فما سُمِع صوت أشد من عجيج الجمل !

ولابن أبى الحديد ، عن أبى مِخنف : « فلما رأى علىّ أن الموت عند الجمل ، وأنه ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ . وضع سيفه على عاتقه ، وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه ، والخطام مع بنى ضبة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، واستحرّ القتل فى بنى ضبة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلص علىّ فى جماعة من النَخَع وهمْدان ، إلى الجمل ، وقال لرجلٍ من النخع اسمه « بجير » : دونك الجملَ يا بجير ، فضرب عجز الجمل بسيفه فوقع لجنبه ، وضرب بجِرانه الأرض ، وعجّ عجيجاً لم يسمع بأشد منه ! .

« فما هو إلا أن صُرع الجمل ، حتى فرّت الرجال ، كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب . . فنادى علىّ : اقطعوا أنساع الهودج ! .

« واحتُملت عائشة بهودجها .

فأمر علىّ بالجمل أن يُحرق ، ثم يذَرَّ فى الريح ، وقال : لعنه الله من دابة . . فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ! .

ثم قرأ : « وانظرْ إلى إلٰهك الذى ظَلْتَ عليه عاكفاً ، لنحرّقنّه ، ثم لننسِفنّه فى اليمّ نَسْفاً[1] » .

وقد أحصى المحصون عدة قتلى هذه الحرب من المسلمين ، فبلغ بها بعضهم أكثر من ثلاثين ألفا ، بينما وقف بها بعضهم عند ستة آلاف !

فالطبرى يروى فى بعض رواياته أن عدد القتلى من الفريقين كانوا أكثر من ستة آلاف .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ص ١ جزء ٨١ .

وابن أعثم يروى أن قتلى أصحاب علىّ كانوا سبعمائة ، أما أصحاب عائشة فكانوا تسعة آلاف .

وصاحب العقد الفريد يروى أن عدد قتلى أصحاب عائشة عشرون ألفاً ، وأن من قتل من أصحاب علىّ كانوا خمسمائة[1] » .

وأيًا كان الخلاف فى هذه المرويات ، فإن دماء غزيرة جرت فى هذا الالتحام ، وأرواحاً كثيرة طيبة أزهقت فى تلك المعركة ! .

وما نريد أن نلقى تبعة كل هذا على أم المؤمنين — رضى الله عنها — فقد كانت هناك دوافع جانبية كثيرة ، تحرك هذه الحرب ، وتذكى ضرامها . . ولكن الذى لا شك فيه أن زمام الموقف كلّه كان فى يد السيدة عائشة . . وأنها لو أشارت بيدها إلى الجيش المجتمع حولها إشارة سلام وانصراف لما بقى أحد فى أرض المعركة ! !

ولكن ثبات أم المؤمنين فى الميدان ووقوفها فى أرض المعركة ، جعل الذين قاتلوا معها لا يقاتلون إلا دفاعاً عنها ، وإلا دفعاً لما قد يعرض لها من سوء ! ولهذا فقد استماتوا فى حمايتها ، وأقاموا حول الجمل بناء من أجسادهم ، حتى لا تنفذ السهام ، أو السيوف ، أو الرماح إليها ! .

إنهم يحامون عن الشرف ، ويذودون عن الكرامة . . شرف امرأة ، وكرامة امرأة . . فلو لم يدفعوا عنها ـ ديانةً ـ كمسلمين ، يرعون أمومتها ، ويحفظون حرمة رسول الله فيها ، لدافعوا عنها ـ حميّة ـ كعرب ، يحمون الجوار ، ويحفظون الذّمار !

سكون العاصفة :

سقط الجمل . . فكان سقوطه أشبه بعاصفة هوجاء ، ما تذر من شىء أتت

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٨٧ .

نقول الواقع المؤلم ، والحق المرّ ! نقوله على مضض ، وفى أسى ، وحَزَن !

ولكن مالنا ولهذا ، وقد عافانا الله من أن نقول أو نتقوّل .. ؟

وحسبنا أن نروي مايتحدث به التاريخ !

بقيت أم المؤمنين وحدها تخوض المعركة وتقودها !

وكان جملها — عسكر — هو الراية التى يقاتل الناس تحتها ، ويتساقطون حولها ..

أخذ بخطام الجمل كعب بن سور الأزدى ، وفى عنقه مصحف ، وفى يده عصا ، لأنه لم يكن له رأى فى الحرب ، ولكنّ عائشة رضى الله عنها ، سعت إليه ، وأخرجته من عزلته ؛ إذ كان سيد الأزد ، فخرج ، وخرج قومه معه !

قال المبرد : فلما كان يوم الجمل .. خرج كعب بن سور مع إخوة له ، قالوا : ثلاثة ، وقالوا : أربعة . وفى عنقه مصحف ، فقتلوا جميعاً ، فجاءت أمّهم حتى وقفت عليهم ، فقالت :

يا عينُ جودى بدمع سَرِبْ على فتيةٍ من خيار العربْ

ما لهم غير حَيْن النفو س ، أىّ أميرَىْ قريش غَلَبْ !

وأخذ الخطام عبد الرحمن بن عتّاب وارتجز :

أنا ابن عتّاب وسيفى وَلْوَلْ[1] والموت عند الجمل المجلّلْ

فقُطعت يده وقتل !

ثم تتابع الرجال يأخذون بالخطام ويقتلون ، حتى قتل سبعون من قريش[2] !!

وجاءت بنو ناجية ، فأخذوا بخطام الجمل ، ولم يكن يأخذ بخطام الجمل

---

(١) ولول : هو اسم سيفه .

(٢) الطبرى جزء ٥ ص ٢٠٤ .

أحد إلا سألت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ، فقالت : صبراً يابني ناجية ، فإني أعرف فيكم شمائل قريش ! ! فقتلوا جميعاً ! .

ثم أخذ بنو ضبّة بخطام الجمل . وكانوا يرتجزون :

نحن بنو ضبة لا نفرُّ حتى نرى جماجماً تخِرُّ

يخر منها العَلَق المحمرُّ

يا أمَّنا يازوجة النبيّ

يازوجة المبارك المهديّ

وما زالوا يقتلون ، واحداً واحداً ، حتى قُتل أربعون رجلاً !

فأخذت الأزد بخطام الجمل . .

فقالت عائشة : من أنتم ؟

قالوا : الأزد ؟

قالت : فإنما يصبر الأحرار ! . . مازلتُ أرى النصر مع بني ضبة ، فلما فقدتُهم أنكرته ! ! فحرضَت بذلك الأزد ، فقاتلوا قتالا شديداً [1] .

قال الواقدي : إنهم كانوا حول الجمل ، يحامون عنه ، ولقد كانت الرءوس تَنْدِر عن الكواهل ، والأيدي تَطيح من المعاصم ، وأقتاب البطون تندلق من الأجواف ، وهم حول الجمل كالجبال الثابتة ، لا تتحلحل ولا تتزلزل ، حتى لقد صرخ عليّ بأعلى صوته : ويلكم ! ! اعقروا الجمل ، فإنه شيطان ! اعقروه وإلا فنيت العرب ! . لا يزال السيف قائماً راكعاً ، حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض [2] ! » .

---

(١) نهج البلاغة جزء : ٢ ص ٨١ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جزء ١ ص ٨٤ .

وقد ذكر صاحب الكنز هذا الموقف مفصّلا ، فقال :

قال عليّ لأصحابه : « ولا يُستحلنّ فرج ولا مال !

«وانظروا ما حَضَرَ به الحربَ [1] من آنية ، فاقبضوه ، وما كان سوى ذلك فهو لورثته !

ثم قال : ولا تَطْلُبُنَّ عبداً خارجاً من العسكر . . وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم . وليس لكم أمّ ولد [2] ، والمواريث على فريضة الله .

«وأى امرأة قتل زوجها فلتعتدّ أربعة أشهر وعشراً .

قالوا ياأمير المؤمنين : تحلّ لنا دماؤهم ، ولا تحلّ لنا نساؤهم؟

فقال : كذلك السيرة فى أهل القِبلة ! نمنّ عليهم بشهادة ألاّ إلهَ إلا الله، ونورّث الأبناء من الآباء [3] .

قالوا : وخطب عليّ فى البصرة بعد حرب الجمل . وفيما هو يخطب ، قام إليه عمار بن ياسر ، فقال : ياأمير المؤمنين . . إن الناس يذكرون الفىء ، ويزعمون أن مَن قاتلنا فهو وماله وأهله ، وولده ، فىء لنا ! .

فقام رجل من بكر بن وائل ، يدعى عباد بن قيس، فقال : ياأميرالمؤمنين.. والله ما قسمت بالسّوية ، ولا عدلت فى الرعية ؟ .

فقال عليّ : ولم ؟ ويحك !

قال : لأنك قسمت مافى العسكر ، وتركت الأموال والنساء والذرية !

(١) أى ما حضر به المحارب الحرب .

(٢) أى لا يحل رق امرأة من نساء قتلى هذه الحرب .

(٣) أحاديث أم المؤمنين عائشة : ص ١٨١ (الكنز : جزء ٦ ص ٨٣) .

فقال عليّ : ياأخا بكر.. إنك امرؤ ضعيف الرأى ، أوَ ما علمتَ أنا لانأخذ الصغير بذنب الكبير ؟ وأن الأموال كانت لهم قبل الفُرقة ، وتزوجوا على رِشْدة ، وولدوا على الفطرة ؟

« إنما لكم ما حوى عسكرهم !

«وما كان فى دورهم فهو ميراث لذريتهم، فإن عَدَا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه، وإن كفّ عنا لم نحمل عليه ذنب غيره ، ياأخا بكر !

«لقد حكمتُ فيهم بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة . قسم ما حوى العسكر ، ولم يعرض لما سوى ذلك ، وإنما اتبعت أثرَه ، حَذْو النعل بالنعل ! . . . » .

قالوا : ثم قام إليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين . . أخبرنا . . علامَ قاتلتَ طلحة والزبير ؟ .

قال : قاتلتهم على نقضهم بيعتى ، وقتلهم شيعتى من المؤمنين : حكيمَ ابن جبلة العبدى ، من عبد القيس ، والسبابجة ، والأساورة ، بلا حقّ استوجبوه منهما ، ولا كان ذلك لهما دون الإمام ، ولو أنهما فعلا ذلك بأبى بكر وعمر لقاتلاهما . . ولقد علم مَن هاهنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أن أبا بكر وعمر لم يرضيا ممن امتنع من بيعة أبى بكر حتى بايع ، وهو كاره ، ولم يكونوا بايعوه بعد الأنصار ! فما بالى وقد بايعانى طائعَين غير مكرهين ؟ ولكنهما طمعا منى فى ولاية البصرة واليمن ، فلما لم أولّهما ، وجاءهما الذى غلب عليهما من حبهما للدنيا ، وحرصهما عليها ، خِفْتُ أن يتخذوا عباد الله خَوَلا[٢] ، ومال المسلمين لأنفسهما مَغْنما !. .

---

(١) الكنز جزء ٨ ص ٢١٥ (أحاديث أم المؤمنين عائشة)

(٢) أى خدما .

عليه إلا جعلته كالرميم ، حتى إذا دارت دورتها المجنونة ، خرّت كما تخرّ الصخرة من قمة الجبل ، فترقد تحت قدميه ذليلة محطمة !

ونادى منادى علىّ :

« ألاّ يُجْهَزَ على جريح !

« وألا يُتْبع مَوَلٍّ !

« وألا يُطعن مُدْبِر . .

«ولا يُستحَلنَّ فرج ولا مال !

إنها ليست حرباً بين المسلمين وأعداء المسلمين.. هكذا كان يراها الإمام علىّ.

وإنما هى عملية تأديب لجماعة خارجة على سلطان الخلافة .. فإن فاءت إلى أمر الله ، وألقت السَّلَم ، فلا سلطان للخليفة ، ولا لجيش الخليفة عليها !

وكان ممن وقع لأيدى المسلمين من قادة أصحاب الجمل . . السيدة عائشة ، ومروان بن الحكم ، وعمرو بن عثمان ، وموسى بن طلحة ، وعمر بن سعيد ابن العاص .

«فقال عمار بن ياسر : يا أمير المؤمنين . اقتلْ هؤلاء الأسرى !

«فقال علىّ : لا أقتل أسير أهل القِبلة ، إذا رجع ونزع !

«ثم دعا علىّ بموسى بن طلحة . .

« فقال الناس : هذا أول قتيل يُقتل !

فلما جىء به ، قال : تبايع ، وتدخل فيما دخل فيه الناس ؟ .

قال : نعم !

فبايع ، وبايع الجميع ، وخلّى سبيلهم[1] » .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٧٩ .

ومرة أخرى نقول : إن علياً ـ كرم الله وجهه ـ لم يكن ينظر إلى هذا الخلاف الذى كان بينه وبين أصحاب الجمل، إلا على أنه خلاف بين جماعتين مسلمتين بغت إحداهما على الأخرى .. فإذا هو ظهر على هؤلاء المخالفين ، لم يكن له أن يستحلّ منهم شيئاً ، ووقف بهم عند قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله ، وعرضه » .

وتلقّى علىّ من أصحابه هذا السؤال ، يَرِدُ عليه من كل فم : مالنا فى هؤلاء الناس ؟

فكان جوابه :

« لكم مافى عسكرهم . .

« وعلى نسائهم العِدّة[1] .

« وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال الناس : يا أمير المؤمنين . . كيف تَحِلّ لنا أموالُهم[2]، ولا تحل لنا نساؤهم ، ولا أبناؤهم ؟

فقال : لايحل ذلك لكم !

فلما أكثروا عليه ، قال : اقترعوا ، هاتوا بسهامكم . . أيكم يأخذ أمكم عائشة فى سهمه ؟

فقالوا : نستغفر الله !

فقال : وأنا استغفر الله[3] .

---

(١) يقصد نساء القتلى .

(٢) أى الأموال التى وقعت لأيديهم فى ميدان المعركة :

(٣) الإمامة والسياسة جزء ١ ض ٧٩ .

قالت : بأبى أنت وأمى . . الحمد لله الذى عافاك !

فقال محمد : يقول لك أمير المؤمنين : هل أصابك شىء؟

قالت : ما أصابنى شىء ، إلا سهم لم يضرنى !

فجاء علىّ حتى وقف عليها ، فضرب الهودج بقضيب ، وقال:

ياحميراء . . رسول الله أمرك أن تقرّى فى بيتك . . والله ما أنصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك ! »

قالوا : وجهزها علىّ ، وبعث معها أربعين امرأة ، وقيل سبعين ، حتى قدمت المدينة .

وروى صاحب الإمامة والسياسة : أن محمد بن أبى بكر : دخل على أخته عائشة ، فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « علىّ مع الحق ، والحق مع على » ؟ ثم خرجتِ تقاتلينه بدم عثمان ؟ !

قال : ثم دخل عليها «علىّ» فسلّم وقال : « ياصاحبة الهودج . . قد أمرك الله أن تَقَرّى فى بيتك .. ثم خرجت تقاتلين ؟ أترتحلين ؟ قالت : أرتحل !

فبعث معها على رضى الله عنه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمائم ، ويتقلدن السيوف ، وأن يكُنَّ من الذين يَلينَها ، ولا تطّلع على أنهن نساء . . فجعلت عائشة تقول فى الطريق :

فَعَلَ الله فى ابن أبى طالب ، وفعل ! بعث معى الرجال ! فلما قدمن المدينة وضعن العمائم والسيوف ، ودخلن عليها ، فقالت : جزى الله بن أبى طالب الجنة ! »[1] .

---

(١) الإمامة والسياسة ، لابن قتيبة جزء ١ ص ٨٠ .

وفى المدينة استقرت أم المؤمنين، فى ذكريات مسعدة، تطلع عليها من بيت النبوة، فتنسَم منها أنسام النبىّ، وتجد فيها ريحه الطيب العَبِق، فتسعد وترضى بتلك النشوة الروحية، التى تملأ كيانها، وتملك وجودها، لا يقطع عليها تلك النشوة، ولا يرفع عن ناظريها هذه الرؤى الحبيبة المشرقة إلا ما يهب عليها من ريح تلك الفتنة، وما يتمثل لخاطرها من صور القتال الذى دار حول الجمل، وما تساقط حول هودجها من رءوس، وما سال من دماء!

كانت الأحداث تطرق باب أم المؤمنين بعد قتل علىّ وتولية معاوية، فلا تفتح لها، ولا تستمع كثيراً إليها، خشيةَ أن يكون لها من ذلك يوم كيوم الجمل! الذى مازال يؤرق ليلها، ويشوّه وجه نهارها! إذ ليس ثمة شك فى أنها استشعرت نَدَماً، وألما، لِما فرط منها، وودّت لو أن شيئاً مما كان لم يكن.

روى صاحب الاستيعاب، وابن أبى الحديد: أن عائشة رصدت لابن عمر مَن يُعلمِها به، إذا مرّ بها، فلما مرّ بها وعلمت به، قالت: ادعوه، فدعوه، فقالت: «ياأبا عبد الرحمن.. ما منعك أن تنهانى عن مسيرى؟ قال: رأيتُ رجلاً قد غلب عليكِ! وظننت أنك لا تخالفينه [١]! قالت أما أنك لو نهيتنى ما خرجت!! [٢]

وروى الطبرى، عن أبى جندب، قال: دخلتُ على عائشة رضى الله عنها بالمدينة.

فقالت: من أنت؟

قلت: رجل من الأزد، أسكن الكوفة!

---

(١) يقصد ابن الزبير.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ص ٣٥٤، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جزء ٤ ص ٤٨١

لقد صفىّ علىّ حسابه مع الناس ، وفصل فى الوقوف الذى كان بين أنصاره وبين أصحاب الجمل .. وبايع المتخلفون من بنى أمية وغيرهم ، ممن نجوْا من هذه المعركة .

أما أم المؤمنين عائشة ، فقد كان لها شأن غير هذا الشأن !

إنها لم تـكن مطالَبَة بإظهار الولاء لعلىّ ، أو مبايعته ، فما كان ذلك يُراد من النساء ، أو ينظر إليه من جهتهن ، وحسب المرأة المسلمة ، ألاّ تدعو إلى فتنة ، أو تحرض على الخروج عن الخلافة والمنازعة فى سلطانها !

وأمّا وقد تبدد شمل القوة التى كانت تجتمع إلى أم المؤمنين ، وقُتل طلحة والزبير ، اللذان كانت ترجو أحدهما للخلافة ، فقد عاد إليها مكانها الأول ، من المسلمين جميعاً ، وأصبح لزاما عليها أن تعود إلى بيتها ، وأن تسدل عليها الحجاب الذى كان مضروباً عليها ! !

روى صاحب العِقد الفريد : «أن عليا ــ كرم الله وجهه ــ قال لابن عباس بعد أن انتهت المعركة ، وكان علىّ قد أنزلها بيتا من بيوت البصرة :

« ائتِ هذه المرأة ، فلْترجعْ إلى بيتها ، الذى أمرها الله أن تقَرّ فيه .

قال ابن عباس : فجئت ، فأستاذنت عليها ، فلم تأذن لى .. فدخلت بلا إذن ! ومددت يدى إلى وسادة فى البيت ، فجلست عليها !

فقالت : أخطأتَ السُّنّة مرتين ! دخلتَ بيتى بغير إذنى ، وجلست على متاعى بغير أمرى !

فقال : نحن علّمناك السّنّة !! والله ما هو بيتك إلا الذى أمرك الله أن تقَرّى فيه ، فلمْ تفعـلى ! إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه !

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ! ذاك عمر بن الخطاب[1] !

قال : نعم ، وهذا أمير المؤمنين .. على بن أبى طالب !

قالت : أبَيتُ ، أبيتُ .

قال : ما كان إباؤك إلا فُواقَ ناقة بَكيئة[2] ، ثم صِرْتِ ما تُحْلِين ، ولا تُمِرّين ، ولا تأمرين ، ولا تنهَيْن !

قال ابن عباس : فبكت حتى علا نشجيها ، ثم قالت : نعم ، أرجع ، فإن أبغَضَ البلدان إلىّ بلد أنتم فيه !

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك لهم صدّيقاً ! !

قالت : أتَمُنُّ عَلَىّ برسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم ، نمنّ عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لَمَنَنْتِ به علينا !

قال ابن عباس : فأتيت عليا فأخبرته ، فقبّل بين عينى ، وقال : بأبى أنت ! ذرّية بعضها من بعض !

قالوا : ثم بعد أن انتهت المعركة بهزيمة أصحاب الجمل ، أمر علىّ محمد بن أبى بكر ، فضرب عليها قبة ، وقال : انظر ، هل وصل إليها شيء ؟

فأدخل محمد رأسه ..

فقالت : من أنت ؟

قال : أبغض أهلِك إليك !

قالت : ابن الخثعمية ؟

قال : نعم !

---

(١) إشارة إلى أنها لاتعترف بخلافة عثمان وعلى !

(٢) الفواق : ما بين الحلبتين ، والبكيئة ، قليلة اللبن .

قالت : أشهدتَنا يوم الجمل ؟

قلت : نعم .

قالت : لنا أم علينا ؟

قلتُ : عليكم !

قالت : أفتعرف الذى يقول : يا أمَّنا ياخيرَ أمٍّ نعلم [١] ؟

قلت : ذاك ابن عمى .

قال : فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت ! [٢]

كانت أم المؤمنين تودّ لو نسيت يوم الجمل ، ولكن الناس جعلوا يوم الجمل هذا مَعْلَماً لتلك المعركة ، التى قادتها بطلحة والزبير ، وأجلبت لها ما أجلبت من رجال وعتاد ، فكانوا يقولون : فى يوم الجمل حدث كذا ، وكذا ، وفى يوم الجمل قتل فلان وفلان ! فتفزع لذلك وتضطرب .

رَوى ابن الأثير ، أن متحدثا تحدث إليها ، فذكر يوم الجمل . .

فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ .

قال : نعم !

---

(١) هذا من رجز . ارتجز به الحارث بن زهير الأزدى ، وكان فى جيش على ، وذلك حين رأى قومه يسقطون قتلى ، وهم يتهافتون على خطام الجمل ، وهذا الرجز هو :

يا أمنا ياخير أم نعلمُ   أما ترينَ كم شجاع يُكلمُ
وتختلَى هامةٌ والمعصمُ

(٢) الطبرى : ٥ — ١١

قالت : وددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبى ، فكان ذلك أحب إلىّ من أن أكون وَلَدتُ من رسول الله بضع عشرة ، كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومثل عبد الله بن الزبير !! [1] .

وروى ابن سعد فى طبقاته .. قال : كانت عائشة إذا قرأت : « وقَرْنَ فى بيوتكن » بكت حتى تبلّ خمارها ! [2] .

ما وراء حرب الجمل :

خلّفتْ حرب الجمل وراءها مخلّفات كثيرة ، وإن يكن قد سكن ضرامها ، فإن دخانها ما زال يملأ سماء المجتمع الإسلامى ، ويُظِلّ كل مصر من أمصار المسلمين . . إلى قرون وأجيال ! .

كانت حرب الجمل هى أول لقاء صريح بين سيوف المسلمين . . بين جبهتين مسلمتين ، وبين جماعتين قام الإسلام بهم ، واستند إليهم . . من صحابة رسول الله ، السابقين الأولين من المهاجرين ! .

ولا نذكر هنا حروب الرِّدّة ، فإنها لم تكن فى واقعها إلا حملات تأديبية لجماعات من أعراب البادية ، أسلموا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فلما علموا بموت النبىّ — وهم على ماهم عليه من عصبية الجاهلية وخلالها — أنِفوا أن يكون قيادهم إلى رجل ليست له صلة بالسّماء على نحو ما كان للنبىّ ، الذى أذعنوا له على هذا التقدير . . فكانت الحرب التى أقامها أبو بكرٌ والمسلمون عليهم ، إنما هى لتجديد إسلامهم ، وتصحيح إيمانهم ، وإعادتهم إلى حظيرة الدين ، بعد أن لجّ بهم الضلال ، وساقهم العمى إلى الجاهلية التى كانوا عليها .

---

(١) أسد الغابة ٣ — ٢٨٤ .

(٢) الطبقات : ٨ / ٥١ .

لحرب الجمل هى التى فتحت الطريق إلى حرب صفّين ، وهى التى جرّأت معاوية على أن يعدّ جيشاً ، يلقى به عليًّا فى ميدان القتال ، ينازعه الخلافة ويقاتله عليها ! .

والحق أنه لم يكن لمعاوية أن يقف هذا الموقف الصريح من « علىّ » ، ولا أن يدعو تلك الدعوة الجريئة لقتاله ، ولا أن تستجيب له هذه الألوف الكثيرة من المسلمين ، لو لم تكن حرب الجمل قد وقعت على تلك الصورة ، التى التقى فيها المسلم بالمسلم ، بل الصحابىّ بالصحابىّ . . يتقاتلان بسيوفهما ، فيَقْتلان ويُقتلان ! .

إن الحرمة التى كانت لدم المسلم ، قد أباحها المسلمون فى حرب الجمل ! .

وإن هذا التحرج والتهيّب اللذين كانا يحجزان المسلم عن قتال المسلم أو قتله ، قد دفعهما ما رأى الناس فى حرب الجمل من قتال ، وقتل بين خيار المسلمين والأسوة الحسنة فيهم ! وإذن فقد أصبح الطريق مفتوحاً أمام من يريد الخروج على سلطان الخليفة ، ولقاءه بالقوة ، ونصب القتال له ، وللمسلمين .. إذ لم يعُدْ فى هذا الفعل ما ينكره الناس ، وقد رأوْا سوابقه فى مجتمع خير من مجتمعهم ، وبين جماعات خير من جماعاتهم ! .

وسنرى كيف جرت الأحداث بعد معركة الجمل ، وكيف أصبحت بعده الدماء والحرمات تستباح وكأنها قربات يتكثّر الناس منها ، كما يتكثر الراغبون فى ثواب الله ، والطامعون فى رضوانه ، من البرّ والإحسان ، بعد أن كانت تقع حين تقع ، وقد تركت فى النفوس ألماً ، وأعقبت فى القلوب حسرة وندماً ! .

وفى خارج ميدان الحرب والقتل كانت تدور حروب كلامية ، تكثر فيها المصاولات والمجادلات ، بين الناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ، حتى

تشكل من ذلك فِرَق وأحزاب ، تذهب كل فرقة مذهباً ، ويختط كل حزب خطة ، وينهج منهجا ! .

وكانت أنظار المجادلين والمختصمين متعلقة بأيام الجمل ، وما وقع بين صحابة رسول الله فيها ! .

وكان السؤال الذى يُلحّ على الناس يومئذ هو : ما حكم الدّين فى هـذه الحرب ؟ وما رأى الإسلام فيمن قاتل أو قتل من المسلمين فيها ؟ .

كان هذا السؤال يحيك فى كل صدر ، ويدور فى كل عقل ، ويجرى على كل لسان ! وكانت الإجابة أو الإجابات عليه تجىء مختلفة أشد الاختلاف ، متباعدة أكثر البعد ! .

فوقف كثير من النـاس ، وتحرّجوا أن يقولوا شيئاً ، فيمن قاتل أو قُتل . . وهؤلاء هم الذين لم يشاركوا فى حرب الجمل ، ولم يكونوا مع أىّ من الطائفتين المتقاتلتين . . رأوا أن الله وقد عافاهم من الابتلاء بها بسيوفهم ألا يخوضوها بألسنتهم ، فأمسكوا عن القول بتعديل أو تجريح لأحد ، وخاصة أصحاب رسول ، وزوج رسول الله ، وردّوا إلى الله أمرهم ، فهو أعلم بهم وبما اختلفوا فيه ، وقاتلوا عليه ! .

أما الذين شاركوا فى هـذه الحرب من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان لهم رأيهم فى أنفسهم ، وفيما كان يلقاهم به النـاس ، من استفسارات ، واعتراضات.

وقد شرح الإمام علىّ كرم الله وجهه هذه القضية ، فى أكثر من موقف من مواقفه ، وأعطى الناس فيها رأيه واضحاً صريحاً ، يكشف كل شبهة ، ويجلو كل شك وريبة ! .

دخل موسى بن طلحة على علىّ كرم الله وجهه — بعد موقعة الجمل —

فقال له علىّ : « إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ ، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين » .

وأمسى علىّ بالبصرة[1] ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء : أمسيتَ بالبصرة يا أمير المؤمنين ! ؟[2] .

فقال علىّ : كان عندى ابن أخى ! .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟ .

قال : موسى بن طلحة ! .

قال ابن الكواء : لقد شَقِينا إن كان ابنَ أخيك ! ! .

فقال علىّ : ويحك ! ! إن الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : « اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم[3] » .

وابن الكواء — على ما يظهر — كان على يقين من أن أصحاب الجمل ليسوا على حق أو شبه حق ، وأنهم هلكَى البغى والضلال . . فلما سمع من الإمام علىّ رأيَه فى طلحة ، وهو رأس أصحاب الجمل ، أنكر ما سمع ، ومجته نفسه ، وخامره شك مظلم ، ما زال يضرب فى صدره ، ويلجلج فى كيانه ، إلى أن أورده موارد الخوارج ، فكان من رءوسهم ، وداعية من دعاتهم ، حتى قتل يوم النهروان ! .

---

(١) كانت البصرة تقاتل فى جبهة طلحة والزبير ، على حين كانت الكوفة تقاتل فى جبهة علىّ .

(٢) كأنه كان يحذره الغدر به فى هذا البلد الذى كان حرباً عليه ، وينبهه إلى الخطر من وراء هذا التأخر فيه إلى الليل ! .

(٣) الإمامة والسياسة : جزء ١ ص ٨٠ .

وسمع الحسن البصرى[1] رجلاً يقول : « لو كان علىٌّ بالمدينة يأكل من حَشَفِها[2] ، لكان خيراً له مما صنع ! ! .

فقال له الحسن : يا لُكَع ! أمَا والله لقد فقدتموه سهماً من مرامى الله ، غير سؤوم لأمر الله ، ولا سَرُوقٍ لمال الله . أعطى للقرآن عزائمه ، فيما عليه وله ، فأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ، حتى أورده ذلك رياضاً مونقة ، وحدائق مُغدقة[3] . . ذاك ابن أبى طالب ، يا لكع ![4] » .

ثم تمضى الأيام بهذا الحديث عن يوم الجمل ، ومن قاتلوا فيه ، فتتشعب مذاهب القول ، وتتكاثر الفرق والمذاهب ، ويصادف ذلك ابتداء تعرف المسلمين على منطق أرسطو ، ومحاورات سقراط وأفلاطون ، فيُخرِجون مقولاتهم على أقيسة المناطقة ، ومناظرات الفلاسفة ، وتتعدّد فرق الخوارج والمعتزلة ، وتأخذ كل فرقة بطرف من أطراف هذه القضية ! .

ومن مقولات الخوارج : أن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم عليا . وتولّوا عليًا إلى ما قبل التحكيم ، فلما حكّم ، حكموا بكفره ، وأباحوا دمه ، ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ، ولا يدين بمذهبهم .

ومن ثَمَّ ، فقد أصبحوا حرباً على المسلمين جميعاً ! لا يرعَون لمسلم حرمة ، ولا يراقبون فيه إلاًّ ولا ذِمّة ! .

أما المعتزلة ، فقد قال بعضهم بفسق كلا الفريقين من أصحاب الجمل ،

---

(١) هو أبو سعيد ، الحسن البصرى ، من أهل العلم والزهد ، من التابعين الذين عاصروا هذه الأحداث ، وقد رأى علياً وسمع منه .

(٢) الحشف : الردىء من كل شىء .

(٣) أى الجنة .

(٤) البيان والتبيين : للجاحظ ٢/٨٨ .

وأنهم خالدون مخلّدون فى النار ، لأنهم ارتكبوا الكبائر من الإثم ، يقتل بعضهم بعضاً !

وقال بعضهم : إن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، وأقلّ درجات الفريقين أنه لا تُقبل شهادته .

وقال فريق آخر منهم : كل أهل الجمل هالكون ، إلا من ثبتت توبته . . كذلك طلحة والزبير . . أما عائشة فإنها اعترفت بخطئها ، وندمت[١] ! » .

وروى الجاحظ عن بعض السلف ، أنهم كانوا يقولون إذا ذكر يوم الجمل : « هلكت الأتباع ونجت القادة[٢] » .

ولعل تأويل هذا الذى يقوله الجاحظ من نجاة القادة وهلكة الأتباع ، ـ وهو على خلاف الظاهر ـ أن القادة إنما نجوْا لأنهم قاتلوا عن اجتهاد اجتهدوه ، وليس على المجتهد ذنب إن هو أخطأ ، بل إنه إن أخطأ فله أجر ، وإن هو أصاب فله أجران . . أما الأتباع ، فقد دخلوا المعركة بغير نظر واجتهاد ، فهم مؤاخذون ، لأنهم لم يكونوا من أصحاب النظر ، ودخلوا فيما دخل فيه أهل النظر ! .

ولا شك أن هذا الحكم يُلزم للناس جميعاً أن ينظروا لأنفسهم ، وبأنفسهم فى كل أمر وفى كل تدبير ، وخاصة ما يتصل بالعقيدة ، وهو ما يقول به المعتزلة ـ وكان الجاحظ معتزليا ـ من أن الناس جميعاً محجوجون بالتعرف على الله بعقولهم ، ولو لم يبعث الله فيهم رسلاً ، وينزل عليهم كتباً . . وهو

---

(١) الملل والنحل : جزء ٥ .

(٢) العثمانية : للجاحظ ص ٢٤٦ .

رأى بعيد عن واقع الحياة وطبيعة الناس ، معطّل لحكمة الله ورحمته بعباده ! .

والرأى الذى عليه المسلمون ، ما يقول به الأشاعرة وهو : إن أصحاب الجمل أخطئوا ، ولكنه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع .. ولا يلزم به الكفر ، ولا الفسقُ ، ولا التبرُّؤ ولا المعاداة ! »[1] .

وهذا ما نَدين به !

فإذا خَطّأنا أحداً من أصحاب الجمل فى موقفه ، أو خالفناه فى سياسته ، أو نازعناه فى رأيه ، فإنا لا نتجاوز هذا إلى ما يمسّ دينه ، فذلك مِمّا هو لله وحده ، بين العبد وربّه .. « وإلى الله عاقبة الأمور » ! .

* * *

---

(١) الملل والنحل : ١ : ١٤٤ .

بين علىّ ومعاوية

بعد مقتل عثمان :

كان معاوية من المطالبين بدم عثمان ، فإلاّ يكن من الخليفة الجديد قصاص ، فهو الثورة على الخليفة ، وعدم الإقرار له بالبيعة ، ثم الثأر !

هكذا تخيّر معاوية موقفه من أول الأمر !

إنه لم يبايع الخليفة الذى بايع له المهاجرون والأنصار ..ومع هذا فهو يطالبه بالقصاص من قتلة عثمان ! وإلاّ فلا بيعةَ ، ولا سمعَ ولاطاعة !

والتناقض واضح فى هذا الموقف !

فلو أن معاوية بايع عليًّا ، لكان له وجه فى المطالبة بما طالبه به .. ولكنه يحجب عنه طاعته وولاءه ، ثم يعود فيلزمه مايلزمُ ولىّ الأمر ، من ردّ المظالم ، والأخذ على يد الظالمين ! فذلك مالا يستقيم على منطق ، أو واقع !

ولكنه معاوية . فى سياسته ودهائه !

فهو إذ قد رأى جماعة ممن بايعوا عليًّا ، خرجوا على طاعته ، وأعلنوا ألاّ بيعة له عندهم ، توقّف عن البيعة ، ثم أمسك يده عن أن يبايع ، حتى لاتلزمه الحجة إذا هو خرج ، كما لزمت من بايعوا ثم خرجوا ! !

وكان صوت معاوية خافتاً ، متردداً ، أول الأمر ، فلم يجاهر بالعصيان ، ولم يصرّح بالخروج على الخليفة ، بل ظل يرقب الأحداث، ويُعدّ نفسه الموقف الذى تقتضيه الأحوال !

فلما أعلنت أمُّ المؤمنين عائشة عن موقفها ، وجمعت إليها طلحة والزبير ، ثم اجتمع لها هذا الجيش الكبير الذى حاربت به علياً يوم الجمل ـ عندئذ صرح معاوية عن رأيه ، وكشف عن موقفه ، وأنه لن يرجع عن موقفه من علىّ حتى يدفع إليه قتلة عثمان ، فإن فعل كانت الخلافة شورى بين المسلمين ، فمن رضيه المسلمون دخل فى طاعته ! !

ولا شك أن موقف السيدة عائشة ، وطلحة والزبير ومَن تبعهم ـ هذا الموقف هو الذى فتح لمعاوية الطريقَ إلى الخروج على الخليفة ، وجرأه على أن يسلّ سيفه فى وجهه ، وأن يُعدّ جيشاً لقتاله !! إن معاوية لم يكن ليجرؤ على أن يخرق هذا الخرق فى الإسلام ، وأن يجد حوله الأنصار والأعوان ، لولم تكن حرب الجمل قد فتحت للناس هذا الباب ، الذى تهيب الناس الدنوّ منه ، فلما كانت يد أم المؤمنين عائشة ، ومعها أيدى طلحة والزبير ، وغيرهما من صحابة رسول الله ـ هى التى طرقت هذا الباب ، وفتحته ـ لم يعد أحدٌ يرى حرجاً أن يفعل مثل مافعلوا ، وأن يأتى مثل ما أتوا . .

ولقد بدأ معاوية من حيث انتهى أصحاب الجمل . .

حين كان أصحاب الجمل يديرون المعركة مع علىّ وكان معاوية يعدّ العُدّة لحرب جديدة .. إن انتصر علىّ على أصحاب الجمل حاربه ، وإن انتصر أصحاب الجمل على علىّ حاربهم . . إنه يريد الخلافة ، ولا يسلِّم له بها أحد من الفريقين إلا بعد الحرب ، والغلب !

يقول معاوية فى بعض مايُذكر عنه :

« أعُنتُ على علىّ بأربع : كنتُ رجلاً أكتم سِرِّى ، وكان رجلاً ظُهَرة ! وكنت فى أطوع جند وأصلحه ، وكان فى أخبث جند وأعصاه ، وتركته وأصحاب الجمل ، وقلت : إن ظفروا به كانوا أهونَ علىّ منه ، وإن ظفر بهم

اعتددت بها عليه فى دينه .. وكنت أحبَّ إلى قريش منه ! »[١]

إنها الحرب على أىّ حال . وقد أخذ معاوية فى الإعداد لها منذ مقتل عثمان ، بل ربما قبل أن يُقتل عثمان !

وقد شُغل علىّ عن معاوية بأصحاب الجمل .. فلما فرغ منهم ، التفت إلى معاوية ، الذى كان خلال تلك المدة حركةً دائبة فى الإعداد للقاء علىّ ؛ إذ كان يعلم أن عليًّا لايدعه واليًا على الشام ، بعد أن عرف موقفه منه . فما كاد علىّ ينتهى من موقعة الجمل حتى كان معاوية قد قبض بيده على زمام أهل الشام ، واستولى على قلوبهم ، بما استرضاهم به ، من مال ، ومناصب ، وأمانىّ كثيرة ، عرف كيف يبلغ بها أهواء النفوس ، ويغذّى مطامعها !

ولم يقتصر معاوية على أهل الشام ، بل مدّ بصره إلى أهل النجدة والرأى من أصحاب علىّ ، ومن كانوا شيعةً له ، فجاء إلى كل واحد منهم من الطريق الذى يَعرف كيف يلقاه فيه ، ووضع يده على مكان الضعف منـه ، فوقع كثير منهم ليده ، ومن تأبىّ عليه ، أفسده على علىّ ، وقطع مابينه وبينه !

وسنرى لمعاوية فى هذا فَعَلات عجيبة ، تـكشف عن ذكاء ، ودهاء . مع جرأة على الحق ، وجور على الدين !

الحرب أولها الـكلام :

ولم يكن من طبيعة علىّ أن يبدأ أحدًا فى القتال قبل أن يبدأه .. ولم يكن يلجأ إلى القتـال إلا بعد أن يُعذِر وينذر ، رجاء أن يراجع خصومُه أنفسَهم ، ويَفيئوا إلى السلم والعافية . فإن هو أعذر إليهم ، وبالغ فى الإعذار ،

---

(١) الـكامل للمبرد: ٢ - ١٦ .

ثم لم يكن منهم إلا الإصرار على الخلاف ، والقتال .. فهو قتال عَرَفَ الإمامُ وجهه .. إنه قتال أهل البغى ، وقتل الفئة الباغية !

وبهذا التقدير ، وعن هذا التأويل حارب علىّ أصحابَ الجمل ، كما حارب أصحابَ صفّين ، وأهل النهروَان من الخوارج .

إنه يَعدّ هؤلاء جميعاً مسلمين .. قد شقّوا عصا الطاعة ، وخرجوا عن سلطان الخلافة ، متأولين فى ذلك ، عن نية صادقة فى طلب الحق ، أو عن هوًى مضلّ قد انطوت عليه الصدور !

ولهذا ، فقد كان علىّ ــ كرم الله وجهه ــ لايرى فى حربه لهؤلاء الخارجين عليه ، إلاّ أنهــا حملات تأديبية ، ترد الشاردين ، وتأخذ على أيدى العُصاة المنابذين .. وسواء أكانت هذه الحرب فى أضيق الحدود ، أو فى أوسع مدًى ، فإن طبيعتها عنده لاتتغير ، وإن تغيرت وجوهها ، وتباينت صورها وأشكالها .

إن الحرب هنا ، أشبه بعملية جراحية لمريض .. لايتجاوز مِبْضَعُ الطبيب فيها موضعَ العضو الفاسد ، إلى ما صحّ وسلم !

ولهذا ، فقد كانت حرب الإمام علىّ ــ رضى الله عنه ــ واقفة عند ميدان المعركة ، لا تتجاوز حدوده ، إلى ما وراء المحاربين ، من نساء ، وأطفال ، وزرع ، وضرع ، ومتاع !

فنى هذه الحرب . .

لا يُجهز على جريح !

لا يُقتل مدبر !

ولا يؤسَر مستسلم !

ولا يُستحوذ على نساء !

ولا يُستولى على عبيد أو إماء ، إلا ما كان من عُدّة الحرب !

وبانتهاء المعركة ، وإلقاء السَّلَم ، لا يكون لعليّ ، ولا لجيشه سلطان على أحد ممن قاتله . . فلا حساب ، ولا عقاب !

على هذا الدستور يحارب عليّ ، ويحارب معه من آزره ، ووقف إلى جانبه! فهل التزم الذين كانوا يحاربونه هذه الخطة ؟ وهل أخذوا بها أنفسهم ؟

الحقّ أن عليًّا وحده هو الذى كان يقاتل تحت هذا الشرط الذى أخذ به نفسه ، وألزمه مَن معه ، أما مقاتلوه فقد جرت حربهم معه على غير هذا . . إنما هى الحرب عندهم . يُطلب فيها الغَلب والنصر ، بكل أسلوب ممكن ، وبكل وسيلة مسعفة !

يقول ابن حزم :

« وفى أيامه ـ أى علىّ ـ كانت وقعة الجمل وصفّين ، وعَلِمَ الناس منه فيها كيف كان قتال أهل البغى ! »[1].

وهذه قولة صدق ، تلخص فى إيجاز بليغ، خطّة علىّ فى الحروب ، التى خاضها مع الجماعات المسلمة ، فى ميادين الحرب التى كانت بينه وبين مسلمين !!

وسنرى كيف كان علىّ يمسك بهذا الدستور ، لا يتحول عنه ، حتى فى أشدّ المواقف حرجاً له ولمن معه ، وحتى حين ينكشف له الأمر عن تخاذل أنصاره ، وتفلتهم منه،حين يرون أنهم إنما يقاتلون بأسلحة مفلولة ، على حين يلقاهم مقاتلوهم بكل أسلحة الحرب ومعداتها ! .

إنه يطلب حقًّا ، ويقاتل فى سبيل الحق ، فلا يستعين عليه بباطل ، ولا يركب إليه غير طريق الحق . . وسواء عليه أدرك الحق أو لم يدركه . . فحسبه أنه قاتل فى سبيله ، وقُتل تحت رايته . . فذلك هو الفوز المبين ! .

* * *

---

(١) جوامع السيرة ، لابن هشام ص ٣٥٥ .

قالوا : إنه لما فرغ على ـ رضى الله عنه ـ من الجمل ، بايع له القوم جميعاً ، وبايع له أهل العراق ، واستقام له الأمر ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعد ، فإن القضاء السابق ، والقَدَر النافذ ، ينزل من السماء ، كقطر المطر ، فتمضى أحكامه عزّ وجل ، وتنفذ مشيئته ، بغير تحابّ المخلوقين ، ولا تراضى الآدميين . . وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس عامّةً ، إيّاى ، ومصارع الناكثين لى ، فادخل فيما دخل الناس فيه ، وإلا فأنا الذى عرفتَ ، وحولى من تعلمه . . والسلام » .

وبعث علىّ بهذا الكتاب مع الحجاج بن عدىّ الأنصارى ، فجاء به إلى معاوية ، وهو يخطب الناس بدمشق ، فلما قرأه اغتمّ بذلك وأعظمه ، وأسرّه عن أهل الشام .

ثم قام الحجاج بن عدىّ خطيباً : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الشام : إن أمر عثمان أشكل على من حضره ! المخبِر عنه كالأعمى ، والسميع كالأصم .. عابه قوم فقتلوه ، وغدره قوم فلم ينصروه ، فكذّبوا الغائب ، واتّهموا الشاهد . . وقد بايع الناس علياً على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة عامة ، ومن رغِبَ عنها ، رُدَّ صاغراً داحراً . .

فانظروا فى ثلاث ، وثلاث . . ثم اقضوا[1] على أنفسكم :

أين الشام من الحجاز ؟ .

وأين معاوية من علىّ ؟ .

وأين أنتم من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ؟ .

---

(١) اقضوا : أى احكموا .

قالوا : فغضب معاوية لقوله ، وقال : يا حجاج .. أنت صاحب زيد ابن ثابت ، يوم الدار ؟ .

قال : نعم ، فإن كان بلغك ، وإلا أحدّثك ! .

قال : هاتِ ! .

قال : أشرف علينا زيد بن ثابت ، وكان مع عثمان ، فى الدار ، وقال : يا معشر الأنصار : انصروا الله ، انصروا الله ، فقلتُ : يا زيد ، إنا نكره أن نَلْقى الله فنقول كما قال القوم : « ربّنا إنّا أطعنا سادَتَنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا » .

فقال معاوية : انصرف إلى علىّ ، وأعلمه أن رسولى على أثَرِك ! »[1] .

قالوا :

وكتب معاوية إلى علىّ :

« أما بعد ، فإنا كنا نحن وإياكم يداً جامعة ، وألفةَ أليفة ، طمِعْتَ يا ابنَ أبى طالب ، فتغيّرتَ ، وأصبحتَ تَعُدّ نفسَك قوياً على من عاداك ، بطَغَام أهل الحجاز ، وأوباش العراق ، وحمقى الفسطاط ، وغوغاء السواد[2] ، وأيم الله لينجلينّ عنك حمقاها ، ولينقشعنّ عنك غوغاؤها ، انقشاع السحاب عن السماء ! .

« قَتَلْتَ عثمان بن عفّان ، ورقَيْتَ سُلَّماً أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك ، وقتلت الزبير ، وطلحة ، وشرّدت بأمّك عائشة ، ونزلتَ بين

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٨٥ .

(٢) يريد العراق .

المِصرين (١) ، فمنّيت وتمنيت ، وخيِّل إليك أن الدنيا قد سُخِّرت لك بخَيْلِها ، ورَجِلها . . وإنما تَعرف أمنيّتك لو زُرْتك في المهاجرين من أهل الشام ، بقية الإسلام ، فيحيطون بك من ورائك ، ثم يقضى الله علمه فيك ، والسلام على أولياء الله (٢) ! ! » .

إنها الحرب الصريحة ، التي لا تُبقيا معها إلى مراجعة ، ولا سبيل وراءها إلى مهادنة ، فقد أعلنها معاوية في مجابهة وتحدٍّ ، وفي تعبئة كاملة للحرب برجالها ومعداتها ! ! .

ونحن وإن كنا لا ننظر إلى هذه الكتب نظرتنا إلى الوثائق التاريخية المحققة ، ولا نصغى إليها إصغاءنا إلى الشهود العدول ، غير أن ذلك لا يجعلنا نهدِرُ مدلولاتها ، ولا نأخذ بما تشير إليه ، مما يتسق مع مجرى الأحداث ، ويلتقي مع واقع الأمور ! .

فالذى لا شك فيه أن « معاوية » قد ملأ يديه من أهل الشام ، ووثق بما عندهم من طاعة وولاء ، كما أنه نفذ إلى جبهة « عليّ » فعرف ما فيها من قُوى الهدم والتخريب ، وأن عَزَمات « عليّ » في إقامة بنيانها ، ورأب صدوعها ، بما ينفخ فيها من روحه ، وما يغذيها به من إيمانه — لن يقوم بما تفعل الأيام والأحداث في جبهته ، من هدم وتدمير ! !

فكان أن جابَه علياً هذه المجابهة ، ولقيه هذا اللقاء . . الذى تنطق به كلمات الكتاب ، كما نطق به لسان الحال . .

قالوا : وكتب « عليّ » إلى معاوية . رداً على كتابه هذا ، فقال :

« أما بعد ، فإنا كنّا نحن وأنتم على ما ذكرت ، من الأُلْفة والجماعة

---

(١) البصرة والكوفة .

(٢) الإمامة والسياسة ١ : ٨١ .

ففرّق بيننا وبينكم أمسِ ، أنّا آمَنّا وكفرتم ، واليوم ، أنا استقمنا وفُتنتمُ ! وما أسلَمَ مسلمكم إلا كُرْهًا ، وبعد أن كان أنفُ الإسلام كلُّه لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ حزبًا .

«وذكرتَ أنى قتلتُ طلحة والزبير ، وشرّدت بعائشة ، ونزلتُ المصرَين ، وذلك أمر غبتَ عنه ، فلا عليك ، ولا العُذْر فيه إليك !

وذكرتَ أنك زائرى فى المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعت الهجرة يوم أُسِرَ أخوك [١] ، فإن كان فيك عَجَل فاسْتَرْفِه [٢] . فإنى إن أزرك فذلك أن يكون الله إنما بعثنى للنقمة منك ، وإن تزرنى فكما قال أخو بنى أسد :

مستقبلين رياح الصيف تضربهم بحاصب بين أغوار وجلمود [٣]

وعندى السيف الذى أعضضته بجدّك ، وخالك ، وأخيك ، فى مقام واحد [٤] ، وإنك والله ، ما علمتُ إلاّ الأغْلَفَ القلب ، المقاربَ العقل ، والأولَى أن يقال لك : إنك رقيت سُلَّما ، أطلعك مَطلع سوء ، عليك ، لا لك ، لأنك نشدت غير ضالتك ، ورعيتَ غير سائمتك ، وطلبت أمراً لست من أهله ، ولا فى معدنه . فما أبعد قولك من فعلك !

«وقريب ما أشبهتَ من أعمام وأخوال ، حملتهم الشّقوَة ، وتمنّىَ الباطل على الجحود بمحمد صلى الله عليه وآله ، فصُرعوا مصارعهم حيث علمتَ ! لم يدفعوا عظيما ، ولم يمنعوا حريماً ، بوقع سيوف لم تَخْلُ منها الوغى ، ولم تماشِها الهوينَى !

---

(١) أخوه . هو عمرو بن أبى سفيان ، وقد أسر يوم بدر .

(٢) أى استرح ولا تعجل ، فإنى أنا الذى آتى إليك .

(٣) يريد أن معاوية إن أقبل بجيشه فسيلق أهوالا ، دونها الأهوال التى يلقاها من يتعرض لرياح الصيف العاصفة ، وما تحمل من سموم وتراب !

(٤) جده ، هو عتبة بن ربيعة ، وخاله ، الوليد بن عتبة . وأخوه ، حنظلة . قتلهم على يوم بدر .

« وقدأ كثرتَ فى قَتَلة عثمان . فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ ، أحمِلك وإياهم على كتاب الله ، وأمّا تلك التى تريد ، فإنها خُدْعة الصبىّ عن اللبن !![1] » .

وكتاب الإمام لم يحسِم الأمر ، ولم يقطع هذا الخلاف الذى بينه وبين معاوية . . فما زال معاوية عند موقفه . . يأبى البيعة ، ويطالب بقتلة عثمان . . وإلا فهى الحرب ! .

وقد ظلت الكتب والرسل تروح وتغدو ، بين علىّ ومعاوية نحو سنة . .

وإنه لا بأس من أن نستعرض بعض هذه الكتب — على رأينا فيها وفيما تحمل فى كيانها من أحداث وما تكشف من أمور — فهى والحال كذلك . أشبه بمرويات وأخبار ، تحدث عن تلك الفترة الواقعة بين حرب الجمل وصفين ، والتى كانت تلك الكتب أهم مصدر لأخبارها .

كتب معاوية إلى علىّ — فى بعض ما كتب :

« أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنتَ كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما . . ولكنّك أغريتَ بعثمان المهاجرين ، وخَذّلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . . فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين !

« وكان أهل الحجاز الحكامَ على الناس ، وفى أيديهم الحق ، فلما تركوه صار الحق إلى أهل الشام !! ولَعَمْرى . . ما حجّتك على أهل الشام كحجتك

---

(١) نهج البلاغة جزء ٢ ص ٧٧ شرح الإمام محمد عبده .

على أهل البصرة ، ولا حجتك عَلَىّ كحجتك على طلحة والزبير . . لأن أهل البصرة بايعوك ، ولم يبايعك أحد من أهل الشام ، وإن طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعكَ . . وأما فضلك فى الإسلام ، وقرابتك من النبى ، عليه السلام ، فلعمرى ما أدفعه ، ولا أنكره ! »

فكان جواب على :

« أما بعد ، فقد جاءنى منك كتابُ امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاستقاده . . زعمتَ أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ! ولعمرى ، ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعَمَى . . وما أمَرْتُ فيلزمنى خطيئة عثمان ، ولا قَتَلتُ فيلزمنى قصاصُ القاتل !

«وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على الناس ، فهاتِ رجلاً من أهل الشام يُقبَل فى الشورى ، أو تحلّ له الخلافة ! فإن سَمّيتَ كذّبك المهاجرون والأنصار ، وإلا[1] أتيتك به من قريش الحجاز . .

وأما قولك ندفع إليك قَتَلَة عثمان . . فما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى به منك ! ! فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلىّ !

«وأما تمييزك بين الشام والبصرة ، وذكرك طلحة والزبير ، فلعمرى ، ما الأمر إلا واحد . . إنها بيعة عامة ، لا يثنّى فيها النظر[2] ، ولا يستأنف فيها الخيار . .

---

(١) أى وإن لم تسم .

(٢) أى لا يعاد فيها النظر ، مرة بعد مرة ، وإنما هى نظرة واحدة .

« وأما ولوغك بى فى أمر عثمان ، فوالله ما قلتَ ذلك عن حَقِّ العِيان ، ولا عن يقين الخبر !

«وأما فضلى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله عليه السلام ، وشرفى فى قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته ![1].

ومما كتب به الإمام علىّ إلى معاوية :

« إنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً ؛ كان ذلك رِضىً ، فإن خرج من أمرهم ، بطعن أو بدعة ، ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى ، قاتلوه على اتّباعه غيرَ سبيل المؤمنين ، وولاّه الله ما تولىّ !

« ولعمرى يا معاوية .. لو نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدَنّى أبرأ الناس من دم عثمان ، ولتعلَمَنَّ أنى كنتُ فى عزلة عنه ، إلاّ أن تتجَنّى ، فتجنَّ ما بدا لك والسلام ! »[2].

وكتب إليه مرة يقول :

« ... فأراد قومنا قتلَ نبينا ، واجتياح أصلنا ، وهمّوا بنا الهموم ، وفعلوا بنا الأفاعيل ، ومنعونا العذْب ، وأحْلسُونا الخوفَ[3] ، واضطرونا إلى جبل وعر ، وأوقدوا لنا الحرب ، فعزم الله لنا على الذّب عن حوزته ، والرّمْى من وراء حرمته .. مؤمننا يبغى بذلك الأجر ، وكافرنا يحامى عن الأصل !

« ومن أسلم من قريش خِلْوٌ مما نحن فيه بحِلفٍ يمنعه ، أو عشيرة تقوم دونه ، فهو من القتل بمكانٍ أمن ! » .

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٩٤/ والإمامة والسياسة ١/١٥٠ ، ١٠٦ .

(٢) نهج البلاغة : ٥/٢ .

(٣) يحدث الإمام عما كان من قريش حين ألجئوا بنى هاشم إلى شعب أبى طالب .

«وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذا احمرّ البأس ، وأحجم ، قدّم أهل بيته ، فوقَى بهم أصحابه حَرَّ الأسنّة والسيوف، فقُتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقُتل حمزة ، يوم أحد ، وقُتل جعفر، يوم مؤتة . . وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثلَ الذى أرادوا من الشهادة ، ولكن آجالهم عُجِّلت ، ومنيته أُجِّلت[1] !

« فياعجبا للدهر ، إذ صرتُ يُقْرن بى من لم يَسْعَ بقدمى ، ولم تكن له كسابقتى ، التى لا يُدْلى أحد بمثلها ، إلا أن يدّعِ مُدَّعٍ ما لا أعرفه ... والحمد لله على كل حال !

« . . . ولعمرى لو لم تنزع عن غَيِّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك ، ولا يكلفونك طلبهم فى برّ ، ولا بحر ، ولا سهل، ولا جبل، إلا أنه طلب يسوءك وجدانه ، وزَوْر[2] لا يسرك لقيانه ، والسلام لأهله ! »[3].

وكتب إليه مرة يقول :

« وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه ، من دنيا قد تبهّجت بزينتها ، وخَدَعت بلذّتها . . . دعَتْك فأجبتَها ، وقادتك فاتبعتها ، وأمرتك فأطعتها، وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مُنجٍ . فاقعسْ عن هذا الأمر ، وخذ أهبة الحساب ، وشمّر لما قد نزل بك ، ولا تمكن الغُواةَ من سَمْعك ، وإلا تفعل أُعلِّمْك ما أغفلتَ من نفسك ، فإنك مُتْرَف ، قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك أمله ، وجرى منك مجرى الرّوح والدّم ..

« وقد دعوتَ إلى الحرب ! فدع الناس جانباً ، واخرج إلىّ ، وأعفِ

(١) يريد الإمام نفسه ، أى أنه كان ممن عرض نفسه للإستشهاد فى سبيل الله ، ولكن الله أخر أجله .

(٢) أى زائرون .

الفريقين من القتال، ليُعلَم أيُّنا المَرِين[1] على قلبه ، والمغطّى على بصره . فأنا أبو حسن ، قاتل جدّك ، وخالك ، وأخيك . شَدْخاً يوم بدر ! وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألق عدوّى ، ما استبدلتُ دينا ، ولا استحدثتُ نبيا ، وإنى على المنهاج الذى تركتموه طائعين ، ودخلتم مكرهين[2] .

ومن أروع ما كتب علىّ إلى معاوية ، رداً على كتاب ، لمعاوية :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك . تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه وآله لدينه ، وتأييدَه إياه بمن أيده من أصحابه !

« فلقد خبّأَ لنا الدهر منك عجباً !!

« إذ طفقت تُخبرنا ببلاء الله عندنا ، ونعمته علينا فى نبيّنا . . .

« وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان . . أمرٌ إن تَمَّ اعتزلك كله ، وإن نقص لم تلحقك ثُلمته .. وما أنت والفاضلَ والمفضول ، والسائس والمسوس؟ وما للطلقاء وأبناءِ الطلقاء ، والتمييزَ بين المهاجرين الأولين وترتيبَ درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؟ هيهات !! لقد حنَّ قِدْح ليس منها[3] ، وطفق يحكم فيها مَن عليه الحكم لها !! .

« ألاَ تربَعُ أيها الإنسان على ظَلْعك . وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر ؟

« فما عليك غَلَبةُ المغلوب ، ولا ظفر الظافر !

---

(١) أى المغطى على قلبه .

(٢) نهج البلاغة ٢ — ٨

(٣) القدح : بكسر القاف : السهم ، وحن : صوت .

وإنك لذهّاب في التيه[1] ، روّاغ عن القصد . ألا ترى ـ غيرَ مخبِرٍ لك ولكن بنعمه الله أحدّث ـ أن قوما استُشهدوا في سبيل الله من المهاجرين ولكلٍّ فضل ـ حتى استشهد شهيدنا ، قيل سيد الشهداء[2] ، وخصّه رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ؟

«أوَلاَ ترى أن قوماً قُطعت أيديهم في سبيل الله ـ ولكلٍّ فضل ـ حتى إذا فُعِل بواحد منا مافعل بواحدهم قيل:الطيار في الجنّة ، وذو الجناحين [3].؟ ولولا مانهى الله عنه من تزكية المرء نفسَه لذكر ذاكر فضائل جمّة ، تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين ..فدع عنك من مالت به الرّمية[4] ، فإنا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائعُ لنا !

«لم يمنعنا قديم عزّنا ، ولا عاديّ طولنا على قومك ، أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا ، وأنكحنا ، فعلَ الأكفاء ، ولستم هناك !

وأنّى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبيّ ومنكم المكذِّب[5] ؟ ومنا أسَد الله ، ومنكم أسد الأحلاف[6] ؟ ومنا سيدا شباب أهل الجنّة ، ومنكم صبية النار[7] ؟ ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمّالة الحطب[8]؟ .. في كثير مما لنا ولكم .

---

(١) التيه . الضلال

(٢) هو حمزة

(٣) هو جعفر بن أبي طالب

(٤) يراد به المعوج الضال عن غايته .

(٥) هو أبو جهل .

(٦) أسد الله : حمزة ، وأسد الأحلاف : أبو سفيان ، حيث قاد الأحلاف في غزوة الخندق .

(٧) سيد شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ، رضى الله عنهما ، بنص قول رسول الله ، وصبية النار : هم أبناء الحكم بن العاص ، كما أخبر النبي عنهم .

(٨) خير نساء العالمين :فاطمة ،وحمالة الحطب :أم جميل بنت حرب ، عمةمعاوية

«وزعمتَ أنى للخلفاء حَسَدت ، وعلى كلّهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك ، فليس الجناية عليك ، فيكون العذر إليك ، وتلك شَكاة [1] ظاهرٌ عنك عارها !

«وقلتَ إنى كنت أُقادُ كما يقاد الجمل المخشوش [2] ، حتى أبايع . وايمر الله ، لقد أردتَ أن تَذُمَّ فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوما ، مالم يكن شاكًّا فى دينه ، ولا مرتابا بيقينه ، وهذه حجتى ، إلى غيرك قصْدُها ، ولكن أطلقت لك منها بقدر ماسنح من ذكرها .

« ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فَلَكَ أن تُجاب عن هذه لرحِمِك منه .. فأينا كان أعدى له ، وأهْدَى إلى مقَاتله ؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفّه ؟ أم من استنصره فتراخى عنه ، وبثّ المنون إليه ، حتى أتى قَدَرُه عليه ؟ كلا وأيم الله . . « لقد علم الله المعوِّقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا ! » .

« وما كنتُ لأعتذر من أنّى كنتُ أنقم عليه أحداثاً ، فإن كان الذَنب إليه إرشادى وهدايتى له ، فربّ ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظِنّة المتنصّح [3] ، وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ! .

« وذكرتَ أنه ليس لى ولا لأصحابى إلا السيف ، فلقد أضحكت بعد استعبار [4] ! ! متى ألفيتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، وبالسيوف

---

(١) الشكاة : النقيصة ، وظاهر : أى بعيد .

(٢) الجمل المخشوش : أى الذى يوضع فى أنفه خشبة صغيرة ليقاد بها .

(٣) الظنة : التهمة ، والمتنصح : الناصح المبالغ فى نصحه .

(٤) الاستعبار : البكاء .

مخوّفين .. فَلَبِّثْ قليلا يلحق الهيجا حَمَل[1] ، فسيطلبك من تطلب ، ويقرب منك ما تستبعد ، وأنا مُرْقل نحوك فى جحفلٍ من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، شديدٍ زحامُهم ، ساطعٍ قتامهم ، متسربلين سربال الموت ، أحبُّ اللقاء إليهم لقاء ربّهم ، قد صحبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفتَ مواقعَ أنصالها ، فى أخيك ، وخالك ، وجدّك وأهلك ، وما هى من الظالمين ببعيد[2] » .

ولا شك أن هذه الرسائل التى تنسب إلى الإمام ، والتى يقال إنه كان قد بعث بها إلى معاوية ، كان يقابلها من معاوية رسائل مثلها تقوّى موقف معاوية ، وتظهر له حجّته ! .

ولكن هذه الرسائل لم تنته إلى ما يحسم الخلاف بين علىّ ومعاوية ، فسارت الأمور إلى غاياتها ، ولم يبق إلا السيف ، يقول كلمة الفصل فيما يختصم فيه الطرفان ! .

وقد تهيأ الفريقان فعلا للحرب ، وتحركت جيوشهما إلى صفّين .

وإذن فها نحن أولاء على مشارف المعركة ، وعلى مرمى البصر من ميدانها ! .

فماذا جرى هناك ؟ وكيف كانت نهاية الحرب ؟ .

ولكن يحسن بنا قبل أن نشهد القتال ، ونرصد حركات المقاتلين — أن نتمهل قليلا ، لننظر نظرة فى داخل المعسكرين ، هنا ، وهناك ، لنرى ما عند هؤلاء وهؤلاء ، من رأى فى هذه الحرب ، وفى الإعداد النفسى

---

(١) مثل يضرب للتهديد بالحرب العامة الشاملة ، حتى لتشترك فيها الحملان .

(٢) نهج البلاغة : ٢ : ١٨ — ٢٢ .

والمادى لها . . فذلك جدير به أن يصحبنا ، وأن يكون بمحضرنا ، ونحن نشهد هـذه الملحمة ، التى اشترك فيها مئات الألوف ، وسقط فى ميدانها عشرات الألوف ! .

* * *

الأحنف بن قيس : كان من الرجال البـارزين فى جيش علىّ ، ومن القوى المناصرة له . . وكان الأحنف قد تخلّف عن علىّ فى حرب الجمل ، إذ لم يَرَ أن يكون فى المحاربين ، وإن كان هواه مع علىّ ، وقد بعث إلى علىّ يومئذ يقول له : « إن شئتَ أتيتك فى مئتى رجل من أهل بيتى ، وإن شئتَ كَفَفْتُ عنك أربعة آلاف سيف ! » فأرسل إليه علىّ : « بل كُفَّ عنّى أربعة آلاف سيف ، وكفى بذلك ناصراً ! » فجمع الأحنف بنى تميم ، فقال لهم : يا معشر بنى تميم : إن ظهر أهل البصرة فهم إخوانـكم ، وإن ظهر علىّ فلن يَهيجكم ، وكنتم ، قد سلمتم» . . فـكفّ بنو تميم ، ولم يخرجوا إلى أحد الفريقين !

فلما كان الإعداد لحرب معاوية ، جاء الأحنف إلى علىّ ـ كرم الله وجهه ـ فقال : يا أمير المؤمنين . . إنه إن يك بنو سعد ـ قوم الأحنف من بنى تميم ـ لم ينصروك يوم الجمل ، فلم ينصروا عليك غيرك ، وقد عجبوا ممن نَصَرك يومئذ ، وعجبوا اليوم ممن خذلك ، لأنهم شـكّوا فى طلحة والزبير ، ولم يَشـكّوا فى عمرو ومعاوية ! . . وإن عشيرتنا بالبصرة . . فلو بعثنا إليهم ، فقدموا علينا ، فقاتلنا بهم العدو ، وانتصفنا بهم من الناس ، وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس ! ! .

« وهذا جمعٌ قد حشره الله عليك بالتقوى ، لم نستـكره شاخصاً ، ولم نُشخِص فيه مقيما ، ومن كان معك نافعك ، وربّ مقيم خير من شاخص ، وإنما نَشُوبُ الرجاء بالمخافة ! .

« ووالله لوددْنا أن أموتنا رجعوا إلينا ، فاستعنّا بهم على عدوّنا !! وليس لك إلا من كان معك ، ولنا من قومنا عدد ، ولا نلقى بهم عدواً أعدى من معاوية ، ولا نسدّ بهم ثغراً أشدّ من الشام ! » .

فقال عليّ للأحنف : اكتب إلى قومك . . فكتب إليهم :

« أما بعد ، فإنه لم يبق أحد من بنى تميم إلا شَقُوا برأى سيّدهم غيرَكم ، وعصمكم الله برأيي ، حتى نلتم مارجوتم ، وأمنتم مما خفتم ، فأصبحتم منقطعين من أهل البلاء ، لاحقين بأهل العافية . . !

« وإنى أخبركم أنا قدمنا على تميم الكوفة فأخذوا علينا بفضلهم مرتين . . مسيرهم إلينا مع عليّ ، وتهيئهم للمسير إلى الشام . ثم انحشرنا معهم فصرنا كأنّا لا نُعرف إلا بهم ، فأقبِلُوا إلينا ، ولا تتّكلوا علينا ، فإن لهم أعدادَنا من رؤسائهم ، فلا تُبطئوا علينا ، فإن من تأخير العطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا ، فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الإبطاء . . . »

فلما انتهى كتاب الأحنف إلى بنى سعد ، ساروا بجماعتهم حتى نزلوا الكوفة ![1] .

عمار بن ياسر : وقد عرفنا ما كان من عمار فى حرب الجمل ، وأنه كان مع عليّ بلسانه ، وقلبه ، وسيفه . . يدعو إلى نُصرة عليّ ، ويحاجّ الخارجين عليه ، وينبّه المتردّدين فيه . .

ثم هو عَلَمٌ على الفئة الباغية ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : « إنما تقتلك الفئة الباغية » .

فلما كان التشاور فى حرب الشّام . قام عمار إلى عليّ ، فقال :

---

(١) انظر الإمامة والسياسة : ١ : ٨٨ .

يا أمير المؤمنين . . إنما بايعناك ، ولا نرى أحداً يقاتلك ، فقاتِلْ من بايعك ، وأعطاك الله فيهم ما وعد فى قوله تعالى : « ومن بُغِيَ عليه لينصرَنّه اللهُ » وقوله : « يأيها الناس ، إنما بغيُكم على أنفسكم » وقوله : « فمن نكث فإنما ينكُثُ على نفسه » وقد كانت الكوفة لنا ، والبصرة علينا ، فأصبحنا على ما تحبّ ، بين ماضٍ مأجور ، وراجع معذور ، وإن بالشام الداء العُضال . . رجلاً لا يسالمها أبداً ، إلا مقتولاً أو مغلوباً ! فعاجِلْه ، قبل أن يعاجلك ، وانبذْ[1] إليه قبل الحرب . . »

الأشتر النخعى :

والأشتر من رجالات عليّ ، ومن أصحاب الرياسة والرأى فى عشيرته . . وقد كانْ رأيه فى حرب الشام العَجَلَةَ إلى الحرب ، والإسراع إلى مناجزة القوم . .

تحدث إلى الإمام عليّ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول ، فإذا عزمت فلم نقُلْ . . فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الحدّ والجِدّ ، لم يلقَوْك بمثله ، فإن القلوب اليومَ سليمة ، والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القسوة[2] ، وبالأبصار العَمَى[3] ! » .

الأشعث بن قيس :

هو من كندة ، وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة وأسلم مع وفد كندة . وكان من رجال الحرب والسياسة معاً ، وقد كان

---

(١) أى أعلنه بالحرب ، وآذنه بها .

(٢) القسوة : مفعول به للفعل بادر ، أى بادر القسوة التى تقع بالقلوب ، وكذلك بادر العمى الذى ينزل بالأبصار ، إذا طال التوقف فى الأمر .

(٣) الإمامة والسياسة : ١ : ٩٢ .

من الذين شَغَبوا على الخلافة بعد وفاة النبيّ ، فخرج معه قوم على سلطان الخليفة ، وحُسب فى المرتدّين ، فلما أطفأ الله هذه الفتنة ، وجيء بالأشعث مغلوباً على أمره إلى أبى بكر ، همّ أبو بكر أن يقتله ، لأنه كان رأسَ فتنة ، ولـكنه آثر العافية ، فتركه . . ثم ندم بعد ذلك على أنه لم يقتله ، لِمَا رأى من رِقة دينه !.

قالوا : وحين همّ أبو بكر بقتله قال له الأشعث : استبقنى لحربك ، وزوجنى أختك ! ! فاستبقاه أبو بكر ، ليـكون فى المجاهدين فى سبيل الله ، وزوّجه أخته أم فروة[1] .

وحين وَلِىَ علىّ الخلافة ، كان الأشعث والياً على أذربيجان ، ولاه عليها عثمان بن عفّان رضى الله عنه !.

وعلىّ — كرم الله وجهه — يعلم ما عليه الأشعث ، فتركه فى مكانه البعيد عن الأحداث ، حتى إذا فرغ من أصحاب الجمل ، وأراد المسير إلى الشام ، بعث إليه زيادَ بن كعب ، ومعه كتاب يقول له فيه :

«أما بعد ، فلولا هنَـاتٌ كُنَّ فيك ، كنتَ المقدّمَ فى هذا الأمر قبلَ الناس ، فلعلّ أمراً يحمل بعضه بعضاً ، إن اتقيتَ الله !.

« وقد كان من بيعة الناس إياى ماقد بلغك . . وكان طلحة والزبير أول من بايعنى ، ثم نقضا بيعتى على غير حَدَث ، وأخرجا أمّ المؤمنين إلى البصرة ، فسرتُ إليهما فى المهاجرين والأنصار . فالتقينا ، فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ماخرجا منه ، فأبيا ، فأبلغت فى الدعاء ، وأحسنت فى البقاء !

« وإن عملك ليس لك بطُعمة ، ولـكنه فى عنقك ، والمال مال الله ، وأنت

---

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ص ١٤٥ :

من خُزّانى عليه ، حتى تسلّمه إلىّ ، إن شاء الله ، وعلىّ ألا أكون شرّ وُلاتِك ! ! »[1]

وهذا الكتاب ـ كما ترى ـ يضع الأشعث موضع المحاسبة العسيرة ، بل والاتهام ، أمام علىّ . . فهو ـ فى رأى علىّ ـ ليس بالرجل السليم ، المعافى فى دينه .. وفى يده أموال ، هو محاسب عليها ، ومشدَّد عليه فى الحساب عليها !

وقد كانت السياسة تقضى بأن يدع الإمام علىّ هذا الحساب جانباً ، وأن يضمّ إليه رجلاً مثل الأشعث ، ليكون قوة له فى تلك الحرب التى هو مُقدِم عليها ، والتى يحشد له فيها معاوية الرجال والعتاد ، ويبذل فى ذلك كل ثمن وإن غلا !

ولكن الإمام ـ كرم الله وجهه ـ لم يكن يقيم للسياسة حساباً ، ولا ينصب لها ميزاناً فى حربه أو سلمه ، وإنما ميزان كل شىء عنده هو الحق والعدل . . فما كان من حق وعدل فهو ضنين به ، حريص عليه ، وما كان من باطل وزور فهو عدوّ له ، حَرْب عليه . . لا يحيد أبداً عن قول الله تعالى : « وما كنتُ مُتخذَ المضلّين عَضُدا » .

وقالوا : إن الأشعث بعد أن جاءه الرسول بكتاب علىّ ، رجع إلى منزله .

فدعا أهل ثِقَته من أصحابه ، فقال لهم ! إن كتاب علىّ جاءنى ، وقد أوحشنى[2] ، وهو آخذى بمال أذربيجان ، وأنا لاحِقٌ بمعاوية ! ! فقالوا له : الموت خير لك ! ! أتَدَعُ مِصْرَك ، وجماعة قومِك ، وتكون ذنَباً لأهل الشام ؟

---

(١) الإمامة والسياسة : ٣٣ .

(٢) أوحشه : أى ترك فى نفسه وحشة ، وجفوة .

فأخذ الأشعث بنصيحة الناصحين ، فبايع لعليّ ، وسار معه إلى صفين . . فكان له دور فى إقامة جبهة معارضة للحرب ، استطاعت أن تكره علياً على قبول التحكيم ، وقد كان النصر بين يديه ! فكان ممن ألزم علياً التحكيم ، وشهد الحكمَيْن بدومة الجندل[1] .

* * *

هذا بعض ما كان يجرى فى جبهة علىّ .. تجرى الأمور فيها على طبيعتها ، وتؤخذ من وجوهها ، على مايقضى به الحق والعدل .

أما معاوية ، فقد كان يفتش وينقّب . . يتصيّد الرجال من كل وجه ، ويأخذهم بكل حيلة ! إن استعصى عليه أحد ، واعتصم بدينه ، فتل له فتلاً رفيعاً ليناً ، فاصطاده به !

إن الأفاعِيَ لايطـاقُ لقاؤهـا وتُنال من خَلْفٍ بأطراف اليدِ

هكذا كان معاوية ! يمدّ يده إلى الدُّهاة من الرجال فيصطادهم من أقفيتهم .. أما علىّ ، فإنه كان يلقاهم لقاء صريحاً مواجهاً ، فإما أن يُقبلوا ، وإما أن يدبروا .. ثم لايموت أسفاً على من أدبر ، ولا يستبدّ به الفرح بمن أقبل . . إنه يدعو دعوة الحق ، « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضلّ عليها ! »

وهذا بعض من وجوه تلك السياسة ، التى اتبعها معاوية ، فى الإعداد للحرب ، وحشد القوى لها .

بين معاوية وعمرو :

نظر معاوية إلى آفاق الدولة الإسلامية ، وتفرّس فى وجوه الرجال ، وفى القوى التى يملكونها .. من عقلية ، ومادية ، كى يضمهم إليه ، فإن لم يستطع

---

(١) أسد الغابة ، فى معرفة الصحابة جزء ١ ص ١٣٦ .

امتلاك أمر الرجل ، عمل على عزله عن علىّ ، أو كسر حدّة اندفاعه وحماسه ، فى نصرته والانقياد له !

وعمرو بن العاص ممن لا يستغنى معاوية عن رأيه وتدبيره ، فهو رجل سياسة ، ورجل حرب معاً . . عُرف بدهائه وسعة حيلته ، حتى عُدَّ من دهاه العرب .

وكان عمرو قد اعتزل الفتنة منذ أحسّ بالخطر يحدق بعثمان ، وبالقتل يترصده ! فلجأ إلى فلسطين ، وأقام بها ، ولم يشترك فيما كان بين علىّ وأصحاب الجمل .

وكان إلى ذلك الحين مقيماً بفلسطين ، وكأنه يريدُ ألاَّ يبعد كثيراً عن مصر ، التى فتحها ، والتى كان إلى يوم قريب والياً عليها . ! إنه هناك يرقب الأحداث الدائرة ، ويستقبل الأنباء من مصر ، ومن الشام ، والعراق . . فإذا دعاه داعٍ إلى الحركة تحرك ، ووثب ، وليس همُّه إلا مصر !

إن معاوية يعلم كل هذا من أمر عمرو . . ولهذا كتب إليه كتاباً يمهد له فيه الطريق إلى تحقيق الأمل الذى ينتظره .

كتب إليه يقول :

« أما بعد ، ، فقد كان من أمر علىّ ، وطلحة ، والزبير ، ماقد بلغك ، وقد سقط علينا مروان بن الحكم فى رافضة من أهل البصرة ! وقدم عَلىَّ جرير ابن عبد الله ، فى بيعة علىّ !

« وقد حَبَستُ نفسى عليك ، فاقدُمْ على بركة الله . . ! ! »

والكتاب — على إيجازه — يشير إلى دلالات كثيرة .

فهو (أولا) لم يكشف لعمرو كشفاً واضحاً عن مكانه ، فى هذه الحرب التى سيخوضها مع معاوية ، وعن نصيبه من النصر المؤمل !

ثم هو (ثانياً) شدّ عمراً شداً قويًّا ، إذ أشار إلى أن مروان وغيره من بنى أمية ليسوا بمكان الثقة التى عند معاوية لعمرو ، فها هو ذا معاوية يحبس رأيه فى موقفه من علىّ ، حتى يعرف رأى عمرو فى هذا !

ومعاوية وعمرو ، يعرف كل منهما صاحبه ، معرفته لنفسه ، إذ هما على طبيعة تكاد تكون واحدة ! ولهذا فإنه لم يعجل بالاستجابة لمعاوية ، وذلك ليوقد فى نفس معاوية شعلة من الوساوس ، تزيد من لهفته فى طلب عمرو ، وفى الإلحاح عليه !

وربما وقع فى نفس معاوية أن عمراً يُعدّ نفسه ليكون إلى جانب علىّ، حين نظر فهداه نظره إلى أن النصر لعلىّ !

وربما وقع فى نفس معاوية أيضاً أن عمراً ينتظر حتى تنجلى الأمور ، فيميل إلى الجانب الذى يلوح له النصر تحت راياته !

قالوا : إن عمراً حين أتاه كتاب معاوية ، استشار ولديه : عبد الله ، ومحمداً ، وقال لهما : يا ابنىّ . . إنه قد كان منى فى أمر عثمان فَلَتَات لم استقلْها بعد ، وقد كان من هروبى بنفسى حين ظننت أنه مقتول ، ماقد احتمله معاوية عنى !

« وقد قدم عَلَى معاويةَ جريرُ ببيعة علىّ ، وقد كتبَ إلىّ معاوية بالقدوم عليه . . فما تريان ؟

فقال عبد الله — وهو الأكبر ، والأتقى — أرى والله أن نبىّ الله قُبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده كذلك ، وقُتل عثمان وأنت

غائب . فأقِمْ فى منزلك ، فلست مجعولاً خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية ، على دنيا قليلة ، أوشكتما أن تهلكا ، فتستويا فيها جميعاً ! .

وقال محمد : أرى أنك شيخُ قريش ، وصاحب أمرها ، فإن ينصرمْ هذا الأمر ، وأنت فيه غافل ، يصغر أمرك . . فالحقْ بجماعة الشام ، واطلب بدم عثمان . فإنك به تستميل إليك بنى أمية ! .

فقال عمرو : أما أنت ياعبد الله ، فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد ، فقد أمرتنى بما هو خير لى فى دنياى !

قالوا : ثم دعا غلاماً له يقال له وردان ، وكان داهياً ، فقال له عمرو : يا وردان . . احطُطْ . . ياوردان . . ارحلْ . . ياوردان . . احطط ، يا وردان ارحل ! .

فقال له وردان : أمَا إن شئتَ نبأتك عما فى نفسك ! .

فقال عمرو : هاتِ يا وردان ! .

فقال : اعتركَت الدنيا والآخرة على قلبك ! فقلتَ : مع علىّ الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ! فأنت واقف بينهما ! .

فقال عمرو : ما أخطأتَ مافى نفسى ! فما ترى يا وردان ؟ .

قال : أرى أن تقيم فى منزلك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ! !

فقال عمرو : الآن ؟ حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية ! ! .

ولا نعوّل كثيراً على هذا الخبر ، من حيث صحته أو عدم صحته ، ولكنه لا يبعد كثيراً عن واقع الحال من أمر عمرو ، وما كان يدور فى نفسه ! .

والتقى عمرو ومعاوية . .

التقى الرجلان ، ومع كل منهما دهاؤه ، ومداورته ، وحرصه ،

وحذره . . فكثر بينهما الأخذ والرد ، والإقدام والإحجام ، والتلميح ! والتصريح ، ثم التقيا آخر الأمر ، على ما كان يرجو كل منهما من صاحبه ! .

بايع عمرو معاوية ، وأسلمه يده !

ونزل معاوية لعمرو عن مصر ، تكون له طُعمة ، عند مايتمُّ النصر لها !

وهكذا سُوِّى الحساب بين الرجلين !

يقول ابن قتيبة : « لما قدم عمرو بن العاص على معاوية ، وعرف حاجته إليه ، باعده من نفسه ، وكايد كل منهما صاحبه ! .

فقال عمرو لمعاوية : أعطنى مصر ! .

فتلكأ معاوية ! وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ .

قال عمرو : بلى ! ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ! وإنما تكون لك إذا غلبْتَ علياً على العراق ، وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى على ! ! » .

ولا شك أن بنى أمية كانوا بمشهد من مسرح الأحداث ، فيما كان يجرى بين عمرو ومعاوية ، وأنهم كانوا يرقبون بحذر ، دخولَ عمرو بينهم وبين معاوية ، فيضيّق عليهم منافذ الوصول إليه ، والمشاركة فى سلطانه المقبل ! ولكنهم كانوا من جهة أخرى يعرفون أن معاوية لايدع عمرا يفلت من يده.

ولهذا ، فإنه ما كاد الأمر يصل بين عمرو ومعاوية إلى مرحلة الاتفاق حتى رأينا عتبة بن أبى سفيان يتقدم إلى معاوية برأيه فى عمرو ، وبلائه المنتظر فى الصراع بين معاوية وعلىّ . . وكأن عتبة يريد بهذا أن تكون له يد عند عمرو ، يعرفها له عند الحاجة ! ! .

يقول عتبة لمعاوية : أما ترضى أن تشترى عمراً بمصر إن هى صفت لك ؟ ليتك لا تُغلَب على الشام ! ! .

ومعاوية لا يستكثر مصر على عمرو ، ولكنه يريد بهذا التردد أن يَكسِر من أطماع عمرو ، وأن يقف به عند طلب الإمارة ،لا الخلافة ، التى لايُستبعد من عمرو أن ينازعه فيها ، إن هو لم يقطع عليه الطريق إلى هذه الغاية ، بمثل هذا التدبير ، من المساومة على ولايةٍ دون مصر ، حتى إذا ظفر عمرو بمصر، سكن ، واستقر ، ورضى !

قالوا : فلما سمع معاوية قول عتبة ، بعث إلى عمرو ! فأعطاه مصر !

ولما كتب معاوية لعمرو بمصر ، كتب فى أسفل الكتاب : « ولا ينقض شرط طاعة» فقال عمرو اكتب : (ولا تنقض طاعة شرطا) ![1]

وقالوا : إن مروان بن الحكم لم يكن راضيا على أن يذهب عمرو بهذه الصفقة من معاوية ، وفى بنى أمية من هو أحق بها !

قال مروان لمعاوية : مابالى لا أشترى ؟

وهل عمرو أولى منه بنصرة معاوية ؟ وهل هو أقدر منه على هذا الأمر ؟ فلم لا يشترى مصر من معاوية بدلا من عمرو ؟

ولكن معاوية يَلْقى مروان بهذا الرد المسكت ، المفحم : اسكت يا ابن عمّ فإنما نشترى لك الرجال[2] ! ! .

إن معاوية لا يشترى الرجال لنفسه ، وإنما يشتريهم للدولة التى يريدها لبنى أمية !!

وهؤلاء نصرهم له من غير بيع أو شراء ،إذهم شركاء فى الأمر ، أما عمرو وغيره ، فلا بدّ من ثمن لِقاء نصرهم ، ومؤازرتهم !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ — ١٠٠

(٢) الإمامة والسياسه ١ — ١٠٢

وقد بدأ معاوية وعمرو يعملان !

قال معاوية لعمرو : إنى أريد أن أكتب إلى مكة والمدينة كتابا ، أذكر فيه قتل عثمان ، فإما أن ندرك به حاجتنا ، أو نكفهم عن المسير !

فقال عمرو : إلى من تكتب ؟

قال : أكتب إلى ثلاثة نفر . . رجل لعليّ ، لا يريد غيره . ولا يزيده كتابنا فيه إلا بصيرة ! أو رجل يهوى عثمان ، فلا يزيده على ماهو عليه . أو رجل معتزل لا يريد القتال !

قال عمرو : على ذلك ! ؟

قال معاوية : نعم ! .

قال : اكتب !

فكتب إلى أهل مكة والمدينة ، أما بعد . فإنه مهما غاب عنا ، فإنه لم يغبْ علينا أن علياً قتل عثمان ، والدليل على ذلك أن قتلته عنده ! وإنما نطلب بدمه ، حتى يدفع إلينا قتلته ! فنقتلهم ، فإن دفعهم إلينا كففنا عنه ، وجعلناها شورى بين المسلمين ! على ماجعلها عمر بن الخطاب . . أما الخلافة فلسنا نطلبها ! ! فأعينونا يرحمكم الله ، وانهضوا من ناحيتكم ! » .

فكان جواب أهل المدينة : « أما بعد . فإنك أخطأت خطأ عظيما . . وأخطأت مواضع النصرة وتناولتها من مكان بعيد ! ! وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! ؟ فكفّ عنّا ، فليس لك قِبَلَنا ولىّ ولا نصير[1] !! » .

وسنرى فيما بعد ، كيف كان عمرو يعمل مع معاوية ، وكيف انتفع به معاوية فى كثير من أموره ، عند ما تشتد ، وتتأزم الأمور ! .

---

(١) نسب هذا الكتاب إلى المسور بن مخرمة (الإمامة والسياسة ١٠٢/١) كما نسب إلى ابن عمر (شرح نهج البلاغة) جزء ٢٥٨/١ .

معاوية وابن عُمر :

ولابن عمر مكان فى نفوس المسلمين ، لمكان أبيه من نفوسهم أولاً ، ولما اشتملت عليه نفسه من إيمان وتقوى ثانيا . . وقد كان اعتزل الفتن كلها وسكن إلى بيته . . فرفع ذلك إليه الأبصار ، ولَفَتَ نحوه الآمال !

وعينُ معاوية لا تخطىء الوقوف على ابن عمر ، يخطب مودّته ، ويمدّ إليه يده . ليكونا معًا جبهة واحدة ! .

فكتب إلى ابن عمر يقول :

« أما بعد ، فإنه لم يكن أحد من قريش أحبَّ إلىَّ أن يجتمع الناس عليه منك ، بعد عثمان ، فذكرتُ خَذْلَكَ إياه ، وطعنَك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ! ! وقد هوّن علىَّ ذلك خلافُك على علىّ ، وطعنك عليه ، وردّنى إليك بعضُ ما كان منك ! فأعِنّا يرحمك الله ، على حق هذا الخليفة المظلوم ، فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فإن أبيت كانت شورى فى المسلمين ! ! » .

والكتاب جدير بأن يكون من معاوية ، فما أحد يحسن هذا النمط من الحديث إلى الناس مثل معاويةَ ، يَلقى كل إنسان بما يناسبه ، ويجىء إليه من حيث يجد الطريق إلى قلبه وعقله جميعاً ! .

فهو يبدأ ابن عمر بتلك العاطفة التى يقول إنه يحملها له ، من الحب والإيثار بالخلافة بعد عثمان ! فهو من نفس معاوية بهذا المكان المكين ، وتلك المنزلة الرفيعة ! .

ثم يعود فيُرِى ابن عمر أن هذه العاطفة قد دخل عليها شىء من الفتور والخمود ، لِما كان من ابن عمر من خذله عثمان ، وطعنه على أنصاره ! .

وما ذا إذن ؟ أهى الجفوة والعداوة بين معاوية وابن عمر ؟ .

وهل من سياسة معاوية أن يبادىء أحداً بعداوة فى هـذا الوقت ؟ وابن عمر بالذات ؟ .

بل ها هو ذا يعود إلى ابن عمر راضياً غاية الرضا ، حين يذكر لابن عمر ما كان من خلافه على علىّ ، وطعنه عليه ! ! وتلك من ابن عمر بالتى تثلج صدر معاوية ، وتعطفه عليه ؟ .

هكذا يُرِى ابنَ عمر أنه وإن يكن له عتْبٌ عليه وجفوة منه ، فإن استعتابه ، والذهاب بجفوته ، والطريق إلى مودته ، هو الخلاف على علىّ ، والطعن عليه ! ! .

وأمّا وابن عمر قد فعَلَ هـذا ، أو هو فاعل إن لم يكن فعل ، فهو ومعاوية على طريق واحد ، وفى جبهة واحدة . . ضد علىّ ! ! .

وإذن ، فها هو ذا مكان ابن عمر معدٌّ فى جبهة معاوية . . للأخذ بحق الخليفة المظلوم . . ثم للنظر فى الخلافة . . وهو نظر لا يعدو ابن عمر ! فإن أبى أن يقبلها ، جعلها شورى فى المسلمين ، كما فعل أبوه ! ! .

سياسة ودهاء ، وبصر نافذ ، وتدبير محكم ، لا يـكون إلا من معاوية ، الذى يقول عن نفسه : « لو كان بينى وبين الناس خيط ما انقطع ، إذا شدّوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت » ، ولـكن ابن عمر يلقى كل هذا بدينه الذى انعقد عليه قلبه . . فلا يعطى دنياه شيئاً من دينه ، ولا ينظر فى شىء يُلبس عليه أمره ، فى هذه الفتن التى اعتزلها ، وقطع ما بينه وبينها ! .

« فـكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد : فإن الرأى الذى أطمعك فىّ ، هو الذى صيّرك إلى ما صيّرك ! . . تركتُ علياً فى المهاجرين الأنصار ، وأتبعتك فيمن اتبعك ؟ .

وأما قولك : إنى طعنت على علىّ ، فلعمرى ما أنا كعلىّ فى الإسلام

والهجرة، ومكانه من رسول الله، صلى الله عليه وسلم! ولكن حدثَ أمر لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، عهد.. ففزعت إلى الوقوف، وقلت: إن كان هذا فصلا تركته، وإن كان ضلالة فشرٌّ منه نجوت.. فأغنِ عنّى نفسك[1]!!».

وقد قبل معاوية من ابن عمر ألا يكون مع علىّ .. فرضى منه بهذا، واطمأن من جهته!.

معاوية وسعد بن أبي وقاص:

وهناك سعد بن أبي وقاص.. لم يبق غيره وغير علىّ من أصحاب الشورى!

إذن فهو قوة يمكن أن تقف إزاء علىّ، وتنازعه الخلافة!.

فماذا يمكن أن يكون عنده فى هذا الموقف؟.

أيكون إلى جانب علىّ.. فيكونان معاً بقية الشورى، ومن إليهم يُرجع الأمر؟ وما حظّ معاوية إذن؟.

ولكن سعداً اعتزل الفتنة من أولها، حتى إنه لم يبايع عليًّا، إذ قدّر أن البيعة لا تتم، وأن أمر الناس إلى السيف، وأنه إن بايع لزمه أن يحمل سيفه ويقاتل مع الخليفة، إن أحد قاتله أو خرج على سلطانه! وهو يتحرّج أن يحمل السيف لقتال المسلمين، حتى يجد السيف الذى إن ضرب به مسلماً نبا عنه، وإن ضرب به غير المسلم قتله، كما يقول — وهيهات!.

ومعاوية لا يعرف اليأس.!

وإنه إن لم يجد فى سعد استجابة إلى ما يدعوه إليه من نصرته، فلا أقل

---

(١) الإمامة والسياسة: جزء ١ : ١٠٣.

من أن يعمل على أن يُمسك به فى موقفه هذا الذى وقفه ، حتى لا يميل إلى جانب علىّ ! .

فكتب إلى سعد . . يقول :

« أما بعد . . فإن أحقَّ الناس بنصرة عثمان أهلُ الشورى ، الذين أثبتوا حقَّه ، واختاروه على غيره ! .

« وقد نصره طلحة والزبير . . وهما شريكاك فى الأمر والشورى ، ونظيراك فى الإسلام !.

وخفَّت لذلك أم المؤمنين ، فلا تَكْرَهَنَّ ما رضُوا ، ولا تَرُدَّنَّ ما قبلوا ، فإنما نردّها شورى فى المسلمين ! » .

وأنت ترى الكتاب قد أخذ على سعد كل سبيل ، فى تخلّيه عن نصرة عثمان . . . لأنه من أهل الشورى ، الذين اختاروا عثمان للخلافة ، فمن حقه عليهم أن يكونوا أول ناصرٍ له ، آخذٍ بحقّه إن خُذل ، وبدمه إن قتل ! .

وانظر جواب سعد ، فقد أبطل تدبير معاوية ، وقطع مطمعه من جهته ، يقول لمعاوية :

« أما بعد ، فإن أهل الشورى ليس أحد منهم أحقَّ بها من صاحبه . . غير أن عليًا كان من السابقة ، ولم يكن فينا ما فيه ، فشاركنا فى محاسننا ، ولم نشاركه فى محاسنه ، وكان أحقَّنا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى التى صرفتها عنه ، حيث شاء ، لعلمه وقَدَره ، وقد علمنا أنه أحق بها منَّا ، ولكن لم يكن بد من الكلام فى ذلك والتشاجر ! فدعْ هذا .

« وأما أمرك يا معاوية ، فإنه أمر كرِهنا أوله وآخره ! .

« وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما .

والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين ! »[1] .

هذا بعض ما كان من معاوية مع وجوه المهاجرين ، أصحاب الخلافة ، والمختلفين عليها .

ولكن فى الأنصار قوة ، وفيهم جبهة قوية تقف مع علىّ . . فهل يدع معاوية الأنصار وما اختاروا ؟ .

كلا ! .

فإنه عمل على أن يُلقى بشباكه إليهم ، ولا عليه إن وقع فى شباكه صيد أو لم يقع . . إنه لن يخسر شيئاً ، وقد يكسب ! .

رُوى أنه بعد أن تلقى معاوية ما ورد إليه من أجوبة ، لِما كَتَبَ به إلى مَن كَتَب ، من وجوه المهاجرين ، قال له عمرو :

كيف رأيت يا معاوية رأيى ورأيك ؟ أخبرتك بالأمر قبل أن يقع ! ! .

فقال معاوية : رجوتُ ما خفتَ ! »[2] .

فمعاوية على رجاء أبداً ، لا ييأس مما هو يئوس منه ! إن اليأس لا شىء معه ، والرجاء حتى فى الميئوس منه ، إن لم يجىء بشىء فلن يذهب بشىء ! .

إنها سياسة الدُّهاة الحذِرين ، الحريصين على ألا يفوتهم شىء ، ولو كان معلقاً بجناحى عقاب ! .

وإذن فلن يتردد معاوية فى الكتابة إلى من يعلم عن يقين أنهم لن يستجيبوا له أو يرضوْا عنه ، فهو — كما قلنا — لا يخسر شيئاً ، وقد يكسب ! .

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ١٠٤ .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٠٥ .

بين معاوية ومحمد بن مسلمة الأنصارى :

كان سيداً من سادات الأنصار ، وبطلا من أبطالهم . . أسلم بالمدينة ، على يد مصعب ابن عمير ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح .

وقد شهد محمد بن مسلمة المشاهد كلها ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما خلا تبوك ، حيث استخلفه رسول الله على المدينة .

وفى يوم أحد كان من النفر القليل الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم . .

ولما كانت الفتنة فى أخريات خلافة عثمان اعتزل ، ولزم بيته ، وكسر سيفه ! وقد جاءه عمار بن ياسر ، حين تخلّف عن البيعة لعلىّ ، يدعوه إلى مبايعته ، فكان بينهما حوار ومراجعة ، ولكن ابن مسلمة لم يتحول عن موقفه الذى اختاره ، وكان ذلك لحديث حدّثه النبى صلى الله عليه وسلم به[1] . .

عن محمد بن سعد ، عن يزيد بن هارون ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى محمد بن مسلمة سيفاً ، فقال : قاتل به المشركين ما قوتلوا ، فإذا رأيتَ المسلمين قد أقبل بعضهم على بعض ، فأتِ به أحدًا ، فاضرب به ، حتى تقطعه ، ثم اجلس فى بيتك ، حتى تأتيَك يد خاطئة ، أو منيّة قاضية ! » .

وعن زيد بن أسلم ، عن محمد بن مسلمة ، قال : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيفاً ، فقال : يا محمد بن مسلمة ، جاهد بهذا السيف فى سبيل الله ،

---

(١) انظر ص ٣٠٤ من هذا الكتاب .

حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كفّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية ، أو يد خاطئة » . . فلما قتل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان خرج ، إلى صخرة فى فنائه ، فضرب الصخرة بسيفه ، حتى كسره !

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة ، قال : كان محمد بن مسلمة ، يقال له فارس نبىّ الله . . فاتخذ له سيفاً من عود ، قد نحته ، وصيّره فى الجفن معلقاً فى البيت ، وقال : إنما علقته أهيّب[1] به ذاعراً[2] » .

ومع هذا الإصرار المنيف من محمد بن مسلمة على موقفه هذا ، فإن معاوية لم ييأس من الطمع فيه ، إن لم يكن فى ضمّه إليه ، فليكن فى تثبيته على موقفه ، وإلزامه العهد الذى أخذه على نفسه ! !

فكتب معاوية إليه :

« أما بعد ، فإنى لم أكتب إليك ، وأنا أرجو مبايعتك ، ولكنّى أذكّرك النعمة التى خرجت منها . . ! إنك كنتَ فارس الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ، فادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمْراً لم تستطع فيه الإمضاء[3] ! أتنهى عن قتال أهل الصلاة ؟ فهلاّ نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً ؟ أوَترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين ؟ .

---

(١) أى أخوف ، والذاعر من يذعر الناس ، أى يخيفهم .

(٢) الطبقات لابن سعد : ٣/٤٤٣ .

(٣) يشير معاوية إلى مراجعة عمار بن ياسر ، لمحمد بن مسلمة فى هذا الحديث ، الذى رواه عن رسول الله ، وشك فى هل قال الرسول : « إذا رأيت المسلمين » أو « إذا رأيت أهل الصلاة » ، وقد طلب إليه عمار أن يأتى بشاهد يشهد له بما سمع من الرسول . .

« وأما قومك الأنصار ، فقد عصوْا الله تعالى ، وخَذَلُوا عثمان ، وسائلهم وسائلك الله تعالى عن الذى كان ، يوم القيامة ! » .

فكتب إليه محمد بن مسلمة :

« أما بعد ، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثلُ الذى فى يدى ، وقد أُخبرت بالذى هو كائن قبل أن يكون[1] ، فلما كان ، كسرت سيفى ، ولزمت بيتى ، واتهمت الرأى على الدّين ، إذ لم يصحّ لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه ! .

« ولعمرى يا معاوية ، ما طلبتَ إلا الدنيا ؛ ولا ابتغيتَ إلا الهوى ، ولئن كنتَ نصرتَ عثمان ميتاً ، لقد خذلته حياً ، ونحن ومن قِبَلنا من المهاجرين والأنصار ، أولى بالصواب ! »[2] .

لقد اطمأن معاوية إلى أن محمد بن مسلمة سيمضى على ما عنده ، وأنه لن يكون فى جبهة علىّ ، وحسب معاوية أن تتعادل كفته مع علىّ عند الأنصار ، وأن يكونوا على الحياد ، بعد أن ضم الشام كلها إلى يده ، وأمسكها بقبضته ! .

معاوية ، وقيس بن سعد :

وقيس ، هو ابن سعد بن عبادة الأنصارى !

وسعد بن عبادة ، هو الذى كان الأنصار قد عقدوا العزم على مبايعته ، بالخلافة بعد وفاة رسول الله ، وعقدوا لذلك مجتمعهم فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد انتهى الأمر بمبايعة أبى بكر ، وأبَى سعد أن يبايع ، إلى آخر حياته !

---

(١) يشير إلى ما أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) نهج البلاغة : ٢/٢٥٩ . الإمامة والسياسة : ١ : ١٠٤ .

أما قيس ، فكان سيداً ، ماجداً ، مَهِيب الطّلعة ، فارع الطول ، إلى حدّ لا يكاد يقع فى الناس ، إلا قليلاً .

يقول المبرّد : « وكان قيس سِنَاطاً ــ أى قليل شعر العارضين ــ فكانت الأنصار تقول : لوددنا أنا اشترينا له لحية بنصف أموالنا! » وذلك لأن غزارة اللحية وكثافتها ، كانت من تمام كمال الرجل عند العرب !

وكان أبوه سعد ، حين خرج من المدينة ، مناضياً للخليفة أبى بكر ، توجّه إلى حوران ليقيم فيها ، وكان قد قسم ماله بين ولده ، وترك زوجاً ، حاملا ، لم يُعرف حملها ، فلما وُلد مولودها ، مشى أبو بكر ، وعمر ، إلى قيس ، ليأخذا للمولود نصيبه من ميراث أبيه ، فقال لهما قيس : نصيبى لهذا المولود ، ولا أغيّر ما فعل سعد ! !

وقد وقف سعد إلى جانب علىّ ، وحارب معه فى حرب الجمل ، وكان هو وقومه عَلَى ولاء صادق ، للإمام علىّ ، فى جميع مواقفه !

ولهذا ، فقد ولاه علىّ مصر ، لإخلاصه ، وشجاعته ، ومكانته فى قومه ، وفى العرب عامة !

ومصر قوة لها حسابها فى هذا الصّراع الذى بات وشيكا بين علىّ ومعاوية ، ثم هى الدرة التى يطمع معاوية فى أن يحلّى بها تاج ملكه المنتظر ، والتى اشترى بها عمرو بن العاص ، وأطمعه فيها !

وإذن ، فلا بد من تدبير ، يستميل به قيس بن سعد إليه ، ويكسب نصره ، وعونه ، فإلا يكن ذلك ، فليقطعه عن علىّ ، وليفسد ما بينهما ، من ألفة وموافقة !

فكتب إليه مرة يقول :

« أما بعد ، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان فى أَثَرةٍ رأيتموها ، أو ضربة

سوط ضربها ، أو في شتمه رجلاً ، أو تسييره أحداً ، أو في استعماله الفتيان من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحلّ لكم بذلك . . فقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم شيئاً إدًّا !

فتُبْ إلى الله ياقيس ، إن كنتَ من المُجْلِبين على عثمان ، وإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان ، فبايعنا على أمرنا ! ولك سلطان العراقيْن إن أنا ظفرت ، ما بقيت . . ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ! وسلْنى غير هذا ما تحبّ !! . »

والرسالة — كما ترى — سهم مَرِيش ، رَمَى به من لا يخطىء ! إنها من تدبير رجل خبير بأهواء النفوس ، عليم بمواطن القوة ، والضعف منهم !

فمعاوية — فيما يبدو للناس يومذاك — ولىُّ دم عثمان ، والمطالب بالقصاص له ، والثأر من قاتليه . .

وها هوذا يحمّل قيس بن سعد ، نصيبه من هذا الوزر ، ويُدخل إلى شعوره أنه ممن يرى معاويةُ القصاص منهم !

ثم يجىء معاوية من جهة أخرى ، فيلقَى قيساً بالموادعة والمياسرة . . فهو لا يطلب دمه ، وإنما يطلب إليه أن يغسل الحوْبة بالتوبة ، وأن يستغفر لذنبه !! وهذا أضعف الإيمان !

فإن أراد قيس أن يتطهّر أكثر وأكثر ، فليكن من المطالبين بدم عثمان !

فإن سمحت نفسه بذلك فليبايع معاوية ، وليكن يداً واحدة معه ، للأخذ بدم الخليفة المظلوم ! .

ولكن ما لهذا كان تدبير معاوية مع قيس ، وما كان يَعنيه من أمره أن يتوب أو لا يتوب ! . وما كان يعنيه من دم عثمان أن يُقتصّ له أو يُهدَر ! .

وإنما هو يحارب في سبيل دولة ، ويقاتل من أجل سلطان ! .

ولهذا فقد سمحت نفسه بأن يُشرك معه أولياءه ونصراءه في هذه الدولة وذلك السلطان ، ويقسم بينهم الأسلاب والمغانم .. سَلَفًا ! .

وقد وعد عمرو بن العاص بمصر ، وأعطاه وثيقة بها ، إن هو غلب عليها !

وها هوذا حين يأخذ مصر ، من يد قيس بن سعد ، لتكون إلى يد عمرو بن العاص ، فإنه يعود فيملأ يدى سعد بالأمل فى سلطان العراقين له ! وفى سلطان الحجاز لمن يرضاه سعد من أهله وعشيرته !

وليس هذا فحسب ! وإنما لقيس أن يسأل معاوية ما أحب غير هذا !

وماذا غير هذا ؟

الشام .. وهى فى يد معاوية ، ودار إمارته ، وعاصمة دولته ؟ .

لم يبق غير مصرَ ! .

ولكن معاوية لا يصرّح بها ، وعين عمرو ترصدها ! .

وإنما حسبه هذا التلميح ، الذى يغنى عن كلّ تصريح ! ! .

ولكن ماذا فعلت هذه الرسالة فى نفس قيس ؟ وماذا أثمر هذا التدبير البارع ، وذلك الكيد المتين ؟ .

كتب قيس إلى معاوية يقول :

« أما بعد فقد وصل إلىّ كتابك ! .

« وأما ما سألتنى من مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضته علىّ ، فقد فهمته ، وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس هذا مما يُعْجل إلى مثله ، وأنا كافٌّ عنك ، وليس يأتيك من قِبَلى شىء تكرهه ، حتى ترى ، ونرى ! » .

ونحسب أن فى هذا الكتاب رضًى لمعاوية ، فقد ضمن ألا يأتيه من

مصر شيء يكرهه ، وكان أخوف ما يخافه أن يطبق عليه فى صفّين أهل العراق ، وأهل مصر ، فيقع بينهما ، وهيهات أن يفلت منهما !.

فإذا هو أمِنَ أن يفتنه أهل مصر ، فقد كسب نصف المعركة من غير حرب ! ولكن معاوية ، لم يرض من قيس بهذا !.

وهذا أمر يدعو إلى العجب ، فما كان معاوية يطمع من قيس فى أكثر من هذا ، إلاّ أن يكون قد وثق فيما هو أكثر ، وأقرب !.

كان كتاب قيس هذا وثيقة تُدينُه عند علىّ ، وتفضحه بين قومه !.

وماذا لو اتخذ معاوية من هذا الكتاب سهماً يرمى به قيسًا فيصيب مقاتله ، ويصيب عليًا معه بخيبة أمل ، واضطراب حال !.

أذاع معاوية ما كتب إليه قيس ، وكأنّ ذلك أمر خارج عن إرادته وتدبيره ! ! فبعد أن قرأ الكتاب ، ووثق أنه من قيس ، وعليه خاتمه ، ويحمله رجل من رجاله — طوى الكتاب ، وأعاده إلى الرسول ثانية ، ووكّلَ به من يصحبه ، حتى يعترض أصحابَ علىّ ، فيقع فى أيديهم ، وكأنه ضلّ الطريق إلى معاوية ! !.

ثم كتب إلى قيس :

« أما بعد . . فقد قرأتُ كتابك ، فلم أرك تدنو ، فأعدّك سَلْمًا ، ولم أرك تباعدُ فأعدّك حربًا ! وأراك كحبل الجرور ، وليس مثلى يصانع بالخداع ، ولا يخدع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال ، وأعنّة الخيل ، فإن قبلت الذى عرضتُ عليك ، فلك ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ، ملأت عليك مصر ، خيلًا ، ورَجِلًا . . والسلام ! ».

أهكذا يلقى معاوية قيساً بهذا الوعيد ، ويؤذنه بهذه الحرب ، وقد

كتب إليه من قبل هذا الكتاب ، الذى يحمل إليه ، القول اللّين ، والمصانعة الرفيقة ، والأمل العظيم الجميل ؟ .

إن ذلك لم يكن ، إلا بعد أن أمسك قيسًا من مقتله بهذا الكتاب الذى بعث به إليه — أودسّه هو عليه — ووعده فيه بأن مصر إن لم تكن معه ، فلن تكون عليه !

ولاشك أن قيسًا ، قد أحسّ بما رماه به معاوية من كيد ، وأن عليًّا وأصحاب عليّ ، قد كثرت أقوالهم فيه ، وفيما يقضون فيه من أمره !

ولعلّه أراد أن يُصلح ما أفسد ، بيده ، أو بيد مدسوسة عليه ، فكتب إلى معاوية يقول :

« أما بعد .. فالعجب من استسقاطك رأيى ، والطمع فى أن تسومنى — لأبا لغيرك — الخروجَ عن طاعة أولى الناس بالأمر ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله وسيلة !

« وتأمرنى بطاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزّور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من رسول الله وسيلة .. وَلَدُ ضالين مُضِلين ، طاغوتٌ من طواغيت إبليس ! !

« وأما قولك : إنك تملأ عليّ مصر خيلاً ورَجِلا ، فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتى يكون منك ، إنك لذو جَدّ .. والسلام » .

وهل يملك قيس بعد الآن شيئاً من أمر مصر ؟ وهل يجد من يستجيب له إذا هو دعا إلى حرب معاوية ، بعد أن ذاع فى الناس أنه عقد صفقة مع معاوية ينال بها ملك العراقين لنفسه ، وسلطان الحجاز لمن يختار من أهله ؟

لقد أصبح قيس متهماً عند الإمام ، وعند أصحاب الإمام . فلا يأمن له

أحد . ولا يقبل منه أحد قولاً أو فعلا . بعد أن أمسك الناس منه بهذا الفعل المنكر . الذى لايدفع عنه مغبته عُذْر . ولا يشفع له فيه أن يقال إن معاوية قد غرّر به . أو دسّ الكتاب عليه . . !

قد قيل ماقيل . إن صدقاً وإن كذبا

فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا ؟

إن مصر قد خرجت عن سلطان قيس ، فاختلط أمرها ، واضطربت أحوالها . ولمعاوية وعمرو فيها عيون راصدة ، وأيد عاملة ، وجدت فى هذه الحال فرصتها ، فجدّت وعملت ، حتى شغلت مصر بأحداثها عن أن تشارك بأى جُهد فى حرب صفّين ، وكأنها لم تكن من الأمصار التابعة للإمام ، الموالية له !

وإذن فقد فرغ معاوية من أمر قيس بن سعد ، وأمن جانبه ، وما كان يخشى من جهة مصر .. ولكنه — مع هذا لايدع قيساً دون أن يضربه ، وهو ميت ، تشفياً منه ، ومن الأنصار جميعاً .. فكتب إليه يقول :

« أما بعد . فإنك يهودىّ ابن يهودى[1] . إن ظفر بك أحبّ الفريقين عزَلَكَ واستبدلَ بك . وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ، ونكّلَ بك ! وكان أبوك وتَّر قوسه ، ورَمَى غرَضَه ، فأكثر الحزّ وأخطأ المفصل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، ثم مات طريداً بحوران .. والسلام . ! »

فكتب إليه قيس :

---

(١) لم يكن سعد من أصل يهودى ، وإنما نسبه معاوية تلك النسبة ، لما كان معروفا من أن اليهود استوطنوا المدينة ، وكانوا يمثلون جزءاً كبيراً من سكانها ، فأضافه إليهم ، وخلطه بهم فى مقام الذم ، وتصيد النقائص .

« أما بعد . فإنك وَثَن ابن وثن .. دخلت فى الإسلام كُرهاً . وخرجتَ طوعا ، لم يَقْدُم إيمانك ، ولم يَحدُث نفاقك .

« وقد كان أبى وتر قوسه ورمى غَرَضه ، وشغب عليه من لم يبلغ كعبه ، ولم يَشُقّ غُباره . ونحن أنصار الدّين الذى خرجت منه ، وأعداء الدين الذى دخلت فيه والسلام »[1]

إنها السياسة التى تخدم قضايا الحياة ، وتمكن لأصحابها من الظفر فى كل مجال ، حين لا يلقام خصومهم إلا على مبادىء الحق والعدل ، ولا يحاربونهم إلا تحت راية الحق والعدل !

وهكذا استبدّ معاوية بهذا السلاح وحده ، سلاح السياسة ، فصرع به أصحاب علىّ واحدًا واحدًا ، دون أن يجد علىّ من نفسه القدرة على أن يستعمل هذا السلاح ، ويضرب به . ولو فعل لكان له الغَلَبُ والنصر ، من قبل أن تُشرع الرماح وتسلّ السيوف .

السياسة ، والدين :

لم تكن الحرب التى وقعت بين علىّ ومعاوية فى صفّين إلا مظهراً باهتاً من مظاهر الحرب الخفية . التى كانت تدور فى رءوس الناس ، وفى صدورهم !

كان الناس يقفون على مفترق الطريق ، بين حياتين ؛ حياة مسّتها روح النبوة ، وخالطتها أنفاس النبىّ ، وغلب عليها طابع البداوة ، وما فيها من تقشف ، واستغناء ! .. وحياة زاهية زاخرة ، بالرّقة والنعيم ، فياضة متدفقة بالمال . وما وراء المال من مباهج الحياة ، وزينتها !

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٢ — ٦٨ . وهامش ٦٩ (طبعة السندوبى) والكامل للمبرد : ، ٣٠٩ .

وقد بدأ الناس منذ فتوح الشام والعراق ومصر ، يعيشون هذه التجربة . ويكابدون منها ، ويتفاعلون معها .

وإنها لتجربة حقيقية فعلا ، أشبه بتجارب الكيمياء ، فى مختبرات المعامل !

والناس معادن ! ! كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا كان خطوهم على طريق هذه الحياة الجديدة ، مختلفاً أشدّ الاختلاف !

ذاب بعضهم فى تلك التجربة ، لأول مسّة مسّته من ريحها ، فضاع وجوده الأول كلّه ، وأصبح خلقاً آخر .. يعيش فى عالمه الجديد ، منقطع عن عصر النبوة ، وبمنأى بعيد عن حياة البادية !

واصطبغ بعضهم صِبغًا أخذ الكثير من ذاته ، وأبقى على القليل من ملامحه وشِياته !

وظلّ المجتمع الإسلامىّ العربىّ فى مجموعه ، محتفظاً بالطابع الذى طبعه به الإسلام ، ونشأه عليه .. يغالب الدنيا المسلطة عليه ، ويقاوم الدوافع التى تدفعه إليها !

كان ذلك هو المظهر العام للمجتمع الإسلامى ، فى عهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه .

بعض الناس قد أقبلوا على دنياهم إقبالا كاملا ، وأعطوا الحياة العربية الإسلامية ظهورهم . فلم يكن همّهم إلا المال وجمع المال !

وبعضهم وضع قدميه على أول الطريق ، ولم يكد يخطو خطوات حتى توقف ، بدافع من دينه ، أو بنظرة ، أو صرخة ، من عمر بن الخطاب !

وقد أشرنا من قبل إلى أن عمر كان يقف فى وجه ميلاد جديد ، لحياة

جديدة ، وعصر جديد ، لأبد أن يبلغ غايته ! وإن يكن عمر فعل شيئاً ، فهو حجز هذا السيل المتدفق المندفع ، عن أن يبلغ مجتمع الصحابة ، ويغرس أقدامهم فى وَحْل الحياة وطينها ! .

رَوى ابن سيرين : أنه لما قدم أبو هريرة من البحرين ، وكان والياً عليها لعمر ، ومعه عشرة آلاف درهم . قال له عمر : يا عدوّ الله ، وعدوّ كتابه . . أسَرَقْتَ مال الله ؟ .

قال : لستُ بعدوّ الله ، ولا عدوّ كتابه ، ولكنى عدوّ من عاداهما ! ولم أسرق من مال الله ! .

قال عمر : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ .

قال : خيْلى تناسلت ، وعطائى تلاحق ، وسهامى تلاحقت ! .

قال ابن سيرين : فأخذها عمر معه . . ! »

هذه فعلة من فعَلات عمر ! .

ومع من ؟ .

مع أبى هريرة ، الصحابى ، خادم رسول الله !

ولكنه الحق ، وإنه لفوق أبى هريرة ، ومَن فوق أبى هريرة ! .

وأى حق هذا ؟ .

أوَ يُظَنُّ فى أبى هريرة خيانة لله ولرسوله ، وللمؤمنين ؟ .

إن عمر يعرف من هو أبو هريرة ، ويقدر صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما نحسب أبا هريرة بموضع تهمة عند عمر ، فى دينه ، ونزاهته ، واستقامته . ولكن الذى نخاله فى هذا الموقف ، هو أن عمر رأى هذا المال

الكثير فى يد أبى هريرة ، نخاف أن يغريه المال بالمال ، فيفسد عليه صحبته لرسول الله ، ويذهب به مذاهب من فُتنوا بالمال وعَلِقُوا بالحياة الدنيا ، وعمر حريص على أن يستبقى أصحاب الرسول على ما تركهم الرسول عليه ، من صفاء وطهر .

وقد فعل عمر مثل هذا مع سعد بن أبى وقاص . . ثالث ثلاثة دخلوا فى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنّة ، وفارس الغزوات ، والمناضل عن رسول الله يوم أحد ، والمستجاب الدعوة !

لقد شاطر عمر سعداً مالَه ، حين رأى فيه كثرة ووفرة !

هو مال قد جاء إلى سعد من نصيبه فى المغانم ، ومع هذا ، فإن عمر خشى الفتنةَ على سعد من هذا المال !

قال سعد لعمر ، وقد أخذ نصف ماله : لقد هممتُ !

فقال له عمر : أن تدعوَ اللهَ على ؟

قال : نعم !

قال عمر : إذن لا تجدنى بدعاء ربّى شقيّا ! »(١)

هذه لاشك محاولات جانبية من عمر ، لا يمكن أن تقف فى وجه الاتجاه العام للحياة ، وهو علاج وقتى لهذه الفتنة المقبلة على المسلمين ، لا يملك أحدٌ لهـا دفعاً .

فلما توفى عمر ، وجاء عثمان ، كانت دورة من دورات الحياة ، قد بدأت تعلو آفاق المجتمع الإسلامى ، وتغزو الناس فى الحضر والبدو ، وكان بنو أمية

---

(١) انظر كتابنا : عمر بن الخطاب ص ٩٩ ومابعدها .

الذين دفع بهم عثمان رضى الله عنه ، ولاةً على الأمصار ـ كانوا طليعة طبيعية للحياة الجديدة المقبلة، إذ كانوا مهيئين ـ بحكم وراثتهم ، وتعلقهم بالسيادة والمجد ـ لأن يفتحوا هذه الآفاق الجديدة ، وأن يندفعوا إليها اندفاع المغامرين ، لاكتشاف هذا العالم المجهول !

وهذا التحول الذى كان بنو أمية الطلائعَ الأولى له ـ لم يكن من صنع أحد ، وإنما هو اتجاه طبيعى للحياة ، والناس سائرون إليه ، كل حسب ماعنده، من استعداد للتجاوب مع هذا النداء ، والتقبل لهذا الإغراء !

والأمر لايعدو أن يكون أمر زمن . . فمن لم يستجب اليوم استجاب غداً ، أو بعد غد . . إنه لابد أن يلحق بالركب يوماً ، إلاَّ أن يَحين حيْنه ، ويأتيه أجله من قريب !

والذين امتدّ بهم العمر من الصحابه — رضوان الله عليهم — قد امتُحنوا امتحاناً قاسياً ، بين داعى الدين ، وهاتف الدنيا ، وكلما كان يمضى الزمن بهم ، تشتد المحنة ، ويعظم البلاء ، بما تلق إليهم الحياة من أفانين الفتن ، فكان الواحد منهم إذا ملك أمر نفسه وقهر فيها نوازع الهوى،ووساوس الإغراء ـ كان عليه أن يروض أهله وولده على تلك الحياة التى يحياها ، وأن يدخلهم معه فيما ألزم به نفسه . . وذلك موقف عَسِر أشد العُسر ، يحتاج إلى يقظة دائمة ، ورقابة متصلة ، حتى لايتفلّت منه أهله وبنوه ، أو حتى لايجذبوه إلى جانبهم ، ويخرجوه من هذا الحظر الذى فرضه على نفسه !

إن الفتنة قد أصبحت وباء ، يتدسس إلى كل نفس ، كما تتدسس الأمراض المعدية . . وفى كل يوم أعداد كثيرة تصيبها عدوى هذه الفتنة ، وتنتقل منها إلى أعداد أخرى من الناس ! وهكذا بات كل إنسان مهدداً بأن يصيبه هذا الداء ، إن لم يكن فى نفسه ، ففى أهله وولده !

ونحن نظلم الحقيقة ، ونُجا فى الإنصاف ، إذا ألزمنا الناس — حتى الصحابة الذين عاصروا هذه الفترة من الحياة ، وشهدوا هذا التحول الكبير فيها — أن يظلوا على ما تركهم عليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وأن يحيْوا تلك الحياة الخالصة للدين ، البعيدة عن لذاذات الدنيا ، ونعيمها ، وأن يأتدم أحدهم بإدام واحد ، إذا قُدّم له إدامان ، ولو كانا الزيتَ والخلّ ، كما فعل عمر بن الخطاب ، حين رأى بين يديه لقيمات من الخبز الجاف ، وزيتاً وخلاًّ ، ليغمس لقمة فى هذا ، ولقمة فى ذاك ، حتى يجد لهذه اللقيمات المتحجرة مساغاً ! ففزع لهذا ، وقال : زيت وخل ؟ إدامان فى طعام ؟ حسبى أحدهما !

إنه لفوق احتمال النفس البشرية ، أن يعيش الإنسان غريباً فى مجتمعه ! فلا يلبس مما يلبسون ، ولا يأكل مما يأكلون ، ولا يعيش كما يعيشون . !

إن ذلك إن رضيه لنفسه ، فلا يرضاه له من حوله ! وإن سكنت عنه نوازع نفسه ، فلن تسكت عنه ألسنة الناس ، ولا تنقطع عنه نظرات اللائمين أو الساخرين !

إن ذلك محتمل فى حال واحدة ، هو أن يعتزل الإنسان الناس ، أو يجد له مجتمعاً على المستوى الذى يناسبه ، ويلتقى معه ، فى حياة التقشف والجفاف !

وقد لجأ بعض الصحابة إلى خطة كهذه الخطة ، حتى يضمن السلامة لنفسه من عدوى الناس ، لو أنه خالطهم ، وعاش معهم !

وقد عرفنا أن محمد بن مسلمة ، كان قد اعتزل الفتنة منذ مقتل عثمان ، وكسر سيفه ، ولزم بيته ! !

ولكنه لم يجد فى كل هذا مايضمن له وقاية من هذا الوباء المنتشر . فانتحى من الناس ناحية ، وضرب لنفسه خيمة بعيدة عن أعين الناس ، حتى لايزور ، ولا يزار !

وثورة أبي ذَرّ التي ثارها أيام عثمان !

إنها في صميمها ليست ثورة على الولاة ، وما استأثروا به من أموال ، ولا على الأغنياء ، وما جلبوا إلى دورهم وقصورهم من مُتع الحياة وزخارف الدنيا ! وإنما هي قبل كل هذا ثورة صاخبة في أعماقه ، وصراع صارخ في كيانه ، بين المثل الرفيعة التي تمثلها في دينه ، وسكن إليها زمناً في حياته ، وبين هذه المظاهر الصاخبة التي تهجم عليه من كل جهة ، وتريد أن تنقضّ على تلك المثل فتزعجها عن مواطن الاطمئنان من قلبه ! وهنا ينظر إلى من فتنوا من الوُلاة والأغنياء من خلال نفسه ، فيرى أنهم هم ذلك الإنسان الذى هو صائر إليه يوماً ، فيفزع ويكرَبُ ، ثم يثور ويصخب ، فيما بينه وبين نفسه ، ثم تعلو هذه الثورة ، ويرتفع هذا الصخب، فيجاوزان منطقة النفس إلى العالم الخارجى، ويتحولان إلى مواجهة صريحة للحكام والولاة ، وأصحاب الغنى والثراء ، بهذا الذى كان يلقاهم به من زجر ووعيد ، في غير مهادنة أو تلطف . حتى لقد أثار ثائرتهم عليه ، ومباغضتهم له !! إنه كان يفكر بصوت عالٍ — كما يقولون — يفكر لنفسه ، ويتحدث إلى نفسه ، فيسمعه الناس ! !

وبهذا الحديث العالى ، وبهذا الصراخ الحادّ استطاع أبو ذر — رضى الله عنه — أن يوقظ كل قوى المقاومة في كيانه ، وأن يقيم معركة حيّة تدور بينه وبين الناس كل يوم . وبهذا التدبير استطاع أن يكسب المعركة في داخل نفسه ، وإن كان قد خسرها في خارجها ، وألجأه الناس إلى عزلة نائية عنهم ، انقطع فيها ما بينه وبينهم من صراع !

يقول الإمام على — كرم الله وجهه — في أبي ذرٍّ : « لم يَبق اليومَ أحد لا يبالى في الله لومة لائم ، غير أبي ذر ، ولا نفسى ! وضرب بيده إلى صدره ! »(١)

---

(١) الطبقات لابن سعد : ٤ : ٢٣٢ .

أبو ذر وحده هو الذى بقى ممن لايبالون فى الله لومة لائم ! وذلك لأنه أصبح فى عزلة نفسيه ، ومادية ، عن المجتمع !

إنه لاسبيل إلى النجاة إلاّ فى عزلة كهذه العزلة ، التى دخلها طائعاً ، محمد بن مَسلمة ، أو سيق إليها سوقاً ، أبو ذرّ الغفارى !

أما أن يعيش الإنسان مع الناس ، ويغدو ويروح بينهم . فإنه أمر لامفر معه من أن يصاب بما أصيبوا به ، ويبتلَى بما ابتلاهم به الزمن !

المغيرة بن شعبة !

نذكره ، ونذكر موقفه من الفتنة بعد مقتل عثمان !

لقد اعتزل عليًّا وأصحاب الجمل معاً . .

وحين دُعى إلى أن يكون مع الخليفة ، وأن يقاتل الخارجين عليه قال : أريد أن أضع سيفى ، وأنام فى بيتى ، حتى تنجلى الظلمة . . . . » فلما أراد عمار بن ياسر أن يرده عن هذا الموقف ، قال له الإمام علىّ : « دَعْه ، فإنه لايأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ! » فقال المغيرة . « أنتَ والله ياأمير المؤمنين ، أعلم منى ، ولئن لم أقاتل معك ، لا أعين عليك ! »[1] .

وقد لزم هذا الموقف الحيادىّ ، أو قل السلبى ، فلم يشارك فى حرب الجمل!

ولكنه ظلّ على مسرح الحياة ، يرصد الأحداث ، ويتابع سيرها ، ويَشهد الناسَ وما يتقلبون فيه ، وما يقع لأيديهم مال ، وجاه ، وسلطان ! .

ثم ماذا ؟

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ٥٠

دعته نفسه إلى أن يخرج عن هذا الموقف السلبي ، وأن يأخذ دوره في هذا الوجه الجديد من الحياة !

وشيئاً شيئاً ، جعل يتخفف من التحرج والتأثم الذي كان يجده في صدره من خوض هذه الفتنة ، ثم إذا هو يجد نفسه آخر الأمر وقد تقدم الركب ، في خطوات خفيفة سريعة ، يهجم بها على الدنيا هجوماً خاطفاً ، وإذ هو مع معاوية ! يأخذ من دنياه بالثمن الذي يرضيه ، ولو أخذ الكثير من دينه !

نقول هذا في أسف شديد ، فالمغيرة صحابي ، نحترم صحبته ، ونقدرها ، ولكن الحق يُلزمنا أن ننطق به ، ونرى الناس على ماهم عليه في ضوئه !

ولا نلوم المغيرة بن شعبة إذا هو انضم إلى معاوية ، فذلك أمر محسوب على رأيه ، وتقديره ، بل ربما عن اجتهاده وتأويله !

ولكن الذي يلام عليه ، هو أن يتحول إلى لسانٍ يترضّى معاوية بالطعن في صحابيّ كعليّ بن أبي طالب ، ثم لا يقف عند هذا ، بل يلعنه على المنابر ! ثم يجاوز هذا إلى أن يُغرىَ الناس بلعنه !

فلم هذا ؟ وماذا الذي أخرجه عن عزلته ، وجعله حركة منطلقة في هذه الفتنة ؟ إنه المال ، والجاه ، والسلطان . !

فقد أقامه معاوية والياً على بعض الجهات ، وأطلق يده فيها . . . فكان ثمن احتفاظه بما في يده أن يُطلق لسانه في عليّ ابن أبي طالب ، وأن يبالغ في هذا حتى ينال المزيد من الرضا ، فينال الكثير من السلطان !

روى الجاحظ في بعض رسائله ، قال « قال المغيرة بن شعبة — وهو عامل معاوية يومئذ — قال لصعصعة بن صوحان — قم فالعنْ علياً فقام فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن عليا — فالعنوه ، لعنه الله ! وهو يضمر المغيرة ! »[(١)]

---

(١) من رسالة العثمانية للجاحظ

إن المغيرة أقام سبع سنين وأشهراً فى الـكوفة ، لا يدع شتم علىّ ، والوقوعَ فيه !

روى الطبرى أن المغيرة قال لصعصعة بن صوحان العبدى : « إياك أن يبلغنى عنك أنك تَعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغنى عنك أنك تذكر شيئاً من فضل علىّ علانية . . فإنك لست ذاكراً من فضل علىّ شيئاً أجهله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولـكن هذا السلطان قد ظهر ، وقد أخذنا بإظهار عيبه — أى عيب علىّ — للناس ، فنحن ندع كثيراً مما أمرنا به ، ونذكر الشىء الذى لا نجد منه بداً ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقيّة .. ! [1] » .. وأكثر من هذا ، فإن المغيرة هو الذى أغرى معاوية ، وزين له البيعة لابنه يزيد ، وذلك — كما روى ابن قتيبة — أن معاوية رأى أن يعزل المغيرة عن الـكوفة ، ويولّى عليها سعيد بن العاص ، فلما علم المغيرة بذلك قدم الشام على معاوية ، فقال له : ياأمير المؤمنين . . قد علمتَ ما لقيتْ هذه الأمة من الاختلاف ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حَدَث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه ، بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك عَلَمًا يفزعون إليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك ! ! » [2] إلى هذا الحد . تَغيم بصائر ذوى الأبصار ، وإلى هذا المدى تتحول بالناس الأحوال ، من النقيض إلى النقيض ! .

فهل نعذر المغيرة فى هذا التحول ؟ وهل لنا أن نقول إن دفعة الحياة كانت أقوى من أن تقاوم ، بالانسحاب والعزلة ؟ .

---

(١) الطبرى : ٦ - ١٠٨

(٢) الإمامة والسياسة ١ — ١٧٣ .

ونعم ، وبلا تردد . . ولكن الذى لا عذر معه ، هو هذا الجور الشديد على الدين ، بل وعلى المروءة ، فى سبيل الاستزادة إلى حدّ الاستغراق من متاع الحياة ! .

ومثل آخر !

عمرو بن العاص . .

كان أيضاً قد اعتزل الناس قبيل مقتل عثمان ، وآوى إلى فلسطين . فلم يشهد حرب الجمل !

وقد رأينا كيف دعاه معاوية إليه ، وكيف أطمعه فى السلطان .. ثم انتهى بهما الأمر إلى أن يعطى عمرو عونَه وبلاءه كله لمعاوية ، وأن يعطى معاوية عمرا ، الثمنَ المجزىَ لهذا ، وهو ولاية مصر ، طعمةً له مدى الحياة !

وأكثر من هذا !

عبد الله بن عباس !

ابن عم علىّ !

ووزيره ، وصاحب سرِّه ، والرجل الأول عنده !

أبلى البلاء الحسن مع علىّ ، بقلبه ، ويده ، ولسانه !

ولكن على طول الزمن ، وإلحاح الفتن ، وهنت يدُ ابن عباس عن الإمساك بالحبل الذى يشده إلى علىّ ، ويحبسه على الحياة معه . فى هذا الأفق الذى يعيش فيه الإمام رضى الله عنه !

كان ابن عباس والياً لعلىّ على البصرة . !

وقد قطع ابن عباس شوطا طويلاً فى المشى مع علىّ ، على هذا الطريق الشائك ، حتى دَميت قدماه !

إنه والٍ على مصر من أكبر الأمصار . . والمال بين يديه كثير موفور، فهل يظل هكذا على هذا الحرمان الذى فرضه عليه الخليفة ؟ وهل يقبل هذا الحساب العسير الذى يأخذه الخليفة به ، فلا يسوّغه درهماً يوسّع به على نفسه وأهله ؟

وكيف وولاة الأمصار فى بُحبوحة من العيش ، وفى بسطة من المال والسلطان ؟ أيظل هو وعلىّ يخوضان غمرات هذه الحياة ، ثم لا ينالان مما ينال منه الناس شيئاً ؟ إن يكن علىّ قد عزم على أن يقطع العمر على هذه الحال ، فإن له ما اختار ، أما هو فقد آن له ــ بعد هذا الحرمان المتصل ــ أن يعرف طعم هذه الألوان التى يتعاطاها عامة الناس ، فضلاً عن القادة ، والولاة ، وأصحاب الجاه والسلطان !

أخذ ابن عبّاس يملأ يديه من المال الذى فى سلطان ولايته ، وبدأ ينفق من سعة ، متجاوزاً الحدود التى فرضها له الخليفة !

وبلغ علياً هذا الذى استجدّه ابن عباس ، فى حياته .. فكتب إليه :

« أما بعد ، فقد بلغنى عنك أمر ، إن كنتَ فعلته ، فقد أسخطت ربك وعصيت إمامَك ، وأخزيتَ أمانتك [١] .

« بلغنى أنك جَرَدْتَ [٢] الأرض ، فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك ! فارفعْ إلىّ حسابك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس . . . »

وقد تلقى ابن عبّاس هذا الكتاب ، وكان عليه أن يختار أحد طريقين : إما أن يرفع الحساب إلى الخليفة ، بما فيه من نقص ، وخلل ، ويصبر

---

(١) أى ألصقت بأمانتك ما يخزيها ، ويفضح سرها

(٢) أى فعل بها مايفعل الجراد بالزرع !

على المحاسبة ، وما وراء المحاسبة من عقاب ، قد يصل إلى حدّ القصاص ! .

وإما أن يذهب بما فى يديه ، ويترك الإمارة ، يولّيها الخليفة من يشاء ! وقد اختار ابن عباس الطريق الثانى ، فاتخذ طريقه إلى المدينة ، حاملا معه ما قدر على جمعه وحمله !

ولا تسلْ ما لخيبة الإمام فى ابن عمّه ، وشريكه فى أمره !؟

وهل ينتظر من أحدٍ بعد ابن عباس ، ناصراً يعين على الحق ، ويصبر على البلاء فى سبيله ؟

ولا نجد أبلغ ، ولا أروع ، ولا أصدق ، من تلك الكلمات التى حملها هذا الكتاب الذى بعث به الإمام إلى ابن عباس . يقول :

« أما بعد .. فإنى كنت أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك شِعارى وبطانتى ، ولم يكن رجل من أهل بيتى أوثق منك فى نفسى ، لمواساتى ، وموازرتى ، وأداء الأمانة إلىّ !

« فلمّا رأيتَ الزمان عَلَى ابن عمّك قد كَلِب [١] ، والعدوّ قد حَرِب [٢] ، وأمانةَ الناس قد خَزِيت ، وهذه الأمة قد فنِكت وشغرت [٣] ، قَلَبْتَ لابن عمك ظهرَ المِجنّ ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخُنتَه مع الخائنين .. فلا ابنَ عمّك آسيت ، ولا الأمانةَ أدّيت . وكأنك لم تكن اللهَ تريد بجهادك ! وكأنك لم تكن على بيّنة من ربك ! وكأنك إنما كنتَ

(١) كلب : كفرح : أى اشتد .
(٢) حرب : كفرح : أى قسا .
(٣) فنكت : أى فسدت ؛ وشغرت : أى جهرت بالمنكر .

تكيد[1] هذه الأمة عن دنياهم، وتنوى غِرّتهم[2] عن فيئهم، فلما أمكنتك الشِّدَّةُ فى خيانة الأمة، أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما اقتدرت عليه، من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطافَ الذئب الأزِل[3] دامية المِعزَى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز، رحيبَ الصدر بحمله[4] غيرَ متأثمٍ من أخذه، كأنك — لا أبًا لغيرك — حَدَرت إلى أهلك تراثًا من أبيك وأمك!

« فسبحان الله!! أما تؤمن بالمعاد؟ أما تخاف نقاش الحساب؟

« أيها المعدود — كان — عندنا من ذوى الألباب .. كيف تسيغ شرابًا وطعامًا، وأنت تعلم أنك تأكل حرامًا، وتشرب حرامًا، وتبتاع الإماء وتنكح النساء، من مال اليتامى والمساكين، والمؤمنين والمجاهدين، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد؟

« فاتق الله، واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل، ثم أمكننى الله منك، لأعذِرَنّ إلى الله فيك[5]، ولأضربنّك بسيفى الذى ماضربت به أحدًا إلا دخل النار!

« ووالله لو أن الحسن والحسين، فعلا مثلَ الذى فعلتَ، ما كانت لهما

---

(١) تكيد: أى تخدع.

(٢) غرتهم: أى غفلتهم.

(٣) الأزل: أى الخفيف السريع.

(٤) رحيب الصدر بحمله: كناية عن السرور، وعدم التأثم والتحرج.

(٥) أى لأعاقبنك عقابًا يقيم لى عذرًا عند الله فيما فعلت.

عندى هوادة ، ولا ظفرا منّى بإرادة ، حتى آخذ الحق منهما ، وأزيل الباطل عن مظلمتهما !

« وأقسم بالله ما يسرّنى أنّ ما أخذتَ من أموالهم ، حَلاَلٌ لى ، أتركه ميراثًا لمن بعدى !

فَضَحِّ رويداً (١) ، فكأنك قد بلغتَ المدى ، ودُفنت تحت الثرى ، وعُرضتْ عليك أعمالك ، بالمحل الذى ينادى الظالم فيه بالحسرة ، ويتمنى المضيِّعُ الرجعة ، ولات حين مناص ! ! » (٢)

هكذا يأخذ الإمام علىّ — كرم الله وجهه — الحقّ من ابن عباس . ويتوعده القتلَ إن هو قدر عليه ، ووقع ليده ! وهكذا يقطع عليًّا قِطعة عزيزة من نفسه ، ويرمى بها بعيداً عنه ، وإن تكن يدَه التى يبطش بها ، أو لسانه الذى يصول به ! إذ ليس لها عنده حساب ، بعد أن رآها وقد دخل عليها الفساد ، ولم تعد صالحة لأداء وظيفتها ، فى كيانه !

وإذا كان هذا هو موقف ابن عباس من الإمام علىّ ، وموقف الإمام علىٍّ من ابن عباس ، فما ظنّك بموقف عمال علىّ وأنصاره منه ؟ وموقفه منهم ؟

أيصبر أحد منهم كما صبر ابن عباس ، هذا الزمن الطويل مع الإمام علىّ ، ثم لاتنزع به نفسه إلى الخروج على سياسة الإمام الصارمة العنيفة ، فى الرقابة على المال ، إلى حيث الجهة التى ليس عندها إلا الإغراء بالمال ، والإغراقُ فيه ؟

وأَيرْضى الإمام لأحد من عماله وقوّاده وأنصاره ، مالم يَرْضه لابن عمّه ، ووزيره ، وصاحب المكان الأول عنده ؟

---

(١) أى خذ نفسك بالرفق .

(٢) نهج البلاغة ٢ / ٣٤

ذلك مالا يكون !

سمع الإمام — كرم الله وجهه — أن عامله على البصرة ، عثمان بن حنيف ، قد دُعى إلى وليمة أعدها له أحد أبناء البصرة ، فثارت لذلك ثائرته ، وأعلنها حرباً على ابن حنيف ، حتى إنه ليكاد يمسك به من حُلقومه ، فيُقيئه ما أكل !

فكتب إليه يقول :

« أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة ، دعاك إلى مأدبة ، فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان ، وتُنقَلُ إليك الجِفان ! وما ظننتك تجيب إلى طعام قوم ..عائلهم[1] مجفُوّ ، وغنيّهم مدعوّ ، فانظر إلى ما تَقْضَمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فَنَلْ منه !

« ألاَ وإن لكل مأموم إماماً ، يقتدى به ، ويستضىء بنور علمه ، ألاَ وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[2] ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وإنكم لاتقدرون على ذلك ، ولكن أعينونى بوَرع واجتهاد ، وعفّة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالى ثوبى طِمْرا ..وإنما هى نفسى أروضها بالتقوى ، لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر ، وتثبُتَ على المزالق ، ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى مُصَفّى هذا العسل ، ولُباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى ، إلى تَخَيّر الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة ، من لاطمع له فى القُرص ،

(١) أى محتاجهم ، وفقيرهم .

(٢) الطمر : الثوب البالى .

ولا عهد له بالشِّبَع ! أَوَ أبيتُ مِبطاناً وحولى بطون غَرْثَى وأكباد حرَّى ؟ أو أكون كما قال القائل : ؟

وحسبُكَ داء أن تبيت بِبِطْنَةٍ وحولك أكبادٌ تحنّ إلى القِدِّ[1]

«أأقنع من نفسى أن يقال أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ فما خُلقتُ ليشغلنى أكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة ،همّها علفها ، أو المُرسلة[2] شغلها تقممها ، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها ! . . وكأنى بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبى طالب ، فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ، ومنازلة الشجعان !! ألاَ وإن الشجرة البريّة أصلب عوداً ، والروائع الخَضِرة ، أرقّ جلوداً ، والنابتات البدوية،أقوى وقوداً ، وأبطأخموداً ، وأنامن رسول الله ، كالصِّنو من الصنو ، والذراع من العضد ! ! . .

« فاتقِ الله يا ابن حنيف ، ولتكفك أقراصك ، ليكون من النار خلاصك ! ! »[3]

والإمام — رضى الله عنه — القدوة الطيبة ، والمثل الكريم لأتباعه وأوليائه ، فى هذا الذى يدعوهم إليه ، من ترك الطيبات ، والاجتزاء بالقليل الخشن من اللباس والطعام !

رُوى عن نوف البكالىّ[4] ، قال خَطَبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير

---

(١) القد : بالكسر ؛ سير من الجلد غير مدبوغ . أى أنها تطلب أكله ولا تجده .

(٢) أى السائحة المطلقة .

(٣) نهج البلاغة : ٢/٤٦ .

(٤) هو نوف بن فضالة البكالى ، امه أم هانىء بنت أبى طالب . كان فارساً مقداماً

المؤمنين ، عليه السلام ، وهو قائم على حجارة ، نصبها له جعدة بن هُبيرة المخزومى ، وعليه مِدْرَعة[1] من صوف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى رجليه نعلان من ليف ، وكأن جبينه ثَفِنةُ بعير !! » . . ثم أورد الخطبة المشار إليها .

فهذا هو ابن أبى طالب ، خليفة المسلمين ، يخطب على منبر من حجارة مرصوصة رصًّا ، ويلبس قميصاً من صوف ، وحمائل سيفه من ليف ، ونعلاه من ليف ، وجبينه من شظف العيش ، وكثرة السجود كثَفِنة البعير ، من الخشونة والتشقق !

ولكنه — مع كل هذا — يعلم مافى الناس من الضعف ، وما بينهم من التفاوت ، فى القدرة على الاحتمال والصبر ، كما أنه يعلم ما على الخليفة من تبعات الأسوة ، التى يتأسّاها الناس فيه ، والقدوة التى يتمثلها الناس منه !

فهو إذا أخذ الناس ، بالتخفف من الدنيا ، والاجتزاء بالقليل منها ، فإنما يأخذ بذلك نفسه أولا ، أخذاً لاتفريط فيه ، ولاتهاون معه ، ثم يأخذ ولاته ، وأصحاب الرياسة عنده ببعض ما أخذ به نفسه ، لأنه هو مَثَلُهم الذى يقتدون به ، وهم المَثَلُ الذى يقتدى به الناس . . أما عامة الناس ، فلِأَمْر أمرهم إلى أنفسهم ، وإلى مافيها من دين ودنيا !

دخل — كرم الله وجهه — على العلاء بن زياد الحارثىّ ، يعوده ، وقد مرض . . فلما رأى سعة داره ، قال له : ما كنتَ تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا ؟ أما أنت إليها فى الآخرة كنت أحوج ؟ وبلى إن شئتَ بلغتَ بها الآخرة .. تَقْرى فيها الضيف ، وتصل فيها الرحم ، وتُطلع منها الحقوق مطالعها ، فإذا أنت بلغتَ بها الآخرة !

---

(١) المدرعة : القميص

فقال العلاء : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد !

قال : وما له ؟

قال : لبس العباءة ، وتخلّى من الدنيا !

قال : عَلَيَّ به !

فلما جاء عاصم ..

قال له : ياعَدِيّ[1] نفسه ! لقد استهان بك الخبيث[2] ! أما رحمت أهلك وولدك ؟ أترى الله أحلّ لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك !

قال عاصم : يا أمير المؤمنين .. هذا أنت فى خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ؟

قال : ويحك ! إنى لست كأنت ! إن الله فرض على أئمة العدل أن يَقْدُروا[3] أنفسهم بضَعَفة الناس حتى لا يتبيّغ[4] بالفقير فقره ! ! »[5]

إنه — كرم الله وجهه — لا يرضى لعامل من عماله أن يحيد عن طريق العدل ، والاستقامة ، والقصد فى الإنفاق ، لأنه إن حاد عن هذا الطريق مرة ، فهيهات أن يعود إلى جادّة الطريق ! ثم لا تزال الأيام تدفعه بعيداً ، حتى يفسد أمره ، وتسوء حاله !

---

(١) أى ياعدو نفسه (تصغير عدو) .

(٢) يقدروا أنفسهم : أى يقيسوها .

(٣) أى الشيطان ،

(٤) يتبيغ : أى لا يهيج به ألم الفقر فيهلك .

(٥) نهج البلاغة : ١:٢٢٩ .

كتب — كرم الله وجهه — إلى المنذر بن الجارود العبدى ، وقد خان فى بعض ما ولاّه من أعماله :

« أما بعد ، فإن صلاح أبيك غرّنى منك ، وظننت أنك تتبع هَدْيَه ، وتسلك سبيله ، فإذا أنت فيما رقى إلىّ عنك ، لاتَدَعُ لهواك انقياداً ، ولا تُبقى لآخرتك عَتَاداً ، تعْمُرُ دنياك بخراب آخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك! ولئن كان مابلغنى عنك حقاً ، لجَمَل أهلك وشسع نعلك خير منك ! ! ومن كان بصفتك ، فليس بأهلٍ أن يُسَدّ به ثغر ، أو يُنفذَ به أمر ، أو يُعلى له قَدر ، أو يشرك فى أمانة ، ويؤمن على خيانة [1] ، فأقبلْ إلىّ حين يصل إليك كتابى هذا ، إن شاء الله ! »

هكذا يأخذ — رضى الله عنه — بمخنق أصحابه ، وأنصاره ، وأولى النجدة والبأس من رجاله .. لايعنيه من أمرهم إلا أن يستقيموا معه على طريق الحق ، وألا يكون قربهم منه ، ونصرتهم له ، لجرّ مغنم ، أو جلب منفعة لذات أنفسهم ، ثم لاعليه بعد هذا أن يُقبلوا إليه ، أو يدبروا عنه !

جاء عبد الله بن زمعة — رضى الله عنه — يطلب إليه بعض المال ، لبعض حاجته ، فكان جواب الإمام له :

« إن هذا المال ليس لى ولا لك ! ! وإنما هو فىء للمسلمين ، وجَلْب أسيافهم ، فإن شَرَكتهم فى حربهم ، كان لك مثلُ حظهم ، وإلاّ فَجَنَاة أيديهم لاتكون لغير أفواههم ! ! » [2]

وطبيعى أن عبد الله بن زمعة لايُقبل بوجهه على علىّ بعد هذا الموقف ،

---

(١) أى يؤمن على دفع الخيانة .

(٢) نهج البلاغة ١: ٢٥٢ .

ولا يعطيه ولاء ولا نصراً ، وإنّ أحسن حالاته معه أن يكفّ عنه يده ولسانه، ولا يكون فى جبهة معاوية بيده ولسانه . . وهيهات ! !

ومن فَعَلات الإمام عليّ كرم الله وجهه ، فى هذا، ما كان منه إلى مصقلة ابن هُبيرة الشيبانى ، وكان والياً لعلىّ على بعض مقاطعات فارس !

وملخص الواقعة أنه مرّ بمقصلة جماعة من سبي بنى ناجية الذين استأسروا لأحد قواد علىّ ، وكانوا نحو خمسمائة ، معظمهم من بكر بن وائل — قوم مصقلة — فلما رأوه ، هتفوا به أن يخلصهم ، فجاء إلى القائد واشتراهم منه : من بيت المال !

وكان تقديره أن الإمام علىّ — فى ظروفه المحيطة به — سيسمح له بالثمن الذى اشتراهم به ، إن هو استسمحه ، وأنه سيُسقطه من حسابه ا ولكن الإمام علىّ طلب إليه أن يؤدّى إلى بيت المال ما فى ذمته ، فلما لم يجب ، بعث إلى ابن عباس — عامله على البصرة — أن يستقضيَه هذا الدّين ، فلما طالبه ابن عباس به ، قال : لوقد كنتُ طلبت أكثر من هذا المال إلى ابن عفّان ما منعنى إياه ! » ثم احتال حتى هرب ، وانضم إلى معاوية ، وقد كان جبهة قوية فى جانب علىّ ! ، ولكن عليًا لايشترى الرجال ، ولا يبيعهم من دينه شيئاً ، وإن كان بيدهم قُوى الدنيا جميعاً !

وحين علم علىّ بما فعل مصقلة قال : « قَبَحَ الله مصقلة . . فَعلَ فِعل السادات[1] ، وفرّ فرار العبيد ! فما أنطق مادحَه حتى أسكته ، ولاصدّق واصفه حتى بكتّه ، ولو أقام لأخذنا ميسورَه ، وانتظرنا بماله وفورَه ! »[2]

---

(١) أى حين خلص هؤلاء الأسرى . وخف لنجدتهم .

(٢) نهج البلاغة : ٤٣/١ .

وكيف لمصقلة أن يقيم ، وقد رأى الإمام يرفع بصره إليه ، يريده علَى أن يدفع هذا المال الذى أخذه ، ولا مال معه ؟ إنه يعلم أن علياً لا يدعه بعد أن طلبه . وأن وجوه العذر ضيقة عليه ، إن هو أتى إلى الإمام بمعاذيره !

يقول علىّ فى إحدى خطبه ، بعد أن ردّ القطائع ، التى كان أقطعها عثمانُ بعضَ ذويه : « والله لو وجدت هذا المال قد تُزُوّج به النساء ، ومُلك به الإماء لرددته ، فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل ، فالجور عليه أضيق [1] ! ».

فهل يطمع مصقلة بعد هذا ، فى أن يجد من علىّ تسامحاً أو تهاوناً ، فى هذا المال الذى أخذه من بيت المال ؟ إن ذلك لبعيد !

لقد هرب مصقلة إلى الشام ، وفى نفسه أسًى وحسرة أن يضطره الموقف إلى هذه الفَعلة الفاضحة ، التى أخزته وأخزت قومه ! فأقام فى الشام كسيرَ القلب ، حزين النفس ، لم يستطع معاوية أن ينتفع منه بشىء ، إذ عاش منطويا على نفسه ، يتقلّب فى همومه وأحزانه ! .

ذكروا أنه حين انصرف علىّ من البصرة إلى الكوفة ، قام إليه وجوه بكر بن وائل ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، إن نعيما ، أخا مصقلة . يستحى منك ، لِما صنع مصقلة ، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلةَ من الرجوع إلا الحياء ، ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده ، فلو كتبنا إليه كتابا ، وبعثنا من قِبلَنا رسولا ! ؟ فإنا نستحى أن يكون فارقنا مثلُ مصقلة من أهل العراق . إلى معاوية ، فقال على : اكتبوا ، فكتبوا :

---

(١) نهج البلاغة : ١ : ٢٢

« أما بعد : فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية ، رضًي بدينه ، ولا رغبةً فى دنياه ، ولم يعطفك عن علىّ طعن فيه ، ولا رغبة عنه . ولـكن توسطت أمراً فقوّيتَ فيه الظن ، وأضعفت فيه الرجاء ، فـكان أولاهما عندك أن قلت : أفوز بالمال ، وألحقُ بمعاوية !

«ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق ، ولا السّـكاسك[1] بربيعة ، ولا معاوية بعلىّ ، وَلا أصبت دنيا تهنأ بها ، ولا حظا تحسد عليه ، وإن أقرب ماتـكون مع الله ، أبعدُ ما تـكون مع معاوية ، فارجع إلى مصرك ، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب ، واحتمل الثِّقل . واعلم أن رجعتك اليومَ خير منها غداً ، وكانت أمسِ خيراً منهـا اليوم ، وإن كان عليـك حياء من أبى الحسن ، فما أنت فيه أعظم ! فَقَبّح الله أمراً ليس فيه دنيا ولا آخرة ! »

فلما قرأ مصقلة الـكتاب ، قال للرسول الذى حمله إليه : ياأخا بكر .. إنما هربت بنفسى من علىّ ، ولا والله ما يطول لسانى بغيبته ، ولا قلت فيه قط حرفاً بسوء ! ثم كتب إلى قومه يقول :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابكم ، وإنى أخبركم : إنه من لم ينفعه القليل لم ينفعه الـكثير ، وقد علمتم الأمر الذى قطعنى من علىّ ، وأضافنى إلى معاوية! وقد علمتُ أنى لو رجعتُ إلى علىّ وإليكم ، لـكان ذنبي مغفورا !

«ولـكنى أذنبت إلى علىّ ، وصحبت معاوية ! فلو رجعتُ إلى علىّ أحدثت عيباً وأحييت عاراً ، وكنت بين لائمين : أولهما خيانة ، وآخرهما غدر ! ولـكنى أقيم بالشام ، فإن غلب معاوية فدارى العراق ! وإن غلب علىّ فدارى أرض الروم ! . . وكانت فُرقتى عليًا على بعض العُذر أحبّ إلىّ من فرقتى معاوية ولا عُذر لى ..[2] !! » .

---

(١) السكاسك قبيلة عربية فى الشام

(٢) الإمامة والسياسة : ١ ٨٩ .

ومصقلة ليس واحداً فيما فعل ! فقد سبقه ، وجاء بعده كثيرون ، تركوا علياً خوفاً من حسابه ، أو يأساً من عطائه ، ولحقوا بمعاوية حيث هناك لا خوف من حساب ، ولا يأس من عطاء ، فإن بيت مال المسلمين هو بيت مال معاوية ، يضعه حيث يشاء ، ويفتح به لنفسه إلى الناس طرقاً !!

وفى عقيل ابن أبى طالب . وفى موقف علىّ منه ، مايغنى عن كل مَثَل يُورَد ، وعن كل قول يقال فى هذا المقام !

فعقيل هو شقيق علىّ الأكبر ، وقد عرفنا من قبل كيف كانت حسرته ، وكيف كانت مواساته لأخيه ، حين التقى بجماعة من بنى أمية ، فقالوا له ، وقال لهم ، وأسمعوه وأسمعهم ، ثم كتب إلى علىّ تلك الرسالة ، التى أشرنا إليها من قبل ، والتى يعرض فيها أن يأذن له أخوه ، فى أن يجىء إليه بنفسه وبنيه ، ليكونوا معه فى معركته ضد هؤلاء الخارجين عليه ، حتى يأخذوا له بحقه أو يُقتلوا !

وليس فيما كان من عقيل هنا إلا ما تفرضه أخوة الأخ لأخيه .. ولكننا إنما عرضنا هذا الموقف لنذكر به أنه لم يكن بين الأخوين غير الحب والود ، وأنه لم تكن بينهما مباغضة أو مجافاة . . كما يحدث أحياناً بين الأخوين !

فالذى بين عقيل وعلىّ كان أخوةً صادقة ، خالصة ، لا تشوبها شائبة من كدر أو جفوة !

وبتلك الأخوة ، وبحقها ، جاء عقيل إلى أخيه يسأله بعضَ المال الذى اقتضته الحياة منه ، وقصرت يده عنه !

قالوا : إن عقيل بن أبى طالب ، قدم على أخيه علىّ بالكوفة . فقال له مرحباً بك وأهلاً .. ما أقدمك ياأخى ؟ قال : تأخر العطاء عنّا ، وغلا السعر ببلدنا ، وركبنا دين عظيم ، فجئت لتصلنى ! فقال علىّ : والله مالى مما ترى شيئاً إلا عطائى ، فإذا خرج فهو لك !

فقال عقيل : أترى شخوصى إليك من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ منى عطاؤك ؟ وما يدفع من حاجتى ؟

فقال على : هل تعلم لى مالا غيره ؟ أم تريد أن يحرقنى الله بنار جهنم ، فى صِلَتك بأموال المسلمين ؟

فقال عقيل : والله لأخرجَنَّ إلى رجل هو أوصل لى منك — يريد معاوية !

فقال له علىّ : راشداً مهديا ! !

وفى رواية ، أن عليًا — كرم الله وجهه — حين رأى عقيلاً ، قد طمع فى أن ينال من بيت المال شيئاً . عمد إلى حديدة فأحماها ، ثم قال لعقيل : ابسط يدك ، وكان قد ضعف بصره ، فبسط يده ، وحسب أن أخاه قد رقّ ، لما رأى من سوء حاله ، وحال وَلده ، وقدّر أن يديه ستعودان بما يملؤهما ذهباً ، وجوهراً ! وإذا بالنار تلسعه ، ففزع صارخاً ، وولى وجهه مغضبا ، ومغاضبا ! .

يقول علىّ فى إحدى خطبه ، وقد ذكر هذه الواقعة :

« والله لئن أبيتُ حَسَك السعدان مُسَهَّدا ، وأُجَرَّ فى الأغلال مصفَّدا ، أحبُّ إلىّ من أن ألقى الله ورسوله ، يوم القيامة ، ظالما لبعض العباد وغاصباً لشىء من الحطام ! وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول فى الثرى حلولها ؟

« والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحنى من بُرّكم صاعاً ، ورأيت صبيانه شُعثَ الشعور ، غُبْر الألوان ، من فقرهم ، كأنما سُوِّدَت وجوههم بالعِظلم[1] . وعاودنى مؤكدا ، وكرر علىّ القول مردّدا . . فأصغيت

(١) العظلم : نبت له صبغ أسود .. يصبغ به

إليه سمعى ، فظنّ أنى أبيعه دينى ، وأتبع قياده ، مفارقا طريقتى ! . فأحميْتُ له حديدة ، ثم أدنيتها من جسمه ، ليعتبر بها . فضج ضجيج ذى دَنَف[1] ، من ألَمِها ، و كاد أن يحترق من مِيسمِها ، فقلت له : ثـكلتك الثواكل ياعقيل ! أتئن من حديدة أحماها إنسانا لِلعبه ، وتجرنى إلى نار، سجّرها جبارها لغضبه؟ أتئن من الأذى ، ولا أئنّ من لظى ؟[2] »

فخرج عقيل حتى أتى معاوية ، فلما قدم عليه . قال له معاوية : «مرحباً وأهلا بك ، ياابن أبى طالب .. ما أقدمك علىّ ؟

فقال : قدمت عليك لديْن عظيم ركبنى ، فخرجت إلى أخى ليصلنى ، فزعم أنه ليس له مما يلى إلا عطاؤه ، فلم يقع ذلك منى موقعاً ، ولم يسدّ منى مسَدا ، فأخبرته أنى سأخرج إلى رجل ، هو أوصل منه لى ، فجئتك !

فازداد معاوية فيه رغبة ، وقال : ياأهل الشام ، هذا سيد قريش ، وابن سيّدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة ، فأثاب إلى أهل الدعاء إلى الحق !! زعم له أنه ليس له مما يلى إلا عطاؤه ، ولـكنى أزعم أن جميع ما تحت يدى لى ، فما أعطيت فقُربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح علىّ فيه !! فأغضب كلامه عقيلاً حين سمعه ينتقص أخاه ، فقال : صدقت ! خرجت من عند أخى على هذا القول ، وقد عرفت من فى عسكره ، لم أفقد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار ، ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ! »

ومع هذا فقد وصله معاوية بثلاثمئة ألف ، وقال له : هذه مائة ألف تقضى بها دينك ، ومائة ألف تصل بها رحمك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك[3] !! »

---

(١) أى مرض .

(٢) نهج البلاغة : ١ ـ ٢٤٧

(٣) الإمامة والسياسة : ١ ـ ٨٤

وفى رواية أن معاوية قال له مرة : أنا أحسن أم أخوك ؟ فقال : أنت خير لى فى دنياى ، وأخى خير لى فى دينى !».

هذه بعض أمثلة لموقف « علىّ » من رجاله وأنصاره ، فى العطاء والمنع ، من هذا المال ، الذى فَتَن الناسَ فى تلك الفترة من حياة المسلمين ، وفى هذا الموقف الذى كان يقفه بعضهم من بعض : استعداداً لخوض معركة فاصلة بين علىّ ومعاويه !

وطبيعى أن سياسة «علىّ» هذه كان يمكن أن تَمسك عليه أهله ، وأصحابه ، وأنصاره ، لو كانت سياسة « معاوية » مماثلة لتلك السياسة أو مقاربة لها . !

وأمّا وسياسة معاوية تذهب مذهب المياسرة حيناً ، والممالأة حيناً آخر ، والإغراء والإغراق فى أكثر الأحيان ، فإن ذلك جدير به أن يقلّب القلوب ، ويدير الرءوس ، ويفتح للناس طرقاً إلى الموازنة والمفاضلة ، بين داعى الدين ، وداعى الدنيا ، بين يد علىّ الشحيحة بمال الله ، الضنينة به على غير أهله ، وبين يد معاوية السخيّة به فى غير حَرَج ، الباذلة له بغير حساب لمن يَطلُب ، أو يُطلَب !

وقد تحوّل كثير من أنصار علىّ إلى جبهة معاوية ، بفعل هذه السياسة ، التى كان « علىّ » يمسك بطرف منها ، على حين كان معاوية يمسك بالطرف المناقض لها !

ولا نستكثر من الشواهد التى تكشف عن وجه تلك السياسة التى اشترى بها معاوية الرجال ، وضمهم إليه ، فإن فى الذين ذكرنا من أصحاب علىّ وخلصائه ، الذين اعتزلوه كابن عباس ، وعقيل ابن أبى طالب ، أو صاروا إلى معاوية ، كالمنذر بن الجارود ، ومصقلة بن هُبَيرة — فى هؤلاء وغيرهم من الشواهد ، ما يغنى عن كل شاهد !

ولكنْ — مع هذا — لا تكتمل الصورة ، حتى نرى معاوية ، وكيف كان يمسك رجاله ، وكيف كان يُدنى البعيد منهم ، ويتألف النّافر ، وينبّه الغافل ، ويوقظ النائم ، حتى ينقادوا جميعاً له ، وحتى تكون يده عليهم ، يَدَ المالك فيما ملك ، لا يملكون معه إلا السمع والطاعة !

فهذا أحد ولاة معاوية كثير بن شهاب المَذْحِجِيّ .

كان والياً لمعاوية على خراسان . . فاختان مالاً كثيراً ، ثم هرب ، فاستتر عند هانىء بن عروة المرادى ، فبلغ ذلك معاوية ، فَنَذَرَ دمَ هانىء ! !

« فخرج هانىء فكان فى جوار معاوية ، ثم حضر مجلسه ، ومعاوية لا يعرفه ، فلما نهض الناس ثبت مكانه ، فسأله معاوية عن أمره ، فقال : أنا هانىء بن عروة !

فقال معاوية : إن هذا اليومَ ليس بيوم يقول فيه أبوك : « أرجّل جُمّتى . » (١)

فقال هانىء : أنا اليومَ أعزّ منى ذلك اليوم !

فقال له : بم ذاك ؟

قال : بالإسلام يا أمير المؤمنين !

فقال : أين كثير بن شهاب ؟

---

(١) يشير معاوية إلى قول عروة المرادى :

أرجل جُمتى وأجـــر ذيلى ... وتحمِل شكّتِى أفق كُمَيْتُ

أمشّى فى سَراة بنى قطيف ... إذا ما سامنى ضيم أبيتُ

ويريد معاوية بهذا إلى أن الحال قد تغيرت ، وأنه إذا كان لعروة أن يقول هذا فى وقت من الأوقات فليس لهانىء أن يعيش فى ظل هذا الشعور الذى كان يعيش فيه أبوه ، ويحمى من يهدر معاوية دمه !

قال : عندى فى عسكرك ، يا أمير المؤمنين !

فقال معاوية : انظر إلى ما اختانه ، فخذ منه بعضاً ، وسوِّغه بعضاً !! »[1]

فانظر كيف اصطاد معاوية عصفورين بحجر .. كما يقولون !

كثير بن شهاب .. سارق بيت المال !

وهانىء بن عروة .. الذى آوى إليه السّارق !

يلقاهم معاوية بالرضا ، ويجعل هذا المال المسروق قسمةً بينهم !

فأين هذا مما فعل علىّ مع ابن عباس ، ومع مصقلة بن هبيرة ، وغيرهما ؟

هذا ، ولم يكن معاوية يطرق هذا الباب ، ثم يفتحه على مصراعيه ، لولم يجد من الناس استعداداً للمساومة على دينهم ، وعلى خلقهم ! !

ولقد كانت فتنة المال — كما قلنا — آخذةً بعقول النـاس ، مستبدةً بمشاعرهم ، إلا قليلا ممن عصم الله ، وآثر الآجلة على العاجلة ، وما عند الله ، على مافى أيدى الناس !

روى الطبرى : أن الحتّات بن يزيد المجاشعى ، وفد على معاوية فى جماعة من الرؤساء ، فأعطى معاوية كلا منهم مائة ألف ، وأعطى الحتّات سبعين ألفاً !

« فلما رجعوا ، وكانوا ببعض الطريق أخبر بعضهم بعضاً بالجائزة التى نالها .

« فرجع الحتّات إلى معاوية يعاتبه ، فقال له : مابالك خَسَسْت بى دون القوم ؟

قال : اشتريت من القوم دينهم ، ووكلتك إلى دينك ، ورأيك فى عثمان !

---

(١) الكامل للمبرد : ٢ - ١٦ .

فقال : وأنا ، فاشتر منى دينى !

فأمر له بتمام جائزته ! !(1) »

قد يكون فى الخبر شىء !

ولكن الذى لاشك فيه ، أن أحوال الناس — فى تلك الفترة — كانت تتسع لهذا ، ولأكثر منه !

لقد أخذ الناس يتراجعون إلى الجاهلية ، وأخذ الدّين الذى كان يملأ قلوبهم ، يتسرب شيئاً ، شيئاً ، ويضمر قليلا قليلا !

كان المال فى بدء الدعوة سبيلا إلى تألّف بعض القلوب ، فينتزع منها نفاقها ، وكفرها !

ثم ها هو ذا قد أصبح المال سبيلاً إلى تألّف القلوب ، فينتزع إيمانها ، ويزعزع عقيدتها ؟

وهكذا ، نجد المال فى يد « علىّ » حرباً عليه ، يكثّر من أعدائه ، ويفسد عليه أصحابه وأنصاره !

بينما نجد المال فى يد معاوية جيشاً عاملاً ، يؤلّف له العدو ، ويُدنى إليه البعيد ، ويمسك القريب ، ويبسط له على الناس سلطاناً قائماً على الرغبة والأمل !!

* * *

ولم يكن المال وحده هو الجيش المقاتل مع معاوية ، على حين كان هو الفتنة المستيقظة فى جيش « علىّ » والآفة التى تغتال رجاله ، وتخطّف أنصاره — بل كان إلى جانب المال قُوى أخرى تعمل مع معاوية ، وهى فى الوقت نفسه ، حرب على علىّ ، ومعاول هادمة فى قوته !

---

(1) الطبرى : ٦ / ١٣٥ .

فحين يرى معاوية أن بعض الناس همّهم غير المال ، يجىء إليهم بالأمر الذى يداعب آمالهم ، ويَطْرق أحلامهم ، فإذاهم قد أسلموا له قيادهم ، وأعطوْه الخِيرَة من أنفسهم !

والمثل الماثل بين أيدينا هنا ، هو زياد بن أبيه ، واستلحاقه بأبى سفيان !

وزياد بن سمية أو ابن عُبيد ، كما كان يقال ، قبل استلحاقه ، لم يُلحقه أبو سفيان به ابنا ، ولم يُلحقه معاوية به أخاً فى حياة أبيه ، إذ لم يكن زياد قد ظهر بمواهبه ، وكشف عن شخصيته تلك ، التى بلغ بها مكان السيادة والقيادة ، على الرغم من هذا النسب المغمور الذى كان يعيش به ، وسط قوم يعتزون بالأحساب والأنساب !

كان زياد فى تلك الفترة التى وقع فيها الخلاف بين علىّ ومعاوية — قد بلغ بذكائه وقوة شخصيته منزلة عالية بين الرجال ، حيث يُرجى منه النفع ، ويُلتمس منه العون ، فحيث كان فهو قوة يعمل لها حسابها ، ويقدّر لها قدرها .

وعينُ معاوية لاتغفل عن مثل زياد ، وإن كان يرى هواه مع علىّ !

فقد طمع معاوية فى أن يضم زياداً إلى جبهته ، فمدّ إليه يده بالمال وبالسلطان ومنّاه الأمانىّ ، بولاية الأمصار . . ولكن زياداً لا يستجيب لمعاوية ، ولا يرضى أن يجعل نفسه سلعة تشترى بالمال !

وهنا ينفتح لمعاوية باب يدخل به على زياد ، ويضع يده على موطن الضعف منه ، ويلمس مكمن الداء الذى يؤرقه ! ثم يلوح لزياد بالدواء الذى يذهب بهذا الداء ، وإذا زيادٌ بين يدى معاوية ، يأخذ ويعطى ، وإذا هو أخ لمعاوية ، يقف إلى جانبه ، كما يقف الأخ من أخيه !

وقد علم علىّ — كرم الله وجهه — بما كان يسعى إليه معاوية ، ويعمل له ،

فى شأن زياد ، وما يريد معاوية أن يَدخل به عليه ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه :

« وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك ، يستنزل لبّك ، ويستفِلُّ غَرْبَك ! فاحذرْه ! فإنما هو الشيطان ، يأتى المؤمن من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غِرّته ! !

« وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزعات الشيطان ، لايثبت بها نسب ، ولايُستحق بها إرث ، والمتعلّق بها كالواغل المدفَّع[1] ، والنوط[2] المذبذب . »[3]

فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها وربّ الكعبة ! !

لقد جاء كتاب الإمام إلى زياد ، وهو يراود نفسه على مايدعوه إليه معاوية من استلحاقه به ، وهو يخشى أن يقبل هذا النسب فلا يجد إلا نُكْرًا ، ولايسمع إلا استهزاء وسخرية . . ولكن هاهوذا الإمام علىّ يذكر أن أبا سفيان كان قد أظهر فى زمن عمر قولا بِنسب زياد إليه ، وإذا كان هذا القول قد جاء فلتة ، وعن غير قصد ، فإن فيه لزياد بلاغًا ، وإن له فيه لمتعلَّقا .. فهو الغريق ، يمسك بأى شىء يقع ليده ! وللإمام علىّ أن يقول فى هذا القول ماشاء ! فقد شهد بأن أبا سفيان قال فى زياد قولاً : ، وأن هذا القول قد وقع من نفس علىّ موقعاً ، وهذا وحده يكفى ، ليكون ذريعة يتذرع بها زياد ، الوصول إلى نسبه من أبى سفيان !

---

(١) الواغل : هو الذى يهجم على الشرب ليشرب معهم وليس منهم .

(٢) النوط : مايعلق بالرحل من قعب أو قدح ، فهو أبداً مضطرب لايستقر .

(٣) الإمامة والسياسة ٢ : ٨١ .

وقد طرق معاوية الحديد وهو ساخن ـ كما يقولون ـ فعرض على زياد هذا النسب ، ولوّح له به في صور من الإغراء المشوب بالمكر والدهاء ! وهو نسب عزيز ، تنقطع دونه الرقاب !

كانت سمية ، أم زياد ، جارية للحارث بن كلدة الثقفي ، وكانت من البغايا ذوات الرايات بالطائف ، وتؤدّي في مقابل ذلك جُعْلا إلى سيدها ، الحارث ابن كلدة . . وكانت تنزل في حِلّة البغايا ، خارج ثقيف ! وقد زوجها سيدها من غلام رومىّ له ، اسمه عبيد !

واتفق أن مرّ أبو سفيان في بعض أسفاره في الجاهلية ، بالطائف ، فنزل على خمّار ، يُدعى أبا مريم السلولي ، فقال له أبو سفيان ، قد اشتهيت النساء فالتمس لي بغيّا ! فقال له : هل لك في سُمَيّة ؟ [1] فقال أبو سفيان : هاتِها ،على طول ثديها ، وذَفَرَ بطنها ! . فأتاه بها ، فوقع عليها ، فعلقت بزياد ، ثم وضعته في السنة الأولى من الهجرة ! »

وقد وُلد زياد منسوباً إلى أبيه عبيد ، دون أن يلتفت أحد إلى هؤلاء الذين كانوا يترددون على أمه سمية ، ومنهم أبو سفيان ، ولعله كان كثيرَ التردّد عليها ، ولعلها أصابت من نفسه هوى ورضى ، على ما كان يؤذيه منها !

ولما كبر زياد ، وبلغ مبلغ الرجال ، ظهرت مواهبه ، وعُرف له في الناس قدره ..!

وحين بويع لعليّ بالخلافة ، ولّى زياداً فارسَ ، فضبطها ، وحمى قلاعها ، فساء ذلك معاوية ، وكتب إليه ، ويتعرض له بولادة أبي سفيان !

وقد رأينا أن الإمام عليّ كتب إلى زياد يحذره ، مما يريده معاوية عليه،

---

(١) ويظهر من هذا أن أبا سفيان كان يعرفها من قبل ، في تردده على هذا المكان!

ولهذا وقف زياد موقف المتردد ، فظل بعيداً عن مواطن الصِّراع ، معتصما فى فارس ، لم يشهد مشاهد صفين ، حتى انتهى الأمر بمقتل علىّ رضى الله عنه !

وحين بويع لمعاوية بالخلافة ، وتمت المصالحة بينه وبين الحسن بن علىّ ، أرسل إلى المغيرة ابن شعبة ، وقال له : ذكرتُ زياداً ، واعتصامه بفارس ، وهو داهية العرب ، ومعه الأموال ، وقد تحصّن بأرض فارس وقلاعها ، يدبّر الأمور ، وما آمن أن يبايع لرجل من هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جَذَعة !

فذهب المغيرة إلى زياد ، والتقى الدهاء بالدهاء .. فقال له المغيرة :

«إن هذا الأمر لا يمدّ إليه أحد يداً إلا الحسن بن علىّ ، وقد بايع لمعاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين[1] » !

قال زياد : فأَشِرْ علىّ !

قال المغيرة : أرى أن تنقل أصلك إلى أصله ، وتصل حبلك بحبله ، وتُعيرَ الناسَ أُذنا صماء !

فقال زياد : ياابن شعبة ! أأغرس عوداً فى غير منبته ؟

ثم مازال المغيرة بزياد يغريه ، ويهوّن عليه الأمر حتى قبل هذا العرض ، فوفد على معاوية ، ليبرم معه عقد هذه الصفقة ! ولينال هذا النسب ، الذى يَسيل له لعاب الأشراف !

وقد وجد زياد أن معاوية أعدّ كل شىء ، وأزال كل عقبة ، وهيأ الجوّ المناسب لإعلان هذا النبأ المثير !

---

(١) أى قبل أن تستقر الأمور . فلا يكون لك عند معاوية مكان .

فما كاد زياد يجلس إلى معاوية ، حتى أرسلت إليه جُويرية بنت أبى سفيان ـ عن أمر أخيها معاوية ـ فلما أتاها ، كشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت له : أنت أخى ! أخبرنى بذلك أبو مريم[1] !

ثم أخذ معاوية بيد زياد إلى المسجد ، وجمع الناس ، وأحضر مَن يشهد لزياد بأنه من أبى سفيان !

وكان ممن حضر ، أبو مريم ، فقال له معاوية : بم تشهد ياأبا مريم ! ؟

فقال : أنا أشهد أن أبا سفيان ، قدم علينا بالطائف ، وأنا خمار ، فقال أبغنى بغياً .. فقلت له : ليس عندى إلا جارية الحارث بن كلدة ، سمية !! فقال : ائتنى بها على قَذَرَها ، وذَفَرها ! !

فقال له زياد : مهلاً ، أبا مريم ! إنما بُعثتَ شاهداً ، ولم تبعث شاتما ! فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتمونى لكان أحبّ إلىّ ! وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ! والله لقد أخَذَ بكُمّ درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، وقعدت دَهِشًا ، فلم ألبث أن خرج علىّ يمسح جبينه ، فقلت : مَه ، يا أبا سفيان ! فقال : ما أصبتُ مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثديها ، وذفر من فِيها[2] ! !

فقام زياد فقال : أيها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدرى حقّ ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد ـ زوج أمه ـ والداً مبروراً ، أو ولياً مشكوراً ، والشهود أعلم بما قالوا .

---

(١) هو الخمار الذى نزل عنده أبو سفيان وهو الذى وصل بينه وبين سمية أم زياد.

(٢) واضح ما فى هذه الشهادة من التلفيق المتكلف . الذى يشف عما وراءه من كذب وزور

لم يغبْ عن ذكاء زياد ، ما فى هذا الموقف من أمارات الصنعة والتكلّف ، وما فى هذه الشهادة التى أدلى بها أبو مريم من بهتان مفضوح ، فكان هذا التعقيب الذكىّ منه ، على مادار فى هذا الموقف !

ولكن الناس لم يجدوا فى هذا مقنعاً ، وقام كثير من العلماء ، والفقهاء ينازعون فى هذا النسب الجديد ، ويدفعونه !

فقام يونس بن عبيد بن أسد الثقفى ، أخو صفية ، مولاة سميّة ، فقال : يامعاوية . قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش ، وللعاهر الحجر[1] ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر ، وأن الحجَر للفِراش ، مخالفةً لكتاب الله ، وانصرافاً عن سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ! ؟

فقال معاوية : والله يايونس لتنتهينّ ، أو لأطيرَنّ بك طيرة بطيئاً وقوعها ! فقال يونس : وهل إلاّ إلى الله ثمّ أقع ؟ قال : نعم ، وأستغفر الله !

وما زال حديث الاستلحاق هذا يدور فى المجالس ، ويقيم الناس ويقعدهم زمناً . . ولكنه مع هذا أعطى معاوية أخاً كان له قوة وعضداً !

وفى هذا يقول عبد الرحمن بن الحكم .

ألا أبلغْ معاوية بن حرب مغلغلة[2] من الرجل اليمانى

---

(١) يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش . وللعاهر الحجر » أى أن النسب إنما هو للزوج . صاحب الفراش . وليس للعاهر — أى الزانى — الذى يدعى نسبة الولد إليه ممن زنا بها — ليس له إلا الحجر ، أى لا شىء له . وزياد إنما نسبه إلى عبيد الرومى الذى كان زوجاً لسمية البغىّ !

(٢) المغلغلة : أى قولة فيها صراحة قاتلة .

أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ ‏ ‏ ‏ وترضَى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن رِحمك من زياد ‏ ‏ ‏ كرحم الفِيل من ولد الأتان

وقال ابن الأثير ، تعليقا على هذا الاستلحاق : وكان استلحاقه أولَ ما رُدّت به أحكام الشريعة علانية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قضى بالولد للفراش ، وللعاهر الحجر ! »[1] ومع هذا ، فقد أمسك زياد بهذا النسب ، وصار موضع فخر وإعزاز له .. من أقرّ له به فهو ولىّ وصديق ، ومن أنكره عليه فهو عدوّ مجاهر بالعداوة .

أخرج بن سعد فى طبقاته : أن مُرّة ـ صاحب نهر مرة ـ أتى عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وكان مولاهم ، فسأله أن يكتب له إلى زياد فى حاجة له ، فكتب له عبد الرحمن : من عبد الرحمن إلى زياد ، ونسبه إلى غير أبى سفيان! فقال : لا أذهب بكتابك هذا ، فيضرّنى ! ثم أتى عائشة ، فكتبت له : « من عائشة ، أم المؤمنين ، إلى زياد بن أبى سفيان ! » فلما جاء بالكتاب إلى زياد ، وقرأه ، قال له : إذا كان غد فجئنى بكتابك .. فلما كان غد ، جمع زياد الناس . ودعا مُرّة ومعه كتاب عائشة ، وقال : ياغلام : اقرأه ، فقرأ : « من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبى سفيان .. » فلما فرغ الغلام من قراءة الكتاب قال زياد : هذا كتاب أم المؤمنين عائشة !! وأظهر سروراً عظيما ، وأكرم مرّة وأقطعه أرضاً على نهر الأبلّة ، وأمر أن يُحفر له نهر تُروَى به هذه الأرض ، فسمّى النهر نهر مُرّة .. ! !

وهذه فَعلة من فَعَلاَت معاوية ، فى التمكين لسلطانه ، وفى طلب الغلبة على أعدائه .. قد أدخل فى نسبه زياد بن عبيد الله ، وانتزعه من فراش أبيه

---

(١) ابن الأثير : ٣/١٩٣

عبيد إلى أبى سفيان ، الذى كان يُلمّ بأمه سُميّة فيمن يُلمّ بها من الناس ! ولم يبالِ معاوية ، بما فى هذا العمل من مخالفة صريحة للدين ، وما شرع الله فى مثل هذا الأمر !

ونسأل : هل يُلام الإمام علىّ أن ترك زياداً يفلت منه ، حين لم يتخذ من الوسائل مايقطع عليه الطريق إلى معاوية ، ويجعله شيعةً له ، ولبنيه من بعده ؟

لقد كان زياد عاملا من عمال علىّ ، ورجلا من رجاله ، قبل أن تَشخَص عين معاوية إليه ، وتتجه رغبته إلى الإفادة منه . وكان من الممكن أن يسبق علىّ معاويةَ فى الغلبة على زياد ، لو انه أدناه إليه ، وأطمعه فى المال والسلطان .

ولكن عليًّا — رضى الله عنه — قطع أطماع زيادٍ فيه ، وأراه من نفسه أنه راصدٌ له بالعقاب الشديد ، إن هو أخذ من مال الله شيئاً .. قليلا أو كثيراً .. فكتب إليه مرة يقول[1] : وإنى أقسم بالله قسمًا صادقاً ، لئن بلغنى أنك خنت من فىء المسلمين شيئاً صغيراً ، أو كبيراً ، لأشُدّنّ عليك شَدّةً ، تدعك قليل الوفر ، ثقيل الظهر ، ضئيل الأمر .. والسلام »[2]

ومثل هذا الوعيد ، لايقيم زياداً على جناح أمن ، ولا يجعل مابينه وبين علىّ إلا الخوف المشوب بالجفاء ، المهيأ للمباعدة والفرار !

ومرة أخرى نسأل : هل يلام الإمام علىّ أن ترك زيادًا يفلت من يديه ؟ وهل يُتّهم الإمام بأنه لم يكن رجلَ سياسة ، وصاحب دولة ؟

ويمكن أن يجاب على هذا بلا ، وبنعم !

---

(١) كان زياد خليفة على البصرة لعبد الله بن عباس

(٢) الإمامة والسياسة ٢ / ١٢ .

أمّا ، لا ، فحين ننظر إلى الإمام ، فنراه الرجل الحكيم العالم ، ذى البصيرة النافذة ، والرأى القاطع ، ولكنه يجمل حكمته ، وعلمه ، وبصيرته ، ورأيه ، من وراء دينه .. فلا يعطى إلا ما يأذن به الدين ، ولا يأخذ إلا ما يجيزه ، وإن جار ذلك على مايشير به الرأى وتدعو إليه السياسة ! إنه قد آثر دينه على دنياه !

وأما ، نعم ، فحين ننظر فنرى الإمام يعمل فى ميدان السياسة بأسلوب غير أسلوبها ، ويحارب بأسلحة غير أسلحتها .. ومع هذا فهو ملتحم فى المعركة ، يلقى أعداءه حاسراً ، على حين يلقونه مدججين بالدروع والمغافر والسيوف !

يقول الإمام فى إحدى خطبه : « والله مامعاوية بأدهى منىّ ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن لكل غدرة فَجْرة ، ولكل فَجْرة كفرة ، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة ! »(١)

ويقول الإمام فى إحدى خطبه أيضا :

« لقد أصبحنا فى زمان ، قد اتخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً ، ونَسَبَهم أهلُ الجهل فيه إلى حسن الحيلة !

« مالهم .. قاتلهم الله ؟

«قد يَرَى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلة ، ودونه مانع ، من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأىَ عين ، بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حَرِيجة له فى الدين(٢) ! »

ويقول المبرد فى وصف هذه السياسة ، التى كان ينتهجها الإمام علىّ :

« كان الحزم عند علىّ رضى الله عنه ، أن يخطر أمر الدين ، ثم لا يفكر فى الموت !(٣) »

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ /٢٢٥ .

(٢) نهج البلاغه : ١ / ٤١

(٣) الكامل للمبرد : ١ /١٣١

إن علياً ـ كرم الله وجهه ـ كان يعرف أن سياسة معاوية هى التى تلقى من قلوب الناس ، ومن عقولهم ، رِضًى واطمئناناً ، وأن الزمن قد استدار بالناس ، فاستدار معهم معاوية ، وسلك بهم الطريق الذين سلكوه ، على حين ظل الإمام على الطريق الذى عرفه ، لا يحوله عنه أن يرى أصحابه يتخلفون عنه واحداً واحداً ، ويجد أنصاره يتفلتون فِرَقاً فرقاً ، حتى لا يكاد يكون على الطريق غيره !

يقول فى إحدى خطبه : أيها الناس ، لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلّة أهله ، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة ، شِبَعُها قصير ، وجوعها طويل ![1] »

ولكن صرخات الإمام كانت تضيع وسط زمجرة العواصف ، التى كانت تسُوق الناس سوقاً ، إلى حيث يقضمون ويخضمون !

وفى كتابه ـ كرم الله وجهه ـ إلى سهل بن حنيف الأنصارى ، وهو عامله على المدينة ـ فى هذا الكتاب ما يكشف لنا ماصار إليه الناس يومئذ . .

يقول الإمام .

« أما بعد ، فقد بلغنى أن رجالاً من قِبَلَك ، يتسلّلون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عَدَدهم ، ويذهب عنك من مَدَدهم ، فكفى لهم غَيّا ، ولك منهم شافياً ، فِرارُهم من الهدى والحق ، وإيضاعُهم إلى العمى والجهل ! وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، ومهطِعُون إليها ، وقد عرفوا العدل ، وسمعوه ، ووعَوْه ، وعلموا أن الناس عندنا فى الحق أسوة[2] ، فهربوا إلى الأثَرَة ، فبعداً لهم وسحقاً ! !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ـ٢٣٧

(٢) أى سواء

إنهم والله لم ينفروا من جوْر ، ولم يلحقوا بعدل ، وإنا لنطمع فى هذا الأمر أن يذلّلَ الله لنا صعبه ، ويسهّل لنا حَزْنه ، إن شاء الله ، والسلام[1] »

* * *

اشترى معاوية الرجال بالمال ، والسلطان ، واشترى الرجال بالادعاء والاستلحاق . . وبقى رجال لم يستطع أن ينفذ إليهم بسبب من تلك الأسباب ! ومع هذا ، فلم يزل يدور حولهم . ويكيد لهم ، حتى يقطع ما بينهم وبين علىّ ! ثم لا عليه أن يصل بينهم وبينه !

فهذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، كان على رأس الأنصار المشايعين لعلىّ ، وقد تأبّى قيس على معاوية ، وردّه رداً عنيفاً . حين أراده على أن يترك علياً ، فدسّ عليه كتاباً باسمه إلى معاوية ، يستجيب له فيه ، ويطالب بدم عثمان معه ، ثم عمل على أن يقع هذا الكتاب فى يد الحسن بن علىّ الذى كان قد بويع له بالخلافة بعد أبيه ، وكان قيس بن سعد على رأس الجيش الذى أعده الحسن للقاء معاوية .

وفى هذا الكتاب : « للأمير معاوية بن أبى سفيان . . . من قيس ابن سعد .

سلام عليك . . فإنى أحمد إليكم[2] الله الذى لا إله إلا هو . . أما بعد .

فإن قتل عثمان كان حَدَثاً فى الإسلام عظيما ، وقد نظرت لنفسى ودينى ! فلم أر يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم ، مسلِماً ، محرماً ، برّاً ، تقيا ، فنستغفر الله عزّ وجلّ لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا ! .

---

(١) الإمامة والسياسة : ٢ — ٨٢ .

(٢) هذا الخطاب بميم الجماعة للتعظيم . ولم يكن العرب إلى هذا الوقت يخاطبون المفرد بصيغة الجمع . . وذلك مما يثير الشك فى صحة هذا الكتاب .

« ألاَ وإنى قد ألقيت إليكم بالسَّلَم ، وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان ، إمام الهدى المظلوم ، فعوّل علىّ فيما أحببت من الأموال والرجال ، أعجّله إليك ، إن شاء الله ، والسلام على الأمير ، ورحمة الله ، وبركاته ! »[1] .

قال اليعقوبى : كان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه ، ويوجه إلى عسكر قيس من يتحدث إليه أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه ! .

« وجه معاوية إلى الحسن ، المغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن عامر بن كريز ، وعبد الرحمن بن أم الحكم ، ووافوه وهو بالمدائن ، نازلًا فى مضاربه ، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ، ويُسمعون الناس : « إن الله قد حقن يابن رسول الله الدماء ، وسكّن الفتنة ، فأجاب إلى الصلح ! ! » .

فاضطرب العسكر ، ولم يشك الناس فى حديثهم ، فوثبوا بالحسن ، فانتهبوا مضاربه ، وما فيها »[2] .

وقال الطبرى : بايع الناس الحسن بن على بالخلافة ، ثم خرج بالناس حتى نزل بالمدائن ، فبينما الحسن بالمدائن ، إذ نادى منادٍ فى العسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قتل ، فانفروا ، فنفروا ونهبوا سرادق الحسن ، حتى نازعوه بساطًا كان تحته[3] !! » . .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين معاوية وسعد قبل مقتل الإمام ، ولعل سعداً قد أصلح ما أفسده معاوية ، فعاد إلى جبهة علىّ ، ليحارب مع ابنه الحسن ! .

إنها سياسة واحدة لا تختلف ، تلك التى حارب بها معاوية عليًا ، كما حارب بها كل من تصدّى له ، ووقف فى وجه من وجوه غاياته ومطالبه ! .

---

(١) الطبرى : ٥/٢٢٩ .

(٢) اليعقوبى : ٢ : ١٥٦ .

(٣) الطبرى : ٦ : ١٩٢ : انظر أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٢٥٣ .

وأمر آخر ، كان له أثره القوى البارز ، فى رجحان كِفة معاوية فى ميدان القتال على علىّ ، والتمكن له من أسباب الظفر .

كان علىّ يحارب ، وهو يرى أنه مكره على الحرب ، وأن الذين يحاربهم ليسوا أعداء له ، وإنما هم أعضاء فى الجسد الإسلامى ، أصابتهم علل وآفات ، لا يستقيم للمجتمع أمر ، ولا يصلح له شأن ، إلا إذا عولجت تلك العلل وهذه الآفات ! وقد يكون العلاج بقطع العضو ، وإن كان عزيزاً على النفس بتره ، والاستغناء عنه ! .

إن عليًّا فى حربه التى كانت بينه وبين المسلمين فى الجمل ، وصفّين ، والنهروان ، وغيرها ، كان يحارب بنفس متحرجّة من إراقة دم المسلمين . . متحريةً ـ قدر الاستطاعة ـ الحدود التى ينبغى أن يوقف عندها ، لإصلاح الحال ، واستقرار الأمر !

فحقيقة هذه الحروب التى واجه بها الإمام الخارجين عليه ، لم تكن إلا حملاتٍ تأديبية ، يُراد بها إعادة الأمن والنظام فى المجتمع ، فإذا أمكن أن يكون ذلك فى أضيق الحدود ، وبأقل الخسائر فى الأرواح والأموال ، فذلك هو المطلوب المحمود ، وإنّ فى تجاوزه ظلما مبينا ، وعدواناً آثماً ! .

إن الذين حاربوا علياً ، لم يكونوا خارجين على الإسلام ، وإنما هم مسلمون ، خرجوا على سلطان الخليفة وعصوْا أمره . . وهذا لا يجعل للخليفة سبيلاً إلى استباحة دمائهم استباحة مطلقة ، بلا حدود ولا قيود ! وإنما هو سلم لهم إن سالموا ، وحرب عليهم إن حاربوا ، فإذا فاءوا إلى الطاعة والتسليم ـ بالسلم أو الحرب ـ فلا عدوان عليهم أو على أموالهم بعد هذا ! .

فى بعض مواقف الإمام قام إليه من يقول له : « أخبِرْنا عن الفتنة ، وهل سألتَ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فقال الإمام ـ كرم الله وجهه ـ : « لما أنزل الله سبحانه قوله : «الٓمٓ .

أحسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون » علمتُ أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ! فقلت يا رسول الله : ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : « يا علي . . إن أمتي سيُفتنون من بعدى » .

فقلت : يا رسول الله . . أوَ لَيْس قلتَ لى يوم أحد حيث استُشهد من استُشهد من المسلمين وحِيزت[1] عنى الشهادة ، فشقّ ذلك علىّ ، فقلت لى : «أبشرْ ، فإن الشهادة من ورائك ! »فقال لى : « إن ذلك لكذلك ، فكيف صبرك إذن ؟ »

فقلت : يا رسول الله . . هذا من مواطن البشرى والشكر .

فقال : « يا عليّ . . إن القوم سيُفتنون بعدى بأموالهم ، ويَمُنّون بدينهم على ربهم ، ويتمنّوْن سطوته ، ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة ، والأهواء الساهية ، فيستحلّون الخمر بالنبيذ ، والسُّحت بالهديّة ، والرِّبا بالبيع ! » .

فقلت : يا رسول الله . . بأى المنازل أُنزلهم عند ذلك ؟ أبمنزلة رِدّة ، أم بمنزلة فتنة ؟ فقال : « بمنزلة فتنة »[2] .

فالإمام يعلم أنه إنما يقاتل المسلمين ، فى فتنة ، غشّت على الأبصار ، وأضلّت العقول ! إنه يحارب — كما قلنا — بنفس متكرهة ، ويد متخاذلة ، يتحرّى مواقع سيفه ، ويقيم على يده حارساً يمسك بها أن تصيب بريئاً ! .

---

(١) اى أخرت عنى الشهادة يومئذ ؛ فلم أنلها !

(٢) نهج البلاغة ١٤٨/١ .

ولو كان الإمام ـ كرم الله وجهه ـ يحارب عدوًّا لا يعنيه من أمره إلا أن يهزمه ، ويُملى حكمه عليه ، لكان النصر أقرب شىء إلى يده ! ولما كان له أن يدع عمرو بن العاص يفلت من سيفه . وقد أمكنته الفرصة فيه يوم صفين، حين أغراه معاوية بمبارزة علىّ ، فلم يلبث حتى صرعه الإمام ، وضرب به الأرض ، فلما رأى السيف يهوى إليه ، اتقاه بسوأته ، فعفّ الإمام عنه ! ولو كان الإمام يحارب وليس همه إلا كسب الحرب ، لما ترك سيفه يأخذ طريقاً آخر غير رأس عمرو ! .

وكذلك فعل الإمام مع بُسْر بن أرطاة ، وكان من شيعة معاوية،ومن أشد أنصاره على علىّ وشيعته .

وكما فعل معاوية مع عمرو ، فعل مع بسر ، فأغراه بمنازلة علىّ ، فنازله ، ثم لم يلبث أن صُرع كما صرع عمرو ، فكشف عن سوأته لينجو كما نجا عمرو ، وفى هذا يقول الحارث بن النضر السّهمى :

أفى كل يوم فارسٌ تندبونه له عورة وسط العَجَاجة باديهْ
يكفّ لهـا عنه علىٌّ سنَانَه ويضحك منها فى الخلاء معاويهْ
بدت أمسِ من عمرو فقنّع رأسه وعورة بسر مثلها حَذْوَ حاذِيهْ

ولم تكن يد علىّ وحدها هى التى تقفُ عن قتل المسلم المفتون حين يستسلم ، بل كانت تلك دعوته فى أصحابه ، ووصاياه للقادة والجند فى جيشه .

يقول علىّ — كرم الله وجهه — فى وصاته لجارية بن قدامة السعدى ، وقد بعثه لملاقاة بسر بن أرطاة قائد معاوية ، بعد أن أغار على همْدان ، وقتل صبيانهم ، وسبى نساءهم . .

يقول علىّ فى وصاته تلك : « ولا تقاتل إلا من قاتلك ، ولا تجهز على

جريح ، ولا تسخِّرنَّ دابة ، وإن مشيت ومشى أصحابك ! ! ولا تستأثر على أهل المياه بمياههم ، ولا تشربنَّ إلا فضلهم[1] عن طيب نفوسهم ، ولا تشتمنَّ مسلماً ولا مسلمة . . . ولا تظلمن معاهداً ولا معاهدة . . . واسفك الدم فى الحق ، واحقنه فى الحق[2] » .

وفى كتابٍ كتبه إلى الأشتر حين ولاه مصر : « إياك وسفكَ الدِّماء بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعَى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرَى بزوال نعمة ، وانقطاع مدّة — من سفك الدماء بغير حلِّها . . فلا تقوينَّ سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله[3] » .

وقبل التحام القتال بصفين ، خطب عليّ فى أصحابه ، فكان مما قال لهم :

« لاتقاتلوهم حتى يبدوءكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركـكم إياهم حتى يبدوءكم حجة أخرى ، لكم عليهم ! »

« فإذا كانت الهزيمة بإذن الله ، فلا تقتلوا مدبرًا ، ولا تصيبوا مُعْوِرًا[4] ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم .. »[5]

هى كما قلنا ليست حربًا بالنسبة لعليّ وأصحابه ، وإنما هى حملة تأديب ، يراد بها رَدْع الباغين ، وردّ الشاردين !

---

(١) أى ما يفضل منهم ويزيد عن حاجتهم .

(٢) أسد الغابة : ١٨٠/١ .

(٣) نهج البلاغة : ٦٦/٢ .

(٤) المعور : كمجرم من أمكن من نفسه ، وعجز عن حمايتها ، كما كان من أمر عمرو ، وبسر بن أرطأة ، وقد تركهما الإمام حين سقطا .

(٥) نهج البلاغة ٢ : ٩ .

أما سياسة معاوية فى حرب علىّ فكانت هى الحرب ، بكل ويلاتها وشناعاتها ، حرب عدوٍّ لا يبقى على عدوّه ، ولا يرقب فيه إلاًّ ولا ذمة .. حرب همّ أصحابها النّصر ، بكل سلاح ، والغلب بكل وسيلة !

إنها الحرب ، فى أبشع صورها ، وأشنع وجوهها !

فبعد وقائع صفين ، وفى فترة الهدنة التى كانت بين علىّ ومعاوية ، انتظاراً لما يسفر عنه رأى الحكمين . . فى هذه الفترة التزم علىّ وأصحابه ، بما تقضى به الهدنة ، فلم يَكِدِ لمعاوية كيدًا ، ولم يبعث إليه بعثاً ، يُغير على أطرافه ، ويخيف أتباعه !

ولكن « معاوية » لم يدع فرصة تمرّ به ، دون أن ينتهزها للكيد لعلىّ ، وللانتقاص من أطراف ماتحت يده ، ولإخافة الجهات الموالية له ، وإلقاء الفزع فى قلوب أهلها !

وجّه النعمانَ بن بشير فى سنة تسع وثلاثين إلى عين التمر[1] ، فى ألف رجل فأغاروا عليها ، وكان بها مَسْلحة لعلىّ فيها مائة رجل ، فكسروا جفون سيوفهم ، واقتتلوا أشد قتال ، وجاءهم خمسون من القرى المجاورة ، فلما رآهم أهل الشام ظنوا أن لهم مدداً ، فانهزموا عند المساء »[2]

وبعث سفيانَ بن عوف الغامدى إلى هيت[3] ، وأمره أن يغير عليها ، وأن يقطعها ، ثم يمضى حتى يأتى انبار ، والمدائن ، فيوقع بأهلها .. وكان مما أوصاه به : اقتل من لقيته ممن ليس هو على رأيك ، وأخرِب كل ما مررت به من

(١) بلدة قرب الأنبار .

(٢) الطبرى ٦ : ٧٧ .

(٣) هيت : بلدة على الفرات ، من نواحى بغداد ؛ فوق الأنبار .

القرى ، وأحرز الأموال ، فإن حرز الأموال شبيه بالقتل؛ وهو أوجع للقلب ! »

فأتى الأنبار ، وبها مسلحة لعليّ فيها مائة رجل ، فقتلوا منهم ثلاثين ، واحتملوا ما كان فى الأنبار من أموال ، ورجعوا إلى معاوية . »(1)

وقد كان هذا الحدث موجعاً للإمام عليّ ، فخطب فى أصحابه خطبة قال فيها « هذا أخو غامد ، قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسّان البكرى وأزال خيلكم عن مسالحها ، وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزع حِجلها ، وقلائدها ، ورعاتها .. فياعجَبًا !. عجباً والله يميت القلب ، ويجلب الهمّ ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم !! »(2)

ووجه الضحاكَ بن قيس ومعه ثلاثة آلاف رجل ، وأمره أن يمرّ بأسفل واقصة ، وأن يغير على من يمر به ، ممن هو فى طاعة علىّ من الأعراب، فمر على الثعلبية ، وأخذ أمتعتهم ، وقتل من لقى من الأعراب ، ثم لقى عمرو بن عميس ابن مسعود ، وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتله فى طريق الحاج ، وقتل معه ناسًا من أصحابه .. »(3)

وبعث بُسرَ بن أرطأة ، فى جيش ، وأمره أن يسير نحو المدينة .

قال صاحب الأغانى : « فمر بسر لذلك على وجهه ، حتى انتهى إلى المدينة ، فقتل بها ناساً من أصحاب على ، وأهل هواه ، وهدم بها دوراً ، ومضى إلى مكة فقتل نفراً من آل أبى لهب ، ثم أتى السراة ، فقتل بها من أصابه ، وأتى نجران فقتل عبدالله بن المدان الحارثى ، وابنه ، وكانا من أصهار بنى العباس ، ثم أتى

---

(1) الطبرى ٦ : ٧٨ .

(2) نهج البلاغة : ٢ : ٣٢

(3) شرح نهج البلاغة : ٢ : ١١١ .

اليمن ، وعليها عبيد الله بن عباس ، عامل عليّ ، وكان غائبا ، وقيل بل هرب لمّا بلغه خبر بسر ، فلم يصادفه بسر ، ووجد ابنين له صبيين ، فأخذهما بسر — لعنه الله — وذبحهما بيده ، بمدية كانت معه ، ثم انكفأ راجعاً إلى معاوية !

قالوا : فقالت امرأة له .. ياهذا ، قتلت الرجال ، فعلام تقتل هذين ؟ والله ما كانوا يقتلون فى الجاهلية والإسلام ! والله يا ابن أرطأة .. إن سلطاناً لايقوم إلا بقتل الصبي الصغير ، والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة ، وعقوق الأرحام — لسلطانُ سُوء ! »[١]

وهكذا استشرى شر الحرب بين المسلمين ، فأبيحت الدماء ، والأموال ، وانتهكت الحرمات ، بلا تحرج أو تأثم .. حتى لقد نسى القوم أنهم أخوة مسلمون ، ونسوا قول الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله » !

وأعجب مافى الأمر أن نجد من الصحابة من أسرف على نفسه إسرافاً شديداً ، فسفك الدماء ، واستباح الحرمات .. بلا حساب .

روى أبو جعفر الإسكافى أن معاوية بذل لسمرة بن جندب[٢] ، مائة ألف درهم ، حتى يحدّث بأن هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويُشْهد اللهَ على مافى قلبه ، وهو ألدُّ الخصام. وإذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد . » فلم يرضَ فبذل له مئتى ألف فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف فقبل ! »[٣] .

---

(١) الاغانى ١٥ : ٤٥ .

(٢) سمرة بن جندب : صحابى معروف من رواة الحديث .

(٣) نهج البلاغة : ١ : ٣٥٨ .

وقد وَلِيَ سمرة بن جندب إمارة البصرة ، فقتل الكثير من أهلها ، ممن لم يُحدث حَدَثاً ، أو يعلن حرباً ..

سئل ابن سيرين : هل كان سمرة قَتَل أحداً ؟ فقال : وهل يُحصى من قَتَلَ سَمرةُ بن جندب ؟ استخلفه زياد على البصرة ، وأتى الكوفة فجاء[1] ، وقد قتل ثمانية آلاف من الناس . . وروى أنه قتل في غداة واحدة سبعة وأربعين ، كلهم ممن قد جمع القرآن ! »[2] .

والعجب أيضاً أن يكون القتل تشفيًا ، وألا تكون الموتى حرمة ، بعد أن استُبيحت حرمة الأحياء ! .

وحسبنا أن نذكر هنا ما كان من مقتل الحسين بن عليّ في كربلاء ، وحمل رأسه إلى يزيد بن معاوية ، ووضعها بين يديه ، يعبث بها بقضيب كان في يده ! .

ومدينة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وقد استباحها يزيد ، واستباح أهلها ، وقتل ما بقي من صحابة رسول الله فيها ! .

بعث يزيد بجيش كثيف إلى المدينة ، على رأسه مسلم بن عقبة . . فلما علم أهل المدينة بأمر هذا الجيش ، خندقوا خندقاً حول المدينة ، وجعلوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة وبايعوه على الموت . .

ودخل جيش الشام على أهل المدينة ، فعاث فيها قتلا وتنكيلًا .

وجيء بالأسرى فقيِّدوا بالحديد . . فقال مسلم : أتبايعون لعبد الله ، يزيد

---

(١) أي أن زياداً ذهب إلى الكوفة بعد أن استخلف سمرة على البصرة ، فلما عاد زياد إلى البصرة وجده قد قتل هذا العدد الكثير من المسلمين

(٢) الطبري : ٦ : ١٣٢ .

ابن معاوية ، أمير المؤمنين ، ولمن استُخلف عليكم بعده ، على أن أموالكم ودماءكم وأنفسكم خَوَلٌ له ؟ يقضي فيها ما شاء ؟ فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة : إنما نحن نفر من المسلمين ، لنا ما لهم ، وعلينا ما عليهم ! فقال مسلم : والله لا أُقيلك ، ولا تشرب البارد بعد هذا أبدًا . . فأمر به فضرب عنقه ! .

« ثم أتى بمعقل بن سنان ، وكان معقل حامل لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله . . فلما دخل عليه ، قال له : أعطشت يا معقل ؟ قال : نعم . . أصلح الله الأمير ! قال : حَيِّسوا له شَرْبةً من سَوِيق اللوز ، الذي زودنا به أمير المؤمنين ! فلما شربها ، قال له : رَوِيت ؟ قال : نعم ، فقال مسلم : والله لا تبولها من مثانتك أبداً . . فقدم فضرب عنقه ! ! .

قالوا : وقُتل من أصحاب النبي ثمانون رجلًا ، ولم يبق بدريّ بعد ذلك ! وقُتل من قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس ، والموالى ، والعرب والتابعين عشرة آلاف(١) ! » .

نسوق هذه الأمثلة ، لنرى منها آثار تلك السياسة التي حارب بها معاوية عليًا ، والتي لم يفرق فيها بين حرب المسلم للمسلم ، وحرب المسلم لأهل الحرب من الكافرين ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ! .

لقد باعدت هذه السياسة بين جماعة المسلمين ، ونزعت من قلوبهم الأخوة ، والرحمة ، والمودة ، بل وأخرجت كثيراً منهم في دينه ، وأخرجت كثيراً منهم من دينه ! .

فإذا التقى جيش عليّ ، وجيش معاوية ، وكل من الجيشين على المنهج الذي رسمه له صاحبه ، وقائده ـ كان لابد أن ترجح كفة معاوية ، ويكتب

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٢٢٨ .

الغَلب لجيشه ، الذى يستخدم كل قواه ، ويفرغ كل جهده فى القتل والنهب ، والأسر . . على حين يمسك علىّ بأيدى أصحابه ، فيردّها عن القتل إلا حيث ينبغى القتل . . ثم لا يسمح ليد أن تمتد إلى مال من مال الجيش المحارب ، ولا لعين أن تطمح إلى امرأة من نساء المحاربين ! .

ولا شك أن كثير من دوافع القتال ـ وأهمها المغانم ـ قد افتقدها المحاربون فى جيش علىّ ، وكثير من المحاربين لا يُعطون جهدهم فى الحرب إلا طمعاً فى تلك المغانم ، فإذا لم يكن ثمة مغنم ، فهيهات أن يكثر المحاربون فى جهة لا مغنم فيها ، وإن كثُروا فهيهات أن يكون بلاء وإقدام ، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة ! .

ولقد استشعر الإمام علىّ من أصحابه هـذا التثاقل عن الحرب ، حين حَرّم عليهم فيها أن يغنموا إلا ما تحويه عُدّة الحرب ، وألا يأسروا أحداً ، أو ينهبوا نهباً . . فقال ـ كرم الله وجهه ـ فى إحدى خطبه فيهم : « الذليل والله من نصرتموه ، ومن رَمَى بكم فقد رمى بأفوق ناصلٍ[1] وإنكم والله لكثير فى الباحات[2] ، قليل تحت الرايات ، وإنى لعالم بما يصلحكم ويقيم أوَدَكم[3] ، ولكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى[4] » .

فإصلاحهم هو فى إطلاق أيديهم ، فيمن يحاربونهم ، يضعون فيهم

(١) الأفوق : ما كسر فوقه . أى موضع الوتر منه . والناصل : العارى من النصل .

(٢) الباحات : جمع باحة ، وهى الساحة .

(٣) الأود ، العوج .

(٤) نهج البلاغة : ١ / ٥٣ .

سيوفهم حيث شاءوا ، لا يبقون على جريح ، ولا يمسكون عن مُوَلٍّ ، ولا يتركون مغنما قدروا عليه ، من مال ، ونساء ، وأطفال ! . . فهكذا يحاربهم عدوّهم ، وهكذا ينبغى أن يحاربوهم ، عدوّهم ، وإلا فهى المهلكة لهم ، بأيدى من يحاربونهم بسيوف لا ترحم ، ولا تعفّ ! ولكن الإمام يحارب ، ولا يحارب ! يحارب قوماً مفتونين ، ولم تكن فتنتهم تلك ، لتخرجهم عن الإسلام ، أو تبيح له دماءهم وأموالهم وأعراضهم ! وإن استباحوا هم الدماء والأموال والأعراض . . فليس مَنْ عَرف الحق فقاتل عليه ، كمن ركب الباطل فقاتل فى سبيله ! .

ولهذا نهى الإمام علىّ – كرم الله وجهه – عن قتل الخوارج ، فقال فى بعض خطبه : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » فهم فى فتنة التبس عليهم وجه الحق الذى طلبوه . . ولم يكن قتل الإمام لهم يومَ النهروان إلا لأنهم ألقوا بأنفسهم إليه ، وهجموا بثقلهم على أصحابه ، فكان قتلهم دفاعاً عن النفس، ولو لم يَقتلوا ما قُتِلوا ! .

وبعد ، فهل بنا من حاجة إلى الوقوف على معركة « صفين » ، وإلى التعرف ما دار فيها ، وإلى النهاية التى انتهت إليها ؟ .

والحق أن صفين لم تكن هى الحرب بين علىّ ومعاوية ، وإنما كانت الحرب العاملة ، هى تلك الأحداث التى كانت تدور خارج هذا الميدان ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ورأينا كيف كان معاوية يدبرها ، فيصيب بها من جيش علىّ المَقاتل ، من قبل أن يلتحم القتال ! .

لقد ضمّ معاوية إليه دهاة العرب : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة ، كما أفسد على علىّ كثيراً من رجاله ، وأصحاب النجدة والبأس من عماله ، وقد اشترى معاوية الرجال بالمال ، والسلطان ، وبالحيلة

والدهاء .. على حين باع علىّ كثيراً من رجاله بالدراهم المعدودة ، من مال الله ، يحاسبهم عليها ، ويأخذ على أيديهم دونها ! .

وإذن ، فقد ضمن معاوية كسب الحرب مقدما ، قبل أن يلتقى الجيشان فى ميدان القتال .!

وننظر ما جرى فى المعركة ، فلا نرى الكلمة الفاصلة فيها للسيف ، وإنما هى للرأى والحيلة ، والدسّ والوقيعة . . فتلك هى الأسلحة التى أنهت الحرب وَهزمت الجند!

سار معاوية إلى صفين فى ثلاثة وثمانين ألف رجل . . كلهم مِلك يده ، وطوع يمينه ! وقد جعل على المقدمة أبا الأعور السُّلَمى ، وعلى الساقة بُسْر ابن أرطأة ، وعلى الخيل عُبيد الله بن عُمر ، وعلى الميمنة يزيد العبسى ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد . .

ثم خطب فى القوم فقال :

« ياأهل الشام . . إنكم قد سرتم ، لتمنعوا الشام ، وتأخذوا العراق ، ولَعَمْرى ماللشام رجالُ العراق وأموالُها ، ولا لأهل العراق ، بَصَرُ أهل الشام ولا صبرهم ، مع أن القوم ، بَعْدَهم غيرُهم ، وليس بَعْدَكم غيرَكم . . فإن غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من أتاكم ، وإن غلبوكم عاقبوا مَن بعدكم . . . »

وحين بلغ علياً أن معاوية تأهب للسير إلى صفين ، ندب الناس للقاء القوم ، ثم خطبهم فقال :

« أيها الناس . . إنما بايع معاويةَ أهلُ الشام ، وليس له غيرهم ولىٌّ

ولا نصير ، وإنكم أهل الحجاز ، وأهل العراق ، وأهل اليمن ، وأهل مصر !
وقد جعل القومُ معاوية بينهم وبين الله ، وليس له دعوة فى الدنيا ولا فى
الآخرة ، وقد وادع القومُ الروم ، فإن غلبتموهم استعانوا بهم ، وإن غلبوكم
فالغاية الموت ، والمفرّ إلى الله العزيز الحكيم .

« وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ، ولعمرى لأنتم أولى
بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار ، والتابعون بإحسان . وإنما الصبر
اليوم ، والنصر غداً ! ! »

فاجتمع لعلىّ مائة وتسعون ألفا ! كلٌّ يحمل رأيه معه ، لا يشده إلى
علىّ إلا خيط من الدين ، إن شاء وصله ، وإن شاء قطعه . . لا سلطان لعلىّ
على أحد إلا فى ظلّ هذا الوازع .

وجعل على المقدمة الأشتر النخعى ، وعلى الساقة شريح بن هانىء ، وعلى
المهاجرين والأنصار محمد بن أبى بكر ، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس ،
وعلى أهل الكوفة عبد الله بن جعفر ، وعلى الخيل عمار بن ياسر ، وعلى
القلب الحسن بن علىّ !

صفّين .

وقد سار الجيشان حتى التقيا بصفين ، ونزلا حولها . .

وكان جيش معاوية قد سبق ، فأخذ على جيش علىّ الطريق إلى الفرات ،
وأقام جنداً يمنعون أصحاب علىّ من وروده !

فلما علم علىّ بذلك ، قال للأشعث ، اذهب إلى معاوية ، فقل له : إن
الذى جئنا له غير الماء ! ولو سبقناك إليه ، لم نَحُلْ بينك وبينه ، فإن شئت
خلّيت عن الماء ، وإن شئت تناجَزْنا عليه ، وتركنا ما جئنا له !

فانطلق الأشعث إلى معاوية ، فقال له : إنك تمنعنا المـاء ، وأيم الله لنشربنّه ، فمرهم يكفّوا عنه ، قبل أن نغلب عليه !

وشاور معاوية أصحابه ، فـكان الرأى أن يمنعهم الماء .

فرجع الأشعث إلى علىّ ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا الماء وأنت فينا والسيوف فى أيدينا ؟ خلّ عنا وعن القوم ، والله لا أرجع إليك حتى أرِدَه أو أموت دونه !

وانتهى الأمر بأن اقتحم الأشعث وجماعة معه مورد الماء ، وأزاحوا جند معاوية عنه ، فأصبحوا وقد ملـكوا عليهم الماء ! ولـكنهم لم يروْا أن يحولوا بينهم وبين وِرْده !

قال ابن قتيبة :

« إن الناس مكثوا بصفين أربعين ليلة ، يغدون إلى القتال ويروحون . . فأما القتال الذى كان فيه الفناء ، فثلاثة أيام !

قالوا : فلما رأى علىّ كثرة القتـال والقتلى فى الناس ، دعا معاوية ، فقال له :

« علام يقتتل الناس ، ويُقتلون ؟ على مُلك إن نلته كان لك دونهم ، وإن نلته أنا كان لى دونهم ؟ ابرز إلىّ ودع الناس ، فيـكون الأمر لمن غلب ! .

فقال عمرو بن العاص : أنصفك الرجل يا معاوية ! .

فضحك معاوية ، وقال : طمعت فيها يا عمرو ! وهل بارز علىّ أحداً إلا قتله ! ؟

فقال عمرو لمعاوية : أتجبن عن علىّ ، وتتهمنى فى نصيحتى ؟ والله لأبارزن عليًّا ، ولو مت ألف موتة ! !

فبارزه عمرو ، فطعنه علىّ ، فصرعه ، فاتقاه بعورته ، فانصرف عنه علىّ ، وولى بوجهه دونه !.

السيف . . والحيلة والخديعة :

أحسّ معاوية بوطأة علىّ فى الحرب ، فأخذ يلتمس الوسائل لكسر شوكته ، وتخذيل أتباعه عنه !.

فأوصى إلى عمرو بن العاص أن يكتب إلى عبد الله بن عباس ، وقال له : إن رأس أهل العراق مع علىّ ، عبد الله بن عباس ، فلو ألقيتَ إليه كتاباً تَرْفقُ فيه ، فإنه إن قال شيئاً لم يخرج عنه علىّ ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا أرانا نطيق العراق إلا بهلاك الشام !.

فكتب عمرو إلى ابن عبّاس :

« أما بعد ، فإن الذى نحن وأنتم فيه ، ليس أولَ أمرٍ قاده البلاء ، وساقته العافية ، وإنك رأس الجمع بعد علىّ ، فانظر فيما بقى بعد مامضى . . . فوالله ماأبقت الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبراً ، واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدَادِنا منكم ؟ وما خيركم بعد أعدادكم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن ! وإن فينا لَمن يكره البقاء ، كما فيكم .

« وإنما هى ثلاث : أمير مطاع ، أو مأمور مطيع ، أو مشاوَر مأمون . . أما العاصى السفيه ، فليس بأهل أن يُدْعى فى ثقات أهل الشورى ، ولا خوَاص أهل النجوى ! ! .

فكتب إليه ابن عباس يقول :

« أما بعد . . فإنى لا أعلم رجلاً أقلّ حياء منك ، فى العرب ! .

« إنك مال بك الهوى ، إلى معاوية ، وبعته دينَك بالثمن الأوكس ، ثم خبطتَ الناس فى عشواء ، طمعاً فى هذا الملك ! .

« فلما تراميذا ، أعظمتَ الحرب والرِّماء ، إعظامَ أهل الدين ، وأظهرتَ فيها كراهية أهل الورع ! لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب ، وكسرَ أهل الدين ! .

« فإن كنتَ تريد الله ، فدعْ مصر ، وارجع إلى بيتك ! .

« فإنّ هذه حرب ، ليس فيها معاوية كعليّ . بدأها عليّ بالحق ، وانتهى فيها إلى المعذرة ، وبدأها معاوية بالبغى ، وانتهى فيها إلى السَّرف ! .

« وليس أهل الشام فيها كأهل العراق . . بايع أهل العراق عليا ، وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية ، وهم خير منه ! ولستُ أنا وأنت فيها سواء . . أردتُ الله ، وأنت أردتَ مصر ، وقد عرفتُ الشيء الذى باعدك منى ، ولا أعرف الشيء الذى قرّبك من معاوية ! .

« فإن تُردْ شرّا لا نفتْنا به ، وإن ترد خيرا لا تسبقنا إليه ! [1] »

إن ابن عباس ، هو أقرب الناس إلى عليّ ، وصاحب الكلمة المسموعة عنده . .

ولهذا ، فقد حرص معاوية على أن ينال منه شيئا ، وأن يدخل على ما بينه وبين عليّ من حب صادق ، ومودة خالصة ، فيثير فى سمائها الغيوم والضباب ! .

فهو قد أغرى عمراً بأن يكتب إليه ، ويريه أنه رجل معاوية ، وصاحب

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١١٦ .

الكلمة عنده ، وشريكه فى الأمر ، ولا أدلّ على ذلك من أنه أخذ مصر طُعمة ! .

فماذا أخذ ابن عباس من علىّ ؟ .

وهل يطمع ابن عباس أن ينال من علىّ بعض ما نال عمرو معاوية ؟ .

وهل ابن عباس دون عمرو ؟ .

هذه واحدة ! .

وأخرى !

هذه الرسائل والرسل الغادية الرائحة من جبهة معاوية إلى ابن عباس ومن ابن عباس إلى جبهة معاوية .. ماذا يقول أصحاب علىّ فيها ، وفى محاميلها ؟ ألا يفتح ذلك لكثير منهم باباً إلى التطلع لمنزلة كمنزلة ابن عباس ؟ وألا يُحدِث ذلك فى نفوسهم استعداداً لاستقبال رسل معاوية وكتبه ؟

إن رءوساً كثيرة دارت فيها الخطط لتكون رأساً فى هذا الأمر ، وليكون لها كلمة فى الحرب أو فى السِّلم !

قدّر معاوية هذا ، حين أشار على عمرو ، أو أشار عليه عمرو بالكتابة إلى ابن عباس !

ثم كتب معاوية إلى ابن عباس ، مرة ، يقول له :

« أما بعد . . فإنكم — معشر بنى هاشم — لستم أسرعَ منكم فى شىء أسرعَ بالمساءة إلى أنصار عثمان !

« فإن يك ذلك لسلطان بنى أمية ، فقد ورثتها[1] عدىّ وتيم !

---

(١) أى الخلافة ، وعدى ، رهط عمر ، وتيم رهط أبى بكر .

« وقد وقع من الأمر ، ماقد ترى! وأدالت[1] هذه الحرب بعضنا من بعض ، حتى استوينا فيها .. فما أطمعكم فينا أطمَعَنا فيكم ، وما أيأسكم منا أيأسنا منكم ، وقد رجَوْنا غير الذى كان ، وخشينا دون ماوقع ، ولستم ملاقينا اليوم بأحدّ من حدّكم أمس. وقد منعنا — بما كان منا — الشامَ ،وقد منعتم بما كان منكم العراق ، فاتقوا الله فى قريش ، فما بقى من رجالها إلا ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز . . فأما اللذان بالحجاز فسعد وعبد الله بن عمر ، وأما اللذان بالشام ، فأنا وعمرو ، وأما اللذان بالعراق ، فعلىّ وأنت . . ومن الستة رجلان ناصبان[2] لك ، وآخران واقفان عليك ، وأنت رأس هذا الجمع غداً ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان ، كنا أسرعَ إليك منَّا إلى علىّ ! »

وأنت ترى كيف يفتل معاوية لابن عباس ، وكيف يغريه بعلىّ ، ويريه أنه أولى منه بالبيعة ، وأن الناس إليه أميل ، وفيه أرغب !

ولكن ابن عبّاس يلقى دهاء معاوية بدهاء ، ويرمى مكره بمكر ، لايغيب عنه ماتنطوى عليه نفس معاوية من طمع فى الخلافة ، وأنه لايسلّم بها لأحدٍ إلا مغلوباً مقهوراً !

تلقّى ابن عباس كتاب معاوية ، فلما قرأه .. ضحك ، ثم قال كلمته المشهورة « إلى متى يخطبُ إلىّ معاوية عقلى ؟ وحتى متى أجمجم له عما فى نفسى[3] !

ثم كتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك . .

---

(١) أى أخذت من الفريقين .

(٢) ناصبان لك : أى محاربان ، وهما معاوية وعمرو ، وواقفان : أى متوقفان ، وهما سعد وابن عمر .

(٣) يريد أنه كان لا يكشف لمعاوية عن كل مافى نفسه ، حتى لقد أغرى ذلك معاوية به . وأطمعه فيه .

فلعمرى لقد أدركتَ فى عثمان حاجتك . . لقد استنصرك فلم تنصره ، حتى صرت إلى ماصرت إليه . وبينى وبينك فى ذلك ابن عمك ، وأخو عثمان . . الوليد بن عقبة !

«وأما قولك إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة .. فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ! .

« وأما إغراؤك إياى بعدىّ وتيم ، فأبو بكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان .. كما أن علياً خير منك .

« وأما قولك إنا لن نلقاك إلا بما لقيناك به ، فقد بقى لك منا يوم يُنسيك ماقبله ، وتخاف له مابعده .

« وأما قولك إنه لو بايعنى الناس استقمتَ ، فقد بايعوا علياً ، وهو خير منى ، فلم تستقم له . .

« وإن الخلافة لاتصلح إلا لمن كان فى الشورى . . فما أنت والخلافة ؟ وأنت طليق الإسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر ؟ »[(١)]

وإذا كان ابن عباس قد جَبَه معاوية بهذا الردّ العنيف المفحم ، فإن هذه الأحاديث التى أدارها معاوية وعمرو معه ، قد أرته من نفسه شيئاً لم يكن يراه فى زحمة الأحداث ، التى أعطاها كل وقته وجهده . . إذ لاشك أن ابن عباس قد التفت إلى نفسه من خلال تلك الرسائل التى شغله بها معاوية وعمرو ، وأنه هيأ نفسه لموقف جديد ، عندما تنجلى الأحداث عن انتصار علىّ أو انتصار معاوية .

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ٨٨ .

وقد رأينا ابن عباس يعتزل عليًّا ، ويترك إمرة البصرة ، بعد أن يضع يده على قَدْر كبير من بيت المال !

كان ذلك ، بعد أن عُقدت المدنة ، ورضى الطرفان المتقاتلان بالتحكيم ! فمنذئذ رأى ابن عباس أن أمر علىّ صائر إلى الخذلان ، وأنه مغلوب على أمره فنجا بنفسه ، وبما حمل من مال ، يضمن له حياة مستقرة رافهة ! !

فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن تلك الأحاديث التى أدارها معاوية وعمرو مع ابن عباس قد كانت تمهيداً طبيعياً لما انعقد عليه رأى ابن عباس ، حين ترك عليًّا ، فى أشد الأوقات ضيقاً وحرجاً !

لقد كان علىّ — كرم الله وجهه — على نيةٍ أن يقاتل معاوية بعد أن انتهى رأى الحكَمَين إلى تلك المأساة ، التى لعب فيها الدهاء والمكر دوراً أوقع الناس فى فتنة وبلاء ! — كان الإمام عَلَى نية القتال ، ولكن خذلان أصحابه له — وخاصة ابن عباس ، كان داعية من دواعى انكسار نفسه ، وضيق صدره ، فظل متردداً بين الإقدام والإحجام ، حتى أصابته تلك الطعنة الغادرة القاتلة من يد ابن ملجم ، لعنه الله !

الخديعة بالمصحف :

دارت الحرب ، واشتد القتال ، وظهر الوهن فى جبهة معاوية ، فسأل عمراً الرأىَ والحيلة فيما هم فيه .

قال لعمرو : ألم تزعم أنك ماوقعت فى أمر قط إلا خرجتَ منه ؟

قال : بلى !

قال : أفلا تخرج مما ترى ؟

قال : والله لأدعونّهم — إن شئت — إلى أمر أفرّق به جمعهم ، ويزداد

به جمعك إليك اجتماعاً .. إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكه اختلفوا !

قال معاوية : وما ذلك ؟

قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم تدعوهم إلى ما فيها . . فوالله لئن قبله لتفترقنّ عنه جماعته ، ولئن ردّه ليكفرنّه أصحابه !

فدعا معاوية بالمصحف ، ثم دعا رجلاً من أصحابه ، يقال له ابن هند ، فنشر المصحف ، بين الصفّين ، ثم نادى :

« اللهَ اللهَ فى دمائنا ودمائكم .. بيننا وبينكم كتاب الله [1] . »

وكان معاوية قد أعدّ لذلك العُدّة ، كى يقع هذا التدبير موقعه ، فى أصحاب علىّ !

فقد بعث إلى الرءوس البارزة من أصحاب علىّ ، وأرى كلّ واحد منهم أنه عنده هو الرجُل الذى يُدْعى لعظائم الأمور ، وتعلق عليه الآمال فى السّرّاء والضّرّاء !

أرسل أخاه عتبة بن أبى سفيان إلى الأشعث بن قيس.. وقال له :

الْق الأشعث ، وألِنْ له كلاما ، فإنه إن رضى بالصلح رضيت به العامة !

ثم التقى عتبة بالأشعث ، فقال له :

أيها الرجل . . إن معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك ، وغيرَ علىّ لقيك!

---

(١) الإمامة والسياسة . ١ ـ ١٢٠

إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، ومن قد سلف إليه من عثمان ماقد سلف من الصهر والعمل !

« ولستَ كأصحابك[1] !

أما الأشتر ، فقتل عثمان !

وأما عديّ[2] ، نخصّص !

وأماسعد بن قيس ، فقلدعلياً دينَه

وأما شريح بن هانىء ، وزحر بن قيس ، فلا يعرفان غير الهوى ! .

« وأما أنت فحاميت عن أهل العراق تكرّما ! وحاربت أهل الشام حميّة ! وقد والله بلغنا منك ما أردنا ، وبلغتَ منا ما أردت !

وإنا لا ندعوك إلى مالا يكون منك ، مِن تركك علياً ، ولا نصرة معاوية ، ولكنا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا !! »

هذا ضرب فريد من الحنكة والذكاء ، ونمط عال من السياسة والدهاء !

وهل تعرف سياسة القرن العشرين أسلوباً أرق ولا أفعل أو أقتل من هذا الأسلوب .؟

كل كلمة بحسابها ، وكل معنى منطلق إلى هدفه المرسوم له !

فالأشعث تعنيه السيادة والرياسة قبل كل شيء !

وقد جاءه معاوية يخطب ودّه ، ويعرف له مقامه فى قومه!

---

(١) يقصد بأصحابه هنا أصحاب الرياسة والكلمة فى جيش على .

(٢) هو عدى بن حاتم

وقد عرف عتبة كيف يخدّر مشاعره ، ويترضى مطامعه !

فهو على غير ماعليه أصحاب علىّ جميعاً .. فإن كل واحد منهم معلول بعلة .. إلا الأشعث !

إنه لم يقاتل عن أهل العراق إلا تكرّماً .. ولم يحارب أهل الشام إلا حمية ، ولولا ذلك لما كان محارباً !!

ثم إنه سيّد أهل العراق .. يأبى عليه شرفه وحسبه أن يترك علياً وينضم إلى معاوية !

إن أحداً لا يطلب ذلك منه ، ولا يجرؤ أحد أن يطلبه !

وإنما الذى يُطب هو ما تقضى به المروءة والكرم .. البقية ، والفىء إلى السّلم !

هكذا تحدث معاوية بلسان أخيه عتبة إلى الأشعث .!

وقد فعلت هذه الحكايات فعلها فى نفس الأشعث .. فقال لعتبة :

« ياعتبة .. أما قولك إن معاوية لا يلقى إلا علياً ، فلو لقينى ما زاد ولا عظم فى عينى ، ولا صغرت عنه !

« ولئن أحبَّ أن أجمع بينه وبين علىّ لأفعلَنَّ ! .

« وأما قولك : إنى رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن .. فالرأسُ الأمير [١] والسيد المطاع [١] .. وهاتان لعلىّ

وأما ما سلف إلىّ من عثمان ، فوالله ما زادنى صهره شرفاً . ولا عمله غنى !

---

(١) جملة من مبتدأ وخبر . أى الرأس هو الأمير ، والسيد هو المطاع

وأما عيبُك أصحابى ، فإن هذا الأمر لا يُقَرِّبك منى !

وأما محاماتى عن العراق ، فمن نزل بيننا حميناه !

وأما البقية ، فلسنا بأحوج منها إليكم .. » [١]

وهذا نموذج آخر من السياسة العالية ، التى تتدسس إلى النفوس ، وتتسرب إلى المشاعر ، فى رفق ولين ، وفى لباقة ومحاذرة !

إنها عمليات جراحية ، يجريها طبيب ماهر .. دون أن يشعر صاحبها بما فعل الطبيب به !

إن الأشعث ليس دون علىّ ! ذلك ظنّه بنفسه ! !

فإذا كان معاوية لا يرى نداً له إلا علىّ ، ولا يخاطب إلا عليًّا ، فإن الأشعث لا يرى فى لقاء معاوية له شرفاً ، يزيده ، أو يزينه !

« ومع هذا ، فإن أحبَّ معاوية أن أجمع بينه وبين على فذلك أمر هو فى يدى ، وعلىّ لا يخرج عن رأيى ! » هكذا يقولها الأشعث فى صراحة صريحة !!

« ونحن إنما نقاتل حمّية .. علىّ بيننا ، فوجب علينا أن نحامى عنه ! »

لقد أعطى الأشعث كلمة « الأمان » لمعاوية ، ولأهل الشام .. وسيرى معاوية من الأشعث تحقيق هذا ، فيما ستأتى به الأيام من أحداث !

الخلاف فى صفوف علىّ :

صحّ تدبير عمرو ومعاوية ، ووقع فى جيش علىّ ، ما قدّراه من الخلاف

---

(١) الإمامة والسياسة ١ ـ ١٢٢

والاضطراب . . بل لقد بلغ الأمر فوق ما قدّراه وأراداه . . فلم يكن ما حلّ بجيش علىّ الخلافُ والاضطراب ، وحسب ، ولـكن وُلد من هذا الاختلاف ، وذلك الاضطراب أشأم مولود فى الإسلام !

فمن جيش علىّ تجمعت جماعة الخوارج ، التى تحوّلت من مقاتلة مع علىّ ، إلى سيوف تحارب عليًّا ومن معه . . ثم أصبحت وإذا هى حرب على الإسلام والمسلمين جميعاً . !

كان جيش علىّ ـ مع غلبته على جيش معاوية ـ فى معرض العواصف العاتية من الخلاف والفرقة ، تتحركُ لأقلّ بادرة ، وتثور لأدنى مناسبة . . كلُّ رأسٍ يريد أن يَعْلُو على سائر الرءوس ، وكل زعيم يعمل على أن يكون صاحب الرأى والـكلمة !

وقد عرفنا أن الذين انحازوا إلى علىّ ، وقاتلوا معه ، لم يكن يملـكهم الإمام بأى سلطان ، إلا وازع الدين ، أو الضمير . . ولهذا فهم جميعاً مطلَقون من يده ، لا يملك من أمرهم شيئاً ، إذ كان أمرهم إلى أنفسهم ، وما يدينون به لله ! .

ولهذا ، فقد تفلّت كثير منهم من يد الإمام ، ولم يكن من المستطاع جمعهم على كلمة سواء ، حتى لقد ضجر الإمام بهم ، وامتلأت نفسه حسرة وألماً ، لمـا يجد من تخاذلهم عن الحق الذى فى أيديهم ، واجتماع أصحـاب معاوية على الباطل ، الذى يُلبسونه لباس الحق ، ويقاتلون فى سبيله . .

يقول الإمام فى أحد مواقفه مع أصحابه :

« أمَا والذى نفسى بيده ، ليظهرَنَّ هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منـكم ، ولـكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائـكم عن حقىّ ! .

« ولقد أصبحتْ الأمم تخاف ظلم رُعاتها ، وأصبحتُ أخاف ظلم رعيتى ! .

« استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ونصحت لكم ، فلم تقبلوا ! .

« أشهود كغياب ؟ وعبيد كأرباب ؟ .

« أتلو عليكم الحِكَم فتنفرون منها ، وأعظكم بالموعظة البالغة ، فتتفرقون عنها ، وأحثّكم على جهاد أهل البغى ، فما آتِى على آخر القول ، حتى أراكم متفرقين أيدى سبأ[1] ، ترجعون إلى مجالسكم ، وتتخادعون عن مواعظكم ، أقوّمكم غُدوة ، وترجعون إلىّ عشيّةً كظهر الحية . . عجزَ المقوِّم ، وأعضَلَ المقوَّم ! .

« أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله ، وأنتم تعصونه[2] ، وصاحب أهل الشام يعصى الله ، وهم يطيعونه[3] .

« لودِدت والله لو أن معاوية صارفنى بكم صَرْفَ الدينار بالدرهم ، فأخذ منى عشرة منكم ، وأعطانى رجلاً منهم ! . .

« وإنى لعلى بيّنه من ربّى ، ومنهاج من نبيّ .

« وإنى لعلى الطريق الواضح ، ألقطه لقطا ! .

---

(١) هذا مثل يضرب للتفرق ، وشتات الشمل . . وسبأ هو أبو عرب اليمن ، وكان له عشرة أولاد ، جعل ستة منهم يميناً ، وأربعة شمالا ، تشبيها باليدين ثم تفرق أولئك الأولاد ، أشد التفرق.

(٢) أى تعصون الإمام .

(٣) أى يطيعون معاوية .

« انظروا أهل بيت نبيّكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يُخرجوكم من هدًى ، ولن يعيدوكم فى ردًى ! »[1]

وفى موقف آخر يلقاهم بهذا القول :

« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . . كلامكم يُوهِى الصُّمَّ الصِّلاب ، وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء . . تقولون فى المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم حَيْدِى حَيَادِ ! !

« ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . .

« أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسَّهم الأخيب ! . . .

« أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعِد العدوَّ بكم ! .

« ما بالكم ؟ ما داؤكم ؟ ما طبّكم ؟ »[2] .

فى هذه المشاعر التى كان يعيش بها الإمام فى الجيش الذى يحارب معه ، جاءت خديعة المصاحف ، يرفعها أهل الشام على أسنة الرماح ، وينادون فى أهل العراق ، بالاحتكام إلى كتاب الله ، والفىء إلى السلم والعافية ! .

ويدرك الإمام ـ كرم الله وجهه ـ ما يعمل هذا التدبير فى جيشه ، وما تعمل تلك الدعوة الكاذبة فى جماعات ، مختلفة الأهواء ، متباينة المشارب ، متنازعة الغايات ! .

إنها الفُرقة التى لا اجتماع معها ، والتخاذل الذى لا رجاء فى نصر معه ! .

---

(١) نهج البلاغة : ١ : ٩٢ .

(٢) نهج البلاغة : ١ : ٣٤ .

ولم يكن أمام علىّ — كرم الله وجهه — إلا أن يرقب أصحابه ، وقد طلع عليهم هذا الداعِى ، وتمشّت فيهم تلك الفتنة ! .

وكثر فى جيش علىّ اللَغطُ ، وتخالفت النداءات والصيحات ، تتردد فى كل جانب من جوانب القوم . . وكان مما يُسمع آنذاك :

— لا تسمعوا للقوم . . لا تعطوهم إلا السيف ! . .

— أجيبوهم إلى ما دعوكم إليه . . لا تردّوا حكم الله ! .

— لا نقول إلا ما يقول الإمام . . خذوا رأيه . . اسمعوا قوله . .

وانحازت كل جماعة إلى رأى من تلك الآراء ، وأمسكت به ، وتهيأت للقتال عنه ! حتى لقد كادت تكون الحرب بين القوم ، يضرب بعضهم وجوه بعض ! .

وهنا وقف علىّ بين القوم ، بنفس حزينة ، وقلب كسير ، فقال ، وأسمع الناس : « أيها الناس . . إنه لم أزل من أمرى على ما أحبّ ، حتى قَدَ حَنَتكم الحرب . وقد والله أخَذَتْ منكم وتركتْ ، وهى لعدوّكم أنهك . وقد كنت بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت اليوم منهياً . فليس لى أن أحملكم على ما تكرهون ! »[1] .

ويدع علىّ الأمر إلى القوم ، وإلى رؤساهم ، يروْن ما يرون ، ويأخذون لأنفسهم الموقف الذى يرضوْن ! .

وهيهات أن يجتمع القوم على رأى . . وقد تفرقت من قبل كلمتهم ، ونفذ معاوية بتدبيره — من قبل خديعة المصاحف وبعدها — إلى قلوب كثير منهم ، فأزالها عن مواضعها من صف علىّ ، ونقلها إليه ، أو إلى خارج الصفّين معاً !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٢٤ .

ونستمع إلى بعض الخطباء ، فى جيش علىّ ، فى هذا المقام :

قال : كردوس بن هانىء :

أيها الناس . . إنه والله ماتولّينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من علىّ منذ توليناه ، وإن قتيلنا لشهيد ، وإن حّينا لفائز ، وإن علياً على بينة من ربّه ، وما أجابَ القومَ إلا إنصافاً ، وكلّ مُحقّ منصف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هوى ! »

فهذا رأس من رءوس القوم ، رأى أن موقف علىّ هو إجابة القوم إلى الموادعة والسّلم ، وإجابتهم إلى مادعوْه إليه من الاحتكام إلى كتاب الله ! وتلك دعوة حق وإنصاف . . ما كان لأحد أن يعدل عنها ، إلا أن يكون عن جورٍ وهدى !

« وقال سفيان بن ثور :

« أيها الناس . . إنا دعوْنا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردّوه علينا ، فقاتلناهم عليه .

«وإنهم دَعَوْنا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم حلّ لهم منا ، ماحلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يَحيفَ الله علينا ورسوله .

« وإن عليّا ليس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه بالأمس ! .

« وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة ! »

إن جبهة الدعوة إلى الموادعة تقوى شيئاً فشيئاً ، بعد أن رأى القوم من موقف علىّ ما يشبه قبول الأمر الواقع ، أو المتوقع !

وقال عثمان بن حنيف : وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعامل علىّ على البصرة :

« أيها الناس .. اتهموا رأيكم . . فقد كنا والله مع رسول الله صلى الله بالحديبية يوم أبى جندل[1] ، وإنا لنريد القتال ، إنكاراً للصلح ، حتى ردّنا عنه رسول الله .

« وإن أهل الشام ، دعوْا إلى كتاب الله اضطرارا ، فأجبناهم إليه إعذارا . فلسنا والقوم سواء !

« إنا ـ والله ـ ما عَدَلْنَا الحىّ بالحىّ ، ولا القتيل بالقتيل ، ولا الشّامى بالعراقى ، ولا معاوية بعلى ، وإنه لأمر مَنْعهُ غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ! .

« وقد كلّت البصائر التى كنا نقاتل بها ، وقد حل الشكُّ اليقين الذى كنا نئول إليه ! وذهب الحياء الذى كنا نمارى به ! .

« فاستظلوا فى الفىء ، واسكنوا فى هذه العافية ! .

« فإن قلتم نقاتل على ما كنّا نقاتل عليه أمس . . هيهات ! هيهات ! ذهب والله قياس أمس ، وجاء غد ! » .

وقال عبد الله بن حجل :

« يا أمير المؤمنين . . إنك أمرتنا يوم الجمل بأمور مختلفة ، كانت عندنا أمراً واحداً فقبلنا بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ! .

« ونحن أصحابك . . وقد أكثر الناس فى هذه القضية ! وأيم الله

---

(١) أبو جندل : كان من المسلمين المعذبين فى مكة وقد جاء إلى النبى بعد أن عقد صلح الحديبية وهو يرسف فى أغلاله فرده إلى أهل مكة وفاء بما عاهدهم عليه:

ما المكثر المنكر بأعلم منها من المقلّ المعترف ! وقد أخذت الحرب بأنفاسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف .. فإن تجب القوم إلى مادعوك إليه ، فأنت أولنا إيمانًا ، وآخرنا بنبيّ الله عهدًا .. وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بقيتنا ، وشرحت بالطاعة صدورنا ، ونفذت فى جهاد عدوّك بصيرتنا .. فأنت الولىّ المطاع ، ونحن الرعيّة الأتباع .. أنت أعلمنا بربّنا ، وأقربنا بنبينا ، وخيرنا فى ديننا ، وأعظمنا حقًّا فينا !

« فسدِّد رأيك نتبعْك ، واستخر الله تعالى فى أمرك ، واعزم عليه برأيك .. فأنت الولى المطاع ! »

وقال المنذر بن الجارود :

« يا أمير المؤمنين .. إنى أرى أمرًا لايدين له الشام ، إلا بهلاك العراق ، ولا يدين له العراق ، إلا بهلاك الشام .. وقد كنا نرى أن مازادنا نقصهم ، وما نقصنا أضرهم .. فإن ذلك أمران .. فإن رأيت غيره ، ففينا والله مايُفَلّ به الحد ، ويُرَدّ به الكَلَب ، وليس لنا معك إيرادٌ ولا صدر ! »

ولعلك تسأل : وأين صوت الأشعث بن قيس هنا ؟ ألم يكن بينه وبين معاوية مايشبه التواطؤ ، على أن يريد عليًّا على الصلح والموادعة ؟

ونقول : ماحاجة الأشعث إلى الكلام ، وقد تكلم أصحاب الكلمة بما كان يريد أن يقول ؟ أفليس من الحكمة والسياسة ، وحسن التدبير أن يلزم جانب الصمت ، حتى لايُتهم بأنه ممالىء لمعاوية ، منفذ لخطة محكمة بينه وبينه ؟ إن كلامه هنا ، ضرّه أكثر من نفعه ! وإذن فالصمت خير .. ولكنه صمت إلى حين .. فإن رأى الريح قد اتجهت إلى غير هذا الاتجاه ، كان الكلام أمرًا لامفر منه ..

* * *

وحين بلغ الأمر إلى هذا الحدّ وكادت تتقرر الـكلمة الحاسمة فى قبول التحكيم ،ثار أصحاب الرأى المعارض ، ورأوا أن يواجهوا الناس برأيهم ، وأن يحملوهم عليه ، إن استطاعوا . . ولا نحسب أن هؤلاء المعارضين لأمر التحكيم قد أمسكوا عن رأيهم ، ولم يعجلوا به إلا لأنهم أرادوا أن يتخففوا شيئاً من تبعة القتال والقتل ، وألا يحملوا هذه التبعة الثقيلة وحدهم .. فلما رأوا أن الأمر أوشك أن يصير إلى هذا الخذلان ، وإلى تلك الموادعة الذليلة ، لم يكن بد من أن يحملوا التبعة كاملة ، ولو ثقلت وفدحت ! !

فـكان من هؤلاء .. الأحنف بن قيس ، وعمير بن عطارد ، وعدى بن حاتم ، والأشتر النخعى . .

فقال الأحنف بن قيس : « يا أمير المؤمنين . . إن الناس ، بين ماض وواقف ، وقائل وساكت ، وكل فى موضعه حسن ، وإنه لو نَـكَلَ الآخر عن الأول لم يقل شيئاً ، إلا أن يقول اليوم ، ماقد قيـل بالأمس ، ولـكنه حقٌّ يُقْضَى !

« ولم نقاتل القوم لنا ولا لك ، إنما قاتلناهم لله ، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله ، فإنك أولى بالحقّ ، وأحقّنا بالتوفيق ، ولا أرى إلا القتال ! »

وقال عمير بن عطـارد : يا أمير المؤمنين .. إن طلحة ، والزبير ، وعائشة ، كانوا أحبّ إلينا من معاوية ، وكان البصرة أقرب[1] إلينا من الشام .. وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم !

فوالله مامنعنا ذلك من قتل المحارب ، وعيب الواقف .

---

(١) يريد بالقرابة هنا قرابة المودة والحب ، لأقرب المكان .

فقاتلْ القوم .. إنا معك ! »

وقال عدّى بن حاتم : يا أمير المؤمنين .. إن دعوة أهل الباطل لا تعوق أهل الحق !

وقد جزع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ماتحبّ .. ناجز القوم !

وقال الأشتر النخعى : يا أمير المؤمنين . . ما أجبناك لدنيا . . إن معاوية لاخَلَفَ له من رجاله ، ولكن ـ بحمد الله — الخَلَفُ لك ، ولو كان له مثلُ رجالك ، لم يكن له مثلَ صبرك ، ونصرِتك .

فافلج الحديد بالحديد[1] ، واستعن بالله ! »

وهنا نلمح الأشتر يتهيأ للكلام ، ولكنه يمسك متحفزاً . . وينتظر ماوراء هذه الدعوات الداعية إلى الحرب !

ويُدير الإمام — كرم الله وجهه — وجوه الرأى فى نفسه ، وتأخذه حيرة فيما يدعو أصحابه إليه .. إنهم لفى قول مختلف ، وعلى رأى شتيت متفرق !

إن دعا إلى الحرب ، ومواصلة القتال ، لم يكن فى ذلك رضى أو مقنع ، لمن أعلنوا فى القوم رأيهم فى الصلح والموادعة !

وإن دعا إلى الصّلح وقبول التحكيم ، أزعج أصحابه الذين عقدوا قلوبهم على نصرته ونصرة الحق الذى يقاتل عليه !

إنها حيرة ، وإنها لفتنة !

---

(١) فى الأصل « فافرج الجديد بالحديد » وهو تصحيف ، وصحته ما أثبتناه ، وهو مثل يضرب للشىء لايصلحه إلا مثله .. « لا يفل الحديد إلا الحديد » و « إن الحديد بالحديد يفلح » أى يطرق .

ولا يجد الإمامَ أقربَ إليه من نفسه ، يحملها على الرأى الذى ارتضاه ، وقاتل عليه ، وهو مناجزة القوم ، حتى يبايعوه ، ويدخلوا فيما دخل فيه المسلمون !

فقام — كرم الله وجهه — وأعلن فى القوم رأيه ، فقال :

« أيها الناس . . إنه قد بلغ بكم وبعدوّكم ماقد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نَفَسَ ، وإن الأمور إذا أقبلت ، اعتُبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى بلغوا منكم مابلغوا . . !

« وأنا غادٍ عليهم بنفسى بالغداة ، فأحا كمهم بسيفى هذا إلى الله ! »

الأشعث بن قيس :

وهنا يجىء دور الأشعث بن قيس ! !

فهاهو ذا الإمام علىّ يعلن الحرب ، ويأبى قبول التحكيم . .

وليس الإمام وحده ، بل سيمضى معه ، أشد أنصاره عزْماً ، وأوثقهم إيماناً ، وقليلهم يغنى عن كثيرا . !

فقام الأشعث . . يقول :

« يا أمير المؤمنين . . إنّا لك اليوم ، على ما كُنّا عليه أمس !

« ولست أدرى كيف يكون غدا ؟

« وما القوم الذين كلموك بأحمد لأهل العراق منىّ ، ولا بأوتر لأهل الشام منى ! !

« فأجِبْ القوم إلى كتاب الله . . فإنك أحق به منهم . . وقد أحب الله البُقيا ! »

كلمات قليلة محكمة ، تجمع بين الحق ، والباطل ، وتؤلف بين النصيحة

والغش ! يُرمى بها فى وقتها الموقوت ، فتصيب البعيد والقريب !

وتفعل كلمة الأشعث فعلها فى أصحاب الرأى الداعى إلى قبول التحكيم ، وفيمن معهم من أقوامهم وأتباعهم ، وللأشعث ولقومه صوت قوىّ مسموع فى أهل العراق !

ويدير علىّ الرأى مرة أخرى ، فيرى أنها الحرب فى داخل جيشه ، وليست الحربَ على معاوية وأهل الشام .. فلا يرى بدأ من قبول التحكيم ! ويعلنها صريحة فى الناس ، فأمر رجلاً ينادى فى أصحابه !

« إنا قد أجبنا معاوية إلى مادعانا إليه !! [(١)] » .

ويعود الاضطراب ، ويشتد الاختلاف بين أصحاب علىّ ، وتذهب كل جماعة منهم مذهباً ..

وهنا يستيقظ كثير من الذين كانت قد أفحمتهم غمرة الأحداث ، وأخذت على عقولهم وعلى ألسنتهم ، وإذا هم بين يدى حُكم يخرجهم من عداد المجاهدين فى سبيل الله ، إلى جانب المهادنين للخارجين على أمر الله ! إنهم لم يعتزلوا الفتنة ، كما اعتزلها بعض المتحرجين من صحابة رسول الله ، بل رأوا ألا يقفوا هذا الموقف السلبىّ من قضايا الإسلام ، وأحداث المسلمين ، فكانوا فى جبهة الإمام ، منذ تمت البيعة له ، وسلّوا سيوفهم فى وجه الخارجين عليه ، حتى ولو كان هؤلاء الخارجون عائشةَ أم المؤمنين ، وطلحة والزبير ، حوارى رسول الله ! فكيف يُقضَى عليهم اليوم أن يغمدوا هذه السيوف فى وجه قوم ، اتبعوا أهواءهم ، وآثروا دنياهم على دينهم ، وخرجوا على السلطان ،

---

(١) الإمامة والسياسة ص ٣٠ .

طمعاً فى دنيا يحوزونها ، أو ولاية يتسلطون على الناس فيها . .؟

فإذا كان فى قتال أصحاب الجمل شبهة ، تُحْرِج الصدور ، أو تجرح الضمير ، فإنه ليس فى قتال أصحاب صفين ، من أهل الشام ، شائبة ، أو شبهة !

هكذا تصور كثير من أصحاب علىّ الموقف الذى أصارهم إليه قبول التحكيم ، والرّضا به . . ففزعوا ، واضطربوا ، وثاروا . . وأقبلوا يحاجّون الإمام ، ويُجادلونه ، ويأبوْن عليه هذا الرأى الذى نزل على حكمه . .

فهذا عمار بن ياسر – رضى الله عنه – يُقبل على الإمام – كرم الله وجهه – فى غيظ مكظوم ، وألم دفين ، ويقول له : ياأمير المؤمنين . . أمَا والله ، لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء[1] . . من أقرّ بها هلك ، ومن أنكرها ملك !

« مالَكَ ياأبا الحسن ؟

« شككتنا فى ديننا !

« ورددتنا على أعقابنا ، بعد مائة ألف ، قُتلوا منا ومنهم !

« أفلا كان هذا قبل السيف ؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ . . قد دعوْك إلى ذلك ، فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحقّ ، وأن من خالفنا منهم ضالّ ، حلالُ الدم !

« وقد حكم الله فى هذا الحال ماقد علمت . . فإن كان القوم مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كلّه لله . . !

---

(١) يريد بهذه التى أخرجها معاوية بيضاء : الفتنة التى خرج بها خروجاً سافراً عن سلطان الخلافة :

« والله ما أسلموا ، ولا أدّوا الجزية[1] ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا طفئت الفتنة[2] ! » فلم يزد علىّ - كرم الله وجهه - على أن قال : « والله إنى لهذا الأمر كاره ! »

هى كلمة . . إن لم يقلها الإمام بلسانه ، فلقد أفصح عنها واقع الحال ، بأبلغ بيان . . فإن الإمام لم يقبل التحكيم إلاّ مضطراً مكرها ، وإلا إيثارا لخير الشرّين : القتال بين أصحابه ، أو الموادعة لأهل الشام إلى أن تسكن هذه النفوس الثائرة ، وتخمد جذوة هذه النار التى أوقدتها خديعة المصاحف بين أصحابه !

وحين أفصح الإمام لعمارٍ عن دخيلة نفسه ، وأنه إنما أكره على قبول التحكيم ، هتف عمار بالناس ، داعياً إلى الحرب . . قائلا :

« أيها الناس . . هل من رائح إلى الجنة ؟ .

فخرج إليه خمسمائة رجل ، منهم أبو الهيثم بن ثابت ، ذو الشهادتين .

واستسقى عمار الماء ، فأتاه غلام له بأداوة فيها لبن ! فلما رآه كبّر وقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول لى : « آخر زادك من الدنيا لبن ! » . .

ثم خرج عمار ، شاهراً سيفه ، وأصحابه معه ، وهو يرتجز :

اليوم ألقى الأحبّه محمداً وصحبـــه !

وحمل عمار وأصحابه على القوم ، فحمل عليه رجلان ، فقتلاه ، وأقبلا برأسه إلى معاوية ، يتنازعان فيه ، يقول كل منهما : أنا قتلته ! فقال لهما عمرو بن العاص : والله إنْ تتنازعان إلا فى النار . . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفئة الباغية » !

---

(١) هذا إذا كانوا مشركين !

(٢) وهذا على أنهم أصحاب فتنة !

فقال معاوية لعمرو : قَبَحك من شيخ ! فما تزال تنزلق فى قولك ! أوَ نحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به ! ثم التفت إلى أهل الشام ، فقال : إنما نحن الفئة الباغية .. التى تبغى دم عثمان ! [(١)] »

وهكذا تُؤوّل النصوص ، ويحرّف الكلم عن مواضعه ، فليس فى دستور السياسة عقل أو دين ، أو ضمير !

وكان قتل عمار حَدَثا مروّعاً[(٢)] ، اهتزت له أرض المعركة اهتزازاً عنيفاً فاختلط القوم ، وماج الفريقان بعضهم فى بعض ، وترك أهل الرايات مراكزهم ، وتفرق الناس عن علىّ .. فقال عدىّ بن حاتم : والله ياأمير المؤمنين ما أبقت هذه الواقعة لنا ولا لهم عميداً . . فقاتلْ حتى يفتح الله تعالى لك ، فإن فينا بقية !»

ثم أقبل الأشتر ، جريحاً ، فقال ياأمير المؤمنين : « خيل كخيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه ، فعدْ إلى مكانك الذى كنت فيه ، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك . »

فدعا علىّ بدرعه التى كانت للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا ببغلة رسول الله ، الشهباء ، وتعصب بعمامة رسول الله ، السوداء ، ثم نادى :

« من يبيعْ نفسه اليوم يربح غداً ، يوم له مابعده . . فانتدب له مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفاً ، واضعى سيوفهم على عواتقهم ، وتقدموا فحمل علىّ الناس حملة واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أهمد ، حتى أفضى الأمر إلى معاوية ، وعلىّ يضرب بسيفه ، ولا يستقبل أحداً إلا ولّى عنه!

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٣٢

(٢) حين استشهد عمار كان قد نيّف على التسعين .

فدعا معاوية بفرسه ، لينجو عليها ، فلما وضع رجله فى الركاب ، نظر إلى عمرو بن العاص ، فقال له ابن العاص .. اليوم صبر ، وغدا فخر ! قال صدقت! فنزل ، وصبر ، وصبر القوم معه إلى الليل !

ويروى أن معاوية حين رأى الهزيمة فى جيشه ، وأن يد علىّ أوشكت أن تصل إليه ، همّ بالفرار ، ناجياً من هذا المصير . ولكنه ذكر قول عمرو بن الإطنابة :

أبَتْ لى همّتى ، وأبى بلائى وأخذِى الحمدَ بالثمن الربيحِ
وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشتْ مكانَكِ تحمدى أو تستريحى
لأدْفع عن مآثر صالحاتٍ وأحمى بعدُ عرضٍ صحيح

حين ذكر هذا الشعر أمسك نفسه عن الفرار ، ووطنها على الثبات حتى النصر ، أو الموت !

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث بهذا الذى كان بينه وبين نفسه ، ويحمد لهذا الشعر فضله عليه .

قال ابن قتيبة :

« وبات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذى فيه البلاء العظيم ، يوم قُتل عمار ، وكلٌّ يظُن أن الدائرة عليه ، وأسرف الفريقان فى القتل ، ولم يكن فى الإسلام بلاء ، ولاقتل أعظم منه فى تلك الثلاثة الأيام .[1]

والحق أن هذه المعارك الدائرة ، على ما فيها من صراع مرير ، والتحام عنيف — لم تكن إلا صحوة ، أشبه بصحوة الموت ! فلم يشارك فيها إلا جماعات

---

(١) الإمامة والسياسة . ١ — ١٣٢

من أصحاب علىّ ، رأوا أن يعذروا لأنفسهم ، وأن يرموا بآخر سهم معهم !
أما الرّوح العامة للحرب ، فإنها كانت قد خمدت ، وتهيأ الناس لاستقبال ما بعد هذه الحرب !

التحكيم ، والحكمان :

تراضى الفريقان — أخيرًا — على وقف القتال ، وعلى أن يختار كل فريق حَكما ، ثم يلتقى الحكمان ، فيكون إليهما القضاء فى هذه القضية ، يحكمان فيها بكتاب الله ، وعلى الفريقين المتنازعين النزول على مايحكم به الحكمان !

أما رجل معاوية ، فهو عمرو بن العاص .. اختاره معاوية ، ورضيه أصحابه، لم يختلف عليه أحد !

أما رجل علىّ . . فقد كثر حوله الخلاف ، وطال الجدل ، وكاد الأمر يؤدى إلى فُرْقة وانشعاب ، جديدين ، بعد أن خرج على علىّ جماعة من أصحابه أعلنوا الخلاف عليه ، وصارحوه به ، بعد أن رضى بالتحكيم ! وهؤلاء هم نواة الخوارج فيما بعد ، وسنعرض لهم بعد قليل!

كان علىّ قد أعدّ ابنَ عباس ، ليكون الرجلَ الذى يلقى عمرو بن العاص الذى اختاره معاوية .

ولكن أصحاب عليّ اختلفوا عليه ، ولم يسلّموا له باختيار صاحبه ، كما سلّم أهل الشام لمعاوية باختيار صاحبه !

فقد كان الأشعث بن قيس على رأس تلك الجماعة ، التى نازعت عليًا الرأىَ فى اختيار الرجل الذى يلقى عَمْراً !

والأشعث — كما رأينا — هو الذى مهّد للتحكيم ، وعمل له فى الخفاء وفى الجهر ، وكان هو وقومه ، الذين أكرهوا علياً على قبول التحكيم ، ثم هاهو

ذا وقومه ، يُديرون أمر التحكيم على الوجه الذى يرضونه ، أو يرضاه معاوية .. فإنه لاشك أن الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث ، بعد أن نجحت الخطة التى انتهت بقبول التحكيم !

قالوا : إن عليا حين استقام رأيه على أن يرسل ابن عباس مع عمرو بن العاص ، قام إليه الأشعث بن قيس ، وشريح بن هانىء ، وعديّ بن حاتم ، وقيس بن سعد ، ومعهم أبو موسى الأشعرى ، فقالوا يا أمير المؤمنين : هذا؟ أبو موسى الأشعرى ، وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب مغانم أبى بكر ، وعامل عمر بن الخطاب . !

« وقد عرضنا على القوم ابن عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ضنين فى أمرك . . وأيم الله لو لقيت به عمراً لأخذ بَصَرَه ، وغمّ صدره ، ولكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل العراق وأهل الشام بتقيّته !

وفى هذا نرى أن الأشعث وجماعته كانوا سفراء بين أهل العراق وأهل الشام ، وأنهم تحدثوا إلى أهل الشام فى أمر الحكم ، الذى وقع عليه اختيار علىّ ، وأن أهل الشام لم يرضوا بابن عباس ، أو قل إن معاوية وعمراً لم يرضيا به ، لما يعلما من قوة حجته، وسطوة منطقه ! ثم أشارا إلى أبى موسى الأشعرى وقد علما أنه كان قد اعتزل عليًا أول الأمر ، ووقف موقف المخذّل لأهل الكوفة ، وكان والياً عليها لعلىّ ، عند حرب الجمل !

والعجب أن يعترض معاوية وعمرًا على ابن عباس ، ولا يعترض أهل العراق ، أو قل الأشعث وأصحابه ، على عمرو بن العاص !

إن عمرو بن العاص صاحبُ مصلحة محققة فى أىّ خير يصيب معاوية فيما يقضى به الحكمان . . وفى يد عمرو صك موثّق من معاوية ، يملك به مصر ،

مِلكَ يمين ، إن هو ملك الشام ومصر .. فكيف إذ هو أصبح خليفة على دولة الإسلام ، وأميراً على المسلمين ؟

وهل لابن عباس شيء إن خلصت الخلافة لعليّ ؟ وهل لأحدٍ مع عليّ مطمع فى شيء يناله من يده فى مقابل مايبذل له من جهد وعمل ، ولو كان فى ذلك ذهاب نفسه ؟

إن كل الذين يعملون مع عليّ يعملون لله ، لا له ، فليس لهم عنده يد ، يرجون المثوبة عليها .. إذ كان ثوابهم إلى الله ، يجزى كل محسنٍ بما أحسن !

فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن ؟

إنهم لايخشون إلاأن يدفع عمرًا عن كيد مدبّر ، لايفطن إليه ، ولايعرف مساربه الخفيّة إلا رجل أوتى مثل ما أوتى ابن عباس ، من ألمعية ، وذكاء !

روى الإمام المرتضى فى أماليه ، أن عتبة بن أبى سفيان قال لعبد الله بن عباس : « مامنع عليًّا أن يجعلك أحد الحكمين ؟ قال : أما والله ، لو بعثنى لاعترضت مدارج أنفاسه — يعنى عمرا — ، أطير إذا أسفّ ، وأسفّ إذا طار .. وانعقدت له عَقْداً لاتُنْقَض مريرته ، ولا يدرك طرفاه .. ولكنه سبق قَدَر ، ومضى أجل ، والآخرة خير لأمير المؤمنين من الدنيا ! »[1]

فهذا هو الذى كان يخشاه معاويه وعمرًا من ابن عباس ! فكان لهما هذا الدبيب إلى الأشعث وأصحابه ، ممن ملكوا زمام الموقف فى جيش عليّ ، حتى يأخذوا الطريق على ابن عباس ، وحتى يقيموا مكانه الرجلَ الذىَ تخيّروه !

وإذن فالرجلان : عمرو بن العاص ، وأبو موسى الأشعري ، هما لمعاوية

---

(١) أمالى المرتضى : ١ : ٢٨٧ .

ولأهل الشام ، إذ كان معاوية وأصحابه ، هم الذين اختاروا الأول ابتداء ، واختاروا الثانى بالترشيح !

فأبو موسى ، لايذكر — حين يذكر — علياً إلا أنه كان معترضاً عليه ، وأنه إنما اختير لهذه الحكومة على غير رضى علىّ ، وبدعوة من معاوية !

وأيا كان أبو موسى الأشعرى ، فى ورعه ، وتقواه ، فإن ذلك الذى كان من تأخير علىّ له فى هذا الأمر ، بل ودفعه عنه — جدير بأن يحدث جفوةً فى نفس أبى موسى من علىّ ، ويزرع فى قلبه مرضاً من جهته ، لايستطيع له دفعاً !

وحين انتهى الأمر باختيار أبى موسى ، حكماً ، من جهة علىّ وأصحابه ، جاء الأحنف بن قيس إلى علىّ ، وقال له :

« يا أمير المؤمنين .. إن أبا موسى رجل يمانى ، وقومه مع معاوية ، فابعثنى معه ، فوالله لايُحلّ لك عقدة إلا عقدت لك أشدّ منها ، فإن قلتَ : إنى لست من أصحاب رسول الله ، فابعث ابن عباس ، وابعثنى معه !! »[1]

كان كثيرون من أصحاب علىّ يرَوْن خطورة عمرو بن العاص ، ويدركون ـ مقدما ـ ماهو مبيتٌ له فى هذه الحكومة .. ثم هم فى الوقت نفسه يرَوْن مافى أبى موسى ـ الشخصية المواجهة لعمرو ـ من سلامة طويّة ، واستقامة قصد ، إلى مافيه من فتور عن أمر علىّ ، وتخاذل عن نصرته !

فليس أبو مُوسى إذن بالرجل الذى يعتدل به ميزان الحكومة ، إذا كان فى أحد كفتيه عمرو بن العاص ، وفى الكفة الأخرى أبو موسى الأشعرى ؟

وأمر آخر .. وهو لِمَ كانت قضية التحكيم إلى اثنين ؟ ولِم لم تكن إلى

---

(١) الإمامة والسياسة ١ ـ ١٣٧ .

عِدّة رجال ، كأصحاب الشورى — مثلا — الذين اختارهم عمر ، ليختاروا من بينهم الخليفة من بعده ؟

والذى يبدو لنا من ملابسات هذه الأحداث ، أن هذا التدبير كان من بعض الخطة التى رسمها معاوية وعمرو بن العاص . . . حتى يضمنا بذلك بقاء عمرو بن العاص فى الكفة الراجحة ، وخاصة إذا تم اختيار الشخص الذى أشارا على أهل العراق به ، وهو أبو موسى الأشعرى !

أما إذا تعَدّد الداخلون فى الحكومة ، فإنه يمكن أن يقع التوازن ، وذلك باختيار الأقوياء إلى جانب الضعفاء ، فكان يمكن — مثلا — أن يُختار ابن عباس إلى جانب أبى موسى ، أو الأحنف بن قيس إلى جانبهما ، أو أبو الأسود الدؤلى مع الثلاثة ! وفى هذه الحال لا يجد عمرو بن العاص فرصة فى خداع أبى موسى الأشعرى ، أو غيره !

رُوى عن الشعبى أنه كان يقول ،

« قاتل الله أبا الأسود ! ما كان أعفّ أطرافه ، وأحضر جوابه ..!

« دخل على معاوية بالنُّخيلة . . . فقال له معاوية : أ كنتَ ذُكرتَ للحكومة [1]؟

قال : نعم ! قال : فما كنتَ صانعاً ؟

قال : كنت أجمع ألفاً من المهاجرين وأبنائهم ، وألفاً من الأنصار وأبنائهم ثم أقول :

« يامعشر من حضر . . أ رجلٌ من المهاجرين أحق ، أم رجلٌ من الطُّلَقاء ؟

---

(١) أى أكان فيمن سماهم على ليكونوا أحد الحكمين من جهته ؟

فقال معاوية : الحمد لله الذى كفاك ! »[1]

مِن مثلِ ابن عباس ، والأحنف بن قيس ، وأبى الأسود ، وغيرهم ، خاف معاوية أن يفسد التدبير الذى دبّره مع عمرو بن العاص ، فكان أن عمل على الاتصال بالأشعث وغيره من أصحاب علىّ ، حتى يصرفوه عن عزمه فى اختيار شخص غير أبى موسى الأشعرى !

وقد أظهرت الأيام ـ بعد ذلك ـ ما توقعه الإمام علىّ ، وكثير من أصحابه ، من أن أبا موسى لم يكن بالرّجل الذى ينازل عمرو بن العاص ، فى هذا الميدان ، وينتزع من يديه نصراً لعلىّ على معاوية !

وقد ضع الناس السلاح ، والتقى أصحاب التحكيم بين العسكريين ، وكُتِب بينهما كتاب جاء فيه :

« أن علياً ، ومن معه من شيعته ، من أهل العراق ، ومعاوية ومن معه من أهل الشام ، ينزلان على حكم الله ، وكتابه . . من فاتحته إلى خاتمته . ما أحيا القرآن أحيياه ، وما أمات القرآن أماتاه .

«وعلى علىّ ومعاوية ، وتَبِيِّعَتِهِما ، وضعَ السلاح إلى انقضاء المدة . وهى من رمضان إلى رمضان .

« وعلى أن عبد الله بن قيس ، وعَمراً ، آمنان على دمائهما ، وأموالهما ، وحريمهما . . والأمة على ذلك أنصار .

« وعليهما ـ أى الحكمان ـ مثل الذى أخذا .. أن يقضيا بما فى كتاب وما لم يجدا فى كتاب الله ، قضيا بما يجدان فى السنّة .

---

(١) أمالى المرتضى :١/٨٨

« وعليهما ألاّ يؤخرا أمرهما عن هذه المدة .. فإن أحبّا أن يقولا قبل انقضائها ، فلهما أن يقولا ، عن تراضٍ منهما .

« وعلى أن يرجع أهل العراق إلى العراق ، وأهل الشام إلى الشام !

«وأن يكون الاجتماع – أى اجتماع الحكمين – إلى « دومة الجندل»[1] ، فإن رضيا أن يجتمعا بغيرها فلهما ذلك !

«ولهما ألا يحضرهما إلا من أحبّا ولا يُشْهِدا إلا من أرادا !

« وهؤلاء النفر من أهل العراق ، وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه المدة ! [2] » .

وكتب أهل العراق بهذا كتابا لأهل الشام ، وكتب أهل الشام ، كتابا بهذا لأهل العراق .. وشهد شهود أهل الشام على أهل العراق ، وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام ..

فلما كُتب الكتاب ، أقبل رجل من بنى يشكر على فرس له أبلق ، حتى وقف بين الصفّين ، على علىّ :فقال : ياعلىّ .. أكُفْرٌ بعدإسلام ؟ ونقض بعد توكيد ؟ ورِدّة بعد معرفة ؟ أنا من صحيفتكما برىء ! وممّن أقرّ بها برىء ! !

ثم حمل على أصحاب معاوية ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش ، أتى عسكر علىّ ، فاستسقى فسُقى ، ثم حمل على عسكر علىّ . فطعن فيهم ، حتى إذا عطش أتى عسكر معاوية فاستسقى فسُقى ! !

---

(١) دومة الجندل : بلدة فى جوف السرحان ، شمال غربى نجد .

(٢) الإمامة والسياسة ١ - ١٣٨ .

الأشعرى وابن العاص :

وتهيأ الحكمان للقاء فى دومة الجندل ، وقد تبعتهما العيون ، وتعلقت بهما الآمال .. كلٌ يرجو عندهما أملاً يأمله ، ورغبة ينشدها !

وأقبل الناس على الحكمين ، يُلقى كل بما عنده من رأى ونصيحة إلى صاحبه منهما ، ويحذره مما يظن به الغفلة عنه ، مما انعقدت عليه آمال أصحابه ومنّوا أنفسهم به !

فأخذ شريح بن هانىء بيد أبى موسى ، وقال له : ياأبا موسى .. إنك قد نُصبت لأمر عظيم ، لا يُجبَر صَدْعه ، ولا تُستقال فلتته ، ومهما تقل من شىء ، لك أو عليك ، يثبُتْ حقُّه ، ويذبل باطله !

« إنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية ، ولا بأس بأهلْ الشام إن ملكها علىّ ، فانظر فى ذلك نظر من يعرف هذا الأمر حقاً » !

والأمر الذى يلفت إليه شريح أبا موسى هنا ، هو أن الخصومة التى بين علىّ ومعاوية ليست على حدٍ سواء عندهما . . فخصومة على لمعاوية ولأهل الشام لا تحمل علياً على النقمة منهم إن هو ملكهم ، على حين أن معاوية لو ملك علياً وأهل العراق لجعل أهل الشام على رقاب أهل العراق ! !

ثم جاء الأحنف بن قيس إلى أبى موسى ، وقال له : « يا أبا موسى . اعرف خَطبَ هذا الأمر ، واعلم أن له مابعده ، وأنك إن ضيّعتَ العراق فلا عراق لك .. فاتق الله تجمع بذلك دنيا وأخرى ! وإذا لقيت عمراً غداً ، فلا تبادره بالسلام ، فليس من أهله ، ولا تعطه يدك ، فإنها أمانة ! وإياك أن يقعدك على صدر الفراش ، فإنها خُدْعة ، ولا تلقه إلا وحدَه ، وإياك أن يكلمك فى بيت فيه مخدع ، يخبأ لك فيه رجالاً !

« وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليّ ، فخيّره أن يختار أهلُ العراق من قريشِ أهلِ الشام من شاءوا ، فإنهم ان يُولوا الخيار يختاروا من يريدون ! فإن أبى فليختر أهلُ الشام من أهل العراق من شاءوا ، فإن فعلوا كان الأمر بيننا ! »

فانظر كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ، وكيف كانوا يخشون ما يبيّت لهذا الأمر من دهاء وحيلة ؟ وإن الأحنف ليحذّر أبا موسى من أن يَلْقى عمراً بالسلام ، فقد ينتهز عمرأ هذه الفرصة ، ويقول له : إنك ألقيت إلىّ بالسَّلَم ، وسلمت إلىّ الأمر ! وألا يمدّ إليه يده ، فقد يقول عمرو : إنك بايعتنى على كذا وكذا!

وهكذا يرى الناس أن عمرو بن العاص ، لا يتكلم كلمة ، أو يتحرك حركة إلا كان وراءها ، كَيْد يكيده ، أو أمر يبيته !

ولم يَبْعُد عمرو كثيراً عما ظن الناس به ، وقدّروا من جهته .. فقد جاءهم فى تلك القضية ، بما قد أصبح مضرب المثل فى المكر والكيد !

وقد كتب الإمام علىّ ، إلى أبى موسى كتاباً جاء فيه :

« إن الناس ، قد تغيّر كثير منهم عن كثير من حظهم ، فمالوا مع الدنيا ، ونطقوا مع الهوى ! وإنى نزلت من هذا الأمر منزلاً معجِباً[1] ، اجتمع به أقوام أعجبتهم أنفسهم ، فإنى أداوى منهم قَرْحاً أخاف أن يكون علقاً!![2]

« وليس رجل — فاعلم — أحرصُ على أمة محمد صلى الله عليه وآله ، وألفتِها ، منى .. أبتغى بذلك حسنَ الثواب ، وكرم المآب .

« وسأفِى بالذى وأيْتُ على نفسى[3] !

---

(١) الأمر هو الخلافة .. ومعجبا : أى يدعو إلى التعجب ، ومنزله من الخلافة بيعة الناس له . ثم خروج طائفة منهم عليه .

(٢) أى أنه فى موقفه من الخارجين عليه يداوى داء ربما يكون قد استعصى دواؤه

(٣) بالذى وأيت : أى بما أعطيت من عهد ، فى أمر التحكيم .

« وإن تغيّرتَ عن صالح ، مافارقتنى عليه ! فإن الشقىّ من حُرِم ما أُوتى من العقل والتجربة !

« وإنى لأعبَد[1] أن يقول قائل بباطل ، وأن أفسد أمراً أصلحه الله !

«فدع مالاتعرف ، فإن شرار الناس طائرون اليك بأقاويل السوء والسلام[2] !»

وفى الكتاب تعريض بأبى موسى ، بأنه ممن تغيّر مع من تغيروا ، وتحذير من أن يميل مع الهوى ، ويستمع إلى أهل السوء والفتن !

هذا أبو موسى ، ورأى أصحابه فيه ، وتخوفهم من جهته ، وتوقعهم الخذلان من جانبه !

أما عمرو ، فقد اطمأن إليه أصحابه ، ووثقوا بأنه لن يعود من وجهته تلك ، إلا ومعه صيد ثمين !

ومع هذا ، فإنهم لم يَدَعوه يَلْقَى أبا موسى حتى كشفوا له ، عن آمالهم المتعلقة به ، وأطماعهم المتجهة إليه !

قال له معاوية : ياعمرو ، إن أهل العراق أكرهوا عليًّا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك .

« وأرجو فى دفع هذه الحرب خصالا :

« قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن !

« وقد ضُمّ إليك رجل ، طويل اللسان ، قصير الرأى ! وله على ذلك دِين وفضل ، فَدَعْه يَقُل ، فإذا هو قال فاصمتْ ! واعلم أن حسن الرأى زيادة فى العقل.

---

(١) عبد كغضب وزنا ومعنى.

(٢) نهج البلاغة : ٢ – ٨٦ .

«إن خوّفك العراق ، نخوّفه بالشام ، وإن خوّفك مصر نخوّفه باليمن ، وإن خوّفك علياً ، نخوّفه بمعاوية ! وإن أتاك بالجميل ، فأته بالجميل !

فقال عمرو : ياأمير المؤمنين . أقْلِلْ الاهتمام بما قِبلى ، وارجُ الله تعالى فيما وجهتنى له ! . إنك من أمرك على مثل حدّ السيف . . لم تنَلْ فى حَربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خِفْتَ ، ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيراً .

« وقد ذكرتَ لأبى موسى دينا ، وإن الدين منصور ! .

« أرأيتَ إن ذكر عليًا ، وجاءنا بالإسلام ، والهجرة ، واجتماع الناس عليه .. ما أقول ؟

فقالَ معاوية : قل ما تريد وترى ! [1]»

وهل عمرو فى حاجة إلى من يقول له ، ماذا يقول ، فى هذا الموقف ؟ ولو كان معاوية ؟

وأتى شرحبيل بن السمط إلى عمرو فقال : ياعمرو .. إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا لثقته بك ، واعلم أنك لا تُؤتَى من عجز ، وقد علمتَ أن وطأة هذا الأمر لصاحبك ، ولك ، فكن عند ظننا بك[2] !» .

المداولة ، والحكم :

التقى الحكمان بدومة الجندل ، وتكرر لقاؤهما أياما ، وشهوراً ، سراً وجهراً ، وقد شهد بعضَ هذه الاجتماعات كثير من وجوه أهل العراق ، وأهل الشام ! ولم ينته الحكمان بعد ، إلى الحكم الذى يلقيان الناس به !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ — ١٤٠

(٢) المصدر السابق : ١٤١ .

ولا شك أن هذه المطاولة ، قد أضجرت أصحاب علىّ ، وأقلقتهم !

إن الزّمن فى صالح معاوية ، وكل يوم يمضى ، دون الفصل فى القضية ، يزيد معاوية قوة وتمكينا ، على حين تزداد معه جبهة علىّ تصدعاً ووهناً !

فلقد التزم علىّ خلال تلك الهدنة ما اتفقا عليه من الموادعة والسّلم ، بينما عمل معاوية على تحريض أصحابه على شنّ الغارات ، للسلب ، والنهب ، وبث الاضطراب والفزع فى أهل الأمصار الموالية لعلىّ ، فإذا تحرّك علىّ لدفع هذا العدوان لم يجد فى أصحابه إلا فتوراً ، وتراخياً ، وتفلّتاً !

ومن جهة أخرى ، فإن عليًا فى تلك الفترة ـ فترة التحكيم ـ لم يكن الخليفةَ ، حكماً ، أو واقعاً . . فهو حين قبل التحكيم ، قد قَبِل ضمناً التنازلَ عن الخلافة ، إلى أن يردّها إليه الحكمان ، أو يجعلاها إلى غيره . . ! ولن يضير معاوية أن يمتد الزمن به وبعلىّ ، على هذا الوضع الذى تساويا فيه !

ولقد كثرت المناورات والمناوشات خلال فترة التحكيم ، وظهر للناس أن أمر الفصل فى القضية ، ليس من اليسر ، والقرب ، كما تصوروه ، وقدروه !

فالموازنة بين علىّ ومعاوية ، وبين حق علىّ ، ودعوى معاوية تحتاج إلى ميزان دقيق ، ونظر فاحص ، ليُتعرف إلى الفروق الدقيقة بينهما . . إن كان ثمة فروق !

هكذا أوحى هذا الإبطاء فى الحكم إلى مشاعر الناس أن علياً ومعاوية فى كفتى ميزان . . لا يكاد يرجح أحدهما الآخر ! وتلك هى مشكلة الحكمين التى يعالجانها ، ويعملان جاهدَيْن على الوصول إلى مخرج منها !

---

(١) المصدر السابق ١٤١ :

إن فى ذلك التراخى ، وتلك المطاولة ، إدانةً لعلىّ ، وتعمية لحقه الواضح ، وإلقاء الشّبه والظنون على الخلافة التى كان يرتدى رداءها !

والا فإن الأمر أهون من ذلك وأيسر ، لو أن الحكمين نظرا إلى علىّ ومعاوية نظرة خالصة من المرض والهوى!

وندع هذا .. ولنذكر أننا فى وجه فتنة عاصفة ، لم تدع شيئاً أتت عليه إلا قلبت صورته ، وبدّلت معالمه !

* * *

قالوا :

غدا عمرو على أبى موسى ، يوماً من تلك الأيام الثقيلة الطويلة ، فقال له :

يا أبا موسى . . قد عرفتَ حال معاوية فى قريش ، وشَرفَه فى بنى عبد مناف ، وأنه ابن هند ، وابن أبى سفيان . . فما ترى ؟

فقال له أبو موسى : أما معاوية فليس بأشرفَ فى قريش من علىّ ! ولو كان هذا الأمر على شرف الجاهلية كان أولى الناس به أخوال ذى أصبح [1] ولكننى أرى وترى ! »

ثم غدا عليه عمرو ، فقال : ياأبا موسى . . إنْ قال قائل : إن معاوية من الطلقاء ، وأبوه رأس الأحزاب ، لم يبايعه المهاجرون والأنصار ، فقد صدق !

« وإذا قال : إن علياً آوى قتلة عثمان ، وقتل أنصاره يوم الجمل ، وبرز على أهل الشام بصفين فقد صدق !

«وفينا وفيكم بقية ، وإن عادت الحرب ذهب ما بقى !

«فهل لك أن نخلعهما جميعاً ، ونجعل الأمر لعبد الله بن عمر ؟ فقد صحب

---

(١) أخوال ذى أصبح من تبابعة اليمن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبسط فى هذه الحرب يداً ولا لساناً ، وقد علمتَ من هو ، مع فضله ، وزهده وورعه وعلمه ؟

فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيراً !

قالوا . وكان أبو موسى ، لا يعدل بعبد الله بن عُمر أحداً ! لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، ولفضل عبد الله فى نفسه .

وافترقا على هذا الأمر ، واجتمع رأيهما على ذلك !

ثم إن عمراً غدا على أبى موسى بالغد ، ومعه جماعة الشهود

فقال : ياأبا موسى : ناشدتك الله تعالى . . من أحق بهذا الأمر ؟ مَن أوفَى ، أو مَن غدر ؟

قال : من أوفى !

قال : ياأبا موسى . نشدتك الله تعالى . . ماتقول فى عثمان !

قال : قُتَل مظلوما !

قال عمرو : فما الحكم فيمن قَتَل ؟

قال : يُقتل بكتاب الله !

قال : فمن يقتله ؟

قال : أولياء عثمان ! فإن الله تعالى يقول : « ومن قُتِل مظلوما ، فقد جعلنا لوليّه سلطانا » .

قال عمرو : فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان ؟

قال : نعم !

قال عمرو للقوم : اشهدوا !

قال أبو موسى : اشهدوا على ما يقول عمرو !

قال أبو موسى لعمرو : قم فصرّح بما اجتمع عليـه رأيى ورأيك ! وما اتفقنا عليه !

قال عمرو : سبحان الله ! ! أقوم قبلك ، وقد قدّمك الله عَلَيّ فى الإسلام والهجرة ؟ وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله ، ووافد رسول الله إليهم ، وبك هداهم الله ، وعرفهم شرائع دينه ، وسنة نبيّه ؟

ولـكن قم أنت فقل ، ثم أقوم فأقول !

فقام أبو موسى ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس .. إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وإنى لا أهلك دينى بصلاح غيرى !

« إن هذه الفتنة قد أكلت العرب !

« وإنى رأيت وعَمرًا أن نخلع عليا ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فإنه لم يبسط فى هذه الحرب يداً ولا لسانا ! »

أرأيت إلى هذا الحـكم ، الذى قضى بخلع علىّ ومعاوية ؟ إذن فقد كان معاوية يقاسم عليًا الخلافة ، وأنه وعلىّ سواء فيها ! مع أن معاوية لم يدّع إلى الآن دعوى الخلافة ، ولم يرشح نفسه لها ، وإن كان ذلك شيئاً فى نفسه ، وحاجةً عمل لها فى سرّه ، وكانت كل مدّعياته إلى هذا الوقت مطالبةَ علىّ بدفع قتلة عثمان ، وعدم البيعة لعلىّ إلا أن يبايع له الناس عامة !

ولـكن أمر التحكيم ، ثم مطاولة الأيام به ، وما لابس ذلك من محاورات ومناورات .. كل ذلك قد زعزع مكان علىّ من الخلافة ، وجعل لأبى موسى

أن يخرج على الناس بهذا الرأى ويواجههم بهذا الحكم ، الذى يعلن فيه خلع علىّ ، ومعاوية .. معًا ! هكذا بضربة واحدة !

ومهلاً .. فإن المأساة لم تتم فصولاً !

وجاء دور عمرو ، ليصادق على هذا الحكم ، الذى كان على علم به ، بل كان هو الذى لقّنه أبا موسى ، وزيّن له الأخذ به !

ووقف عمرو . . والناس فى هياج واضطراب لهذا الحكم الذى أعلنه أبو موسى ، فقال : « أيها الناس . . هذا أبوموسى . . شيخ المسلمين ، وحكَم العراق ، ومن لايبيع الدين بالدنيا .. وقد خَلع عليًّا .. وأثبَتّ معاوية ! !

فزاد القوم هَيَاجًا واضطرابًا ، واختلط أمرهم ، وقال قائلهم مخاطبًا الحكمين : « والله لواجتمعتما على الهدى ماحولتمانا على مانحن عليه ، وما ضلالكما بلازم لنا ، وإنا اليوم على ما كنا عليه بالأمس ، ولقد كنا ننظر إلى هذا من قبل أن يقع .. وما أمات قولكما حقًّا ، ولا أحيا باطلاً .. ثم تشاتم أبو موسى ، وعمرو ، وانصرف عمرو إلى معاوية ، ولحق أبوموسى بمكة ، وانصرف القوم إلى علىّ !

* * *

ما بعد التحكيم

لم يكن ما انتهى إليه الحكمان ، ليحسم الفتنة التى كانت دعوة أصحاب المصاحف ، تشير بكتاب الله ، ليقضى فيها بحكمه ، ويقضى عليها بعدله .. بل إنما انتهى إليه الحكمان كان فتنة إلى فتنة ، وبلاء إلى بلاء !

فالحكمان اللذان ارتضاهما المسلمون ليحكما بكتاب الله ، قد خانا عليًّا ومعاوية معاً ، فلم يضعا كل واحد منهما بموضعه ! بل إنهما خانا كتاب الله ، ولم يقضيا به ، حين سوَّيا بين أول الناس إسلاما ، وآخر قريش دخولاً فى الإسلام ، ثم بين المهاجر والطليق ، وبين من لم يضرب بسيفه إلا فى سبيل الله ، ومن ضرب بسيفه فى وجوه المؤمنين بالله .. ثم لم يرعيا ما لقرابة رسول الله ، والصهر إليه ، من حق فى ترجيح الأكفاء والنظراء !

بل وأكثر من هذا .. فإن الحكمين قد خانا أنفسهما ، فلم يَرْعَ أحدهما عهدَ صاحبه ، وميثاقه الذى واثقه به .. فقال أحدهما قولا ، وقال الآخر قولا ، وكان الخلاف بين القولين فى حاجة إلى من يُحتكم إليه فيه !

ما قال علىّ :

وحين بلغ عليًّا ما انتهى إليه أمر الحكمين ، تكلم فى أصحابه ، فقال :

« أما إنى قد أخبرتكم أن هذا يكون ، بالأمس ، وجَهِدت أن تبعثوا غير أبى موسى ، فأبيتم علىّ ! ولا سبيل إلى حرب القوم ، حتى تنقضى المدة !

ثم صعد علىّ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه .. ثم قال : قم ياحسن — يريد ابنه الحسن — فتكلم فى أمر هذين الرجلين : أبى موسى وعمرو !

فقام الحسن ، فقال : « أيها الناس، قد أكثرتم فى أمر أبى موسى ، وعمرو ! وإنما بُعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن . . فمن كان هكذا لم يكن حَكَماً ، ولكنه محكوم عليه .. وقد كان من خطأ أبى موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر !

« فأخطأ فى ثلاث خصال :

« خالف أباه عمر ، إذ لم يرضَه لها ، ولم يره أهلا لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ! ولا أدخله فى الشورى ، إلا على أنه لاشىء له فيها ، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى !

« فهذه واحدة !

« وثانية .. لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يعقدون الإمامة ، ويحكمون على الناس !

« وثالثة .. لم يستأمر الرجلَ فى نفسه ، ولاعلم ماعنده من ردٍّ أو قبول . . » ثم جلس . فقال علىّ لابن عباس : قم فتكلم ..

فقام ابن عباس ، فقال : أيها الناس . . إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه .

« وإنما سار أبو موسى بهدًى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدًى . . فلما التقيا ، رجع أبوموسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله !

« لقد سار أبوموسى وعلىّ إمامُه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه ! ثم جلس !

فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم .

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« أيها الناس .. هذا أمر كان النظر فيه لعلىّ ، والرضا فيه إلى غيره .

« جئتم بأبى موسى ، فقلتم : قد رضينا هذا ، فارض به !

« وأيم الله، ما أصلحا بما فعلا ، الشامَ ، ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حقّ علىّ ، ولا أحييا باطل معاوية !

ولا يُذْهب الحقَّ قِلةُ رأى ، ولا نفخة شيطان ، وإنّا لعلىٍّ اليوم ، كما كنا أمس له ! ثم جلس ! »(١)

ولسائل أن يسأل : لماذا لم يتكلم علىّ هنا ؟

ونقول : وماذا يقول علىّ ؟ لقد قال من قبل كل شىء ! قال رأيه فى الحكومة ، ثم قال رأيه فى الحكمين ، وما ينتظر أن يأتيا به ! فلم يخرج شىء من ذلك عما قال ، ورأى .. فليس — والأمر كذلك — من جديد يقوله الآن، بعد أن انتهى الأمر إلى تلك النهاية المفجعة المحزنة !

لقد سئم علىّ الحديث إلى أصحابه ، بعد أن رأى خلافهم عليه ، وخذلانهم له ، فكان أن دعا بعض أهله ، لينطقوا بما يجمجم فى صدره ، من حزن وأسى !

ابن عمر وأبو موسى :

وذكروا أنه حين علم ابن عمر بما كان من رأى أبى موسى فى ترشيحه للخلافة — كتب إليه يقول :

« أما بعد يا أبا موسى ، فإنك تقربت إلىّ بأمر لم تعلم هواى فيه !

« أكنتَ تظن أنى أبسط يداً إلى أمر نهانى عنه عمر ؟

« أو كنتَ ترانى أتقدم على علىّ ، وهو خير منى ؟ لقد خِبتُ إذا وخسرت ، وما أنا من المهتدين ! فأغضبتَ بقولك وفعلك علىّ، عليًّا ومعاوية !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٤٤ .

« ثم أعظم من ذلك ،خديعةُ عمرو إياك ، وأنت حامل القرآن ، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله ، وصاحب مغانم أبى بكر وعمر .. فقدّمك عمرو للقول ، مخادعاً .. حتى خلعت عليا قبل أن تخلع معاوية ، ولعمرى .. ما يجوز لك على علىّ ، ما جاز لعمرو على معاوية ، ولا ماجاز لنا عليه ! »

الحرب مرة أخرى :

كان لابد من الاحتكام إلى السيف ، مرة أخرى ، بعد أن انتهى أمر التحكيم ، إلى تلك النهاية السيئة ، التى كان يُرجى من ورائها ، مداواة هذا الجرح الغائر ، الذى يتدفق دماً من جسد الأمة العربية ، فإذا بها توسّع هذا الجرح ، وتعمق أغواره !

قام علىّ على منبر الكوفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن معصية العالم الناصح ، تُورث الحسرة ، وتُعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين ، وفى هذه الحكومة ، بأمرى ، فأبيتم إلا ما أردتم ! ! فأحييا ما أمات القرآن ، وأماتا ما أحيا القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، يحكم بغير حجة ، ولا سنة ظاهرة .. واختلفا فى أمرهما وحكمهما ، فكلاهما لم يُرْشدا الله ، فبرىء الله منهما ورسوله ، وصالحو المؤمنين !

«فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، ثم أصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين بالنخيلة .. وإنما حكمنا من حكمنا ، ليحكما بالكتاب ، فقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب ، وبغير السنّة !

والله لأغزونهم ، ولو لم يبق أحد غيرى لجاهدتهم ! »[1]

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ — ١٤٩ .

وكتب عليّ إلى ابن عباس ، عامله على البصرة ، كتاباً ، يقول له فيه :

« أما بعد ، فإنا أجمعنا على المسير إلى عدوّنا من أهل الشام ، فأشخِصْ إلىّ مَن قِبَلك ، من الناس ، وأقِم حتى آتيك ، والسلام . »

فلما وصل كتاب عليّ إلى ابن عباس ، قرأه على الناس ، ثم أمرهم بالشخوص ، مع الأحنف بن قيس ، فشخص معه ألف وخمسمائة رجل ! فاستقلّهم ابن عباس ، فقام خطيباً فى أهل البصرة ، فقال :

« يا أهل البصرة ، قد جاءنى كتاب أمير المؤمنين ، يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالمسير مع الأحنف بن قيس ، فلم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم فى الديوان ستون ألفاً ، سوى أبنائكم ، وعبدانكم ، ومواليكم ! ألاَ فانفروا ، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً ، فإنى مُوقع بكل من وجدته تخلّف عن دعوته ، عاصياً الإمام — حزناً يعقب ندما ! وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم ، فلا يَلُم امرؤ جَعل السبيل على نفسه ، إلا نفسَه ! »

فاجتمع لأبى الأسود ألف وسبعمائة رجل ! فكان عدة من خرج من البصرة ثلاثة آلاف ومائتى رجل !

وسار عليّ بمن اجتمع له من أصحابه ، إلى صفّين ، وسار معاوية بمن اجتمع له من أهل الشام ، إلى صفّين .. وتهيأ الفريقان ، لمعركة فاصلة ، أقسى قسوةً ، وأشد ضراوة ، مما كان فى صفّين الأولى ، حيث لم يعد هناك سبيل إلى المصالحة والموادعة .. فإما نصر ، وإما هزيمة ! ولا ثالث غيرهما !

ولكن وراء تقدير الناس وحسابهم ، تقدير وحساب !

فلقد شاء القدر — وعليّ فى طريقه إلى معاوية — أن تخرج عليه جماعة الخوارج ، فيلقاهم أولاً ، لقاء الناصح ، الحريص على سلامة دينهم ودنياهم ،

فيأبون إلا اللّجاج والعناد ، ثم البغى والعدوان ، فلا يجد الإمام مناصاً من الفراغ من أمرهم ، قبل أن يلقى معاوية ، حتى يؤمّن ظهره ، وحتى يطمئن الجند إلى سلامة أعراضهم وأموالهم وأهلِيهم وهم فى جبهة القتال !

ويفرغ الإمام من الدّفعة الأولى من الخوارج ، بضربة واحدة ، تقضى على بضعة آلاف ، كانوا من أكثر أنصاره إيماناً ، وأشدّهم حرصاً على الحق الذى يقاتل عليه ! ولكن فتنة التحكيم ذهبت بعقولهم ، وأفسدت عليهم معتقدهم !

ويعود الإمام ، ليجمع نفسه المشتتة ، ويضمّد جراحه قلبه الحزين على أصحابه .. ويُشغَل بهذا أياما عن وجهته إلى صفين ، وإذا جيشه الذى بين يديه يتبدّد ، ويتفرق . . ! !

وينظر الإمام فى أمره ، فلا يجد بداً من الحرب ، ولو خرج إلى العدوّ وحده . !

ويتهيأ للخروج بما اجتمع له من أصحابه ؛ حتى يلقى معاوية وأهل الشام ، بعد انتهاء الأجل المضروب للتحكيم ، وهو رمضان !

ومرةً أخرى ، يجىء القَدر ، بيد غادرة آثمة ، تغتال الإمام وهو غادٍ إلى صلاة الصبح ، مع الغسق ، ينادى فى الناس بالصلاة ! فيخرّ الإمام صريعاً ، ويلقى ربّه شهيداً !

[الإمامُ وهذا التحكيم]

ولابد من وقفة هنا ، مع قضية التحكيم ، حيث كانت نقطة تحول فى الخلاف الذى كان بين علىّ ومعاوية ! كما كانت مدخلاً إلى الفتنة التى نجم عنها الخوارج ، وما أُصيب به الإسلام والمسلمون على أيديهم !

والسؤال هنا : هل كان من الحكمة ، والسياسة ، أن يقبل الإمام علىّ

التحكيم ، وأن يجعل أمر الخلافة إلى حكومة تفصل فيها ، بعد أن بايع الناس له بها ، وبعد أن قاتل الخارجين عليها ؟

والرأى أن قبول الإمام علىّ للتحكيم ، لم يكن مما تجيزه الحكمة ، أو تقضى به السياسة !

فقد كان الإمام من يوم أن بايع له المسلمون ، بعد مقتل عثمان ، وهو خليفة المسلمين ، لا خليفة لهم غيره . . لا حقيقةً ، ولا ادعاء . . !

وإنما كانت دعوى الذين نازعوه الخلافة ، أنه لم يقتص من قتلة عثمان ! وهذا تسليم ضمنىّ منهم له بأنه الخليفة ، الذى يطالَب بردّ الحقوق إلى أهلها . . فإذا رأوا منه تقصيراً شغبوا عليه ، كما شغب الناس على عثمان !

وقبول التحكيم كان معناه أن الإمام قد نزل عن الخلافة ، وسلّم أمرها إلى الحكمين ، اللذين كان من أهم ما اجتمعا له ، هو اختيار الخليفة الذى يرضيان عنه ، ويريان فى المسلمين الرضى عنه ، سواء كان ذلك بتثبيت الإمام علىّ ، أو خلعه !

وإذن فقد أصبح الإمام علىّ — خلال مدة الهدنة — بمعزل عن الخلافة ، وأصبح المسلمون بلا خليفة ! الأمر الذى أوقع كثيراً من الناس فى بلبال وحيرة ، كما سوّل لكثير من الناس أن يستخفوا بالخلافة ، وأن يخرجوا على طاعة الإمام ، وهم معه ، وفى مصره !

إن قبول التحكيم قد أضعف حقّ الإمام ، بل وأسقط حجته التى كان يحتج بها على معاوية ، من أنه الخليفة الذى بايعه المسلمون !

وغير هذا كان أولى بالإمام علىّ أن يقيم عليه أمره ، فى الخلاف الذى كان بينه وبين معاوية ، وفى الحرب التى قامت للفصل فى هذا الخلاف !

ولكن هل كان أمامَ الإمام عليّ سبيل آخر غير قبول التحكيم ؟ أو بمعنى آخر : هل كان له مندوحة عن قبول التحكيم والتسليم به ؟

لقد رأينا كيف كان الإمام — كرم الله وجهه — يلقى الكيد له ، والخلاف عليه ، فى جيشه ، وبين أصحابه ، وأن أمره لم يكن مع أصحابه مستقيما على الوجه الذى يمكّن له من إنفاذ رأيه ، وإمضاء عزيمته !

وحين ظهرت الدّعوة الخادعة بالاحتكام إلى كتاب الله ، كان قد هيأ لها معاوية الظروف المنجحة لها بين أصحاب علىّ . فإن قبلوا التحكيم قبلوه مختلفين ، وإن ردّوه ردّوه مختلفين . . فهى الفرقة على أى حال ، وهو الخلاف والتنازع على أى وجه !

وفى الشرّ خيار ، وقد رأى الإمام أن يختار خيرَ الشّرّين ! !

اختار العافية ، وآثر السّلم ، وقدّر أن الحكمين إذا حكما بكتاب الله لن يعدواه عن حقّه ، ولن يعدلا به عنه إلى غيره . . وإن يكن ذلك على احتمال ضعيف ، لِمَا يعلم الإمام من أمر الحكمين — فإنه على أى حال خير من حرب صريحة ، ومن قتال قائم يذهب فى كلّ لحظة بعشرات الأرواح من المسلمين !

ويجب أن نستحضر هنا المشاعرَ المستولية على الإمام ، وهو يحارب أهل الشام !

إنه يحارب ، وهو على يقين بأنه يحارب مسلمين ، وأنه يقتل ، وهو يعلم يقينا أنه يقتل مسلمين ! ولكنه مستيقن أيضاً أنه إن لم يفعل هذا كان ذلك فتنة فى الأرض وفسادًا كبيراً !

فهو فى حرب مكرهٍ عليها ، كما يُكره المرء على قطع جزء من أعضائه لصلاح بقية الأعضاء ! .. وإنه فى هذا عند قول الشاعر الذى يقول :

إذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القُربَى ففاضت دموعها !

وأولى القرابات التى يذكرها الإمام هنا ـ وهو يقتل أهل الشام ـ قرابةُ الإسلام ، التى تجمعهم إليه ، وتصلهم به !

فى حديث بين الإمام ، وجماعة من الخوارج ، الذين أنكروا عليه أمر التحكيم ، ورموه بالكفر ، هو ومن رضى هذا التحكيم — فى هذا الحديث يقول الإمام لهم :

« ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف — حيلةً ، وغيلةً ، ومكراً ، وخديعة ـ إخوانُنا ، وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه .. فالرأى القبول منهم ، ، والتنفيس عنهم ؟

« فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان ، وباطنه عدوان ، وأوّله رحمة ، وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعَضّوا على الجهاد بنواجذكم ، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق . . ان أجيب أَضَلّ ، وإن ترك ذَلّ ؟ وقد كانت هذه الفَعْلة ، وقد رأيتكم أعْطيتموها ! والله لئن جُنّبتُها ماوجبت علىّ فريضتها ، ولا حمّلنى الله ذنبها . . ووالله إن جئتها[1] إنى للمحقّ الذى يُتّبع ، وإن الكتاب لمعى ، مافارقته مذ صحبته !

« ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن القتل ليدور بين الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والقرابات ، لا نزداد على كل مصيبة وشدّة ، إلا إيماناً ، ومُضياً على الحق ، وتسليما للأمر ، وصبرًا على مضض الجراح !

« ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام ، على مادخل فيه من الزيغ ، والاعوجاج ، والشبهة والتأويل ! فإذا طمعنا فى خصْلة يَلُم الله بها شَعْثَنا ،

---

(١) أى إن قبلت التحكيم .

ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا ، رغبنا فيها ، وأمسكنا عما سواها ! ! »[1] .

وهذا المقطع الأخير من حديث الإمام هو مقطع الأمر ، فى هذه القضية ، التى يقاتل عليها . . فهو إنما يقاتل جماعة من المسلمين ، لا يخرجهم عن الإسلام ، أن ضلّوا الطريقَ السّوِىّ ، وتنكبوا النهج القويم ! .

وهذا على خلاف الحرب التى كانت تدور بين المسلمين ، وبين أهل الشرك من قريش . . إذ كان فيها الأخ يلقى أخاه ، والابن يحارب أباه ، غير ناظر إلى عاطفةٍ ، أو مبقٍ على مودةٍ . . إنه يقاتل فى سبيل الله ، ويقتل من كفر بالله ، وحادّ الله ورسوله ! .

أما هنا، فالأمر مختلف : حرب يقاتل فيها المسلم المسلم ، ويقتل فيها المسلم أخاه المسلم ! :

إن هنا تحرجًا وتأثمًا . .

وإن هناك استكثاراً من ثواب ، واستزادة من رضى الله ورضوانه ! .

ذلك هو واقع الحال ، عند الإمام ، وتلك هى معطيات نظرته إلى هذه الحرب الدائرة بينه وبين معاوية وأصحابه ! .

فإذا هو رأى بارقة من أمل فى الإبقاء على هذه الدماء التى تجرى أنهاراً بين جماعات المسلمين ، لم يكن له أن يدع هذه الفرصة السانحة ، وإن كان الرجاء ضعيفاً والأمل واهيا . . فهو على أى حال ، شىء ، خير من لاشىء ! .

* * *

وحين جاءت حكومة الحكمين ، بما أوقع الخلافَ والاضطرابَ بين أصحاب علىّ . . خطب الإمام فى الناس ، فقال :

---

(١) نهج البلاغة : ١ — ١٢٠

« إنا لم نحكم الرّجال ، وإنما حكّمنا القرآن !

« وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين . . لا ينطق بلسان ، ولا بدّ له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ! .

« ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريقَ المتولى عن كتاب الله ، وقد قال الله سبحانه : « فإن تنازعتم فى شىء ، فردّوه إلى الله والرسول » فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه ، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته ! .

« فإذا حُكِم بالصدق فى كتاب الله ، فنحن أحق الناس به ! ، وإن حكم بسنّة رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، فنحن أولام به !

« وأما قولكم : لم جعلتُ بينكم وبينهم أجلاً فى التحكيم ؟ .

« فإنما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعلّ الله أن يصلح فى هذه المدنة أمرَ هذه الأمة ، ولا تؤخذ بأكظامها[1] ، فتعجل عن تبيّن الحق ، وتنقاد لأوّل الغىّ! »[2] .

هذا هو وزن الإمام — كرم الله وجهه — لهذه الحرب الله التى يقاتل فيها . . يقاتل متحرجاً . . ويقتل موجعًا متألمًا ! .

فإذا اجتمع إلى ذلك خلاف أصحابه عليه ، والتوائهم به ، كان قبول المدنة أرجح عنده من رفضها . وفى تقديره أن فترة السّلم إن لم تصلحْ مابينه وبين معاوية ، فقد تصلح ما بينه وبين أصحابه ، الذين لجّ بهم العناد ، وطار بهم الخلاف كل مطار ! .

---

(١) الأكظام : جمع كظم وهو مخرج النفس .

(٢) نهج البلاغة : ١ : ١٢٢ .

يقول الإمام فى بعض ما يقول لأصحابه :

« مُنِيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتْ ، ولا يجيب إذا دعوت ، لا أبالـكم ! ما تنتظرون بنصر ربكم ؟ أمَا دين يجمعكم ، ولا حميّة تحمُشُكم ؟ أقوم فيكم مستصرخاً ، وأناديكم متغوّثاً ، فلا تسمعون لى قولًا ، ولا تطيعون لى أمرًا ، حتى تكشفت الأمور عن عواقب المساءة ، فما يُدرك بكم ثأر ، ولا يُبلغ بكم مرام ! »[1] .

وأيًّا كان الرأى السياسى فى « التحكيم » فإنّه من جهة الدِّين أمْرٌ يُصار إليه فى كل خلاف يقع بين المسلمين ، أفراداً وجماعات ! فتلك هى دعوة القرآن ، وشريعة أصحاب القرآن : « فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول » ! فما أحدٌ يُدْعى إلى كتاب الله ، وإلى سنة الرسول ، ليكون إليهما الحكم فيما اختلف فيه مع غيره ، ثم يردّ ذلك ويأباه — إلا كان آثماً معتديًا ، وظالماً لنفسه قبل أن يكون ظالما لغيره ! .

ومع هذا ، فقد جاء إلى الإمام علىّ مَن ينكر عليه التحكيم ، ومن يرى قبوله له عدوانًا على الدين ، بل خروجًا منه ، وهؤلاء هم جماعة الخوارج ، الذين قالوا بتكفير علىّ وأصحابه الذين قبلوا التحكيم ، وبهذا القول ، استباحوا دماء الفريقين المتحاكمين ، وأصبحوا حربًا على كل مسلم لا يرى رأيهم ، ويحمل السيف على المسلمين معهم ! .

وقد كان الحسن البصرى — رضى الله عنه — وهو من أصحاب علىّ — كان ينكر التحكيم ، ولكنه لا يرى رأى الخوارج فى تكفير المحتكمين ! .

---

(١) نهج البلاغة : ١ / ١٤١ .

يقول صاحب الكامل :

« فأما أبو سعيد — الحسن البصرى — فإنه كان ينكر الحكومة ، ولا يرى رأيهم — أى الخوارج — فى تكفير المحتكمين . . وكان إذا جلس[1] ، فتمكن فى مجلسه ، ذَكَرَ عثمان ، فترحّم عليه ثلاثاً ، ولعن قَتَلَتَه ثلاثاً ، وقال : لو لم نلعنهم لَلُعِنَّا ! ثم يذكر علياً ، فيقول : « لم يزل أمير المؤمنين علىّ ، رحمه الله ، يتعرّف النصر ، ويساعده الظفر ، حتى حكّم ! ! فَلِمَ تحكّم والحق معك ؟ .

ألا تمضِى قُدُمًا — لا أبا لك — وأنت على الحق ؟ » .

ويعلّق صاحب الكامل على قولة الحسن : « لا أبا لَكَ » يخاطب بها عليًّا . . فيقول :

« وهذه كلمة فيها جفاء ، والعرب تستعملها عند المسألة والطلب ، فيقول القائل للأمير ، والخليفة : انظر فى أمر الرعية . . لا أبا لك ! .

وسمع سليمان بن عبد الملك رجلاً من الأعراب ، فى سَنَة جدبية يقول :

ربَّ العباد ، ما لنــا وما لــكا قد كنتَ تسقينا فما بدا لَـكَا

أنزلْ علينــا الغيثَ لا أبا لَـكَا

فأخرجه سليمان أحسن مخرج ، فقال : « أشهد أنه لا أب له ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، وأشهد أن الخلق جميعًا عياله ! »[2] .

---

(١) أى للحديث ، والدرس ، وذلك فى مسجد البصرة ، حيث يجتمع إليه الناس ، ليسمعوا منه ! .

(٢) الكامل ، للمبرد : ٢ : ١٣٦ .

وليس الحسن البصرى وحده هو الذى أنكر الحكومة ، مع الاحتفاظ بولائه لعلىّ ، والمسلمين جميعًا ، الذين قبلوا التحكيم والذين لم يقبلوه ! بل كان كثير من أصحاب علىّ على مثل هذا الرأى ، من إنكار الحكومة ، ينكرونها ديانة وسياسة معًا ! .

وقد كان من هؤلاء — على ما رأينا — عمار بن ياسر ، رضى الله عنه ، الذى لم يرض بالتحكيم ، ولم يقبل النزول على رأى الإمام فيه ، حين قَبِله ، بل لقد جابه الإمام علىّ بقوله : مالك يا أبا الحسن ؟ شككتنا فى ديننا ، ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان هذا قبل السيف ؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا ضال حلال الدّم ؟ وقد حكم الله تعالى فى هذه الحال ما قد سمعت ، فإن كان القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كلّه لله ! ! والله ما أسلموا ، ولا أدّوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا طفئت الفتنة ! ! .

فقال على : والله إنى لهذا الأمر كاره ! »[1]

وعلىّ كاره لهذا الأمر . . مافى هذا شك ! ولو لم تحدّث بذلك الأخبار ، لكان لنا فيما نعلم من فطنة الإمام ، وألمعيته ، ورأيه فى دعاة التحكيم ، مايجعلنا نقطع بأن الإمام لم يسلّم بالتحكيم إلا تحت ظروف قاهرة ، وإلا دفعاً لبلاء عظيم ، دونه البلاء المتوقع من التحكيم !

وقد رأينا أن عماراً — رضى الله عنه — وضع سيفه على عاتقه ، وهتف

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٣١ .

بالناس : مَن رائح إلى الجنة ؟ فخرج إليه نحو خمسمائة رجل ، فضرب بهم فى جيش معاوية ، فقاتلوا ، وقَتَلوا ، حتى استُشهدوا ، واستُشهد عمار ! !

وماذا نقول فى عمار وأصحابه ؟ وقد خرجوا على المحتكمين ، ولم يرضَوْا بما اتفقا عليه ، فقاتلوا حتى قُتلوا ؟ أهم طليعة لهؤلاء الخوارج الذين عُرفوا بعد بهذا الاسم المخيف ، الكريه ؟

قد تقول : إنّ الخوارج كانوا حَرْباً على المسلمين جميعاً .. أما عمار وأصحابه فقد حاربوا معاوية ومن معه ، ولم يحاربوا عليًّا وأنصاره !

وهذا اعتراض شكلى ! فما فعله عمار هو خروج صريح على الإمام علىّ ، واعتراض عملى على هذا الأسلوب الجديد ، فى معالجة الخلاف الذى بينه ، وبين معاوية ! وإن لم يبلغ ذلك بعمار حدَّ القتال لعلىّ !

وإذا لم يكن « عمار » قد خرج على علىّ خروج المحارب له ، فإن بعض أصحاب علىّ قد خرجوا عليه خروج المقاتلين .. ! دون أن ينكر عليهم أحد ذلك !

وقد عرفنا خبر ذلك الرجل اليشكرى ، صاحب الفرس الأبلق الذى جاء إلى علىّ بعد أن وقّع على كتاب الصلح ، فقال له : ياعلىّ .. أكفرٌ بعد إسلام ؟ ونقض بعد توكيد ؟ ورِدّة بعد معرفة ؟ أنا من صحيفتكما برىء ! ومن أقرّ بها برىء ! ثم حمل على أصحاب معاوية ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش أتى عسكر علىّ ، فاستسقى فسُقِى ، ثم حمل على عسكر علىّ ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش أتى عسكر معاوية ، فاستسقى ، فسقى ! »[1] .

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ١٣٩ .

إن الرّجل قد رأى أن عليًّا بقبوله الصلح لم يعد خليفة على المسلمين ، فناداه باسمه مجرداً يا علىّ ! ولم يقل يا أمير المؤمنين ! .

ثم إنه بدأ بمعاوية وأصحابه فطعن فيهم ، ثم عاد إلى عليّ وأصحابه فطعن فيهم ! وعلى هذا ، فإن الفريقين قد أفسحوا للرجل مجال العذر ، وتركوه ينفّس عن ثورته على التحكيم ، بهذه الضربات ، التى ضرب بهما هنا وهناك ! .

وفى رواية الكامل أن رجلاً من أصحاب علىّ ، من هَمَدان ، عطف على اليشكرى فقتله ، وفى هذا يقول شاعر همدان :

ما كان أغنى اليشكرىّ عن التى تَصلّى بها جمْرًا من النّار حاميا
غداةَ ينادى والرماح تنوشه خلعتُ عليًّا باديًا ومعاويا[1]

ومعنى هذا أنه خلع عليًّا أولاً ، وأعلن خروجه عليه ، وذلك أنه قد كانت فى عنقه بيعة لعلىّ ، ولم يكن لمعاوية بيعة ! .

* * *

(١) الكامل للمبرد : ٢ : ١٢١ .

الخوارج وما دخل عليهم

وإذن ، فإن لنا أن نقول : إن « الخوارج » الذين عُرفوا بهذا الاسم فى تاريخ الإسلام ، والذين كان لهم دور كبير فى التفكير الإسلامى ، فى أوسع مدًى ـ هؤلاء الخوارج هم نبتة إسلامية خالصة ، ولدت فى الإسلام ، ونمت وترعرت فى الإسلام ، وإن يكن قد دخل عليها شىء من واردات العقل اليونانى ، أو الهندى ، أو الفارسى ، فهو شىء قد جاء بعد أن استكمل الخوارج وجودهم ، وبعد أن دار بهم الزمن دورة اصطدموا فيهـا بالجبهات المعارضة لهم ، ديانة ، أو سياسة ! .

وظهور الخوارج كان أمراً طبيعياً ، فرضته الأحداث التى كانت جارية ، فى الخلاف بين علىّ ومعاوية ، ولم يفرض من خارج هذه الأحداث ! .

والذى يتتبع خطوات الخارجين على التحكيم ، يجد أن الذين قادوا هذه الجماعة أول الأمر ، كانوا أكثر الناس ولاء لعلىّ ، وأحرصهم على سلامة دينهم ، وأشدهم زهداً فى الحياة ، وفيما يقتتل عليه الناس من متاعها ! .

كان هذا هو شأن الجماعة الخارجة فى أول أمرها . . ولـكن ما إن تنعزل عن الناس ، وتتخذ لها جبهة خاصة بها ، حتى تنحرف عما عليه جماعة المسلمين ، وحتى ليحملها العناد والشقاق على أن تشتط ، وتمعن فى الشطط ، وإذا هى خارج دائرة الإسلام ، تستحل دم المسلمين جميعاً ، وتستبيح أموله وأعراضهم ، دون تقيّة أو حرج ! .

وإنه لخلاف بعيد المدى ، عميق الغوْر ، بين أول الخوارج وآخرها . . بدأت مؤمنة ، حريصة على إيمانها ، مبالغة فى الحرص عليه ، وانتهت فرقاً

يكفّر بعضها بعضاً،ويلعن بعضها بعضاً ، وعصابات من الفتّاك وقطاع الطريق ، يقتلون ، ويخرّبون ، ويهلكون الحرث والنسل ! .

« لا حُكم إلا لله ! » :

هذه الكلمة من الكلمات القليلة ، الخلاّقة ، ذات الإيحاء الساحر ، الآخذ بالعقول ، المستولى على المشاعر والمنازع !

وليس فى العبارة علوّ فى البلاغة ، ولا بِدْع فى الصياغة ، ولا طرافة فى الأداء . . بل هى فى تركيبها هذا ، أقربُ إلى المألوف الدارج، منها إلى الطريف النادر ! .

ومع هذا فقد كانت من أقوى العبارات ، سحراً ، وفعلاً ! !

والسرّ فى هذا أنها ظهرت فى وقتها ، وجاءت فى الحال الداعية إليها . . فوقعت من النفوس موقع التائه فى الصحراء يجد الطريق الذى كان ينشده ! .

هكذا الكلمات ، والعبارات . . تكبرُ قيمتها ، ويعظم قدرها ، حين تكون الحاجة إليها داعية ، والنفوس لها طالبة ، دون نظر أو اعتبار لما فى ذاتها ، وفى حلاوة جرسها ، وبراعة تركيبها ! .

إن لقمة ، خشنة ، جافة ، تجىء على جوع . أشهى ، وأغلى ، من مائدة جمعت ألين الطعام وطيّبه ، تجىء على شبع وامتلاء ! .

وانظر كيف جاءت كلمة : « لا حكم إلا لله » إلى نفوس حائرة ، فكانت دليلها ، وإلى قلوب مضطربة ، فكانت أمْنَها وسكَنَها ! ! .

هناك مئات وألوف من أصحاب علىّ ، حاربوا معه ، ابتغاء مرضاة الله ، وهيأوا أنفسهم للاستشهاد فى سبيل الله ، أو ردّ الفئة الباغية إلى طريق الحق الذى شردت عنه ! .

ثم ها هم أولاء يرون دعوةً إلى وقف القتال ، وإلى الاحتكام إلى كتاب الله ! .

وفيم كان هذا القتال إذن ؟ ، وما ثمن هذه الأرواح التي ذهبت ، وتلك الدماء الغزيرة التي أريقت ؟ .

كان مئات وألوف من أصحاب عليّ في حيرة من أمرهم . . لايدرون كيف يجدون الجواب ، الذي تسكن به هذه الحيرة المتلجلجة في صدورهم ! .

وقد خطبهم الإمام عليّ ، وأرضى كثيراً منهم بمنطقه وبلاغته ، لكن كثيرين كان داء الحيرة عندهم أكبرَ من أن تذهب به بلاغة الإمام ومنطقه ! .

ولهذا فإنه ما إن هتف الهاتف بهذه الكلمة العابرة الطائرة ، حتى لقِفتها الآذان ، وتنادت بها الألسنة ، وإذا هي راية يجتمع عليها جيش كانت قد سقطت رايته ، ووقع الاضطراب في صفوفه ! .

« لا حكم إلا لله ! » .

أيّ كلمة هذه ، التي لا يدري أحد من هتف بها ، فكانت دعوةً مستجابة ، اجتمع عليها الأنصار ، وقام باسمها مجتمع ، يعيش بإيحائها ، ويحارب تحت رايتها ، ويُقْتَلَ أو يَقْتُلَ في سبيلها ؟ .

يقول صاحب الكامل في وصف الخوارج :

« وكان في جُملة الخوارج لَدَدٌ واحتجاج ، على كثرة خطبائهم ، وشعرائهم ، وتوطين أنفسهم على الموت . فمنهم الذي طُعن ، فأنفذه الرمح ، فجعل يسعى فيه إلى قاتله ، وهو يقول : « وعجلتُ إليك ربِّ لترضى » ! .

يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لما وصفهم قال : « سيماهم التحليق ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ! »[1] .

وتلك هى عاقبة الوقوف بالدِّين عند الرسوم والأشكال ، دون الأخذ بما وراء ذلك ، من معان كريمة ، وثمرات طيبة ، تهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ! .

وانظر كيف كانت وقفة الخوارج على أشكال الدين ورسومه ، حاجزا حال بينهم وبين أن ينتفعوا بما أخذوا به أنفسهم من جهادٍ فى الزهد ، والعبادة ، حتى ليبيت أحدهم ساجدًا ، ويصبح صائمًا . . ثم يهجم على الموت فى ساحة القتال ، وكأنه يسعى إلى لقاء حبيب ، رآه بين يديه ، بعد طول انتظار ! .

ولو أن القوم تخففوا شيئاً من غُلَوائهم ، فى التمسك بالشكليات ، وعالجوا الأمور بلطف وحكمة لَمَا ركبوا هذا الطريق الوعر ، الذى شقّوا فيه على أنفسهم ، وجنَوا به تلك الجناية الكبرى على الإسلام والمسلمين ! .

يروى أنه حين تهيأ للخوارج المدد الذى وجدوا معه القوة والقدرة على الظهور ومواجهة الناس — خرجوا إلى ظاهر الكوفة ليتخيّروا لهم مكاناً يجتمع إليهم فيه من كان على رأيهم . .

وفيما هم سائرون ، إذا رجل يسوق امرأته على حمار له ، فقالوا له : من أنت ؟

قا : أنا رجل مؤمن ؟

قالوا : ما تقول فى علىّ بن أبى طالب ؟

---

(١) الكامل للمبرد : ٢ : ١٣٩ .

قال : أمير المؤمنين ، وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله !

قالوا : فما اسمك ؟

قال : عبد الله بن خبّاب بن الأرَتّ .. صاحب رسول الله[1] .

فقالوا : أفزعناك ؟

قال : نعم !

قالوا : لا رَوْع عليك ! حدّثنا عن أبيك ، بحديث سمعه من رسول الله، لعل الله ينفعنا به !

قال : نعم . . حدثنى أبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستكون فتنة بعدى ، يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت بدنه ، يمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً »

قالوا : لهذا الحديث سألناك . . والله لنقتلنك قِتلة ما قتلناها أحداً !

فأخذوه ، وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبامرأته ، وهى حُبْلى مُتِم[2] ، حتى نزلوا تحت نخلة ، فسقطت رطبة منها ، فأخذها بعضهم ، فقذفها فى فيه ، فقال له أحدهم : بغير حِلٍّ أكلتها ! فألقاها من فيه . . ! !

ثم أخذ بعضهم سيفاً فضرب به خنزيراً لأهل الذمة ، فقتله ، فقال له بعض أصحابه : إن هذا من الفساد فى الأرض ! فأرضِ الرجل عن خنزيره !

فلما رأى عبد الله بن خباب ، ذلك منهم ، قال : لئن كنتم صادقين

---

(١) خباب : هو صاحب رسول الله .. وليس ابنه عبد الله

(٢) أى فى تمام حملها!

فيما أرى ، فما علىّ منكم بأس ! والله ما أحدثتُ حَدَثا فى الإسلام ، وإنى لمؤمن ، وقد أمنتمونى ، وقلتم : لا روْع !

فأخذوه وامرأته ، فأضجعوه على شفير النهر ، على ذلك الخنزير ، فذبحوه فسال دمه فى الماء ، ثم أقبلوا إلى امرأته ، فقالت : إنما أنا امرأة ! أما تتقون الله ؟ فبقروا بطنها ! وقتلوا ثلاث نسوة ، فيهم أم سنان ، قد صحبت النبى صلى الله عليه وسلم ! »[1] .

فانظروا إلى هذا التزمت العنيف فى الدين ، وإلى هذا التشدد المقيت فى هِنَات الأمور وصغائرها ـ كيف يدفع بالنفس دفعاً إلى ركوب المنكر ، واقتراف الكبائر فى غير تأثم أو تحرج ؟

إنه الكبت الشديد للنفس ، والضغط القوىّ عليها ، يذهبان بها آخر الأمر إلى الترخص فى الكبائر ، والدخول إليها من مداخل التأويل ! !

يتحرجون من أكل رطبة ساقطة ، ولا يتأثمون من ذبح رجل مؤمن ، لم يُحدث حَدَثا ، ولم يأت منكراً ! وليس له من ذنب إلا أنه على رأى يخالف رأيهم ، على حين أنهم لا يفعلون ذلك مع من كان على دين غير دينهم !

والمرأة ؟ ماذنبها ؟ وما جنايتها ؟ وما جناية الجنين الذى فى بطنها ؟ وما ذنبه ؟

والنسوة الثلاث . . ماخطبهن ؟ هل كنّ محاربات ، أو حتى صاحبات رأى معروف فى هذه الفتنة ؟

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ ـ ١٥٣

وللخوارج على هذا المذهب المنحرف عن المنطق ، وعن العقل ـ أقوال ومدعيات ، أمسكوا بها ، وعقدوا عليها قلوبهم وعقولهم !

* * *

قيل : إن أول من حكم ، ولفظ بالحكومة ، رجل يقال له الحجاج ابن عبد الله ، ويعرف بالبُرَك[1] .. فلما سمع بذكر الحكمين ، قال ، أيحكم في دين الله ؟ لا حكم إلا لله ! فسمعه سامع ، فقال : طعن والله فأنْفَذ !

وحين سمع عليّ ـ كرم الله وجهه ـ هذه القولة ، قال : « كلمة حق أريد بها باطل لابد من إمارة . برّة أو فاجرة ! » .

ولما انتبذ الخوارج ناحية من المسلمين ، وأخذوا يُعدّون أنفسهم للحرب ، بعث إليهم عليّ ـ كرم الله وجهه ـ عبد الله بن عباس ، ليناظرهم ، وليأخذ الحجة عليهم . فقال لهم :

ماالذى نقمتم على أمير المؤمنين؟

قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكّمَ في دين الله ، خرج من الإيمان فليتُبْ بعد إقراره بالكفر . تَعُدَ له[1] !

فقال ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن ، لم يَشُب إيمانه شك ، أن يُقِر على نفسه بالكفر !

قالوا : إنه قد حكّم !

---

(١) وهو الذى كان فيا بعد أحد الخوارج الثلاثة . الذين تآمروا على قتل على ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص . وكان هو الذى ضرب معاوية . فلم يصب منه مقتلا .

(٢) أى تعود له الإمرة على المؤمنين .

قال : إن الله عزّ وجل ، أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عَدْلٍ منكم » فكيف فى إمامة ، قد أشكلت على المسلمين ؟

قالوا : إنه قد حُكِمَ عليه فلم يرض !

قال : الحكومة كالإمامة ! ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان ، لمّا خالفا ، نُبذت أقاويلهما !

فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش ، حجةً عليكم ! فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « بل هم قوم خَصِمُونَ » وقال عز وجل : وتنذر به قوماً لُدّاً »(١)

وقد رأى الإمام علىّ أن يلقى القوم بنفسه ، ويَعْذِر إليهم قبل أن يقاتلهم .. فدعا صَعْصعة بن صوحان العبدى ، فقال له : ائت القوم ، ودُلّنى على الرجل المقدّم فيهم ، فجاء فقال له : هو يزيد بن قيس الأرحبى .

« فركب الإمام إليهم إلى حَرُورَاء ، فجعل يتخللهم ، حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج ، فاتكأ على قوسه ، وأقبل على الناس .. ثم قال :

«هذا مقام من فَلَج فيه فَلَج يوم القيامة .

« أنشدكم الله .. أعلمتم أحداً منكم ، كان أكره للحكومة منى؟

قالوا : اللهم لا .

قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟

---

(١) الكامل للمبرد : ٢ - ١٠٦

قالوا : اللهم نعم ! .

قال : فعلام خالفتمونى ، ونابذتمونى ؟ .

قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيما ، فتبنا إلى الله ، فتُبْ إلى الله منه واستغفره ! نَعُدْ لك !

قال : إنى أستغفر الله من كل ذنب ! .

« فرجعوا معه ، وهم ستة آلاف ! فلما استقروا بالكوفة ، أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ، ورآه ضلالًا ، وقالوا : إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يَسْمَن الكُراع ، ويُجبى المال ، فينهض إلى الشام ! .

فأتى الأشعث بن قيس ، عليًا ، كرم الله وجهه ، فقال :

يا أمير المؤمنين . . إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالًا والإقامة عليها كفرا ! ! .

فخطب علىّ الناس ، فقال : من زعم أنى رجعت عن الحكومة ، فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً ، فهو أضلّ ! » .

فخرجت الخوارج من المسجد ، فحكّمت[1] ، فقيل لعلىّ : إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون ! »[2] .

ويلفتنا فى هذا الموقف ظهور الأشعث بن قيس ، وسعيه إلى علىّ بهذا الحديث الذى يقال إن الناس قد تحدثوا به فى شأن التحكيم ! وليس من المستبعد أن يكون الأشعث هو الذى أذاع هذا الحديث ، ثم عاد به إلى علىّ ليوثّق عنده عقد التحكيم ، وليحمل عليًا على أن يخطب فى الناس مؤكداً هذا العقد ، وكأنه إنما يتحدّى بهذا ، مشاعرَ القوم الذين كانوا قد خرجوا

(١) أى نادت بقولتها المعروفة : « لا حكم إلا لله »

(٢) الكامل للمبرد : ٢ : ١٣١ .

عليه ، ثم عادوا معه ! ولو تُرِك الأمر دون إثارة لما هاج هَياج أولئك الذين كانوا بالأمس فى عزلة عن الجماعة ، ولا تزال العيون تأخذهم ، وترقب خطوهم . . وليس شىء تلتئم به جراح هؤلاء الرجال ، غير الزمن ، وتطاول الأيام ! .

ولكن الأشعث — وقد علمنا بعض فعَلاته ، وسنعلم منها ما هو أدهى وأمر ـ عرف كيف يضرب الحديد وهو محمَر ، فنكأ الجرح الذى كاد يندمل ، وأيقظ الفتنة وقد أوشكت أن تنام [1] .

وعند النهروان تجمع الخوارج ، وأعدوا العدة للعدوان ، فسار إليهم الإمام علىّ فى أصحابه ، ثم بعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة أصحابنا منكم ، نقتلهم بهم ! ثم أنا أفارقكم ، وأكفّ عنكم ، حتى ألقى أهل الشام . . فبعثوا إليه : إنا كلنا قتلناهم ، وكلنا مستحِلّ لدمائكم ودمائهم ! .

ثم أتاهم علىّ ، فوقف عليهم ، فقال : أيتها العصابة . . إنى نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً ، وأنتم صرعى إزاء هذا النهر ، بغير برهان ولا سنّة !

« ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم مكيدة ؟ وأنبأتكم أن القوم ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ وأنى أعرف بهم منكم ، وقد عرفتهم أطفالا ، وعرفتهم رجالًا ، فهم شر رجال وشر أطفال ، وهم أهل المكر والغدر ! ؟

« وإنكم فارقتمونى ورأيى ، جانبتم الخير والحزم ، فعصيتمونى ، وأكرهتمونى ، حتى حكّمت ! فلما أن فعلت ، شرطت ، واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ،

فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ! .

« فما نبؤكم ! ومن أين أتيتم ؟ .

« فقالوا : إنّا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا ، وكنا كافرين ، وقد تبنا من ذلك ! فإن شهدت على نفسك بالكفر ، وتبت كما تبنا وأشهدنا ، فنحن معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء ! .

« فقال على : أبعد إيمانى بالله ، وهجرتى ، وجهادى مع رسول الله ، أبوء وأشهد على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ! وَيحَكُمْ ! بما استحللتم قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؟ ألأن اختار الناس رجلين ، فقالوا لهما : انظرا بالحق ، فيما يصلح العامة ؟ .

فتنادى الخوارج : لاتخاطبوهم .. لاتكلموهم .. الرواح إلى الجنة ! الرواح إلى الجنة ! !

ثم شدُّوا على أصحاب علىّ ، شَدَّة رجل واحد ، وقال علىّ لأصحابه : لاتبدءوهم حتى يبدءوكم ، فلما أثخنوا فى أصحاب علىّ ، استقبلت الرماة وجوههم بالنبل ، ثم عطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة ، ونهض علىّ فى القلب بالسيوف والرماح ، فما لبثوا فُواقاً [1] حتى صرعهم الله ، كأنما قيل لهم : موتوا ، فماتوا . »

وسار علىّ فى قتالهم سيرة أصحاب الجمل وغيرهم من المسلمين ، فإنه أخذ مافى عسكرهم من كل شىء . . فأما السلاح والدواب فقسّمه فى أصحابه ، الذين

---

(١) الفواق : مابين الحلبتين للناقة أو الشاة .

شهدوا الحرب معه ، وأما المتاع والعبيد والإماء ، فإنه حين قدم الكوفة ردّه على أهله ! »[1]

هكذا الإمام — كرم الله وجهه — يقاتل على نهج واضح ، وعلى طريق مستقيم .. يضع أمر الحق والعدل ، فوق كل شيء ، غير ملتفت إلى شيء يُدنيه من النصر ، ويمكنه من العدوّ ، إلا أن يجيء صفوا ، عفواً ، لم يختلط بشائبة من بغى ، أو عدوان !

ونظرة عليّ إلى الخوارج إنما هى قائمة على حساب أنهم قوم طلبوا الحق فأخطئوا الطريق إليه ، وتقطعت بهم الأسباب دونه .. ولهذا ، فقد أعذر إليهم ولم يبدأهم بقتال ، فلما بدءوا البغى ، صاروا الفئة الباغية ، ولم يخرجها بغيها عن أن تكون مسلمة !

والحق أن الخوارج — حين خرجوا — كانوا على تلك النيّة الطالبة للحق ، المدافعة عنه بالنفس ، والمفدِّية له بالأهل والولد .

ولكن التزمّت ، والتشدّد فى الدين ، ثم العناد والجدل ، مع إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، كل أولئك قد وسّع شقة الخلاف بين الخوارج وبين جماعة المسلمين ، بل بين الخوارج أنفسهم ، فإنهم مازالوا يتحككون بالمتشابه من القول حتى افترقوا ، واقتتلوا ، وصار بعضهم لبعض عدوا ، يكفره ، ويستبيح منه ما استباح من المسلمين !

وفى كتب الملل والنحل مقولات كثيرة للخوارج ، وفرقهم المتعددة ، وكلها ترجع إلى كتاب الله ، وتتأول آيات الكتاب ، بما يقيم لها حجتها على الرأى الذى تراه ، وتأخذ به !

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ١٥٦ .

كان نافع بن الأزرق على رأس الخوارج ، وهم فرقة واحدة ، لم يقع بينهم خلاف ، يجعل منهم فرقاً متنابذة !

وكان نافع — أول أمره — لايرى قتل أطفال مخالفيهم من المسلمين ، ولايحرّم ذبائحهم ، فجاء إليه رجل يوماً ، فقال له :

إن أطفال المشركين فى النار ، وإن من خالفنا مشرك . . فدماء هؤلاء الأطفال ، لنا حلال !

قال له نافع : كفرت ، وأدللت بنفسك[1] !

قال : إن لم آتك بهذا من كتاب الله ، فاقتلنى ! « قال نُوحٌ ربِّ لاتَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّارًا ، إنك إن تذرهم يُضلّوا عبادَك ، ولا يلدُوا إلا فاجرًا كفارًا » فهذا أمر الكافرين ، وأمر أطفالهم ! .

وقد أخذ نافع بهذا الرأى الذى أوحى به إليه أحد أصحابه . . فشهد أن المسلمين — غيرهم — فى النار ، ورأى قتلهم ، وقال : إن الدار دار كفر ، إلا من أظهر إيمانه[2] ، ولا يحلّ أكل ذبائحهم، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم، ومتى جاء منهم جاء فعلى الخوارج أن تمتحنه ، والقعدُ[3] كفرة » !

ولم يرض هذا الرأى من نافع بعض أصحابه ، فخرجوا عليه ، وانحازوا جانباً ، واتخذوا لهم رئيساً ، هو نجدة بن عامر . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة ، وكتب إلى نافع يقول :

« أما بعد .. فإن عهدى بك ، وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، والضعيف

---

(١) أى أقمت الدليل على نفسك .

(٢) أى آمن بما آمن الخورج به .

(٣) القعد كسبب جمع قاعد ؛ وهو من كان على رأى الخوارج ؛ ولكنه لم يخرج للقتال .

كالأخ البَرّ ، لا تأخذه فى الله لَوْمةُ لائم . ولا ترى معونة ظالم . . كذلك كنت أنت وأصحابك !

«أمَا تَذْكرُ قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل أجرَ جميع رعيته ، ماتوليتُ أمر رجلَيْن من المسلمين ؟ فلما شَرَيتَ نفسك ، فى طاعة ربك ، ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق غُصّة ، وركبت مُرّه ، تجرّد لك الشيطان ، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ، ومن أصحابك ، فاستمالك ، واستهواك ، واستغواك ، وأغواك ، فغَوَيْت ، فأكفرت الذين عَذَرهم الله فى كتابه[1] ، من قَعَدَ المسلمين ، فقال جلّ ثناؤه ، وقوله الحق ؛ ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ، ولا على المرضَى ، ولا على الذين لايجـدون ماينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله » ثم سمّاهم أحسن الأسماء ، فقال : « ما على المحسنين من سبيل » .

« ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم : وقال الله ، عزّ ذكره : « ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرى » .

« فاتق الله ، وانظرْ لنفسك ، واتق يوما لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا . . فإن الله جل ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل . . »

فكتب اليه نافع :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، تعظنى فيه ، وتذكّرنى ، وتنصح لى ، وتزجرنى ، وتصف ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنت أُوثره من الصواب !

« وأنا أسأل الله ، جلّ وعزّ أن يجعلنى من الذين يستمعون القول ،

---

(١) يشير إلى رأى نافع فى تكفير القعدة .

فيتّبعون أحسنه ، وعِبْتَ عليّ مادِنتُ به من إكفار القَعَد ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة !

«أما هؤلاء القَعد ، فليسوا كمن ذكرت ، ممن كان بعهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين ، محصورين ، لايجدون إلى الهرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا . . وهؤلاء — قَعَدُ الخوارج قد فَقَهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نَهج واضح ، وقد عرفتَ ماقال الله عزوجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، فقيل لهم : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟

وقال : « فَرِحَ المخلَّفون بمقعدهم خلافَ رسول الله » وقال : « وجاء المُعذِّرون من الأعرابِ ليُؤْذن لهم ، وقَعَدَ الذين كَذَبوا اللهَ ورسولَه ، سيصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم » فانظر الى أسمائهم وسماتهم !

وأما الأطفال ، فإن نبى الله نوحاً عليه السلام ، كان أعلم بالله ، يا نجدة ، منى ومنك . فقال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّارًا ، إنك إن تَذَرْهم يُضِلوا عبادَك ، ولا يَلِدُوا إلا فاجرًا كَفّارًا » فسمّاهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ! فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نكون نقوله فى قومنا ؟ والله يقول : « أكفّاركم خيرٌ من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزُّبُر ؟ » .

« وهؤلاء[١] ، كمشركى العرب ، لا نقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام[٢] .

---

(١) يشير إلى المسلمين جميعاً ، من غير الخوارج .
(٢) أى الإيمان بما آمن به الخوارج .

« أما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عزّ وجلّ ، أحلّ لنا أموالهم كما أحلّ لنا دماءهم. حلال طَلْق ، وأموالهم فيء للمسلمين ! .

«فاتق الله ، وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة . . . ! »[1]

هذا ضرب من ضروب الجدل الذى يدور فى مدار التحكك بالألفاظ ، لتوليد الحجج ، ونصب الأدلة التى تنصر الرأى ، وتَدْعم المذهب ! .

وطبيعى أن هذا الترامى بالحجج ، وهذا التراشق بالتّهم التى تُدِين بالكفر ، والشرك ، والفسق ، وغيرها ، مما يخرج صاحب الدين من دينه ، ويبيح دمه ، وماله ، وعرضه — لا يمكن أن يُنهى خلافاً ، أو يقيم بين المختلفين سلاماً ، وإنما من شأن هذا أن يُغرى بالعداوة والشحناء ، وأن يُلقى بين الأصحاب والأصفياء ، الفرقةَ والشقاق ، لأوهى الأسباب ! إذ يرصد كل واحد حركات صاحبه ، ويترقب عثراته ، وهفواته ، ولو فى كلمة عابرة ، أو حركة على غير إرادة ! .

فهذا الذى يلتقط رطبة ساقطة ، يضعها فى فيه . . هو معتد أثيم ، من أهل البغى والفساد . . !!

هكذا يصفه أصحابه ، الذين لم يفعلوا فعلته ، ولم يأخذوا مأخذه ! . . وهكذا تتحول الصغائر إلى كبائر ، وتصبح مادة من مواد الدستور لهذه الجماعة!

وزعيم من زعماء الخوارج ، ورأس من رءوسهم ، هو معدان الإيادى ، يعرِض للقَعدَة بكلمة لوم فى قوله :

سلام على من بايع الله شاريا ... وليس على الحزب المقيم سلام

فيمسك به أصحابه ، ويرمونه بالكفر ،لأنه برئ من القَعَدة ، وكان مذهب

---

(١) الكامل للمبرد : ٢ : ١٧٧ .

الخوارج يومئذ قائماً على الإعذار للقَعدة ، وعدم لومهم ، أو تكفيرهم ! ثم يعزلونه ، ويقيمون مكانه عبد الله بن وهب الراسبي[1]» .

ثم يتحول الخوارج بعد هذا عن هذا الرأى ، وإذا القَعَدة عندهم غير معذورين ، وأنهم فى عداد الكافرين . . وفى هذا يقول أحد رؤسائهم ، قَطَرِى بن الفُجاءة ، لأبى خالد القِنَانى ، وكان من قَعَد الخوارج :

أبا خالد ، يا انفِر[2] ،فلست بخالدٍ وما جعل الرحمنُ عُذْرا لقاعِدِ

أتزعم أن الخارجىّ على الهُدى وأنت مقيم بين لصّ وجاحد ؟

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلىّ حبًّا بناتى ، إنّهن من الضِّعافِ

أحاذر أن يَرَيْن الفقْر بعدى وأن يَشْربْن رنْقاً[3] بعد صافِ

وأن يَعْرَين إن كُسِىَ الجوارِى فتنبو العَيْن عن عِينٍ[4] عجافِ

ولولا ذاك قد سوّمت مُهرِى وفى الرحمن للضعفاء كافِ

وهكذا تتحول الأحوال بالخوارج ، وتنقلب أمورهم من النقيض إلى النقيض ، وإذا هم فى فُرقة وشقاق ، وإذاهم عواصف تهب من كل اتجاه ، محملة بآفات قاتلة ، تُهلك الحرث والنسل !

رُوى أن عليًّا — كرم الله وجهه — تُلى بمجلسه قوله تعالى : « قل هل ننبئكُمُ بالأخسَرِين أعمالا ؟ الذين ضلّ سَعْيُهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٩٦ .

(٢) يريد : يا هذا انفر .

(٣) الرنق : العكر .

(٤) العين : بقر الوحش .

أنهم يُحسنون صُنْعًا » فقال : أهلُ حروراء[1] منهم[2]

* * *

ومعذرة ! فقد دفع بنا حديث الخوارج ، إلى حيث كدنا ننقطع عن سيرة الإمام ، التي أوشكنا أن نصل إلى خاتمتها !

ولم يكن فى حسابنا أن نعرض للخوارج ، وللحديث عن مذاهبهم وفرقهم ، إلاّ فى لمحة خاطفة ، تكشف عن الظروف التى جعلت منهم جماعة خارجة على الإمام علىّ ، الذى كانت تقاتل معه ، ثم تعود فتكون مقاتلة له ، والمسلمين جميعاً ، ثم تمتد يد آثمة من أيديهم ، فتقضى على الإمام نفسه . . غيلة وغدراً .

ولكن خرج الأمر من يدنا ، وأوشك أن يكون حديثنا عن الخوارج دراسة خاصة بهم ! ولا ندرى ماذا حملنا على هذا ، إلا أن يكون ذلك عن شعور خفىّ ، دعانا إلى أن نتتبع الخوارج ، ونمسك بمن نلقاه منهم ، لنقيم عليه أدلة الاتهام فى هذا الجرم الغليظ ، ولنلقى عليه تبعة هذا الدم الطهور ، دم الإمام علىّ ، كرم وجهه !

فها نحن أولاء نوشك أن نلتقى بخاتمة حياة الإمام ، ونلمح من بعيد يد اللعين ابن ملجم ، وهى تتهيأ للطعنة الآثمة الغادرة ، فلا نستطيع لها دفعاً ، ولكن حين نرى ابن ملجم وقد فعل فعلته المنكرة الآثمة ، لحساب الخوارج لانملك النفس من تأثيم الخوارج جميعاً ، واستعراض وجوههم المنكرة كلها !

ربما كان حديثنا عن الخوارج هذا الحديث الطويل ، لشىء من هذا ، أو نحوه !

---

(١) أهل حروراء : هم أول من ظهر من الخوارج ، وقد قتلهم الإمام بضربة واحدة !

(٢) الكامل للمبرد ٢ — ١٢١

ومع هذا ، فإن أشأم نَبْتة في تاريخ الخوارج ، وأسوأ وجه من وجوههم لم ينكشف بعد ، وهو عبد الرحمن بن ملجم ، الذي باء بأعظم إثم ، وأنكر منكر !

وسنعرض، لهذا بعد قليل !

صفين . . مرة أخرى :

بعد أن فرغ الإمام — كرم الله وجهه — من أمر الخوارج « بالنهروان » ، قام خطيباً في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية ، وأشياعه ، القاسطين[1] ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلا ، فبئس ماشَرَوْا به أنفسهم ، لو كانوا يعلمون ! »

فكان من حديث أصحابه إليه : يا أمير المؤمنين . . نفدت نبالنا ، وكلَّت أذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ، ونَصَلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا حتى نستعدَ بأحسن عُدَّتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عُدَّتنا عُدَّة ، فإن ذلك أقوى لنا على عدوّنا !

فاستجاب الإمام لما أشاروا به ، وسار بهم حتى نزل بالنخيلة ، فعسكر بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه معسكره ، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد ، وأن يُقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم ، حتى يسيروا إلى عدوّهم من أهل الشام بجدّ وجدّ !

فأقاموا معه أياماً ، ثم أخذوا يتسللون إلى الكوفة ، ويلقوْن أبناءهم ونساءهم ، حتى تركوا الإمام ، وما معه إلا نفر من وجوه الناس،يسير ! »[2]

---

(١) أى الظالمين .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٥٦ .

إن الناس قد سئموا هذه الحرب التي ليس لهم فيها شيء من حظوظ الدنيا !

وقد أصبح الإمام عليّ ومن معه بين عدوّين : أهل الشام أمامهم ، والخوارج خلفهم ، وكلا الفريقين يحاربهم حرب الكفار ، يستحلّ دماءهم وأموالهم ، وديارهم ، وأعراضهم ، على حين يقاتل عليّ ومن معه كلاًّ من الخوارج وأهل الشام قتال المسلمين الخارجين عن طاعة الإمام . . لا يستحلّون منهم شيئاً ، إذا هم أصبحوا ليدهم ، وأعطوا الإمام طاعتهم !

وتلك هي المشكلة !

وقد أخذ الإمام يعالجها بكل ماله من حول وحيلة ، فما استقام له مع أصحابه أمر ، ولا اجتمع له بهم شمل !

خطبهم مرة . . يريد أن يخرجهم من شِعاب الكوفة ودروبها ، إلى حيث أقام معسكره ، فصعد منبر المسجد بالكوفة فقال :

« أيها الناس . . استعدّوا المسير ، إلى عدوّ ، في جهاده القُربة إلى الله ، ودرك الوسيلة عنده ؛ فأعدّوا له ، ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله ، وكفى به وكيلا . »

ثم تركهم أياماً ، ودعا رؤساءهم ، ووجوههم ، وسألهم رأيهم ، وما الذي ثبّطهم ؟ فنهم المعتلّ ، ومنهم المتكرّه ، وأقلّهم من نشط !

فقال الإمام - كرم الله وجهه — : ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ؟ ورضيتم بالذل والهوان ، من العزّ ، خلفاً ؟ كلما ناديتكم إلى الجهاد ، دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في سكرة . . لله أنتم إما أنتم إلا أسود رواعة[1] ، وثعالب

(١) أي أسود يروع منظرها .

روّاغة ! ! أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . . ماعزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . . إذا أمرتكم قلتم كيت وكيت ! أعاليل بأضاليل ! هيهات . . لايُدرك الحق ، إلا بالجدّ والصبر ! أىّ دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه .. استنفرتكم فلم تنفروا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تعُوا .. أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المحلّين[1] ، الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين ؟ إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حِلقاً عِزِين ، تضربون الأمثال ، وتَناشدون الأشعار ! تَرِبت أيديكم ! قد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها ! ! . . »[2]

وينتظر الإمام من أصحابه أن يتلقوْا دعوته هذه ، بالاستجابة له ، والاجتماع على مادعاهم إليه . . وربما كان القوم قد همّوا أن يفعلوا . . ولكن هناك فى أصحاب الإمام من أعدّ نفسه ، لإفساد الأمر إذا صَلُح ، وإيقاظ الفتنة إذا نامت ، وتوهين العزائم إذا اتجهت إلى العمل والجهاد !

كان الأشعث بن قيس من أولئك الذين تواطئوا مع معاوية على تخذيل أصحاب علىّ ، وإذاعة الفرقة والخلاف فيهم !

فما كاد الإمام ينتهى من خطبته تلك ، ويتهيأ لتلقى ماعند القوم من طاعة له ، حتى يقوم الأشعث بن قيس ، فيرمى بهذه القذيفة المدمرة ، التى تذهب بكل شىء !

« يا أمير المؤمنين !

أفهلاّ فعلتَ كما فعَلَ عثمان ؟ ! »

---

(١) المحلين . أى الذين أحلوا ماحرم الله .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٥٨ .

يا سبحان الله !

أين كانت هذه النصيحة من الأشعث قبل صفّين؟ وقبل هذه الدماء الغزيرة التى فاضت بها ميادين القتال بين الإمام والخارجين عليه ؟

وهل غاب عن فطنة الأشعث ودهائه اختلاف موقف الإمام من الخارجين عليه ، وموقف عثمان — رضى الله عنه — من الذين فزعوا إليه ، وأمسكوا به ؟

إن الأشعث ، ليعلم أن قولته تلك ، لامتوجّه لها إلى الإمام ، وإنما هو يرمى بها إلى آذان الناس ، ليفسد بها ما يمكن إفساده من أمرهم ، وقد أوشك أن يصير إلى صلاح !

ولو أن الأشعث أراد بهذه القولة، النصيحةَ للإمام ، لما جابهه فى هذا الجمع الحاشد ، وفى هذا الموقف الفصل !

إنها كلمة لئيمة ، جاءت عن تدبير وتقدير ! وعن نية سيئة ، مبيّتة للشر ، راصدة له ! !

إنّها أشبه — فى وجهها ، وفى آثارها وأفعالها — بتلك القولة ، التى رمى بها أحد الخوارج ، بقوله « لاحكم إلا لله » ! فأحدثت هذا الصدع الذى لايلتئم .. فى جبهة علىّ ، وفى وجه الإسلام جميعاً !

وهاهى ذى تلك الكلمة تحدث تصدعاً أشدّ ، وأكبر . . فتذهب بالبقية الباقية من أصحاب علىّ !

« يا أمير المؤمنين !

يقولها الأشعث ، مخاطباً الإمام !

وهل يراه الأشعث أميراً للمؤمنين حقًّا ، وهو يكيد له هذا الكيد ، ويمكر به هذا المكر ؟

« أفلا فعلتَ كما فعلَ عثمان ؟

وماذا فعل عثمان ؟ .

لقد أبى أن يلقى الشاغبين عليه ، بالقوة ، وأن يردّهم عنه بالسيف . . . حتى قُتل ! . رضى الله عنه !

وإذن . . فيجب أن يُلقى علىّ بالسيف من يده ، وأن يدعو هذه القلّة القليلة من أصحابه التى ظلت على ولائها أن تغمد أسيافها ، وتستقر فى بيوتها ! وأن يُسلِم نفسَه وأصحابه للمصير الذى ينتظره وينتظرهم ، من سيوف أهل الشام القائمة على رءوسهم ! .

أهكذا ؟ والحرب قائمة ، والسيوف مسلولة . والرماح مشرعة ؟

ويتلقى الإمام كلمة الأشعث ، على غير انتظار ، فيفزع لهـا ، وتفيض نفسه حسرة وألماً ، فلا يملك إلا أن يرمى الأشعث بنظرة قاتلة ، ثم يقول له :

« ويلك ! وكما فعل عثمان رأيتنى فعلت ؟عائذاً[1] بالله من شر ما تقول !

«والله إن الذى فعل عثمان لمخزاة على من لا دين له ، ولا حجة معه ![2] فكيف وأنا على بينة من ربىّ ، والحق معى ! ! .

« والله إن امرأ أمكنَ عدوّه من نفسه ، فنهش عظمه ، وسفك دمه ، لعظيمٌ عَجْزُه ، وضعيف قلبه . . !

« أنت يا ابن قيس فكن ذاك ! ! أما أنا ، فوالله دون أن أعطىَ ذلك ، ضَربٌ بالمَشْرَفىّ ، يطير له فَرَاش الرأس ، وتطيح منه الأكفّ والمعاصم ، وتُجدُّ[3] به الغلاصم ! ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ! .

---

(١) عائذا : حال لفاعل فعل محذوف تقديره جئت ، أو نحوه .

(٢) يريد الإمام بما فعل عثمان . توقفه عند دفع الشاغبين عليه ، وعدم أخذهم بما يدفعهم عنه ، ويردهم إلى الطاعة !

(٣) تجد : أى تقطع .

ثم يتجه الإمام إلى الملأ من قومه ، فيقول :

« يا أهل العراق . . ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين عليكم ! .

« فقالوا : أ بِعِلْمٍ تقول يا أمير المؤمنين ؟ .

« قال : نعم ، والذى فلق الحبة ، وبرَأ النسمة ، إنى أرى أمورهم قد علت ، وأرى أموركم قد خَبَتْ ، وأراهم جادّين فى باطلهم ، وأراكم وانين عن حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين ، وأراكم لى عاصين . .

« أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى ، لتجدُنّهم أربابَ سوء ، كأنهم والله عن قريب ، قد شاركوكم فى بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأنى أنظر إليكم ، تَكِشّون كشيش الضِّباب ، لا تأخذون لله حقًّا ، ولا تمنعون له حرمة ! وكأنى أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيفون علماءكم ! وكأنى أنظر إليهم يَحْرِمونكم ، ويحجبونكم ، ويُدنون الناس دونكم ! .

« فلو قد رأيتم الحرمان ، ولَقِيتم الذّلّ والهوان ، ووقعَ السيف ونزولَ الخوف ، لندمتم ، وتحسّرتم ، على تفريطكم فى جهاد عدوّكم ، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التذكار ! ! »[1] .

لقد أحسّ الإمام ـ كرم الله وجهه ـ قُرب النهاية ، ورأى ما يؤول إليه أمر أصحابه ، بعد أن دبّ فيهم دبيب الوهن والتخاذل ، فكان مقامه هذا فيهم ، وكلماته تلك إليهم أشبهَ بموقف الوداع ، إلى غير لقاء . . إلى أن يقوم الناس لربّ العالمين ! .

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٥٩ .

رأى الإمام أن الدعوة إلى حرب معاوية ، لم تعد تلقى من أصحابه ، أذنا سامعة ، أو قلبًا واعيًا . . فكرهت نفسه المقام بين هؤلاء القوم ، وعاف الحياة على مثل هذه الحال، التي يبيت فيها مهدّدًا من أهل الشام أن يدخلوا عليه داره ! ! وإنها لحال يهون على الحرّ فيها أن تأخذه السيوف ، وتتخطفه الوحوش ! فكيف بالإمام علىّ ، وشجاعته ، وجرأته ، واستخفافه بالحياة ، وخوضه غمار الحرب إلى الموت خوضًا ؟ .

وماذا يملك الإمام من أمره فى تلك الحال ؟ .

إنه لا يملك غير نفسه ! .

أفيلقى معاوية وأهلَ الشام ، وحده ؟ .

لقد حدّثته نفسه بهذا ، بل إن ذلك لم يكن مجرّد حديث نفس ، لجهر به ، وتحدّث به فى أصحابه ! ولن يتردد الإمام لحظة فى لقاء أهل الشام جميعًا ، لو استقام ذلك لمنطق ، أو أقام للإمام حجة ! .

إن ذهاب الإمام إلى الحرب وحده ، أو مع عشرات أو مئات من أصحابه ، ليلقى معاوية وأهل الشام ، لهو حجة عليه ، وليس حجة له ، فى هذا الخلاف الذى بينه وبين معاوية !

فإن ذلك الفعل إن شهد للإمام ـ وهو فى غير حاجة إلى شهادة ـ بالجرأة الخارقة ، والشجاعة المعجزة ، فإنه يشهد عليه بأن الناس قد تخلّوا عنه ، وأن البيعة التى تمت له، لم تكن بيعة عامة شاملة ، وإلاّ لسار الناس خلفه ، واجتمعوا تحت رايته ! .

ولهذا آثر الإمام أن ينتظر ما تأتى به الأيام ، وكان أحبّ شىء ينتظره هو لقاء ربّه ! .

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدّث إلى عليّ ، بأن أشقى الأشقَيْن من يخضب هذه من هذه ، وأشار إلى لحية عليّ ، وإلى هامته .

فـكان مما يتوقعه عليّ هو ضربة غادرة تقع رأسه ، فتخضب لحيته ، فيكون فيها الموت ! .

وكثيراً ما كان يتوجه إلى أصحابه حين أيأسه نصرهم ، فيقول : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذه ؟ ويشير إلى لحيته وهامته ! .

وفى الـكوفة ، والبصرة ، وغيرهما من الأمصار ، قلوب مريضة ، ونفوس متنمرة ، تبتغى الفتنة ، والفساد فى الأرض ! وليس بينها وبين الإمام حاجز ، يحول بينها وبين أى شرّ تريده به ! إذ كان — رضى الله عنه — يغدو ويروح بين الناس ، ليلاً ونهاراً ، لا سلاح فى يده ، ولا جند بين يديه أو من خلفه ! .

رُوى أنه — كرم الله وجهه — خرج فى غداة ، يوقظ الناس للصلاة ، فمرّ بجماعة تتحدّث ، فسلّم ، وسلّموا عليه ، فقال ، وقبض على لحيته : ظننت أن فيكم أشقاها ، الذى يخضب هذه من هذه ! (١) .

إن الموت هو الراحة الـكبرى لعلىّ ، من هذا البلاء الذى يكابده من أصحابه . !

لقد أصبح غريباً فى هذه الدنيا ، التى تخلّى فيها الناس عن الطريق التى أقامهم عليها رسول الله ، وتخففوا من كثير من أوامر الدين ونواهيه ، فى سبيل سلطان يترضّونه ، أو مال يصيبونه !

---

(١) الكامل للمبرد : ١ : ١٢١

وليس آلم للنفس ، ولا أوجع للقلب ، من أن يصبح الإنسان غريباً في الناس، يأخذ طريقاً غير طريقهم ، ويتزيا بزىّ غير زيّهم ، ويتكلم بلغة لايفهمونها ، ولا يتعاملون بها !

كان ذلك هو حال الإمام في أخريات أيامه .. يترقب الموت في لهفة وشوق !

وحين أحسّ الإمام بقرب أجله ، كتب كتاباً ، جامعاً ، ذكر فيه أمره كلّه ، من مولده إلى هذا الموقف الذى هو فيه !

وقد يكون الكتاب مدخولاً على الإمام ، بفعل شيعته .. إذ ما أكثر ما دخل على أخبار تلك الفترة ، من أكاذيب وملفقات ! ولكن هذا الكتاب إن لم يكن من عمل الإمام ، فهو أقرب شيء إلى ما كان يدور في نفسه ، ويجرى في خاطره .

وإنه لابأس من أن نذكر هنا فصولاً من هذا الكتاب ، الذى هو أشبه بوصية ، يوصى بها راعٍ رعيته ، وقد جاء الموت ليفرّق بينه وبينهم !

يقول الإمام : « .. فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من الدنيا ، توفّاه الله ، وهو مشكور سعيُه ، مَرْضِيّ عملُه ، مغفور له ذنبه ، شريفٌ عند الله نُزُله .

« فلما مضى ، تنازع المسلمون الأمر بعده ! فو الله ، ما كان يُلْقَى في رُوعِى ولا يخطر على بالى أن العرب تعدل هذا الأمر عنّى ! فما راعنى إلا إقبال الناس على أبى بكر ! .. فأمسكت بيدى[1] ، ورأيت أنى أحق بمقام محمد في الناس ، ممن تولّى الأمور علىّ .. !

فلبثت بذلك ماشاء الله ، حتى رأيتُ راجعةً من الناس رجعت عن الإسلام[2] ، ويدعون إلى محو دين محمد ، وملة إبراهيم ، عليهما السلام ، فخشيت

(١) أى أمسكت بيدى عن البيعة لأبى بكر .

(٢) يريد أهل الردة .

إن لم أنصر الإسلام وأهله ، أن أرى فى الإسلام ثَلمًا وهدما ، تكون المصيبة به علىّ أعظم من فَوْت ولاية أمركم ، التى إنما هى متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها ، كما يزول السراب ! فمشيت عند ذلك إلى أبى بكر ، فبايعته ، ونهضت معه فى تلك الأحداث ،حتى زهق الباطل .. فتولى أبو بكر — رضى الله عنه — تلك الأمور ، فيسر ، وسدّد ، وقارب ، واقتصد . فصحبته مناصحًا ، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً ! فلما احتُضر ، بعث إلى عمر ، فولاه ، فسمعنا ، وأطعنا ،ونصحنا .. فتولى تلك الأمور ، فكان مرضىّ السيرة ، ميمون النقيبة أيامَ حياته ! فلما احتضر قلت فى نفسى : ليس يصرف هذا الأمر عنىّ ! فجعلها عمر شورى ! ، وجعلنى سادس ستة ! فما كانوا لولاية أحدٍ منهم بأكره منهم لولايتى ! ! لأنّهم كانوا يسمعوننى وأنا أحاجّ أبا بكر ، فأقول : يا معشر قريش : إنّا أحق بهذا الأمر منكم ، ما كان منا من يقرأ القرآن ، ويعرف السنة .. فخشُوا إن ولّيت عليهم ألا يكون لهم فى هذا الأمر نصيب ، فبايعوا إجماعَ رجل واحد ، حتى صرفوا الأمر عنى لعثمان ، فأخرجونى منها ، رجاء أن يتداولوها ، حين يئسوا أن ينالوها .. ثم قالوا لى : هلمّ فبايع عثمان ، وإلا جاهدناك ! ، فبايعت مستكرهاً ، وصبرت محتسباً ، وقال قائلهم : إنك يا ابن أبى طالب على الأمر لحريص ! ، قلت لهم : أنتم أحرص ! أما أنا إذ طلبت ميراث ابن أبى[1] وحقه ، وأنتم إذ دخلتم بينى وبينه ، تضربون وجهى دونه ! اللهم إنى أستعين بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمى ، وصغروا عظيم منزلتى وفضلى .. حتى إذا نقمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ، ثم جئتمونى تبايعوننى ، فأبيْت عليكم ، وأبيتم علىّ ، فنازعتمونى ، ودافعتمونى ، ولم أمدّ يدى ، تمنعا عنكم ، ثم ازدحمتم علىّ حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعض ، وأنكم قاتلى ! وقلتم لانجد غيرك ، ولا نرضى إلابك ! فبايعْنا ، لانفترق ، ولانختلف !

(١) يريد بقوله : ابن أبى — النبى صلى الله عليه وسلم .

فبايعتكم ، ودعوتم الناس إلى بيعتى ، فمن بايع طائعاً قبلت منه ، ومن أبى تركته . . فأول من بايعنى ، طلحة والزبير ، ولو أبَيَا ما أكرهتهما ، كما لم أكره غيرهما ، فما لبثا إلا يسيراً ، حتى قيل لى : قد خرجا متوجهيْن إلى البصرة ، فى جيش !! مامنهم رجل إلاوقد أعطانىالطاعة ، وسمح لى بالبيعة . . فقاموا على عمّالى بالبصرة ، وخزائن بيوت أموالى ، وعلىأهل مِصرى ، وكلهم فى طاعتى ، وعلى شيعتى ، فشتتوا كلمتهم ، وأفسدوا علىّ جماعتهم . . ثم وثبوا على شيعتى ، فقتلوا طائفةً منهم غدراً ، وطائفة صبراً ، وطائفة عصراً بأسيافهم، فضاربوهم حتى لَقُوا الله صابرين محتسبين ! فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلا واحداً متعمدين لقتله ، لحلّ لى بذلك قَتلُ الجيش كله ، مع أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التى دخلوا عليهم بها . . فقد أدال الله منهم ، فبعدًا للقوم الظالمين !

« ثم إنى نظرت بعد ذلك فى أهل الشام ، فإذاهم أعراب، وأحزاب ، وأهل طمع ! جُفاة ، طَغام ! تجمعوا من كل أوب،ممن ينبغى أن يؤدّب ، ويولىّ عليه ، ويؤخذ على يديه . . ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا من التابعين بإحسان. فسِرتُ إليهم ، ودعوتهم إلى الجماعة والطاعة ، فأبوْا إلاشقاقًا ونفاقًا ، ونهضوا فى وجوه المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان ،ينضحونهم بالنبل، ويشجّونهم بالرماح ، فهنالك نهضتُ إليهم فقاتلتهم . . فلما عضّهم السلاح ، ووجدوا ألم الجراح ، رفعُوا المصاحف ، يدعونكم إلىمافيها ! فنبأتكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإنما رفعوها إليكم خديعةً ومكيدة ، فامضوا على قتالهم ! فاتهمتمونى ، وقلتم : اقبلْ منهم ، فإنهم إن أجابوا إلى الكتاب والسنة ، جامعونا إلى مانحن عليه من الحق ، وإن أبوْا كان أعظم لحجتنا عليهم ! فقبلتُ منهم ، وخففت عنهم ، وكان صلحاً بينكم وبينهم على رجلين حَكمْين . . يحييان ما أحيا القرآن ، ويميتان ما أمات القرآن ، فاختلف رأيهما ، وتفرق حكمهما ،

ونبذا حكم القرآن، وخالفا ما فى الكتاب، واتبعا هواهما بغير هدًى من الله، فجنبهما الله السّداد، وأهوى بهما فى غمرة الضلال، وكانا أهلَ ذلك!

«فانخذلت عنّا، فرقة منكم، فتركناهم ما تركونا، حتى إذا عاثوا فى الأرض مفسدين، وقتلوا المؤمنين، أتيناهم، فقلنا لهم: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا، فقالوا، كلنا قتلهم، وكلنا استحللنا دماءهم ودماءكم، وشدّت علينا خيلهم ورجالهم، فصرعهم الله مصارع القوم الظالمين!!

«ثم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوّكم، فإنه أفزع لقلوبهم، وأنهك لمكرهم، وأهتك لكيدهم! فقلتم: كلّت أدرعنا وسيوفنا، ونفدت نبالنا، ونصَلتْ أسنة رماحنا، فاذَن لنا، فلنرجع حتى نستعدّ بأحسن عدتنا.. فأقبلتم، حتى إذا أظللتم على الكوفة، أمرتكم أن تلزموا معسكركم، وتضموا قواصيكم، وتتواطئوا على الجهاد، ولا تكثروا زيارة أولادكم ونسائكم، فإن ذلك يرقّ قلوبكم، ويلويكم!!.. فنزلت طائفة منكم معى معذرة، ودخلت طائفة منكم المصر، عاصية، فلا من نزل معى صبر، فثبت، ولا من دخل المصر، عاد إلىّ!

«ولقد نظرت إلى عسكرى، وما فيه معى منكم إلا خمسون رجلا!!

فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم[1]، فما قدرتم أن تخرجوا معى إلى يومكم هذا!!

«عباد الله: ألا إنه ليس أولياء الشيطان، من أهل الطمع والجفاء، بأولى فى الجدّ فى غيّهم وضلالهم وباطلهم، من أهل النزاهة، والحق والإخبات — بالجدّ فى حقهم وطاعة ربّهم، ومناصحة إمامهم!

---

(١) أى دخل إليهم الكوفة، وكان معسكراً فى ظاهرها.

« إنى والله ، لو لقيتهم وحيداً منفرداً ، وهم فى أهل الأرض إنْ باليت بهم ،[1] أو استوحشت منهم !

« إنى — فى ضلالهم الذى هم فيه ، والهدى الذى أنا عليه — لعلى بصيرة ، ويقين ، وبيّنة من ربى .. وإنى للقاء ربىّ لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ . ولكنّ أسفًا يعترينى ، وجزعاً يريبنى ، من أن يلى هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذون مال الله دولاً ، وعباد الله خَوَلاً ، والصالحين حَرْباً ، والقاسطين حزباً !

« وأيم الله ، لولا ذلك ، ما أكثرت تأليبكم وجمعكم ، وتحريضكم ، ولتركتكم !

« فوالله ، إنى لعلى الحق ، وإنى للشهادة لمحب !

« أنا نافرٌ بكم إن شاء الله ، فانفروا خفافاً ، وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، إن الله مع الصابرين ! ! »[2]

إنها أمنيّة تمنّاها الإمام ، على الليالى ، أن يموت تحت ظلال السيوف ، مجاهداً فى سبيل الله ، لنصرة الحق ، والضرب على يد الفئة الباغية !

ولكن شاء الله أن يوسّع له فى رحمته ، وأن يعفيه من مكابدة الناس ، فأعطاه الشهادة فى أكرم مكان عنده ، وأسال دمه الطهور فى بيت من بيوته ، وهو ساعٍ إلى ذكر الله فيه !

* * *

---

(١) إن باليت بهم ، أى ماباليت بهم ، وإن هنا بمعنى ما النافية ، مثل قوله تعالى : « إن الكافرون إلا فى ضلال » .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ — ١٦٤ .

مَقتَلُ الإمَام

حجّ الناسُ سنة تسع وثلاثين ، فكانوا ثلاث فرق : أصحابَ الإمام علىّ ، وأصحاب معاوية ، وفرقة الخوارج ، وقد أبت كل جماعة إلا أن يكون لها إمامها ، ومن يؤدّى شعائر الحجّ لها ، وكادت تكون فتنة ، ويكون قتال فى البيت الحرام ، وفى الشهر الحرام .. إذ تريد كل طائفة أن تقوم على أهل الموسم جميعاً ! ثم اتفقوا آخر الأمر على رجل من بنى شيبة ، هو شيبب بن عثمان ، يقيم للناس حجهم ، حتى لا يفوتهم أداء الفريضة !

فلما انتهى موسم الحج ، تحدّث الخوارج بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إن هذا البيت كان معظّماً فى الجاهلية ، جليل الشأن فى الإسلام ، وقد أحل هؤلاء القوم حرمته ! فلو أن قوماً شَرَوْا أنفسهم ، فقتلوا هذين الرجلين[1] ، اللذيْن قد أفسدا فى الأرض ، وأحلاّ حرمة هذا البيت — لاستراحت الأمة ، واختار الناس لهم إماماً !! فقال رجل منهم : والله ما عمرو[2] دونهما ، وإنه لأصل هذا الفساد !! »

ثم انتهى رأى المؤتمرين على أن ينتدبوا منهم ثلاثة ، يتولّى كل واحد منهم قتلَ رجل ، من هؤلاء المختلفين : على ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص !

فكان عبد الرحمن بن ملجم ، لعلىّ .

والحجاج بن عبد الله الصّريمى ، ويعرف بالبُرَك — لمعاوية .

وزاذَوَيْه ، مولى بنى العنبر بن عمرو بن تميم — لعمرو .

---

(١) أى على ومعاوية .

(٢) أى عمرو بن العاص .

واجتمع رأيهم على أن يكون تنفيذ هذه الجريمة ، فى وقت معلوم ، وهو الليلة الحادية والعشرون من رمضان سنة أربعين !

ثم سار كل واحد منهم فى طريقه ، ليتدبرّ أمره ، ويُعدّ له العدة ! ثم يُمضيه على الوجه المتفق عليه !

فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة ، وكتم أمره ، وتزوج امرأة ، يقال لها « قَطَامِ » بنت علقمة ، من تيم الرباب ، وكانت على رأى الخوارج ، لأن عليًّا قتل أخاها فى موقعة النهروان ، كما يُروى !

ويُروى أيضاً أن المرأة ، تواطأت مع ابن ملجم على قتل علىّ ، وأنها جعلت من شروطها فى الزواج منه : أن يقتل عليًّا ، وأن يَمْهَرها ثلاثة آلاف درهم ، وعبداً ، وأمَةً ، فقبل منها ذلك . . وقد رُوى فى ذلك شعر ، ينسب إلى ابن ملجم نفسه ، وفيه يقول :

ثلاثةُ آلاف ، وعبد ، وقينة وضرب علىّ بالحسام المصممِ
فلا مهر أغلىَ من علىٍّ وإن غلا ولا فَتْكَ إلا دون فتك ابن ملجم

ونحسب أن ذلك من عمل الرواة والمحدّثين ، فما كان بالرجل من حاجة إلى من يؤامره على قتل علىّ ، وقد تعاقد مع أصحابه من قبل على هذه الجريمة !

ويُحدّث الرواة أن الأشعث نظر إلى ابن ملجم متقلدًا سيفاً ، فقال له : ياعبد الرحمن . . أرنى سيفك ! فأراه ، فرأى سيفاً حديداً[1] ، فقال له : ماتقلدُكَ السيفَ ، وليس بأوان حرب !؟

فقال : إنى أردت أن أنحر جَزُور القرية !

---

(١) أى حادا ، قاطعا ، مهيأ للحرب ، والقتل .

قالوا : فجاء الأشعث إلى علىّ ، فأخبره بما تحدّث به ابن ملجم ، وقال له : عرفتَ بسالة ابن ملجم وفتكه ؟ فقال علىّ : ماقتلنى بعد !

ويروى أن علياً — رضى الله عنه — كان يخطب مرة ، ويذكّر أصحابه .. وابن ملجم تِلقاء المنبر ، فسُمع وهو يقول : والله لأريحنّهم منك ! فلما انصرف علىّ إلى بيته ، جئ إليه بابن ملجم ملبباً ، فقال لهم على : ماتريدون ؟ فخبروه بما سمعوا ، فقال : ماقتلنى بعد ! !

قالوا : وكان علىّ إذا رأى ابن ملجم ، يتمثل ببيت عمرو بن مَعْدِى كَرِب فى قيس بن مكشوح المرادى :

أريدُ حيــــاتَهُ[1] ، ويريد قَتْلى   عَذِيرَكَ من خليلك من مُرادِ

وكان يقال لعلىّ فى ذلك : كأنك قد عرفته ، وعرفت مايريد ! ! أفلا تقتله ؟ فيقول — كرم الله وجهه — كيف أقتل قاتلى ؟

وقالوا ، فلما كانت الليلة الحادية والعشرون من رمضان[2] ، خرج ابن ملجم ، ومعه صاحب له ، هو شبيب الأشجعى ، فاعتوروا الباب ، الذى يدخل منه علىّ ، وكان يوقظ الناس للصلاة ، فخرج — قبيل الفجر — كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه ، وأصاب سيفُه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعته ، فقال علىّ — كرم الله وجهه — : فُزْتَ ، وربِّ الكعبة ! ![3] .

---

(١) ويروى صاحب الكامل : « حباءه » أى عطاءه ووصله .

(٢) هى ليلة الجمعة من رمضان سنة أربعين للهجرة .

(٣) فى الإمامة والسياسة : « فزت » بالفاء المضمومة ، وسكون الزاى وفتح التاء ، وفى الكامل للمبرد : قرت بالقاف المضمومة . وسكون الراء . ويبدو أن تصحيفاً وقع فى الروايتين . ولعل أقرب تصويب ما أثبتناه .. وهو مايناسب الحال . إذ نطق الإمام فى تلك الحال ناسبا الجور إلى ضاربه الذى ضربه غدراً .. وقتله ظلماً ، أو لعله « قرت » بفتح القاف وتشديد الراء ، أى أن نفسه سكنت وقرت ، بهذه الضربة القاتلة .

ويُروى عن بعض الأنصار ممن كان بالمسجد ، قال : سمعتُ كلمةَ عليّ ، ورأيت بريق السيف .

أما ابن ملجم ، فحمل على الناس بالسيف ، فأفرجوا له ، فتلقاه المغيرة بن نوفل بن عبد المطلب ، بقطيفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله ، فضرب به الأرض ! وكان المغيرة أيدًا[1] ، وأما شبيب ، فانتزع السيفَ منه رجل من حضرموت وصرعه ، وقعد على صدره ، وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحبَ السيف ! فخاف الحضرمى أن يُكبوا عليه ، ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف ، وانسلّ شبيب بين الناس ! !

وسئل علىّ فى أمر ابن ملجم ، فقال : إن أَعِشْ فالأمر إلىّ ، وإن أُصَبْ فالأمـــر لـكم ، فإن آثرتم أن تقتصّوا ؛ فضربة بضربة ! وأن تعفوا أقرب للتقوى !

فلما مات علىّ فى اليوم الثالث من ضربته ، قُدّم ابن ملجم فضربت عنقه ! وقيل مُثّل به ، فقطعت يداه ، ورجلاه وأنفه ، ثم ضرب ضربة قاضية !

ولعل رواية التمثيل بابن ملجم من مزاعم الخوارج ، لاستثارة الحمّية فيهم ولتمجيد ابن ملجم . . وكيف يمثل به ، وقد أوصى الإمام ، فقال : ضربة بضربة ؟

وأما البُرك ، فإنه انطلق ليلة ميعادهم ، فقعد لمعاوية ، فلما خرج لصلاة الصبح ، شدّ عليه بسيفه ، فأصاب رانفة[2] أليَتيه ففلقها ، وكان معاوية عظيم الأوراك ، فوقع ، السيف فى لحم كثير !

---

(١) أى قوياً

(٢) الرانفة : الرأس منها .

وأخذ البُرَك ، فقال لمعاوية : إن لك عندى البشارة . قُتِل علىّ الليلة ! ! فاستوثقوا به ، حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ، ورجله !

وأما زاذويه ، فإنه أرصد لعمرو فى تلك الليلة ، وكان عمرو قد اشتكى بطنه ، فلم يخرج للصلاة ، وخرج « خارجة » وهو رجل من بنى سهم ، رهط عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دُخل به على عمرو ، ورآهم يخاطبونه بالإمرة ، قال : أوَ مَاقتلتُ عمراً ؟ قيل : لا، إنما قتلتَ خارجة ! ! فقال : أردتُ عمراً ، وأراد الله خارجة ! ثم قتلوه !

ورُوى عن الحسن رضى الله عنه ، قال : أتيتُ أبى ، فقال لى : أرقتُ الليلة ، ثم ملكتنى عينى ، فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يارسول الله . . ماذا لقيتُ من أمتك من الأوَدِ واللَّدَد[1] ؟ . . قال : ادْعُ عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً لى منهم ، وأبدلهم بى شراً لهم منى ! وخرج إلى الصلاة ، فاعترضه ابن ملجم ! وأُدخل ابن ملجم على علىّ بعد ضربه إياه ، فقال : أطِيبوا طعامَه ، وألينوا فراشه . . فإن أعِشْ فأنا ولىّ دمى ، إما عفوت ، وإما اقتصصْت ! وإن أمُت ، فألحِقوه بى ولا تعتدوا ، إن الله لايحبّ المعتدين . »[2]

وهكذا استراح الإمام ، مما كان يكابد من أصحابه ، ومما كان يلقى من انقلاب الحياة ، وتحول أحوالها ، حتى لقد بات غريباً بين أوليائه وخلصانه ، لايجد من يؤنس وحشته فى تلك الغربة النائية ، إلا أن يناجى نفسه ، مواسياً ، معزيًا ، وشاكياً إلى الله متضرعاً . . فقد كان ذلك دَيدَنه ، وخاصة فى الفترة

---

(١) الأود ، العوج ، واللدد : الخصومة .

(٢) الإمامة والسياسة : ١ : ١٦٥ وما بعدها : الكامل للمبرد : ٢ : ٢٥ وما بعدها .

الأخيرة من حياته ، حين غلبته الدنيا على أصحابه ، فحوّلتهم عنه ، وفرقت بينهم وبينه !

روى أن معاوية ، قال لضرار الصّدائى ، وكان من أصحاب علىّ ، وأهل ثقته — : صف لى علياً !

فكان مما قاله ضرار عن الإمام : « فأشهدُ ، لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدُوله ، وهو قائم فى محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم[1] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا ، يادنيا ، إليك عنّى . أبى تعرضتِ ، أم إلىّ تشوّقت ؟ لاحان حَيْنُك ! هيهات . غُرّى غيرى ، لاحاجة لى فيك ، قد طلّقتك ثلاثاً لارجعةَ فيها ، فعيشك قصير ، وخَطَرُكِ يسير ، وأَمَلُكِ حقير . . آهِ من قلّة الزّاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ، وعظيم المورد ! »[2]

ونجد فى هذه المناجاة ، بين علىّ وبين نفسه ، صراعاً قاسياً وحرباً مريرة ! يكتوى الإمام بنارها ، فيتململ تململ اللديغ ، ويبكى بكاء الحزين الوَجِع .

إنه مغلوب على حقّه ، مغلوب على أصحابه !

وفى يده أن ينتزع حقّه انتزاعاً . وأن يملأ الدنيا من حوله خيلاً ورجلاً على معاوية !

ولكن ذلك لايتم له ، إلا إذا جار على دينه ، ونزل إلى المستوى الذى صار إليه أمر الناس ، يومئذ ! وتعامل معهم بالنقد الذى يتعاملون به !

وهو مستعصم فى موقفه ، الذى استقام عليه من أول حياته ، يأبى أن

---

(١) السليم : من لدغته الحية ؛ ووصف بالسليم تفاؤلا بنجاته وسلامته .

(٢) نهج البلاغة ٢/٩٥ .

يتحول عنه ، ولو كان فى ذلك تطاول المبطلين عليه ، وانتزاعهم الحق الذى فى يديه .

فى هذا الصراع العاصف ، الذى تـكاد تتمزق منه الجبال ، كان يعيش الإمام أيامه الأخيرة . . حتى لـكان يَنْشد ذلك الذى حدّثه الرسول عنه بأنه قاتله ، فيقول فى أصحابه : « مايمنع أشقاها أن يَخْضِب هذه من هذا ؟ » ويشير إلى الحيتة ، وإلى قَرْنه !

إنه يحمل الداء ، ومعه الدواء ، ولـكن لاسبيل إليه . . فهو كما يقول الشـــاعر :

أَهُمُّ بأمـــر الحزم لو أستطيعه وقـد حِيل بين العَيْر والنَّزَوان

وذلك هو الداء العياء ، الذى لادَواء له . .

روى أنه حين تفرّق أصحاب علىّ بعد مقتل الخوارج ، ودخل مسجد الـكوفة فخطبهم ، وكشف لهم عن الحال التى صاروا إليها ، وما ينتظرهم من ذلّ على أيدى أهل الشام بعدها — قام إليه بعض أصحابه ، فقال :

«يا أمير المؤمنين .. أعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضّلْ هؤلاء الأشراف من العرب وقريش ، على الموالى ، ممن يُتخوّفُ خلافُه على الناس وفراقه . إن هذا هو الذى كان يصنعه معاوية بمن أتاه ، وإنما عامة الناس همهم الدنيا ، ولها يسعَوْن ، وفيها يكدحون ، فأعط هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك ماتريد ، عدت إلى أحسن ما كنتَ عليه من القَسْم ! »[1]

هذه هى السياسة التى كان يمكن أن يغلب بها الإمام ، وأن يستكثر بها من الأنصار والأتباع !

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ — ١٦٠ .

ولكنه يأبى أن يستجيب لهذا الرأى ، ويردّه على أصحابه قائلا :

« أتأمرونّى أن أطلب النصر بالجوْر فيمن وُلّيت عليه من المسلمين ؟ فوالله لا أفعل ذلك، مالاح فى السماء نجم . والله لو كان المال مالى لسوّيت بينهم ! فكيف ، وهى أموالهم ؟ »(1)

هكذا يفعل الإمام فى الحكم بين الناس ! وفى إقامة العدل بين رعيته .

إنه لا يؤثر شريفاً لشرفه ، ولا يحابى قويًّا لقوته . . . فلو كان هذا المال ماله هو لما سمحت نفسه بأن يفاضل بين الناس فيه .. فكيف ، وهو مال الله ، لعباد الله ؟

هذا هو حكم الدين ، ودعوة الحق والعدل !

ولكن أين الناس من الدّين ، ومن الحق والعدل ؟

لقد تعثّرت أقدامهم على هذا الطريق ، وثقل خطوهم عليه ، وتقطعت بهم الأسباب دونه .

أتريد شاهداً يشهد لهذا ؟

وهل شاهد بعد أن نرى عليًّا وحده فى الميدان ، لا يقوم تحت رايته غير خمسين رجلا ؟

وهل شاهدٌ بعد أن يتخلّى ابن عباس عن الإمام فى هذا الوقت العصيب ، ويُشغل عنه بنفسه ، وبما حمل معه إلى الحجاز ؟

لا بأس ! فالشهود كثير ، بلا حصر ، ولا عدّ .

والليالى من الزّمان حَبَالى مُثْقَلاتٍ ، يَلِدْنَ كلَّ عجيبة

أتعرف الأشعث بن قيس ؟

---

(1) الإمامة والسياسة : ١ - ١٦٠ .

لقد جاء ذكره فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب . ولا نريد أن نردّد ذكره ، لما يبعث فى النفس من أسى وحسرة .

ولكن ، ونحن نستحضر الشهود لتلك الحال التى صار إليها الناس فى هذه الفتنة ، لانرى بدأ من أن نقدّم الأشعث هنا ، فى خاتمة هذه المأساة ، التى انتهت بمقتل الإمام !

ولقد عرفنا دور الأشعث ، فى التحكيم ، وأنه هو الذى أشار على علىّ بقبول التحكيم ، واضطره إليه اضطراراً . . ثم كان له بعد ذلك فى جيش علىّ غدَوات وروحات ، يسعى فيها بين الناس ، بما يخذلهم عن علىّ ، وعن حرب معاوية وأهل الشام ، طلباً للعافية ، والتماساً لما كان يمنيهم به من خير مرجوّ عند معاوية ، إن هم نصروه ، أو كفوا أيديهم عنه !

والفعلة التى يقول رواة الأخبار إن الأشعث قد فعلها ، وأنه شارك فى قتل علىّ ، تبدو بعيدة ، لايكاد يصدّقها العقل ؛ من رجل كان فى ظاهر أمره جميعاً أنه من أصحاب علىّ ، وأنه هو وقومه يمثلون جانباً كبيراً من القوة التى يستند إليها الإمام فى القتال ! ثم إن الأشعث — قبل هذا ، أو بعده — معدود من الصحابة ، الذين إن غلبت أحدَهم نفسُه على أن يُلِمّ ببعض الصغائر ، فلن تغلبه بحال أبدًا على كبيرة أو فاحشة ! فكيف بالقتل ؟ ويقتل نفس مؤمنة ؟ ويقتل علىّ بن أبى طالب ، ابن عمّ النبىّ ، وربيبه ، وزوج ابنته الزهراء ، وأول الناس إسلامًا ؟ إنها كبيرة الكبائر ، وعظيمة العظائم ! !

ولكن انذكرْ مع هذا أن الأشعث قد كان من المرتدين ، فلم تنفعه صحبته ، ولم تعصمه من أن يخرج من الإسلام ، الذى دخل فيه مُحرَجاً ، وعاد إليه مغلوباً مكرهاً !

ولكن ما الحدَثُ الذى أحدثه الأشعث ، وما الفَعلة التى فعلها ؟

يقول صاحب الكامل :

« يُروَى أن عبد الرحمن بن ملجم ، بات تلك الليلة[1] عند الأشعث بن قيس ! وأن حُجر بن عدى[2] سمع الأشعث يقول له : « فَضَحكَ الصبح ! ! »

« فلما قالوا : « قُتِل أمير المؤمنين » قال حُجر بن عدى للأشعث : « أنت قتلتَه يا أعور ! »

« ويُروى أن الذى سمع ذاك ، أخو الأشعث ، عفيف بن قيس ، وأنه قال لأخيه : « عن أمرك كان هذا يا أعور ! ! »[3]

والأمر على شناعته ، وفظاعته ، ليس بالمستبعد على الأشعث ، ولا بالذى تدفعه عنه سيرته التى سارها فى صحبة الإمام علىّ ، بل وفى صحبة الإسلام !

لقد أيقن « الأشعث » أن الأمر صائر إلى معاوية ، وأن يد الإمام أصبحت عاجزة عن أن تنال من معاوية شيئاً ، بعد أن خذله أصحابه ، وتخلّوا عنه .. والأشعث يعرف هذا معرفة محققة ، لأنه دائم التحكك بأصحاب علىّ ، وعلى اتصال دائم برؤسائهم وأصحاب الرأى فيهم ، يثنيهم عن الحرب ، ويزيّن لهم السلامة والعافية ، ويطمعهم فى البُقيا على شىء من المودة بينهم وبين معاوية !

ولهذا استطاع أن يفسد على علىّ ما أراد إصلاحه من أهل الكوفة ، حين خطبهم ، تلك الخطبة التى كشف لهم فيها عن عاقبة تخاذلهم عنه ، وفتورهم فى دفع أهل الشام عنهم . . فما انتهى الإمام من خطبته حتى جَبَهه الأشعث بهذه الطعنة النافذة . . فيلقى إليه بهذا السؤال اللئيم :

---

(١) أى الليلة التى عزم فيها على قتل الإمام .

(٢) كان من خيار الصحابة ، ومن الزهاد العابدين .. وقد قتله معاوية ، وجماعة من أصحابه ، وكان لقتله رنة حزن عميقة فى سائر أمصار المسلمين .

(٣) الكامل للمبرد : ٢ — ١٥٢ .

« يا أمير المؤمنين .. لم لا تفعل كما فعل عثمان ؟

وما فعل عثمان إلا أنه قعد فى داره ، وترك الشاغبين عليه يفعلون ما بدالهم فيه .. فكان أن قتلوه !

وإذن ، فعلى الإمام علىّ أن يدع الحرب ، وأن يسرّح الجند ، وأن يغلق عليه بابه ، ينتظر جيوش معاوية تدخل عليه الكوفة ، وتقتحم عليه داره .. وعندها ، لاخيار له .. فإما أن يصبح رعيّة لمعاوية ، ويبايع له بالخلافة ، وإما القتل ، الذى استوجبه خروجه على الخليفة الجديد الذى بايع له الناس ، ومنهم أهل العراق ، وأولهم الأشعث بن قيس !

والأشعث يعلم يقيناً أن الإمام لايرضى بهذا ، ولو بقى فى الميدان وحده .. ولكنه يرمى بهذه الكلمة ، لتثير فى الناس بلبلة ، وتحدث فى النفوس انكساراً ، وتوقع فى العزائم فتوراً !

لشدّ مالقى الإمام فى هذه الحياة من مِحن . واستقبل من بلاء .. فقضى حياته كلها فى جهاد عنيف متصل .. فى حياة الرسول ، وبعد حياته !

ويحسب المعجَبُون بسيرة الإمام — كرم الله وجهه — أن أبرز ملامح شخصيته ، وأوضح آثاره ، ما كان لسيفه فى رقاب المشركين ، فى بدر ، وأحد وغيرهما ، من الغزوات التى شهدها مع النبىّ ، وصرع فيها بسيفه من صرع من رءوس الكفر ، وأئمة الضلال !

وأحسب أن ما ادخره الإسلام لعلىّ ، بعد الرسول ، من حِياطة الدين ، والذود عن حرماته — لايقلُّ خطراً ، وأثراً عما كان له فى قتال الكفار والمنافقين .

لقد جاهد علىّ ، الكفار والمشركين ، حتى دخلوا فى دين الله ، وآمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذى أنزل على رسوله .

وهو فى خلافته ، يجاهد مسلمين ، يتأوّلون القرآن ، ويلقون إليه بمنازعهم وأهوائهم ، ويحملونها عليه !

وبهذا التأويل ، المختلط بالهوى ، تفلّت الناس من عُرى الدين ، وخرجوا عن جادّة الطريق ، وتداعوا إلى دروب ومتاهات ، تُباعد بينهم وبين الدين ، خطوة بعد خطوة ، ويوماً بعد يوم !

يقول الإمام علىّ فى إحدى خطبه عن معاوية وأصحابه : « لقد قاتلتُهم من قبلُ على تنزيله[1] ، واليوم أقاتلهم على تأويله ! »

ولاشك أن مهمّة الإمام هنا ، عسيرة أشدّ العُسْرِ ، إذ كان يقاتل فى ظروف مختلفة اختلافاً بيّناً ، عن تلك التى كان يقاتل فيها المشركين والكافرين بين يدى الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

كان يقاتل بين يدى النبىّ ، مسترشداً بهديه ، مستنصراً بنصر الله له !

وهو اليوم يقاتل عن رأيه ، وفى حدود مدركاته !

كان بالأمس يقاتل قوماً مشركين ، كافرين ، وهو اليوم يقاتل مسلمين ، ومؤمنين !

كان بالأمس يقاتل فى مطلع رسالة ، تزداد كلّ يوم علوًّا ، وقوة ، وتمكناً وسعة ، وامتداداً !

وهو يقاتل اليوم ، والدعوة قد بدأت تميل نحو الغروب ، وأخذت حرارتها تبرد فى القلوب !

إن محاولة الإمام فى الإمساك بحرارة الإيمان فى قلوب المؤمنين ، لم تكن لتتمّ إلا برسالة سماوية مجدّدة ، وذلك مالم يكن ، ولن يكون !

---

(١) أى القرآن .

لقد كانت الأيام حرباً على الإمام ، وكان الزمن أعدى أعدائه ، وأشدهم أثراً فى انتكاس أمره ، وفلّ حدّه !

فكل يوم يمضى ، كان يأخذ من أتباع الإمام ، ومن أوليائه ، كما يأخذ من عمره .. حتى إذا كاد يستوفى أجله ، لم يكن فى الميدان أحد غيره !

فإذا قضى الامامُ نحبَه ، كان ذلك إيذاناً بأن شمس النبوّة قد غربت ، وأن آخر شعاعة من شعاعاتها قد توارت ، ولن تعود !

ونعم ، فإنه بموت الإمام علىّ — كرم الله وجهه — انتهى عهد ، وجاء عهد .. انتهى عهد النبوّة ، وجاء عهد الفترة ! وإنه بموت الإمام مضى دور وجاء دور .. مضى دور الخلافة الراشدة ، وجاء دور الملك والسياسة !

* * *

خاتمة

نرى من الوفاء بحقّ هذا البحث ، وقد انتهينا إلى غايته ، أن نقف وقفة قصيرة عند أمرين ، لا يكاد المرء يفرغ من هذا البحث ، حتى يجد لهما وَسْواساً فى صدره وبَلْبالاً فى خاطره ، أو اضطراباً فى أمر دينه ومعتقده ! .

فأولا : هذه الحرب التى وقعت بين المسلمين فى فترة النبوّة ، وكان على رأسها جماعة من صحابة رسول الله ، فيهم أهل السابقة فى الدين والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله كعلىّ ، وطلحة والزبير ، وعمار بن ياسر ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وغيرهم . .

فكيف بهؤلاء الصّفوة الأخيار يحارب بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا ، وهم بُناة الدين ، وشموسه المضيئة فى المسلمين ؟ .

ثم لم كانت هذه الحرب ؟ وما حظ الدين أو الدنيا منها ؟ .

وثانياً : هذا الصراع الذى كان بين الدين والدنيا ، وبين أهل الدين وأصحاب الدنيا . . كيف يستعلى فيه الباطل على الحق ؟ وكيف تنهزم فيه المثل العليا ، وتسقط رايتها ، فى معركتها الأولى ، مع من يستخفون بتلك المثل ، ويتخفّفون من مئونتها ؟ .

وسننظر فى هذين الأمرين ، كلٌّ على حدة ! .

أولا : القتال بين المسلمين

هذه قضية ، كثر القول فيها ، واختلفت الآراء حولها ، فأنكر بعضهم أن يكون بين المسلم والمسلم ، قتال ، لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ،

وماله ، وعرضه » بل لقد ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فأخرج المتقاتلين من الإسلام ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول فى النار ! فقيل هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال : كان حريصاً على قتل صاحبه ! » .

والذين نظروا فى القضية من هذا الوجه ، كانوا يمدّون أبصارهم إلى هذا القتال الذى وقع بين صحابة رسول الله فى حرب الجمل وصفّين ، وما قتُل فيهما بأيدى هؤلاء الصحابة أو بأيدى أنصارهم ! إذ كان ذلك أولَ قتال بين المسلمين ، ومع أهل السابقة ، وأصحاب الفضل فيهم .

وقد كانَ من شأن هذا القتال ، الذى وقع بين هؤلاء القمم العالية ، من أصحاب رسول الله — كان من شأنه أن يجعل ذلك أمراً من أمور الناس ، وشأناً من شئون الحياة ، وأنه ليس للناس — مهما بلغوا من الإيمان والتقوى — قدرةٌ على التحول عن طبائعهم ، وما يقع بين هذه الطبائع من اختلاف ! وأنه إذا كان الصحابة لم يقدروا على تسوية ما وقع بينهم من خلاف ، إلا بالاحتكام إلى السيف ، فإن ذلك معناه أنه لو وقع بين المسلمين قتال ، لم يكن ذلك — على ما فيه من إثم وحرمة — الذى يُخرج المسلم عن إسلامه ، وإلا كان العَنَتُ والحَرج ، والتكليف [illegible] لاق ، والله سبحانه وتعالى يقول : «وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ويقول سبحانه « لا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعَها » وإن مما لا تتسع له النفس البشرية أن تتجرد من نوازع المشاقة والاختلاف ، وأن تُحمل على الوفاق والمشاكلة ، فى كل زمان ، وعلى أى حال ! — ولكن بدلاً من أن يكون هذا القتال الذى وقع بين الصحابة ، داعية إلى قبوله ، والتسليم به كأمر واقع فى الحياة — كان سبباً قوياً إلى إنكاره ، والمبالغة فى هذا الإنكار ، إذ كان الرأى فى الصحابة أنهم فى عصمة ، أو شبه عصمة

من أن يلمّوا بالصغائر ، فكيف بهذا الجرم ، الذى تنكره ، وتجرّمه جميع الشرائع السماوية والوضعية جميعاً ؟ .

والصحابة ــ قبل كل شىء ــ بشر ، يعيشون على أرض البشر ، وفى دنيا الناس ، وهيهات أن يُسالمهم الناس ، إذا هم سالموا الناس ! .

وهل أَمِنَ الأخيارُ سطوةَ الأشرار ؟ وهل سَلِم المعافَوْن فى دينهم ، وفى خلقهم ، من تطاول أهل السفاهة والبغى عليهم ؟ .

فماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يلقى من قومه ما لَقِى من ضروب الضُرِّ ، وأفانين الأذى ؟ وماذا فعل الأنبياء ، ودعاة الإصلاح ، ليكونوا فى وجه العداوة والبغضة ، عند مَن يمدّون إليهم أيديهم بالهداية والرشاد ؟ .

أن يَسْلَمَ الناسُ منك ، أمرٌ مستطاع ، مقدور عليه . . أمّا أن تسْلَمَ أنت من الناس ــ وأنت مع الناس ــ فذلك هو المستحيل الذى لا سبيل إليه ! .

ويسأل سائل : أيحلّ قتال المسلمين ؟ .

والجواب ، لا ، وبلا تردد ! .

ولكن ليس كل ما يكره وقوعه لا يقع ، وليس كل ما لا يحلّ فعله لا يُفعل ! .

وفى الشرّ خيار . . !!

وقد يُدفع الشر بالشرّ ، وقد يُدفع بالشر ما هو أكثر شراً منه ! .

القتال على جميع صُوَره شرّ . . !

ولكنه قد يبدو فى مقابل شر آخر ، عملاً مبروراً ، يرفع أصحابه إلى مقام الصديقين والشهداء ! .

فالقتال فى سبيل الله . . بين المسلمين والكافرين ، هو فى ذاته وجه كريه وشر ظاهر . ولكنه يدفع شراً مستطيرا وبلاء عظيما ، هو الكفر ، الذى دونه الموت شناعةً ، وشؤماً على صاحبه ! .

وبعض السُّمّ ترياق لبعض ... وقد يشفى العُضَال من العُضَال

والقتال حين يكون بين طائفتين من المسلمين بَغَت إحداهما على الأخرى ، هو أمر كريه شنيع ! ولكنه ـ على كراهيته وشناعته ، يدفع فتنة ، ويردع مفتونين ! .

وفى الشرّ نجـاة حيـ ـنَ لا ينجيك إحسانُ

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : «وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلِحوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تَفِيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين[1] » .

يقول : فسّاهم مؤمنين ، مع الاقتتان !! وبهذا استدلّ «البخارى» على أنه لا يَخرج المؤمنُ عن الإيمان بالمعصية ، وإن عظُمت ، لا كما يقول الخوارج ، ومن تابعهم من المعتزلة .

« وكذا ثبت فى صحيح البخارى ، عن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خطب يوما ، ومعه على المنبر ، الحسنُ بن على ، رضى الله عنهما ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى الناس أخرى ، ويقول : «إن ابنى هذا سيّد ، ولعلّ الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . .

---

(١) سورة الحجرات .

فكان كما قال صلى الله عليه وسلم . . أصلح الله تعالى به أهل الشام ، وأهل العراق ، بعد الحروب الطويلة ، والواقعات المهولة[1] » .

وقال ابن حزم ، فى كتابه « المحلّى فى » شرح هذه الآية : « فكان قتال المسلمين فيما بينهم على وجهين : قتال البغاة ، وقتال المحاربين .

« فالبغاة قسمان ، لاثالث لها . . إمّا قسم خرجوا على التّأويل فى الدين فأخطئوا فيه ، كالخوارج ، وما جرى مجراهم ، من سائر الأهواء المخالفة للحق .

« وإما قسم أرادوا لأنفسهم دنيا ، فخرجوا على إمام حق ، أو عَلَى من هو فى السيرة مثلهم .. فإن تعدّت هذه الطائفة إلى إخافة الطريق ، أو إلى أخذ مال من لَقوُا ، أو سفك الدماء هَمَلاً ، انتقل حكمهم إلى حكم المحاربين ، وهم مالم يفعلوا ذلك فى حكم البغاة ! »[2]

وقال الشوكانى ، فى نيل الأوطار :

« قال فى الفتح[3] : « وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصرة الحق ، وقتال الباغين .. وحَمَل هؤلاء[4] ، الأحاديثَ الواردةَ فى ذلك[5] ، على مَنْ ضَعُفَ عن القتال ، أو قصُرَ نظرُه عن معرفة صاحب الحق . . واتفق أهل السنّة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة ، بسبب ماوقع لهم من ذلك ، ولو عُرف المحقُّ منهم .. لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب ، إلا عن اجتهاد ، وقد عفا الله عن المخطىء فى الاجتهاد ، بل ثبت أنه يُؤجر أجراً واحداً ، وأن المصيب يُؤجر أجرين .

« قال الطبرى : « ولو كان الواجب فى كل اختلاف يقع بين المسلمين ، الهربَ منه ، بلزوم المنازل وكسر السيوف ، لما أُقيم حق ، ولا أُبطل باطل ، ولوجد أهل الفسوق سبيلا إلى ارتكاب المحرمات . . من أخذ الأموال ،

---

(١) تفسير ابن كثير ــ الجزء الرابع « الحجرات »
(٢) المحلى . لابن حزم .. جزء ١١ ص ١١١ . (٣) فتح القدير : العسقلانى .
(٤) أى جمهور الصحابة والتابعين . (٥) أى فى النهى عن قتال المسلمين .

وسفك الدماء . وسبي الحرائر ، بأن يحاربوا هم ، ويكف المسلمون أيديهم ويقولوا : « هذه فتنة . وقد نُهينا عن القتال فيها ! » وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدى السفهاء ! »

« قال الحافظ بن كثير : ومن ثَمَّ كان الذين توقفوا عن القتال ، فى الجَمل وصفّين ، أقلَّ عدداً من الذين قاتلوا ، وكلهم متأول مأجور . . بخلاف من جاء بعدهم ، ممن قاتل على طلب الدنيا . »

ثم يعلق الشوكانى على رأى « الحافظ » فيقول : « وهذا يتوقف على نيات جميع المقتتلين فى الجمل وصفين ، وإرادة كل واحد منهم الدين ، لا الدنيا ، وصلاح أحوال الناس ، لا مجرّد الملك ، ومنافسة بعضهم لبعض ، مع علم بعضهم بأنه المبطل ، وخصمه المحق . . ولاسيما فى حق من عَرَف منهم الحديث الصحيح ، أنها تقتل عمارًا الفئة الباغية ، فإن إصراره بعد ذلك على قتال من كان معه عمار ، معاندةٌ للحق ، وتمادٍ فى الباطل ، كما لا يخفى على منصف ! »(1)

من هو الصحابى :

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى حقيقة ربّما كان إغفالها فى هذا المقام ، يُلْبِس الأمر فى مفهوم « الصحبة » ، ويفسد المعنى المقصود بالصحابى ، وفى هذا مافيه ، من تشويش على صحابة رسول الله ، الذين عناهم الرسول الكريم بقوله : « أصحابى كالنجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » وقوله : « اللهَ اللهَ فى أصحابى . . » وهؤلاء الصحابة الذين عناهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يذكرهم بأسمائهم ، واحدًا واحدًا . . ولهذا اتسعت دائرة الصحبة حتى شملت كلَّ من لقى رسول الله ، ولو مرة واحدة ! كما يقول بذلك البخارى ، وغيره !

ومن هنا دخل فى مجتمع أصحاب رسول الله أقوام لم يكونوا أهلاً لتلك الصحبة ، بل لم يكونوا أهلاً للانتساب إلى الإسلام ! !

---

(1) نيل الأوطار للشوكانى : ٧ : ٢٠٠ .

فهذا عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، أسلم قبل الفتح ، وهاجر إلى المدينة ، وكان من كتاب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قد ارتدّ مشركا ، وعاد إلى مكة يحدّث قريشاً الكذبَ عن رسول الله ، ويقول : كنت أصرّف محمداً حيث أريد . . كان يملى عليّ : « عزيز حكيم » فأقول : أو « عليم حكيم » ! فيقول : نعم ، كلٌّ صواب ! !

وفيه نزل قول الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ، أو قال أوحى إلىّ ، ولم يُوحَ إليه شىء .. الآيات »

فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه .. ثم شفع فيه عثمان رضى الله عنه !

وهذا ثعلبة بن أبي حاطب .. كان ممن شهد بدراً وأحداً !

وكان ثعلبة من فقراء المهاجرين ، ومن المجتهدين فى العبادة . . وقد سأل رسولَ الله أن يدعو الله ، أن يرزقه مالاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ياثعلبة ! قليلٌ تشكره ، خير من كثير لاتطيقه » .

فقال ثعلبة : « والذى بعثك بالحق نبيًا لئن دعوتَ اللهَ فرزقنى مالا لأعطينَّ كلَّ ذى حق حقه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارزق ثعلبة مالا »

فكثر ماله كثرة شغلته عن العبادة ، وألهته عن ذكر الله ، ثم مازال يبعد عن الإسلام شيئاً شيئاً ، حتى منع الزكاة ، بعد أن ترك الصلاة ، وفيه نزل قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقَنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله ، بخلوا به ، وتولّوا ، وهم معرضون ، فأعقبَهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقَونَه ، بما أخلفوا الله ماوعدوه ، وبما كانوا يكذبون »(١)

وكثير ممن كانوا فى مجتمع الصحابة مع رسول الله ، كانوا يظهرون الإيمان ، ويُخفون مافى قلوبهم من كفر ، ونفاق .. وفيهم نزل قول الله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله ، والله يعلم إنك لرسوله ،

(١) سورة التوبة : ١٧٧

والله يشهد إن المنافقين لكاذبون [١] » . . وقوله سبحانه : « ومنهم الذين يُؤذون النبىّ ويقولون هو أُذُنٌ ، قل أُذُنُ خيرٍ لكم » . . وقوله جل شأنه : « وممّن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة . . مَرَدُوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذّبهم مرتين ، ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم [٤] »

وقد لَحِق الرسول بالرفيق الأعلى ، وانقطع الوحى الذى كان ينزل بما يفضح المنافقين ومَن فى قلوبهم مرض ، فبقى حال كثير من هؤلاء دون أن يُكشف لهم ستر ، وحُسب كثير منهم فى صحابة رسول الله ، يلْقى الناس بهذا الشرف العظيم ، ويمسك به فى قوة ، دون أن يعطى تلك الصحبة حقها من الإيمان الوثيق بالله ، والاستقامة على طريق الحق ، والخير !

مِثلُ هؤلاء هم الذين أردنا أن ننبه إليهم هنا ، وأن نفرّق بينهم وبين صحابة رسول الله ، الذين كانوا أهلا للانتساب إلى الرسول ، والانتفاع بصحبته والاستقامة على طريقته !

وبهذا نعرف قدرَ الصحبة ، ونضع الصحابى موضعه الصحيح ، الذى ينبغى أن يكون له فى قلب كل مسلم !

فهناك صحابة ذكرهم الرسول ذِكراً خاصاً ، وكشف عما لهم عند الله من رضًى ورضوان ، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة ! فهؤلاء فوق كل حساب ، وكل عتاب !

أمّا من لم يكن على تلك الصفة ، ولم يكن لرسول الله فيه قول قاطع بعدالته، وسلامته ، فهو فى معرض النظر والتمحيص ، وفى مجال التعديل أو التجريح ، والحمد أو الذم .. شأنه فى هذا شأن الناس جميعاً .. لا تشفع له الصحبة أو تدفع عنه اللّوم أو الذم ، إن هو فعل مايوجب لوماً أو ذمًّا ، بل إن صحبته ،

---

(١) سورة المنافقون : ١ (٢) سورة التوبة . ٦١

(٣) سورة التوبة : ١٠١

أو لقاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجعلُ صغائر أموره كبائر ، إذ لم يحسن الانتفاع بتلك الصحبة ، ولم يرعَ لها حقها .. فهو لهذا أولى الناس باللوم، إن هو فعل مايوجب اللوم ، وأحقهم بالمؤاخذة إن قارف مايؤاخذ عليه !

إن مما يُزَكِّي الصحبة، أن يكون معها من الإحسان والتقوى أكبر قدر تتسع له النفس البشرية ! ثم بقدر ما فى نفس الصحابىّ من تقوى وإحسان تكون منزلته بين الأخيار من صحابة رسول الله ، ومكانته فى الإسلام وفى المسلمين.. يقول الله تعالى فى أصحاب الرسول،الذين أثخنتهم الجراح يوم أحد ، ثم لم يَقعدْ بهم ذلك عن حمل السلاح ، حين دعاهم رسول الله ، إلى الخروج ، واقتفاء العدوّ . . « الّذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح ، للّذين أحسنوا منهم واتقَوْا أجر عظيم[1] » .. فليست الصحبة ، وليس القتال فى سبيل الله ، والتعرض للقتل ، مما يؤهل الإنسان لهذا الأجر العظيم ، وإنما ذلك لمن فعل هذا ، ثم أحسن واتّقى ، ولزم الإحسان والتقوى ! .

ويقول الإمام ـ علىّ كرّم الله وجهه ـ فى معرض الحديث عن الذين يكذِبون على رسول الله ، ويتسترون وراء صحبتهم له ، واتصالهم به ـ يقول :

« إن فى أيدى الناس حقًا وباطلا ، وصِدْقًا وكذبًا ، وناسخًا ومنسوخًا ، وعامًّا وخاصًّا ومُحكمًا ومتشابها ، وحفظًا ووهْمًا . . ولقد كُذِبَ على رسو الله صلى الله عليه وآله وسلم ، على عهده ، حتى قام خطيباً فقال : « من كَذَب علىّ متعمِّداً ، فليتبوّأ مقعده من النار » .

ثم يذكر الإمام أصناف رواة الأحاديث ، ونقلة الأخبار ، فيقول :

« وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ، ليس لهم خامس :

« رجل منافق ، مُظْهِر للإيمان ، متصنّع للإسلام لا يتأثّم ، ولا يتحرج ، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً !! فلو علم الناس أنه منافق

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٢ .

كاذب لم يقبلوا منه ، ولم يصدّقوا قوله . . ولكنهم قالوا : صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، رأى وسمع منه ولقِفَ عنه ، فيأخذون بقوله ، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ، ووصفهم بما وصفهم به لك ، ثم بقُوا بعده ، عليه وآله السّلام ، فتقربوا إلى أئمة الضلالة ، والدعاة إلى النار : بالزّور والبهتان ، فولّوهم الأعمال ، وجعلوهم حُكّاماً على رقاب النّاس ، وأكلوا بهم الدنيا ، وإنما الناس مع الملوك والدنيا ، إلا من عصم الله ... »[1] .

* * *

والذى نريده من هذا الحديث هو أن نعرف من هو صاحب رسول الله ، المستأهل لشرف هذه الصحبة ، الحفيظ على تمثّل جلال النبوة وعظمتها ، الحريص على اتباع هَدْى النبىّ واقتفاء أثره . . فهذا هو الصحابى الذى نرعى له حقّ الصحبة ، وقد رعاها ، ونرفع قدره وقد رفع هو نفسه بها .

أما من صحب رسول الله ، أو رآه ، أو سمع منه ، ولم يكن له نصيب من نفحات النبوة وطيبها ، يجده الناس فى قوله وفى عمله ، فليس بصاحب رسول الله ، ولو طالت صحبته ، وأدخل نفسه ، أو أدخله الناس فى مجمع الصحابة !

وبهذا نعرف وجوه أصحاب رسول الله ، ولا نرتاب فى أمرهم ، ولا ندع شيئاً من دخان هذه الفتنة ينعقد فى سمائهم الصافية المشرقة ! .

فطلحة والزبير ، وإن اختلفا مع الخليفة ، وقاتلاه ، هما بالمنزلة التى وضعهما الرسول فيها ، وعلى الوصف الذى وصفهم به ! إنهما من أهل الجنّة ، وللجنّة عملوا !! .

وسعد بن أبى وقاص ، وإن أمسك عن البيعة ، فشأنه فى هذا شأن علىّ حين أمسك عن بيعة أبى بكر . كانت له حجته ، كما كانت لعلىّ حجتّه ! .

فهؤلاء الثلاثة ممن قد وُعدُوا بالجنّة ، وسبقت لهم من الله الحسنى ، لن يعملوا إلا ما كان حسناً طيباً ، يُدنى من الجنّة ، ويُزلِفُ إليها ، مصداقاً

---

(١) الإمامة والسياسة : ١ : ٢٣٠ .

الحديث « . اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له [1]» .

أما غير هؤلاء من صحابة رسول الله ، ممن لم يُبَشَّروا بالجنة ، فليس لهم هذا الحساب ، الذى يرفع أعمالهم عن الحساب والمناقشة ، بل إن لنا أن ننظر فى أعمالهم ، ونعرضها معرض النظر والبحث ، ونزنها بميزان الحمد أو الذم والإحسان أو الإساءة .

وإذن ، فلا نأسى كثيراً ولا نسىء الظن بأصحاب المثل العليا ، حين نشهد خلال تلك الفتنة أناساً ممن كانت لهم صحبة ، قد زلّوا ، أو ضلّوا ، أو لجّوا فى الضلال ! ! فشأنهم فى هذه شأن سائر الناس ، فى كل زمان وفى كل موطن ! .

* * *

وإذن أيضاً ، فلا نتحرَّج من قولة الحقّ ، نقولها صريحة ، فى هذا الخلاف الذى كان بين علىّ ومعاوية ، وأن نرى معاوية فى هذا الموقف الذى وقفه من علىّ ، وفى هذه الحرب الطاحنة التى لقيه بها خارجاً على سلطان الخلافة ، يريد لنفسه سلطاناً ، ويقيم له ولقومه دولة ! .

هذا هو ما تنطق به الأحداث ، وتفصح عنه صحف التاريخ !

ولكنّ ما كان لمعاوية من صحبة قد جعل كثيراً من العلماء والفقهاء يحاولون أن يسوّوا هذا الخلاف الذى كان بينه وبين علىّ على وجه مقارب ، لا يُعرف فيه المحقّ من المبطل ، ولا مَن كان مع الدِّين ومن كان مع الدنيا ! .

فابن حزم الأندلسى ، مع ما عرف من جرأته ، وصراحته ؛ يحكم فى هذه القضية حكماً مشوباً بالغموض والتعمية . . فيقول :

« وإنما كان الحق فى ذلك بيد علىّ ، لا بيده (أى معاوية) ، وإنما كان معاوية مجتهداً مخطئاً ، مأجوراً فقط ! ! »[2] .

وماذا نقول لابن حزم ؟ وهل هو فى حاجة إلى من يقول له فى المضلات ؟ فكيف بالبَدَهيَّات ؟ .

---

(١) صحيح مسلم : ٨ / ٤٧ (٢) المحلى لابن حزم : ١١ ١٢٩ .

وهل نجرؤ أن نقول لابن حزم : « إنه لا اجتهاد مع النص » وهو مبدأ فقهى يردّده ابن حزم فى كل مسألة يعرض لها ؟ .

وهل نجرؤ أن نقول : إن ابن حزم غاب عنه النص هنا ؟ أذلك ممكن أن يكون ؟ ومع ابن حزم ؟ .

وهل نصٌّ أصرحُ وأبينُ من «عمار بن ياسر» ؟ ألم يجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم آيةً على الفئة الباغية ، التى تتولى قتله ، وعلماً منصوباً على البغاة الذين يقتلونه ؟ .

فهل يكون معاوية ، وقد قتلتْ فئته عماراً — هل يكون مجتهداً ؟ .

وهل يحتاج الأمر - بعد هذا - إلى اجتهاد ؟ ، إنه لا اجتهاد مع النص » كما يقرر ذلك الفقهاء ، وعلى رأسهم ابن حزم ! .

وإن ابن حزم لم يغبْ عنه شىء من هذا ، ولكنه — فيما أرى — لم يشأ أن يثير عليه ثائرة العوام ، الذين يتولّون جميع الصحابة بالرضا ، وخاصة إذا كان هذا الصحابى من بنى أمية الذين أقاموا دولة الأندلس ، التى كان ابن حزم من أبنائها ، وبين أهلها !

وهذا الموقف نفســه وقفه ابن خلدون ، الذى لا يقلّ عن ابن حزم ألمعيةً ، وذكاء ، ونفاذ بصيرة .

يقول ابن خلدون :

« ولما وقعت الفتنة بين علىّ ومعاوية ، وهى مقتضى العصبية ، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ، ولم يكونوا فى محاربتهم لغرض دنيوى ، ولا لإيثار باطل ، أو لاستشعار حقد ، كما قد يتوهم متوهّم أو ينزع إليه ملحد ! ! وإنما اختلف اجتهادهم فى الحق ، وسفّه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق ، فاقتتلوا عليه ! !

ثم يقول ابن خلدون :

« وإن كان المصيب علياً ، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل »

وإنما قصد الحق وأخطأ ، والكل كانوا فى مقاصدهم على حق!![1] » .

وأى حق هذا ؟ إن يكن من واردات السياسة ، وتدبير الملك فذلك ممكن أن يكون له محمل على هذا الوجه . . أما أن يكون هذا الحق من وحى الدين ولحساب الدين ، فذلك ما لا يكون ! ! .

لقد أقام معاوية بهذا الحق دولة ، ومَلَكَ ملكاً ، جعله ليده ، ولأبنائه ، وأهله من بعده ، يتوارثونه كما يتوارث الأبناء ما ترك آباؤهم من مال ومتاع ! وفى سبيل ذلك ركب معاوية كل صعب وذلول ، وسلك كل قويم ومعوج ، يصل به إلى غايته التى تغيّاها ، ورصد لها كل حول وحيلة !

وعلام قاتل عمرو ابن العاص ؟ ألم يقتسم مع معاوية المُلك المقبل ، فذهب بملك مصر ، سلطاناً وخراجاً ، لا يرجع إلى الخليفة فى أمر من أمورها ، ولا يدفع إليه من خراجها قليلا أو كثيراً ! ؟

أ كان ذلك اجتهاداً فى سبيل قضية من قضايا الدين ، أم كان سعياً وراء مطلب من مطالب الدنيا ، وحاجة من حاجات النفس ؟

* * *

ومع هذا فإننا لا نلوم معاوية أو عمراً ، ولا نحملهما تبعة ما تفرضه الحياة فى تطورها وتقلبها ، فقد كانا ابنىْ زمانهما ، بل كانا وجه الطليعة الطيبة فى هذا الزمان ، الذى بدأ يأخذ طريقه من القمة إلى السفح ، ومن السماء إلى الحضيض !

ثانياً — بين الدين والدنيا

والأمر الآخر الذى نريد أن ننبّه إليه هنا ، هو هذا الصّراع الذى كان بين الدين والدنيا ، وبين أهل الدين وأصحاب الدنيا ، وكيف استعلى فيه الباطل على الحق ، واستولت به الدنيا على دولة الدين ؟

لاشك أن علىّ بن أبى طالب — كرم الله وجهه — كان على رأس طائفة

(١) مقدمة ابن خلدون ١٣٤ .

الحق ، المبغىّ عليها ، وأن معاوية ، كان رأس الفئة الباغية ، وأن ذلك إن يكن فيه شيء من الشك قبل مقتل عمّار بن ياسر ، فإنه قد أصبح يقيناً بعد مقتله ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار : «إنما تقتلك الفئة الباغية» وقد قتله معاوية وأصحابه ! فهم الفئة الباغية ، رأىَ العين . . وقد ظلوا على موقفهم بعد مقتل عمار ، وتأولوا لذلك هذا التأويل الساحر : فقالوا « نحن لم نقتله ، وإنما قتله الذين أخرجوه ! ! » وهل أخرج عمار قسرًا ، حتى يكون لهذا التأويل مايستر بعض وجهه المفضوح ؟

إن عماراً أكبر من أن يكون تبعاً لأحد ، فى أى أمر يتصل بدينه ، وما يمتحن به هذا الدين !

ومن جهة أخرى ، فقد رأينا عليًا يلتزم طريق الحق فى كل خطوة يخطوها فى الحرب بينه وبين معاوية ، على حين رأينا معاوية يتوسل بكل وسيلة ، ويضرب بكل سلاح ، فى سبيل كسب المعركة ! حتى انتهى الأمر إلى خدعة المصاحف ، وتحكيم الحكَمَيْن ، وما انتهى إليه أمر هذا التحكيم !

وليس بمنكور فى هذه الحياة أن يُهزم الحق فى بعض معاركه مع الباطل ، فالحقّ والباطل ، فى صراع متصل متلاحم ، ينتصر هذا مرة ، وينتصر ذاك أخرى ، ولو كان النصر لأحدها ، ضَرْبةَ لازب ، لانتهى هذا الصراع القائم فى الوجود منذ الجولة الأولى ، ولكن ريح الحياة ، ولخمدت جذوة الكفاح ، التى تدفع مواكب الناس فى ازدحام متلاحم !

إنّ الحياة ، على هذا الكوكب الأرضى محكومة بهذا الصراع الأبدىّ ، بين قوى الخير والشرّ ، فى ميزان تتراجح كفّتاه ، وتضطربان ، هكذا أبدًا.. صعودًا وهبوطاً ، وذلك هو سرّ الحركه المولّدة لكل ثمر فى دنيا الناس !

وهزيمة الحق فى أروع مظاهره وأكملها ، ليست بالتى تُنقص من قَدْره ، أو تقلل من خطره ، وإنما ذلك دليل على أنه قد بلغ الغاية فى دَوْرته ، وأنه استكمل كل مظاهر وجوده ، وأنه كما أخذ طريقه صعوداً ، سيأخذ نفس الطريق

نزولا .. حتى تتم دورة كاملة من دورات الزمن، ثم ليبدأ دورة جديدة، وهكذا .

والصراع الذى كان بين علىّ ومعاوية كان التحاماً بين دورتين من دورات الحياة، دورة الدين وقد بلغ ذروته، واستكمل وجوده، ودورة الدنيا وقد بدأت تأخذ الأفق الذى احتله الدين، وتُجليه عنه .. إنها أشبه بدورة الليل والنهار .. يتناسخان . ويتعاقبان ! !

كان معاوية مقدمة طبيعية للحياة المقبلة . التى لم يكن للدولة الإسلامية . بدٌّ من المصير إليها .. تلك الحياة التى تختلط فيها عند الناس مشاعر الدين بالدنيا، والتى كلما مضى الزمن بها، غلبت الدنيا على الدين، شيئاً شيئاً، حتى تجليه عن مكانه من القلوب ! ثم تكون للدين دولة، وتقوم بعدها للدنيا دولة، وهكذا دواليك !

ونحن إذ ننظر إلى معاوية، وإلى عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وغيرهم ممن عدُّوا فى الصحابة — إذ ننظر إليهم فى مواجهة عليّ بن أبى طالب أو فى مقابلة وعثمان، أو عمر أو أبى بكر، رضى الله عنهم — فإننا ننكر عليهم كثيراً من أمورهم، ونعدّ أية صغيرة منهم، كبيرة، منكرة، شنعاء !

ولكن إذا نظرنا إلى معاوية ومن كان على طريقته فى مواجهة الخلفاء الذين جاءوا من بعد، من أمويين، وعباسيين — لانستثنى غير عمر بن عبد العزيز — رأيناهم فى منزلة أشبه بالمنزلة التى للخلفاء الأربعة الراشدين بالنسبة لهم !

فلقد استبدّ الخلفاء والوزراء، والحجاب، بأموال الدولة، واستباحوا المحرمات، فى غير تحرج أو تأثم .. حتى أن البيت الحرام ليهدم بيد الحجاج الثقفى ويُرمى بالمجانيق، فتتساقط جُدره، وتحرق ستره، ويتحول إلى كومة من

تراب ! وحتى لتستباح مدينة الرسول وأهلها أكثر من مرة ، وحتى ليُقتل الأطفال ، تشفياً وانتقاماً !

وإذن فالمعركة التي كانت بين عليّ ومعاوية ، لم تكن بين الدين والدنيا ، بقدر ماهى بين دورتين من دورات الحياة ، الغَلَبُ فيها لمن كان متقبلا للدورة المقبلة ، متجاوباً معها ، متزيّياً بزيّها !

وإن لكل زمن دولته ورجاله ، وفى الأثر : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ! » فمن عاش فى غير زمنه ، عاش غريباً ، وبات على حافة الضياع والهلاك !

ولكن مع هذا فإن مايقوم على الحق ، باقٍ ، لايزول ، وإن زال أهله ، وذهب القائمون عليه ، وذلك فيما يخلّف وراءه من مُثُلُ كريمة ، فى الاستعلاء على نزعات النفس ، والغلبة على أهوائها .. وبهذا يظل أصحاب هذه المثل أحياء فى هذه الحياة ، يذكرهم الناس أبدا ، ويجدون فى ذكراهم أنسًا فى كل وحشة ، وعزاء عند كل مصاب !

أفليس ذلك بالجزاء الحسن لأهل الحق ، وأنصاره . ؟ أو ليس ذلك هو النصر الأكبر ، الذى يُزْرى بكل نصر فى ميدان القتال ، من أجل ملك زائل أو سلطان ذاهب ؟

وانظر كيف انتهى الأمر بعليّ وشيعته من جهة ، ومعاوية وأشياعه من جهة أخرى . . !

لقد وَلِيَ بنو أمية الملك ، وامتدّ ملكهم نحو تسعين عاماً ، كان أكبر همّهم فيها التّعفية على آثار عليّ وآل بيته .. واستخدموا لهذه الغاية كل سلاح، وتوسلوا إليه بكل وسيلة ، وأجلبوا عليه بكل قوة ، وإذا بهم وكأنهم إنما يرسخوّن فى قواعد هذا البناء ، ويزيدونه علوّا إلى علو ، وامتداداً إلى امتداد !

لقد أقام معاوية وخلفاؤه من بعده ، من بنى أمية ، منابر يتناوب عليها الخطباء فى سبّ علىّ ، وفى افتراء الأباطيل للنيل منه ، والزراية عليه ، فما نالوا من ذلك منالاً ، ولا حوّلوا أحداً عن حبّه ، والولاء له ولآل بيته ، على تعاقب الأزمان ، واختلاف العصور !

يقول أبو جعفر الإسكافى ، فى كتابه : نقض رسالة العثمانية للجاحظ :

« فكانوا (الأمويون) لا يألون جُهداً فى طول مُلكهم ، أن يُخملوا ذِكْرَ علىّ عليه السلام ، وولدِه ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ، ومناقبهم ، وسوابقهم ، ويحملوا على سبّهم ولعنهم على المنابر . . فلم يزل السيف يقطر من دمائهم ، مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم ، فكانوا بين قتيل ، وأسير ، وشريد ، وهارب ومُستخْفٍ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى أن الفقيه ، والمحدّث والقاصّ ، والمتكلم ، ليُتَقَدَّم إليه ، ويتوعّد بغاية الإيعاد ، وأشدّ العقوبة ، ألا يذكروا شيئاً من خصائصهم ، ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم ، وحتى بلغ من تقيّة المحدّث ، إذا ذكر حديثاً عن علىّ بن أبى طالب — عليه السلام — كنىّ عن ذكره ، فقال : قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر علياً ، ولا يتفوّه باسمه !

« ثم إن جميع المختلفين ، قد حاولوا نقض فضائله ، ووجهوا الحِيَل والتأويلات نحوها .. من خارجىّ مارق ، وناصبى حَنِق ، وناشىء معاند ، ومنافق مكذِّب ، وعثمانى حسود ، يعترض فيها[٢] ويطعن ، ومعتزلى ، قد نظر فى الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ، وعرف الشُّبَه ، وموطن الطعن ، وضروب التأويل — قد التمس الحيل فى إبطال مناقبه ، وتأويل مشهور فضائله

(١) التقية مايتقى ، ويخاف .

(٢) أى فى فضائله .

فمرة يتأولها بما لا يحتمل ، ومرة يقصد أن يضع من قدره بقياس منتقص ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ، ووضوحًا واستنارة !

ثم يقول أبو جعفر أيضاً :

« وقد علمتَ أن معاوية ويزيد ، ومن جاء بعدهما ، من بنى مروان ، أيام ملكهم ، لم يَدعُوا جَهْدًا فى حمل الناس على شتمه ، ولعنه ، وإخفاء فضائله وستر مناقبه وسوابقه .

« روى عن عبد الله بن ظالم أنه قال : لما بويع لمعاوية ، أقام المغيرةُ بن شعبة خطباء ، يلعنون عليًّا .. فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : « ألا ترون إلى هذا الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ؟

« وعن أبى بكر بن عبد الله الأصبهانى ، قال : كان لبنى أمية دَعِيّ ، يقال له ، خالد بن عبد الله (القسرى) ، لايزال يشتم علياً ، فلما كان يوم الجمعة وهو يخطب الناس قال : والله إنْ كان رسول الله ليستعمله ، وإنه ليعلم ماهو ، ولكنه كان خَتَنَه[1] ! ! وقد نعس سعيد بن المسيب ، ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكمْ ! ماقال هذا الخبيث ؟ رأيتُ القبر انصدع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كذبتَ ياعدوّ الله ! »

« وقال ابنٌ لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده : « يا بُنيّ . . لاتَذكر عليًّا إلا بخير ، فإن بنى أميـة لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزده الله بذلك إلا رفعـــة !

«إن الدنيا لم تبن شيئاً قط إلا رجعت عليه فهدمته ، وإن الدين لم يبْنِ شيئاً قط وهدمه !

---

(١) أى صهره .

ثم يقول أبو جعفر : « فحرصوا واجتهدوا (أى بنو أمية) فى إخفاء فضائله ، وحملوا الناس مع كتمانها وسترها ، وأبى الله إلا أن يزيد أمره وأمر ولده استنارة وإشراقاً ، وحبهم إلا شغفاً وشدة ، وذكرهم إلا انتشاراً وكثرة ، وحجتهم إلا وضوحاً وقوة ، وفضلهم إلا ظهوراً ، وشأنهم إلا علواً ، وأقدارهم إلا إعظاماً ، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء ، وبإماتتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشر ، تحول خيراً ، فانتهى إلينا من ذكر فضائله ، وخصائصه ، ومزاياه ، وسوابقه ، ما لم يتقدمه السابقون ، ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا لحقه الطالبون . . ولولا أنها كانت كالقبلة المنصوبة فى الشهرة ، وكالسُنَن المحفوظة فى الكثرة لم يصل إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ، إذ كان الأمر على ما وصفناه ! ! »[1] .

وشهادة الواقع ناطقة ، لا تحتاج إلى ترجُمان .

فهؤلاء آل البيت ، فى كل صفحة من صحف التاريخ الإسلامى ، يُفيضون فى الناس فقههم وحكمتهم ، وأدبهم . . لهم فى كل علم ، وفى كل فنٍّ مكانُ الصدارة والقدوة ! وهم ليسوا إلا ثمرة هذا الغِراس الطيب ، الذى مسّه طيب النبوّة ، وسرت فيه أعراق هذا الميراث الكريم فى أبناء علىّ وفاطمة رضى الله عنهما ! .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لعلىّ بن أبى طالب :

« يا علىّ . . لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق[2] » .

---

(١) رسالة أبى جعفر الإسكافى . فى نقض رسالته العثمانية للجاحظ . . ص ١٥ (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ، للسندوبى) .

(٢) وفى رواية : « لا يحبك منافق ، ولا يبغضك مؤمن » .

فحبّ عليّ علامةُ صحّةٍ لإيمان المؤمن وسلامته ، إذ كان من رسول الله بمنزلة الأخ ، الذى يحمل معه عبء رسالته ، ويشدّ أزره فيها ، كما يقول الرسول الكريم : « أما ترضَى أن تكون منّى بمنزلة هرون من موسى . . إلا أنه لا نبى بعدى ؟ » .

فحبّ عليّ من حبّ رسول الله ، وحبّ رسول الله من تمام الإيمان بالله ! . .

أمّا من كان فى قلبه دَخَلٌ ، وفى صدره ضيق وحرج من دين الله ، فإنه يلبَسُ الإسلام تقيّةً ، ويأخذه مظهراً ، ثم لا يجد ما ينفس به عن شنآنه للإسلام ، واستخفافه به — وهو مع هذا محسوب فى المسلمين — إلا بُغضَ مَن يحبّه رسول الله ، وانتقاص من يُكرمه ويُدنيه منه ! ففى هذا النفاق عاش ويعيش أولئك الذين يحادّون الله ورسوله ، ويؤذون أولياء الله ورسوله ! .

أما من خَلصَ قلبُه من النفاق فإنه لا يجد فى قلبه إلا الحبّ الوثيق ، والولاء المكين لآل رسول الله ، وصحابته ، الذين صحبهم ، ورضى صحبتهم ، وفى مقدمة هؤلاء وهؤلاء جميعاً ربيبه وابن عمّه ، وزوج ابنته ، ووالد ولديه الحسنِ والحسينِ .. عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وأكرمنا بحبّه ، وحبّ آل بيت رسول الله ، وصحابته .

« وقل الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، ورضى الله عن آل بيت رسول الله ، وعن صحابته والتابعين ، وتابعيهم إلى يوم الدين . « وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » .

* * *

مراجع البحث

● نذكر هنا أهم المراجع التى كانت تحت نظرنا فى إعداد البحث . .

أولا : كتب التفسير :

— تفسير الطبرى
— « ابن كثير
— « الزمخشرى
— « القرطبى

ثانياً : كتب الحديث :

— صحيح البخارى
— « مسلم
— سنن أبى داود
— المحلى .. لابن حزم
— الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة .. للشوكانى
— نيل الأوطار

ثالثاً : كتب التاريخ والسير :

— وفيات الأعيان لابن خلكان
— جوامع السيرة لابن حزم
— المعارف لابن قتيبة
— أنساب الأشراف للبلاذرى
— الطبقات الكبرى لابن سعد
— الكامل لابن الأثير
— أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير
— الإمامة والسياسة لابن قتيبة

— السيرة　　لابن هشام
— تاريخ الأمم والملوك　　الطبرى
— مغازى الرسول　　للواقدى
— الرياض النضرة فى مناقب العشرة　　للمحب الطبرى
— رسالة العثمانية　　للجاحظ
— الرد على رسالة العثمانية　　لأبى جعفر الإسكافى
— تاريخ اليعقوبى
— تاريخ ابن أعثم
— الفتنة الكبرى　　للدكتور طه حسين (عثمان ، وعلى وبنوه)
— أحاديث أم المؤمنين وعائشة . . .　　لمرتضى العسكرى
الإمام جعفر الصادق　　لأسد حيدر

رابعاً : كتب أدبية وعقائدية :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب　　لشهاب الدين النويرى
— العقد الفريد　　لابن عبد ربه
— معجم الأدباء　　لياقوت الحموى
— الأغانى　　لأبى الفرج الأصفهانى
— نهج البلاغة　　شرح الإمام محمد عبده
— نهج البلاغة　　شرح ابن أبى الحديد
— البيان والتبيين　　للجاحظ
— الكامل　　للمبرد
— الأموال　　لأبى عبيدة
— الخراج　　لأبى يوسف
— الملل والنحل　　للشهرستانى

موضوعات الكتاب

المبحث الأول

حياة علىّ فى صحبة الرسول

الباب الأول

الباب الثانى

فى موكب الدعوة

الموضوع | الصفحة

المبحث الثانى

حياة علىّ — فى صحبته من بعد الرسول —

الباب الأول

الباب الثانى

مع عثمان

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ — قضية الألوهية . . بين الفلسفة والدين . . كتابان :

الكتاب الأول . . الله ذاتاً وموضوعاً

« الثانى الله . . والإنسان

٢ — النبى محمد صلى الله عليه وسلم : إنسان الإنسانية ، ونبى الأنبياء

٣ — إعجاز القرآن . . كتابان :

الكتاب الأول . . الإعجاز فى دراسات الأقدمين

« الإعجاز فى مفهوم جديد

٤ — القضاء والقدر . . بين الفلسفة والدين

٥ — السياسة المالية فى الإسلام

٦ — عمر بن الخطاب . . الوثيقة الخالدة ، للدين الخالد

٧ — من الحقل الإسلامى

٨ — الدّعاء المستجاب

٩ — فى طريق الإسلام . . دراسة كاشفة للمعوقات التى تحجز المسلمين عن ثمرات الإسلام

١٠ — القصص القرآنى

١١ — محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)

١٢ — الخلافة والإمامة . . ديانة وسياسة

١٣ — نشأة التصوف

١٤ — الأدب الصوفى . . فى مفهوم جديد

١٥ — التعريف بالإسلام ـ ترجم إلى الانجليزية (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية)

١٦ — المسيح . . فى القرآن ، والتوراة والإنجيل

تحت الطبع

أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه .

